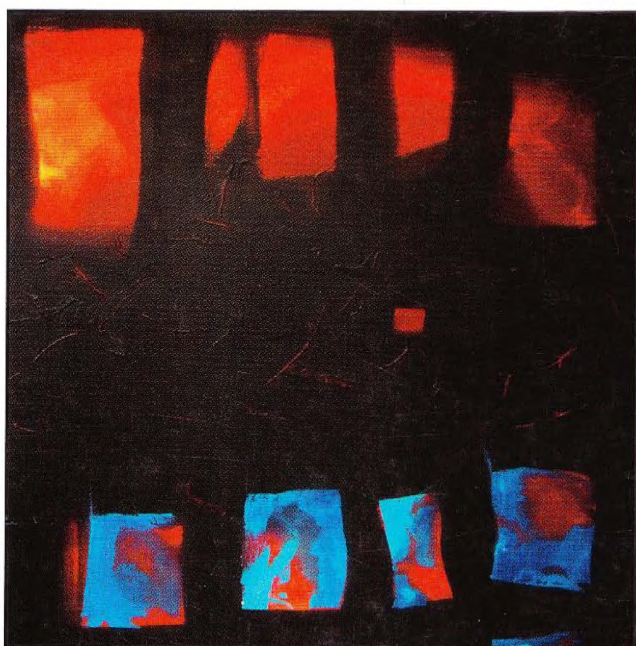
خوليو كورتاثار

الرابحون

رواية



ترجمة: عدنان محمد

علي مولا



الرابحون

• خوليو كورتاثار
• الرابحون
• ترجمة: عدنان محمد

• الطبعة الأولى 2007
• موافقة وزارة الإعلام رقم 96051
• الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

خوليو كورتاثار

الرابحون

«روايــة»

ترجمة: عدنان محمد

العنوان الأصلي للكتاب
Les Gagnants

وُلد خوليو كورتاثار عام 1914 في بروكسل من أبوين أرجنتينيين، وأمضى طفولته ويفاعته في الأرجنتين. عمل معلّماً ثم مترجماً، وها هو يعيش في فرنسا منذ نحو ثلاثين سنةً. حصل على جائزة ميديتشي للكتّاب الأجانب عام 1974 عن روايته الرابعة: «كتاب مانويل». وفي عام 1976 حصل على جائزة النسر الذهبي الكبير لمدينة نيس عن مجموع أعماله.
اثنتا عشرة روايةً من رواياته تُرجمت إلى اللغة الفرنسية.

مقدمة

يُعدّ الروائي الأرجنتيني خوليو كورتاثار قنّاصَ الأدب. ولكونه حالةً استثنائيةً تمثّل التمرّد الدائم ضد الأماكن المشتركة وسلبية العقل، فقد أعاد الحياةَ للكلمة إذ خلق لغتَه الخاصة. سخريته اللاذعة والمدمّرة، ورؤيته المأساوية للإنسان الحديث، وقلقه الأنطولوجي المرتبط بملاحظةٍ حادةٍ لليومي خلقا من الحكايات العادية روايةً متحرّكة وميتافيزيقية، وخيالاته تعالج مشكلات الإنسان الأمريكي الحالي، وترفعها إلى المستوى العالمي. سبق كل معاصريه من كتّاب أمريكا اللاتينية في المخاطرة بالتجديد وهرب من التسميات وقدّم، بحسب رأي أحد النقّاد الأمريكيين: «أكبر موسوعة من المشاعر والرؤى ظهرت عند جيل الكتّاب العالميين بعد الحرب».

ولد في بروكسل عام 1914، وعمل معلّماً للمرحلة الابتدائية ثم مدرّساً للمرحلة الثانوية في الريف الأرجنتيني. ونظراً لعدائه للبيرونية تخلّى عن كرسي جامعي، واهتمّ بالغرفة الأرجنتينية للكتاب في بوينس آيرس ، ثم أنهى في زمن قياسي دراساته في الترجمة واستقرّ في باريس عام 1952. عمل مع اليونيسكو وسافر إلى جميع بلدان العالم.

الرابحون تجمعهم المصادفة على متن السفينة مالكولم، ويتواجهون في فضاء هذه السفينة المغلق. فيظهر الجو الغريب منذ بداية الرواية. ولكن هذه الرحلة البحرية توازيها رحلة أخرى

داخلية لكل مسافر نحو المواجهة مع نفسه بحثاً عن تحقيق ذاته. ويضاف إلى الأهمية النفسية والسوسيولوجية بعدٌ ميتافيزيقي بفضل «المناجيات» التي يقوم بها بيرسيو، والذي يعطي من الواقع رؤيةً أكثر بنيويةً وشعرية.

يمتزج المضحك بالمبكي في هذه الرواية ذات المستوى الرفيع، والتي تقدّم في الوقت نفسه رسماً ذكياً وجديداً للواقع الأرجنتيني.

المترجم

تمهيد

1

فكّر كارلوس لوبيز: «خرجَت المركيزةُ عند الساعة الخامسة».
ثم تساءل: «أين قرأتُ هذه العبارة بحقّ الشيطان؟» حدَث ذلك في *لندن*، جادّة مايل، وكانت الساعة الخامسة وعشر دقائق. في أي كتابٍ كانت المركيزة قد خرجت عند الساعةَ الخامسة؟ هزّ لوبيز رأسَه ليطرد هذه الذكرى غير المكتملة ثم تذوّق بيرته.

قال د. ريستيللي وهو ينظر إلى كأسه:

ـ عندما يُخرجونك من عاداتكَ تصبح كسمكةٍ على العشب. أنا مشتاق لكأس متّتي الذي أشربه عند الساعة الرابعة، فما العمل؟ انظر إلى هذه السيدة التي تخرج من المترو. لا أعرف إن كنتَ تستطيع أن تراها، فثمةَ خلقٌ كثير. انظر، إنها تلك الشقراء. تُرى هل سنلتقي في رحلتنا اللطيفة هذه بمسافراتٍ بهذه الشقرة وهذه الخفة؟

أجاب لوبيز:

ـ سيكون ذلك أمراً مستغرَباً، فأجمل النساء يركبن دائماً سفينةً أخرى.

ردّ د. ريستيللي:

ـ يا للشباب الشكّاك! لقد أمضيتُ سن الجنون. وإن كان يحصل لي أن أفسق قليلاً بين وقتٍ وآخر، لكني ما أزال أحتفظ بتفاؤلي كاملاً. وهكذا فأنا واثقٌ من أننا سنلتقي بفتيات جميلات، كثقتي من أني وضعتُ زجاجات كونياك في حقيبتي.

قال لوبيز:

ـ سنرى إن كانت هذه الرحلة ستتم. وبمناسبة الحديث عن النساء، هذه امرأة تستحقّ أن تُدير رأسَكَ ستين درجةً نحو شارع فلوريدا. ستوب! لقد وصلتَ. إنها تلك الفتاة ذات الثوب الأحمر، التي تتكلّم مع الرجل ذي الشعر الطويل. يبدوان وكأنهما سيُقلِعان معنا، رغم أنني لا أعرف كيف يجب أن يبدو المرءُ آنئذ. هل نطلب كأساً آخر من البيرة؟

وافق د. ريستيللي بحركةٍ من رأسه. قال لوبيز لنفسه: «إنه يبدو وكأنه يشبه السلحفاة تماماً، بياقته هذه وربطة عنقه هذه». كان يضع نظارة بلا ماسكين، الأمر الذي يعرّض للخطر الانضباطَ في الثانوية التي يعلّم فيها مادة التاريخ (ولوبيز مادة الأدب)، ولقد كلّفه مظهرُه وتعليمُه هذان بعضَ الألقاب التي تبدأ من «القط الأسود» لتصل إلى «المراكبي» ثم فكّر لوبيز بخبث: «وأنا؟ ترى أية ألقاب يطلقونها عليّ؟» فكر بذلك وهو يعلم أن الطلاب اكتفوا بلقب: «لوبيز تَبَعْ البوط».

أجاب د. ريستيللي:

ـ مخلوقة جميلة. وسيكون من الممتع أن تشاركنا رحلتنا. ربما كانت هذه أفكار الهواء البحري والليالي المدارية. ولكن يجب أن أعترف أني أشعر وكأني عدتُ شاباً. بصحّتكَ يا زميلي العزيز وصديقي.

قال لوبيز وهو ينحني نحو كأس بيرته باحترام:

ـ بصحتكَ يا دكتوري العزيز ورفيق رحلتي.

د. ريستيللي يقدّر زميلَه وصديقَه مع بعض التحفّظ. إذ يجب القول إنه لم يكن على توافقٍ دائم مع لوبيز عندما صدرت النتائج الفصلية. فقد كان هذا يدأب على المبالغة في الدفاع عن الطلاب المتأصّلين في الكسل والأولاد السيّئين الذين ينسخون وظائفهم أو يقرؤون الجرائد بينما أنا أُفني نفسي في الحديث عن هزيمة

فيلكابوخيو (كما لو أنه من السهل إيجاد تفسير مشرّف للضربة التي وجّهها هؤلاء الإسبان غريبو الأطوار للجنرال بيلغرانو). ولكن، ماخلا هذا الجانب البوهيمي لدى لوبيز، فهو زميلٌ ممتازٌ، دائماً على أهبة الاستعداد للاعتراف بأن شرف إلقاء خُطب 9 تموز يعود إلى د. ريستيللي. وينتهي الأمر دائماً بالدكتور بأن يتواضع وينصاع للالتماسات القلبية وغير المحقّة التي يوجّهها له المدير أو مجلس المدرّسين. يمكن التفاهم دائماً مع لوبيز، رغم أنه يُبدي أحياناً ليبراليةً مفرطة، تقترب من الشيوعية، وذلك أمرٌ لا يستطيع د. ريستيللي أن يتقبّله لدى أحد. ولكن، بالمقابل، فإن لوبيز يحبّ الغزل والفتيات.

دندن لوبيز:

ـ وكان عمركَ أربعة عشر نيساناً

عندما عرفتَ الحب

وملذّات التانغو

لماذا اشتريتَ بطاقةً يا دكتوري العزيز؟

ـ لقد رضختُ لإلحاح السيدة ريبورا. أنت تعرف مثلي، ياصديقي العزيز، أن تلك السيّدة عندما تضع أمراً في رأسها... هل أزعجتكَ، أنتَ أيضاً؟ ولكن يجب أن نعترف الآن بأننا مدينون لها.

ـ لقد أفقدتني صبري طوال ثماني استراحات. من المستحيل تحقيق نتيجة مع هذه المرأة التي تُكثِر من الحركة بلا فائدة. وما يثير السخرية أكثر هو أني لا أفهم لماذا تحرّكت كل هذه الحركة. ففي النهاية إنه يانصيب مثله مثل غيره.

ـ لا! أستميحكَ عذراً. لقد كان أمراً خاصّاً جداً.

ـ ولكن لماذا تكفّلت السيدة ريبورا ببيع البطاقات؟

أجاب د. ريستيللي بغموض:

ـ أعتقد أن هذا السحب كان موجَّهاً إلى جمهورٍ، لنقل، مُختار. لذا لجأت الدولة إلى خدمة السيدات، كما في بعض الحالات التاريخية. فمن المزعج أن يحتكّ رابحون من مستوى معين مع أشخاصٍ، لنقل إنهم من مستويات متدنّية.

ـ كما تقول. ولكن لا تنسَ أن من حق الرابحين أن يصطحبوا ثلاثة أفراد من أسرتهم.

ـ يا زميلي العزيز، لو استطاعت زوجتي المرحومة وابنتي مرافقتي، فأنا لا أرى فيم...

ـ طبعاً، طبعاً، الأمر مختلف بالنسبة إليك. ولكن لنتحدث بصراحة، لو أنني جُننتُ واصطحبتُ أختي، لرأيت كم سينخفض المستوى، إذا ما استخدمتُ تعبيركَ نفسه.

ـ لا أعتقد أن الآنسة أختك...

ـ وهي أيضاً لا تفكّر بذلك، ولكنها من تلك الفتيات اللواتي يقلن: «ممّ؟» ويعتقدن أن *تقيّأ* كلمة بذيئة.

ـ يجب أن أعترف أن هذه الكلمة قوية بعض الشيء. بالنسبة إليَّ، أنا أفضّل عليها كلمةَ *تجشّأ*.

ـ وهي تميل إلى *أعاد* أو *أرجع*. وما رأيكَ بطالبنا في كلّ هذا؟

انتقل د. ريستيللي من بيرته إلى الحنق الشديد. إنه لا يفهم كيف أن السيدة ريبورا، المملّة بكل تأكيد، ولكنها ليست عديمة الذكاء، والتي تحمل بالإضافة إلى ذلك اسماً معروفاً، استطاعت أن تتحمّس إلى درجة أن تبيع البطاقات لطلاب الصفوف العليا. إنها ضربة حظّ قوية لا نراها إلا في بعض القصص الملفّقة بلا شك، أو في كازينو مونت كارلو، شاءت أن يكون الطالب فيليبي تريخو من بين الرابحين إلى جانبهما، هو ولوبيز. طالب كسول، وبالإضافة إلى ذلك هو مسؤول عن بعض الأصوات الصمّاء التي كانت تُسمع في حصص التاريخ.

ـ صدّقني يا لوبيز، ما كان يجب أن يُسمح لهذا الأفّاق بأن يسافر معنا، هذا فضلاً عن أنه قاصر.

ـ لن يسافر معنا فحسب، بل سيصطحب أسرته كلّها. عرفتُ ذلك من أحد أصدقائي الصحافيين الذين ذهبوا لإجراء مقابلات مع بعض الرابحين.

مسكين ريستيللي. هذا «القط الأسود» المحترم المسكين. سوف يطارده شبحُ المدرسة الثانوية طوال الرحلة، ولن تفتأ ضحكة فيليبي تريخو المعدنية تخرّب عليه محاولاته في المغازلة، وإجراء المكالمات والبوظة بالشوكولاتة وتمرينات الإنقاذ، الممتعة دائماً. إذا عرف أني شربت البيرة مع تريخو وعصابته في ساحة أونز وأنهم هم الذين أطلعوني على ألقابه: «المراكبي» و«القط الأسود»... لن يتورّع ذلك المسكين عن تكوين فكرة سيئة جداً عن مهنة التدريس.

قال د. ريستيللي وهو يستعيد الأمل:

ـ ربما كانت تلك حسنة. فالأسرة مؤدِّبة، ألا تعتقد ذلك؟ ولكن كيف يمكنكَ ألا تعتقد ذلك؟

ـ انظر إلى هاتين التوأمين، أو شبه التوأمين، اللتين تمران في شارع بيرو. أتراهما؟

ـ لست أدري، هل تقصد اللتين إحداهما ترتدي الأبيض والأخرى الأخضر؟

ـ تماماً، وخاصة تلك التي ترتدي اللون الأبيض.

ـ إنها جيدة جداً. نعم، أمّ الأبيض. هممم! ساقاها جميلتان. ربما تبالغ في الغندرة. تُرى هل ستأتيان إلى الاجتماع؟

ـ لا يا دكتور. ألا ترى أنهما تبتعدان؟

ـ خسارة! كان لدي في الماضي صديقة تشبهها كثيراً.

ـ تشبه أم الأبيض؟

ـ لا، أم الأخضر. لن أنسى أبداً أنها... لا بد أنني أضجرك... لا أضجرك؟ إذاً أريد كأساً آخر من البيرة. ما يزال أمامنا نصف ساعة من الانتظار. كانت تلك الفتاة من أسرة كبيرة، وكانت تعرف أني متزوّج، ومع ذلك فقد ارتمت في أحضاني تماماً. عن تلك الليالي، يا ياصديقي...

ـ لم أشكّ قط في الـ*كاما سوترا* التي لديك. كأسان آخران من البيرة يا روبيرتو!

قال روبيرتو:

ـ الجميع ظمآنون جداً اليوم. وهذا بسبب الرطوبة في الهواء. على كل حال، لقد أعلنت الجريدة ذلك.

ردّ لوبيز:

ـ ما دامت الجريدة قد أعلنت ذلك، فهو صحيح. أعتقد أني بدأت أتعرّف إلى رفاق رحلتنا. انظر يا دكتور، وستتعرّف إليهم أيضاً. لهم هيئتنا نفسها: إنهم نصف مستمتعين، ونصف مشكّكين.

سأل د. ريستيللي:

ـ لماذا هم مشكّكون؟ لا مسوّغ لمخاوفكَ أبداً. أنتَ تعرف أن المرساة ستُرفَع عند الساعة المحدَّدة على قفا البطاقة. والدولة هي التي تدير اليانصيب، وهذا ليس أي حفل تومبولا. فقد بيعت البطاقات في أوساط محترمة، ولا مجال للاعتقاد بأن مفاجآت سيئة ستحدث.

ـ أنا معجب بثقتك بالنظام البيروقراطي. من الواضح أنه يتلاءم مع نظامك الداخلي، إذا سمحتَ لي باستخدام هذا المصطلح. أما أنا، الذي يشبه عقلي حقيبةَ البائع المتجوّل، فلا أثق بشيء أبداً. هذا لا يعني أني أشكّك بهذا اليانصيب بالتحديد، رغم أني تساءلتُ أكثر من مرة إن كان هذا سينتهي نهاية قضية *خيلريا*.

ـ قضية خيلريا، من المحتمل أنها كانت قصة وكالة يهودية. لا شيء سوى الاسم، إذا ما أمعنّا تفكيرنا في ذلك... لا تظنّن أني معادٍ للسامية. لا، أنا بعيد عن ذلك، ولكن ما يحيّرني هو تلك السرعة التي استطاع أن يتسلّل بها ذلك الجنس بيننا. بصحتك!

قال لوبيز وهو يكبت رغبةً في الضحك:

ـ بصحتك. هل حقاً خرجت المركيزة عند الساعة الخامسة؟

رأى رؤوساً مألوفةً بالنسبة إليه تأتي وتذهب من باب جادة مايو. غاص محدِّثُهُ في فترةٍ من التأمّلِ، الإتنوغرافي بكلّ تأكيد، فاستفاد من ذلك وأخذ ينظر حوله بانتباه. كل الطاولات تقريباً مشغولة، ولكن قلّة هم الزبائن الذين لهم هيئة المسافرين. تعثّرت مجموعةٌ من الفتيات بخطوةٍ وهنّ خارجات، فوجّهن ضحكاتٍ ونظراتٍ صغيرة نحو مراقبين ومعجَبين محتَمَلين. توجّهت امرأةٌ يصحبها بضعةُ أطفال نحو الصالون ذي الأسمطة المطمئِنة حيث يوجد بضع نساء وبضعة أزواج يتناولون الكاتو والأشربة بهدوء. دخل شاب (هه، هذا نعم، هذا بالتأكيد) مع فتاة رائعة (وكيف!) جلسا بقربه. كانا عصبيَّين، يتبادلان النظرات بطريقةٍ تصطنع طبيعيةً تفضحها أيديهما المضطربة بالعلب وبالسجائر. جادة مايو تُظهِر فوضاها الأبدية. بعضهم يصرخ: «آخر طبعة»، ومكبّر صوت يمتدح محاسن *أومو* تحت نور الساعة الخامسة بعد الظهر المسعور(ساعة كاذبة، ككل شيء يصل مبكّراً جداً أو متأخراً جداً)، ورائحة ممتزجة بالوقود وبالإسفلت المحروق وبماء الكولونيا وبالنشارة المبلّلة تدبّق وجهكَ ويديك. استغرب لوبيز كيف وجد ذاتَ لحظةٍ يانصيبَ السياحة هذا تافهاً. وحدَها عادةٌ طويلة لبوينس آيرس ـ لئلا نقول أكثر، ولئلا نسقط في الميتافيزيقا ـ هي التي تستطيع أن تجعل المشهد الذي يحيط بك ويحتويك معقولاً. فرضية العماء الأكثر عماءً تشحب أمام هذا المزيج المختلط بخمسٍ وثلاثين درجةً في الظل، وبالذهابات والإيابات واللقاءات والقبعات والحقائب الجلدية،

والأموال والطبعات الأخيرة الدائبة وعربات التروللي، ناهيكَ عن هذه البيرة، كل شيء متشابك في جزء يسير من الزمن، وكل شيء متغيّر تغيّراً مدوِّخاً. المرأة ذات التنورة الحمراء والرجل ذو السترة ذات المربّعات يلتقيان في اللحظة التي رفع د. ريستيللي كأسه إلى شفتيه، وفي اللحظة التي أخرجت الفتاة الرائعة (هي كذلك حتماً) علبة أحمر الشفاه من محفظتها. الآن، المسافران يديران ظهريهما أحدهما إلى الآخر، ينزل كأس البيرة بهدوء ويرسم القلمُ الكلمةَ المكرَّرة ألف مرة. كيف كان لوبيز سيجد، في الحقيقة، هذا اليانصيبَ تافهاً؟

2

طلب لوسيو:

ـ فنجانين من القهوة.

أضافت نورا:

ـ وكأساً من الماء من فضلك.

فقال لوسيو:

ـ إنهم يقدّمون دائماً الماء مع القهوة.

ـ صحيح.

ـ كما إنكِ لا تشربينه أبداً.

ـ ولكني عطشى اليوم.

قال لوسيو وهو يغيّر من نبرته:

ـ نعم، الطقس حارّ هنا.

ثم مال إليها وأضاف:

ـ تبدين متعَبَة!

ـ أنتَ تعرف، الأمتعة، والتحضيرات...

ـ أنتِ متعبة، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ستنامين جيداً هذه الليلة.

ـ آمل ذلك.

يقول لوسيو الأمورَ الأكثر براءةً بلهجة تعلّمت أن تفهمها. من المؤكَّد أنها لن تنام جيداً هذه الليلة لأنها ستكون أول ليلةٍ لها مع لوسيو، أو بالأحرى ثاني أول ليلة.

قال وهو يداعب يدها:

ـ يا قطتي الصغيرة.

تذكّرت نورا فندق بلغرانو وليلتَها الأولى مع لوسيو، ولكنها في الحقيقة لم تتذكّر، بل نسيت قليلاً. قالت له:

ـ يا أزعر!

ترى هل وضعت أحمر الخدود في محفظتها؟

قال لوسيو:

ـ القهوة لذيذة. هل تعتقدين أن أبويكِ لم يلاحظا شيئاً؟ الأمر لايهمّني، ولكن من أجل تجنّب التعقيدات.

ـ أمي تظن أني في السينما مع موشا.

ـ سيُفتضح الأمر غداً.

ـ لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً. ولقد تمنّيا لي عيد ميلاد سعيداً... إني أفكّر بأبي. بابا ليس شرّيراً، ولكنه يفعل كل ما تريده أمي. هو مثل الآخرين.

ـ الطقس يزداد حرارةً هنا.

ـ أنتَ عصبي.

ـ لا، ولكني أفضّل أن أكون على متن السفينة. ألا تستغربين أن يأتوا بنا إلى هنا أولاً؟ أعتقد أنهم سيأخذوننا إلى المرفأ بالحافلة.

ـ أتساءل عمَّن سيكون في هذه الرحلة. هذه المرأة التي ترتدي الأسود، أليس كذلك؟

ـ لا، لا تبدو مسافرة. ربما هذان اللذان يتحدّثان على تلك الطاولة.

ـ لا بد أن هناك أكثر من ذلك بكثير، عشرون على الأقل.

ـ أنتِ شاحبة قليلاً.

ـ هذا بسبب الحرارة.

ـ لحسن الحظ أنه سيكون بوسعنا أن نستريح من الصباح حتى المساء. آمل أن نحصل على مقصورة جيدة.

ـ مع ماء ساخن.

ـ نعم، ومع مروحة ونافذة ومقصورة تطلّ على الخارج. هل قلتُ لكِ إن زملاءنا في المكتب سيأتون ليودّعونا؟

ـ ليودّعو «نا»؟ هل هم على علم؟

ـ لا، ليودّعو «ني»، هم ليسوا على علم بشيء. الوحيد الذي تكلّمتُ معه هو مدران. نستطيع أن نثق به. ثم إنه سيسافر معنا، فمن الأفضل أن نخبره مسبقاً.

ـ لا تقل إنه ربح، هو أيضاً! هذا لا يصدَّق!

ـ لماذا أنتِ جميلة؟

أجابت وهي تدع لوسيو يمسك بيدها ويضغط عليها:

ـ هكذا.

ككل مرةٍ يحدّثها فيها لوسيو عن كثب، تتخذ هيئةً ساهمة وهي تقوم ببعض الممانعات الخفيفة لئلا تعذّبه كثيراً. نظر لوسيو إلى الفم الذي يبتسم له وينفرج عن أسنان صغيرة وبيضاء جداً (في الداخل، هناك سن ذهبية)، ليتهما يحصلان على مقصورة جيدة هذا المساء، وليت نورا تستطيع أن تنام جيداً هذه الليلة... فثمة أشياء كثيرة يجب محوها (في الحقيقة، ليس هناك من «شيء» يجب محوه إلا إذا كان ذلك الـ «شيء» الذي بلا معنى والذي لا تريد نورا أن تتخلّى عنه). لمح مدران يدخل من باب شارع فلوريدا مع شخص آخر له هيئةُ مَن يسكنون الضواحي وامرأة ذات صدار من الدانتيل. أراحه ظهور زميله فأخذ يلوّح بحركات كبيرة. رآه مدران فاتّجه نحوه.

3

المترو ليس بهذا السوء، وخاصة عندما يكون الطقس حاراً. عشر دقائق من محطة لوريا إلى محطة بيرو، وهذا الزمن كافٍ لاستنشاق الهواء النقي وإلقاء نظرة على كريتيكا. الأمر الأصعب كان في تحضير الأمتعة دون إثارة أسئلة بيتينا. لقد تذرّع مدران باجتماع لخرّيجي كلية طب الأسنان القدامى. كان قد اختلق كثيراً من الأعذار منذ أن صدرت نتيجة هذه التومبولا بحيث أن الكذبة الأخيرة بدت بلا داعٍ. بقيت بيتينا في السرير، عاريةً تماماً، مبعثرةَ الشعر بسبب المروحة، تقرأ بروست بترجمة ميناساشيه. لقد مارسا الحب طوال الفترة الصباحية، وفي أثناء الفواصل شربا الكوكا كولا. وبعد أن أكلا فرّوجاً بارداً، تكلّما عن أعمال مارسيل إيميه وعن أشعار إيميليو بالاغاس وعن صرف الدولار. عند الساعة الرابعة استحمّ مدران وعادت بيتينا إلى قراءة بروست (بعد أن مارسا الحب للمرة الأخيرة). في المترو، أخذ يراجع ذهنياً نشاطاته خلال ذلك النهار، وهو ينظر إلى أحد التلاميذ يغني لحناً صعباً، فوجد محصّلةً إيجابية. يوم السبت يمكنه أن يبدأ.

أخذ ينظر إلى كريتيكا وهو مستغربٌ استمرارَ تفكيره ببيتينا. في الليلة السابقة، كتب رسالة الوداع (التي يطيب له أن يسميها رسالة ما بعد الموت) وبيتينا نائمة ورجلها خارج اللحاف وشعرها يغطّي عينيها. لقد شرح فيها كل شيء ـ طبعاً ما خلا الأسباب الجيدة التي ستجدها لتعارضه ـ. بالطريقة نفسها، كان قد قطع علاقاته مع سوزان دانري حتى دون أن يضطرّ إلى مغادرة البلاد، كما هي الحال الآن. وكلّما كان يقابل سوزان (بصورة رئيسية في معارض الرسم، قدر بوينس آيرس) كانت تبتسم له كما تبتسم لصديق قديم دون أي أثر للندم أو للحنين. تخيّل نفسه داخلاً إلى صالة للرسم وملتقياً وجهاً لوجه بإحدى الـ «بيتينات» الجميلات والمبتسمات. لا تكون إلا مبتسمة. ولكن بيتينا ذهبت بلا شك إلى روش حيث تنتظرها، بكل براءة، أسرتها الطيبة ومنصب مدرسة آداب.

قال مدران:

ـ الدكتور ليفينغاتون، على ما أعتقد؟

قال لوسيو:

ـ أعرّفكَ بمارسيل مدران. تفضّل بالجلوس، هل تتناول شيئاً؟

ضغط مدران قليلاً يد نورا الخجولة ثم طلب كأس مارتيني صافياً. وجدته نورا أكبر سنّاً من أن يكون صديقاً للوسيو. إنه يقارب الأربعين من عمره، لكنه يرتدي بأناقةٍ جمّةٍ بزّةً إيطالية من الحرير فوق قميص أبيض. لن يتعلّم لوسيو أبداً أن يلبس بهذه الأناقة حتى لو صار يملك المال.

قال لوسيو:

ـ ماقولك في هؤلاء الأشخاص جميعاً؟ لقد حاولنا أن نخمّن من هم الرابحون. أعتقد أن قائمة بالأسماء صدرت في الصحف، ولم أتمكّن من رؤيتها.

قال مدران:

ـ لحسن الحظ أن القائمة غير مكتملة. فقد أُغفلت فيها أسماء بعض الأشخاص، من أمثالي أنا، ممن أرادوا عدم ذكر أسمائهم تحاشياً للدعاية أو للكوارث العائلية.

ـ هذا ناهيك عن المدعوين.

قال مدران وهو يفكّر ببيتينا النائمة:

ـ صحيح. هه، إني ألمح كارلوس لوبيز مع شخص له هيئة محترمة. هل تعرفهما؟

ـ لا.

ـ لقد غادر لوبيز النادي منذ نحو ثلاث سنوات، قبل أن تنتسب إليه. هناك تعرّفتُ إليه. سوف أرى إن كان في الرحلة.

لوبيز في الرحلة. تصافحا وهما سعيدان بلقائهما في مثل هذه الظروف. قدّم لوبيز د. ريستيللي الذي قال إن وجه مدران ليس غريباً عليه. استفاد مدران من خلّو الطاولة المجاورة فدعا لوسيو ونورا للانضمام إليهم، الأمر الذي استغرق بعض الوقت، لأن تغيير المكان في *«مقهى لندن»* يثير حفيظة الموظّفين. نادى لوبيز روبيرتو فاحتجّ هذا ومع ذلك قام بالتبديل ثم وضع بيزو في جيبه دون أن يتكلّم.

بدأ الفتيان ذوو هيئة سكان الضواحي، الذين دخلوا في الوقت نفسه مع مدران، يلفتون الأنظار إلى وجودهم وأخذوا يطلبون أقداح البيرة بأصواتٍ عالية. لم يكن من السهل البدء بحديث في لحظةٍ يشعر الجميع فيها بالظمأ، وفي لحظةٍ يدخل الجميع إلى *«مقهى لندن»* مضحّين بآخر نفحة أوكسجين من أجل كأسٍ من البيرة أو من التونيك، يا للتعويض البائس! لم يعد هناك من فارق بين البار والشارع. الناس يزدحمون في الجادة جيئةً وذهاباً، يحملون العلب والحقائب، حقائب من الأشكال والألوان كافة.

سأل د. ريستيللي:

ـ تُرى هل كل الحاضرين هنا سيستمتعون معاً بالقيام بالرحلة الممتعة؟

أجاب مدران:

ـ سنحصل على هذه المتعة، وبالمقابل أخشى أن يأتي بعض هؤلاء المتجمّعين إلى يسارنا لينضمّوا إلى مجموعتنا.

قال لوبيز ببعض القلق:

ـ أُفٍّ! أتعتقد ذلك؟

قال لوسيو:

ـ وجوههم كوجوه أصحاب السوابق! إنهم لا يروقون لي. قد يتقبّل المرءُ أناساً في مباراةٍ لكرة القدم، أما على متن سفينة... !

تدخّلت نورا التي ظنت أن من واجبها أن تبدي أفكاراً متقدّمة:

ـ من يدري؟ قد يكونون في غاية اللطف.

وقال د. ريستيللي:

ـ الديمقراطية...

لكن صوته ضاع في ضجيج صادر من فم المترو. لا بد أن الجمهور المتجمّع قد تعرّف إلى شارة القبيلة فأخذ على عاتقه الرد، هذا بنهيق مرتفع العقيرة، وذاك بصفيرٍ يمزّق الآذان.

أضاف د. ريستيللي:

ـ من المؤسف أن نختلط بهؤلاء الرعاع.

قال مدران:

ـ كلامكَ صحيح جداً، هذا إذا لم أتساءل لماذا نحن مسافرون أصلاً؟

ـ عفواً؟

ـ نعم، ما حاجتنا إلى الإبحار؟

قال لوبيز:

ـ يا إلهي! سيكون من المضحك أكثر أن نبقى على اليابسة. أنا شخصياً، سعيدٌ جداً لأني ربحتُ هذه الرحلة مقابل مبلغ عشر بيزوسات. ولا تنسوا أن الإجازةَ المأجورةَ التي يمنحوننا إياها مبلغٌ كبير بحدّ ذاته. لا يمكننا أن نضيّع فرصةً كهذه.

أجاب مدران:

ـ أنا أعترف أن هذه الرحلة ليست بلا أهمية. فهي ستتيح لي، من ناحيتي، أن أغلق مقصورتي وألا أرى بعدُ أسناناً مسوَّسة لمدةٍ معينة. ولكنكم ستعترفون أن هذه القصة كلها... لقد خطر ببالي مرتين أو أكثر بأنها ستنتهي بطريقةٍ... اختاروا الصفةَ بأنفسكم لأن هذا هو الجزء الأكثر قابلية للتغيير في الحديث.

نظرت نورا إلى لوسيو الذي قال:

ـ أظن أنكَ تبالغ. إذا كان يجب رفض الجوائز كلها بحجة النصب المحتمل...

قال لوبيز:

ـ لا أظن أن مدران يفكّر بنصبٍ محتمل، بل هو يفكّر بالأحرى بأمرٍ ما في الجو، بمزحةٍ من العيار الثقيل. انظر يا دكتور، إن تلميذنا تريخو يجلس على بعد عدة أمتار من هنا مع أسرته العزيزة، لقد صار هذا المقهى أشبه بسفينة عابرة للأطلسي.

قال ريستيللي:

ـ أنا لن أفهم أبداً كيف تبيع السيدة ريبورا بطاقات للتلاميذ، وخاصة لتلميذٍ كهذا.

قالت نورا:

ـ الطقس يزداد حرارة، هلّا سمحتَ بطلب عصير الرمان؟

قال لوسيو:

ـ سنكون في حالٍ أفضل على متن السفينة.

قال ذلك وهو يلوّح بيده لروبيرتو المشغول جداً بطاولة المساطيل الذين يطلبون أشياء غريبة كسمك الميدية وسندويش النقانق وكؤوساً من النبيذ الأحمر، وكلّها مواد غير معروفة في هذا المقهى.

قالت نورا وهي تنظر إلى مدران نظرةً حانقة:

ـ نعم، آمل أن يكون الطقس أبرد.

ما قيل يُقلقها، أو بالأحرى يسبّب لها خوفاً من شيءٍ ما لا يمكنها الحديث عنه. أخذت تحس بألم في بطنها وتريد أن تذهب إلى المرحاض. كم بدا من العسير عليها أن تقف أمام هؤلاء الرجال جميعاً! ولكن ربما بوسعها أن تمسك نفسها، فقد يكون هذا ألماً عضلياً. ترى كيف ستكون مقصورتهما؟ هل ستكون بسريرين صغيرين جداً أحدهما فوق الآخر؟ هي تفضّل النوم على السرير العلوي. لكن لوسيو سيرتدي منامته وسيصعد هو الآخر إلى السرير العلوي.

سألها مدران:

ـ هل سافرتِ سابقاً في السفينة، يا نورا؟

إنه لأمرٌ جيدٌ أن يناديها باسمها الأول، فهو ليس خجولاً مع النساء. لا، أبداً، ما عدا ذلك الفصل الذي حصل على الدلتا، ولكن ذلك أمرٌ لا يُعتدّ به. وهو هل سافر سابقاً؟ نعم، قليلاً في شبابه (كما لو أنه أصبح عجوزاً الآن) إلى أوروبا والولايات المتحدة. كان الفرنك آنذاك بعشر سنتافوس، هل تذكر؟

قالت نورا وهي تودّ أن تبلع لسانها:

ـ لحسن الحظ أن التكاليف مدفوعة هذه المرة.

نظر إليها مدران بإعجاب، وكذلك فعل لوبيز، ولكنها لمست

لديه إعجابَ الحريص. وإذا كان الآخرون جميعاً بهذا اللطف فلا ريب أن الرحلة ستكون مدهشة.

شربت جرعةً من عصير الرمان ثم عطست، فابتسم لها مدران ولوبيز ابتسامةً تحميها. وأخذ لوسيو ينظر إليها وكأنما يريد أن يحميها من كل هذا الإعجاب. حطّت حمامةٌ بيضاء قليلاً على درابزين مدخل المترو، واحتفظت بهيئتها اللامبالية وسط كل هؤلاء الناس الذين يصعدون وينزلون. ثم طارت بالطريقة اللامبالية ذاتها التي حطّت بها. دخلت سيدةٌ تمسك بيد طفلٍ من الباب الداخلي. فكّر لوبيز: «أطفال في الرحلة، ولا بدّ أن هذا مسافر، إن كان هناك رحلة. ها هي الساعة تقارب السادسة، الساعة الموعودة. كم من أمورٍ تجري عند الساعة السادسة».

4

قال خورخي:

ـ لا بدّ أن البوظة لذيذة هنا.

قالت كلوديا وهي تنظر إلى ابنها نظرة متواطئة:

ـ أترى ذلك؟

ـ بالتأكيد، أرى ذلك، ولا سيما البوظة بالليمون والشوكولا.

ـ يا له من مزيجٍ فظيع، ولكن ما دمتَ تحبّه...

كراسي *«مقهى لندن»* ليست مريحةً أبداً، فهي تُرغم الأجسامَ على الاستناد بصورة شاقولية فظيعة. كانت كلوديا قد تعبت من إعداد الحقائب. وفي اللحظة الأخيرة أدركت أنها في حاجةٍ إلى كثير من الأمور فوَجَبَ على بيرسيو أن يذهب ليحضرها. والآن يمكنها أن تستريح تماماً. منذ زمن طويل وهي بحاجة إلى الراحة. قالت مصحِّحة وهي تلعب على الألفاظ: «منذ زمن طويل وأنا بحاجة إلى

التعب لكي أستريح بعده!» لن يتأخّر بيرسيو في الظهور؛ لابد أنه تذكّر في اللحظة الأخيرة أمراً ما يجب عليه أن يقفل دونه مفتاح غرفته الغامضة حيث يكدّس الكتب السرية والمخطوطات التي لن تُنشَر أبداً. يا له من مسكين بيرسيو! هو من يحتاج إلى الراحة. إذا كان هناك من أحد يستحقّ الاستفادة من اليانصيب فهو بيرسيو، المصحّح الدائم للنسخ عند كرافت، والمقيم في الأبنية الغامضة في الأحياء الغربية من المدينة، والمتنزّه الليلي في شوارع فلوريس. «سيستفيد أكثر مني من هذه الرحلة التافهة» قالت ذلك وهي تنظر إلى أظافرها، ثم أضافت: «مسكين بيرسيو!»

شرقت قهوتها فأحسّت ببعض التحسّن. هكذا ستذهب في الرحلة مع ابنها، متّخذة صديقاً قديماً في طريقها. ستذهب لأنها ربحت هذه الجائزة ولأن هواء البحر سيكون مواتياً لخورخي ولبيرسيو. عادت تفكّر بهذه العبارات وكرّرت: «هكذا...». ثم جَرَعتْ جرعةً من القهوة، فكّرت لحظةً ثم عادت. لم يكن من السهل عليها أن تندمج بما يحدث لها، وبما سيحدث. بين الذهاب لمدة ثلاثة أشهر أو طوال الحياة ليس ثمة من فارق كبير. وما همّها؟ إنها ليست سعيدةً، ولا تعيسة، هاتان الحالتان المتطرفتان هما اللتان تقاومان التغيير. سوف يواصل زوجها دفع أجر سكن خورخي في أي مكانٍ في العالم، أما بالنسبة إليها فثمة تلك المداخيل والترافلرز شيك.

سأل خورخي وهو يلعق بوظته:

ـ هل سيأتي معنا كل هؤلاء؟

ـ لا، ولكن يمكننا أن نخمّن إذا شئت. أنا أقول: هذه المرأة ذات الفستان الزهري.

ـ أوه، أترين ذلك؟ إنها قبيحة جداً.

ـ حسنٌ، لن نأخذها معنا. دوركَ الآن.

ـ السادة الجالسون على تلك الطاولة مع تلك الآنسة.

ـ ممكن جداً. يبدون لطيفين. هل معك منديل؟

ـ نعم يا أمي. أماه، هل السفينة كبيرة؟

ـ أظن ذلك. إنها سفينة خاصة على ما يبدو.

ـ ألم يرها أحدٌ بعد؟

ـ بلى، بكل تأكيد، ولكنها ليست سفينةً معروفةً.

قال خورخي بكآبة:

ـ إذاً ستكون قبيحةً. الجميل يُعرف من بعيد. بيرسيو! بيرسيو! أمي هذا بيرسيو!

ـ بيرسيو يأتي في الوقت المناسب؟ يبدو أن اليانصيب سيغيّر وجوه الأشياء!

ـ من هنا يا بيرسيو. ماذا جلبتَ لي؟

ـ أخباراً عن النجم.

نظر إليه خورخي نظرة فرح ومكث ينتظر.

5

بدا التلميذ فيليبي تريخو مهتمّاً جداً بما يجري على الطاولة المجاورة.

قال لوالده الذي يمسح وجهه بطريقة مميزة جداً:

ـ هل تعلم أن عدداً من هؤلاء الرجال سيأتي معنا؟

صرخت أمه:

ـ ألا يمكنكَ أن تتكلّم بصورة أفضل يا فيليبي؟ يا لهذا الصغير! ترى متى سيغيّر من عاداته السيئة؟

كانت بيبا تريخو تناقش قضايا المكياج مع مرآتها الصغيرة التي تستخدمها أيضاً كعاكس.

قال فيليبي وهو يكشّر:

ـ هؤلاء الحمقى، إذا شئتِ، يشبهون العاملين في سوق الهال.

قالت السيدة تريخو:

ـ أظن أنهم لن يذهبوا في الرحلة، ما عدا ذلك الزوج الذي يرأس الطاولة، والسيدة التي يبدو أنها أم الفتاة.

قالت بيبا:

ـ يبدون سوقيين جداً.

أكّد فيليبي:

ـ إنهم سوقيون إلى أقصى الحدود.

ـ أنتَ أبله!

ـ انظري إليّ يا دوقة ويندسور، أنتِ أيضاً تبدين مثلهم.

ـ كفى يا أولاد!

بدا فيليبي مستمتعاً بأهميته المفاجئة، وصار يستخدمها بحرص لكي تدوم. سوف يزعج أختَه ويدفّعها ثمن كل الفصول السابقة.

قالت السيدة تريخو:

ـ ثمة أناس يبدون كما يجب على الطاولات الأخرى.

لاحظ السيد تريخو:

ـ أناس يرتدون ملابس أنيقة.

فكر فيليبي: «إنهم ضيوفي» وأراد أن يصرخ فرحاً. «الرجل والمرأة العجوزان وهذه الفتاة التافهة، سأفعل ما أريد الآن». نظر إلى الطاولة الأخرى وانتظر أن ينظر أحدٌ إليه.

سأل رجلاً أسود فاحماً يرتدي قميصاً مخطّطاً:

ـ هل أنتَ مسافر في الرحلة؟

ـ ليس أنا أيها الشاب. لن يسافر إلا ذلك الشاب هناك مع أمه، وتلك الآنسة مع أمها أيضاً.

ـ وأنتَ؟ هل أتيتَ لتودّعهم؟

ـ تماماً. وأنتَ، هل أنتَ مسافر؟

ـ نعم، مع أسرتي.

ـ أنتَ محظوظ أيها الشاب.

ـ من يعلم؟ قد تربح في اليانصيب القادم.

ـ ممكن جداً.

ـ هذا مؤكد.

6

قال بيرسيو:

ـ وأحمل لك أخباراً عن الأخطبوط أيضاً.

وضع خورخي مرفقيه على الطاولة، ثم سأل:

ـ وهل وجدتَه تحت السرير أم في المغطس؟

ـ كان مدلّى على الآلة الكاتبة. وماذا تظن أنه كان يفعل؟

ـ كان يكتب على الآلة.

فقال بيرسيو لكلوديا:

ـ يا له من طفلٍ ذكي! نعم، كان يكتب على الآلة الكاتبة، ومعي رسالته، وسوف أقرأ لكَ مقطعاً منها: «ستسافر من دوني ـ وتتركني على الشاطئ ـ وهذا سيجعل مزاجي متوحّشاً ـ مع توبيخاتي القلبية. التوقيع: الأخطبوط».

قال خورخي:

ـ يا للأخطبوط المسكين! ماذا سيأكل في أثناء غيابك؟

ـ أعواد ثقاب ورصاص الأقلام وبرقيات وعلبة سردين.

قالت كلوديا:

ـ لن يستطيع أن يفتحها.

أجاب خورخي:

ـ أوه، بلى، الأخطبوط يستطيع. والنجم يا بيرسيو!

ـ يبدو أن المطر هطل على النجم.

فكّر خورخي:

ـ إذا هطل المطر، فسيُضطرّ الناس ـ النمل إلى الصعود على العوامات ـ هل سيكون ذلك كالطوفان أم أقل؟

لا يعرف بيرسيو بالضبط، لكنَّ ما يعرفه هو أن الناس ـ النمل سيتدبّرون أمرهم على أية حال.

ثم سأل خورخي:

ـ لم تجلب التلسكوب معك! ترى كيف سنرى النجم ونحن على متن السفينة؟

أجاب بيرسيو هو يغمز كلوديا:

ـ عن طريق التخاطر النجمي. هل أنتِ متعَبة؟ يبدو أن الجميع متعَبون في هذا المقهى.

أجابت كلوديا:

ـ لو سألت تلك المرأة التي ترتدي الأبيض فستجيبك: بسبب الرطوبة. والآن، ماذا سيحدث يا بيرسيو؟

ـ آه، هذا... لم يكن لدي كثيرٌ من الوقت لدراسة هذا السؤال، ولكني أعددتُ الجبهة سابقاً.

ـ أية جبهة؟

ـ جبهة الهجوم. يجب دائماً مهاجمة الأحداث بعدة طرق. الناس لا يستخدمون عادةً إلا تكتيكاً واحداً. لذا فهم لا يحصلون إلا على نتائج قليلة. أما أنا، فإني أجهّز دائماً جبهة هجومي، وبعد ذلك أُجري توفيقاً بين النتائج المختلفة.

قالت كلوديا:

ـ لقد فهمت.

لكن نبرة صوتها كانت تكذّب ذلك التأكيد.

ـ لا أعرف إن كنتُ أُحسِن التعبير، ولكن ثمة أشياء تعترض الطريق، ويجب دفعها للتمكن من رؤية ما يوجد خلفها: النساء مثلاً. ولكن ثمة أشياء أخرى يجب الإمساك بمقبضها وسحبه. الولد دالي يعرف جيداً ماذا يفعل (وربما لا يعرف، ولكن لا بأس) عندما يرسم جسماً مليئاً بالدروج. لديَّ انطباعٌ بأن أموراً كثيرة لها مقابض. خذي مثلاً الصور الشعرية، إذا ما تأمّلتِها من الخارج فلا ترين إلا المعنى الأول، حتى وإن كانت مستغلقة جداً. ولكن هل تكتفين بهذا المعنى الأول؟ طبعاً لا. يجب أن تسحبي المقبض لتري ماذا يوجد في الدرج. السحب هو الامتلاك والمقاربة والتجاوز.

ـ آه..

قالت كلوديا ذلك وهي تشير بطرف خفي إلى خورخي لكي يتمخّط.

أضاف بيرسيو:

ـ خذي مثلاً هنا، الملامح الدلالية كثيرة. كل هذه الطاولات، وكل ربطات العنق هذه، إني أرى فيها إرادةً، أرى بدايةَ نظامٍ في كل هذه الفوضى الرهيبة، وأتساءل: ماذا سينتج عن ذلك؟

ـ وأنا أيضاً، ولكنه مسلٍّ.

ـ المسلّي يكون مشهداً على الدوام. يجب ألا نحلّله لأن الصنعة القبيحة لن تلبث أن تظهر. اعلمي أني لستُ ضد التسلية، ولكن في كل مرة أتسلّى أغلق المختبر وأرمي الأحماض والقلويات، وهذا يعني أني أخضع وأستسلم للمظاهر. أنتِ تعرفين كم يختلط المضحِك بالمبكي.

قالت كلوديا لخورخي:

ـ اقرأ لبيرسيو قصيدة دونيا بلانكا. وسترى يا بيرسيو كم هي تؤيّد نظريتك.

ترنّم خورخي بكل جدّية:

ـ *في قصورٍ لها أسوار، منذ عشر سنوات، أسيرةً*

تبكي الملكةُ الشابةُ وتشكو عذابها

صفّق بيرسيو بعد أن أصغى إليه بانتباه. كذلك صفّق الجالسون على الطاولات الأخرى، فاحمرّ وجه خورخي خجلاً.

قال بيرسيو:

ـ يا له من أداء! لقد كنتُ ألمحُ إلى مخطّط أكثر أونطولوجيةً (معرفة) بكثير. كنتُ أقصد أن كل تسليةٍ تشبه وعيَ قناعٍ ما يلبث أن يحيا ويتراكب فوق الوجه الواقعي. لماذا يضحك الإنسان؟ لا شيء يدعو إلى الضحك إلا الضحك نفسه. ستلاحظين أن الأطفال الذين يُفرطون في الضحك ينتهي بهم الأمر بأن يبكوا.

قال خورخي:

ـ إنهم أغبياء. هل تريد أن أسمعك قصيدة الصياد واللؤلؤة؟

ـ ستُسمعني كل ما تريد عندما نكون على سطح السفينة ـ كان يجب أن أقول المستودع ـ برفقة النجوم. أما الآن فإني أريد أن

أعرف شيئاً ما عن المجاهيل الطعامية، أكثر منها الجبرية، الموضوعة أمامنا. وهذه الباندوينات، ما معناها؟

قال خورخي وهو يفتح فمه واسعاً:

ـ يا أيتها العذراء!

7

سيارة لينكولن سوداء، وبزّة سوداء، وربطة عنق سوداء. والباقي غير واضح. ما يُرى من دون غالو بورينيو هو سائقه عريضُ المنكبين وكرسيّه المتحركُ الذي يصارع كاوتشوكه كرومه. توقّف كثيرٌ من الناس لكي يروا السائق والممرّضة يُخرِجان دون غالو من سيارته ويضعانه على الرصيف. ارتسمت على الوجوه علائم الشفقة ولم يخفّف منها إلا علائم الغنى الواضحة التي يمثّلها هذا السيد المريض. من ناحيةٍ أخرى، يُشبه هذا السيد فرّوجاً رقبته منتوفة الريش. وهو ينظر إليكَ بطريقةٍ وقحة إلى درجة أنكَ سرعان ما ترغب في أن تُنشده الأممية في وجهه مباشرة.

قال مدران:

ـ لقد نسيتُ أن دون غالو من بين الرابحين. على كل حال، يجب توقّع ذلك. على سبيل المثال، ما كنتُ لأعتقد أنه سيسافر في هذه الرحلة. إنه أمر لا يصدَّق، بكل بساطة.

سألته نورا:

ـ هل تعرف هذا السيد؟

ـ من لا يعرف دون غالو بورينيو يستحقّ أن يُرجم في ساحة جميلة أرصفتها واسعة. في بداية عملي، اضطررتُ لممارسة مواهبي كطبيب أسنان في تلك المدينة التقدّمية. فأنا لا أعمل في بوينس آيرس إلا منذ خمس سنوات. وكان دون غالو من أولى الشخصيات الهامة التي عرفتُها هناك.

قال د. ريستيللي:

ـ له هيئة رجل محترم. ما يبدو غريباً هو أنه بعربة كهذه...

تدخّل لوبيز قائلاً:

ـ بعربةٍ كهذه يستطيع أن يُلقي القبطان في البحر، وأن يتّخذ من السفينة منفضةَ سجائر له.

قال مدران:

ـ بعربة كهذه يمكن الذهاب بعيداً، حتى خونان وحتى مقهى *لندن* كما ترون. علم الثرثرة أحد عيوبي وسأضيف إلى مسؤولياتي الاهتمام ببعض الأشكال العليا من الثرثرة، وعلى سبيل المثال ذلك الذي يتعلّق بالتاريخ. ماذا يمكنني أن أحدّثكم عن دون غالو؟ (هكذا يبدأ بعض الكتّاب الذين يعرفون جيداً ماذا سيقولون.) سأقول: كان حرياً به أن يُسمّى غايوس، وسأقول لكم لماذا. إن أحد مصادر فخر خونان هو بالتأكيد محل «ذهبي وأزرق». ولكن إذا قُدّر لكم أن تكونوا سياحاً في الأرجنتين، وهذا ما أفضّل أن أتجاهله، لابدّ أن تعرفوا أنه يوجد في كل البلدات في بلادنا الواسعة محل «ذهبي وأزرق» في المناطق الاستراتيجية من الشوارع الرئيسية. الأمر الذي يُتَرجم إلى ملايين البيزوسات في جيب دون غالو، النشيط الذي لابدّ أنه وصل إلى هنا ككل أمثاله، والذي عمل بكل الجدّ الذي يميّزهم في سهول البامبا. كان دون غالو، المقعَد والوحيد، يعيش في قصر حقيقي في بالرمو. ثمة بيروقراطية منظمة جداً تهتم بسلسلة محلات «ذهبي وأزرق»، والقائمون عليها، وهم عينا الملك وأذناه، يراقبون ويعلّمون ويُعلِمون ويعاقبون، ولكن هاهو... هل أمللتكم؟

أجابت نورا بتؤدة:

ـ أوه، لا.

قال مدران متابعاً روايته، وقد رأى أن لوبيز وحده هو الذي يُصغي إليه:

ـ مادام الأمر كذلك... إذن أراد غالو بعد خمس سنوات أن يحتفل باليوبيل الماسي لتجارة الجوخ، فن الألبسة الجاهزة ومشتقاته. أُعلم المديرون بصورةٍ شبه رسميه أن رب العمل يريد أن يتلقّى مديحاً من موظّفيه، وبأنه يريد أن يزور محلاته بهذه المناسبة. كنتُ في تلك الآونة مرتبطاً بعلاقة قوية مع بينيا، مدير فرع خونان. علم بينيا، ربما من مصادر سرية، أن هذه الزيارة التفتيشية ستكون تقنية بصورة كاملة، وبأن دون غالو يريد أن يحشر أنفه حتى في علبة الأزرار. بما أن جميع المديرين كانوا قلقين، فقد حصل سباق تسلّحٍ حقيقي بين مختلف الفروع. ثمة أمر أثار الضحك في النادي، عندما سُمع بينيا وهو يحكي كيف أمر مسافرَين تجاريَّين بأن يعرفا ماذا كان يحضّر محلا نوف ـ دو ـ خوليو وبينهواخو. من ناحيته هو، فقد أجهد نفسه غاية الإجهاد وجعل العمال الغاضبين والمرعوبين يعملون حتى ساعات مستحيلة.

بدأ دون غالو رحلته بمديحٍ ذاتي. من لابوس، حيث زار ثلاثة أو أربعة محلات من محلاته ثم ظهر في خونان ذات يوم سبت مشمس. كان يركب آنذاك سيارة بويك زرقاء، ولكن بينيا كان قد أعدّ عربة مكشوفة، من تلك العربات التي أراد الإسكندر أن يدخل بها بيرسي بوليس. تأثّر دون غالو كثيراً عندما رأى بينيا وفصيلاً من الموظفين ينتظرونه عند ظاهر المدينة لكي يُركبونه العربة المكشوفة. سار الموكب بفخامة في الشارع الرئيسي. وأنا الذي لا يفوتني أبداً مشهدٌ كهذا، كنتُ واقفاً على الرصيف، قرب المحل. وعندما اقتربت العربة أخذ الموظفون المتوضّعون توضّعاً استراتيجياً يصفّقون. وأخذت الفتيات يرمين الأزهار البيضاء، أما الرجال، ومعظمهم من المرتزقة، فقد أخذوا يهزّون أعلاماً صغيرة زرقاء وذهبية. وكُتب على قوس نصر يجتاز الشارع: *«أهلاً وسهلاً يا دون غالو»*. كلّف هذا الفعل الجريء بينيا ليلةً كاملةً من السهاد (لأنه أغفل ذكر اسم العائلة)، ومع ذلك فقد كان ربّ العمل

مسروراً جداً من موظّفيه. توقّفت العربة أمام المحل فتضاعف التصفيق (اعذروني على هذه الكليشيه فهي ضرورية جداً)، فلوّح دون غالو، الذي كان جالساً على حافة مقعده كأويستيتي، بيده اليمنى لبعض الوقت رادّاً التحية. كان بوسعه تماماً أن يردّ التحية بيديه، لاحظوا ذلك، ولكني كنتُ أعرف جيداً تلك الشخصية؛ لم يبالغ بينيا، لقد كان السيد الذي يزور أقنانه، والذي يريد طاعتهم ويقوّمها بهيئة نصف محبّبة ونصف حذرة. حفرتُ رأسي لأتذكّر أين رأيتُ مشهداً كهذا، لا ليس المشهد بحد ذاته لأنه كان يشبه أي مشهد استقبال رسمي بأعلام صغيرة وأزهار ولافتات، بل بالأحرى بما كان يغطي وما كان يُظْهر: المندوبون التجاريون المرعوبون وبينيا المسكين وهيئة دون غالو الشره والمُتعب في آنٍ واحد. عندما صعد بينيا على إحدى الكراسي لكي يقرأ خطاب الترحيب (الذي أعترف أني كنتُ قد وضعتُ يدي عليه، وذلك نوع من التسالي التي يمكن أن تقدّمها المدن الصغيرة)، بدأ دون غالو يتململ في كرسيّه، محرّكاً رأسه بين وقتٍ وآخر، ومستقبلاً بتهذيبٍ بارد موجات التصفيق التي كانت تتصاعد في الأوقات التي كان بينيا قد حدّدها في الليلة السابقة. وفي المكان الأكثر تأثيراً (سبق أن تحدّثنا بالتفصيل عن نشاطات دون غالو، ذلك العصامي)، رأيتُ المحتفى به يلتفتُ إلى سائقه الغوريللا. نزل السائق من السيارة وهمس كلمةً لرجلٍ واقف على الرصيف؛ احمرّ الرجل خجلاً ثم التفت إلى جاره الذي تردّد ثم نظر حوله في كل الاتجاهات كأنه كان ينتظر منقذاً... فهمتُ أن لديّ الحل، وأني سأعرف لماذا كان كل ذلك مألوفاً بالنسبة إليّ: فكّرتُ أنه «طلب المبولة الفضية». «غايوس تريمالسيون» لم تكن تلك مبولة بكل تأكيد، بل كأس ماء، كانت كأساً محسوباً تماماً لكي يسحق بينيا، ولكي يمنعه من الظهور في اللحظة الأكثر إحراجاً وليستعيد الفائدة المدبرة بفكرة العربة المكشوفة... يا إلهي، العالم يتكرّر كما يشاء...

لم تفهم نورا نهاية القصة، لكنها انساقت بالعدوى خلف ضحكة

لوبيز. وضع روبيرتو دون غالو بعناء كبير قرب النافذة، ثم قدّم له كأساً من عصير البرتقال. انسحب السائق ليقف على الرصيف ويثرثر مع الممرضة. أخذ كرسي دون غالو المتحرّك يزعج الجميع، الأمر الذي جلب الارتياح الشديد لمالكه. استغرب لوبيز ذلك فعلّق قائلاً:

ـ هذا غير ممكن، بصحةٍ كهذه، وعلى الرغم من كل المال الذي يملكه، يقوم بهذه الرحلة، لمجرّد أنها مجانية؟

قال مدران:

ـ لم تكن مجانيةً جداً، فقد دفع عشر بيزوسات ثمناً للبطاقة.

وقال د. ريستيللي:

ـ غالباً ما يرتكب رجال الأعمال المسنّون نزوات المراهقين. أنا نفسي، بغضّ النظر عن الثروة، أتساءل إن كان يجب عليّ أن...

قال لوسيو:

ـ انظروا! ها هم صِبيةٌ يأتون مع باندونيونات، هل يفعلون هذا على شرفنا؟

8

سرعان ما تبيّن أن هذا المقهى للناس الأغنياء، وهذا واضح من كراسي الوزراء هذه، ومن هؤلاء الأولاد الذين يحردون إذا طُلب لهم كأس بيرة دون رغوة. ليس هناك من جو، وهذا هو الأسوأ.

غرس أتيليو بريسوتي، المعروف أكثر باسم *القطيفة*، يده اليمنى في شعره الذي جعّده وأعطاه لون الجزر، وأبرزه قرب النقرة بعد عمل شاق. بعد ذلك، مسّد شاربه الكستنائي وتأمّل برضا وجهَه المليء بالنمش في المرآة الكبيرة الموضوعة في الداخل. في الحقيقة، لم يكن راضياً تماماً، فقد أخرج مشطاً أزرق من جيب

سترته العلوي وأخذ يسرّح شعره بضربات صغيرة قوية من يده اليسرى ليُظهر التجاعيد. راح صديقان له يفعلان مثله، خاضعين، هكذا لمقتضيات الأناقة.

كرّر القطيفة قائلاً:

ـ إنه مقهى للأغنياء. كم هي سيئةٌ فكرةُ الوداع هنا!

قالت نيللي وهي تقلب ياقة السترة لتطرد القشرة:

ـ المرايا جيدة. لماذا لبستَ البدلة الزرقاء يا أتيليو؟ أقسم أني أكاد أفطس من الحر كلما نظرتُ إليك.

ـ إذا تركتها في الحقيبة فستتجعّد. سأخلع سترتي، ولكني قد أبدو مضحكاً جداً. ليتنا تودّعنا في مطعم ناتو حيث أشعر بالراحة.

نهرته أم نيللي قائلة:

ـ اسكت يا أتيليو! ولا تعُدْ تكلّمني عن الوداع، بعد قصة يوم الأحد، عندما أتذكّره...

أجاب أتيليو:

ـ ولكن لم يحدث شيء يا دونيا بيبا.

نظرت السيدة بريسوتي إلى ابنها بفظاظة: «كيف لم يحدث شيء؟... آه يا سيدة بيبا، هؤلاء الصغار... هل ترى أن ذلك لا شيء؟ أليس أبوكَ في السرير ولوح كتفه مخلوع وكاحله مهروس؟».

ـ لا علاقة لذلك، فالعجوز ضخم الجثة كالقاطرة.

سأل أحد الأصدقاء:

ـ ولكن ماذا حدث؟

ـ كيف؟ ألم تكن هناك يوم الأحد؟

ـ ألا تذكرين أني لم أكن موجوداً؟ كان يجب عليَّ أن أتدرّب من أجل المباراة. وعندما أتدرّب، أتدرّب، ولا شيء آخر. لقد قلت لكِ ذلك. تذكّري.

ـ الآن تذكّرتُ. آه، هل فقدتَ شيئاً أيها اليهودي الصغير؟

ـ بلا مزاح، هل حدث حادث؟

ـ عملية غريبة، لقد سقط العجوز عن السطح في الدار وكاد أن يقتل نفسه. إنها قصة، هل ترى ذلك الآن؟

قالت السيدة بريسوتي:

ـ كان حادثاً خطيراً، اروِه أنتَ يا أتيليو. أنا أشعر بالتأثّر لمجرّد التفكير به.

قالت نيللي:

ـ مسكينة، دونيا روزيتا!

وقالت أم نيللي:

ـ أيتها المسكينة!

قال القطيفة:

ـ حسنٌ، سأروي القصة بما أن شيئاً خطيراً لم يحدث. أنتم تعرفون أن العصابة كلها اجتمعت لتودّعنا، أنا ونيللي. وكانت العجوز قد حضّرت طبقاً رائعاً من الرافيولي، وكان الرفاق قد قدّموا البيرة والكاتو. جلسنا جميعاً على السطح، مددنا الغطاء وأحضرنا البيك ـ آب، وكل شيء. كم كان عددنا؟ حوالى الثلاثين.

قالت نيللي:

ـ وأكثر. فقد عددتُ أكثر من أربعين شخصاً. أذكر أن ذلك كان من أجل المكمورة.

ـ في الواقع، لقد كنا مرتاحين، ليس كما هي الحال الآن، وكأننا في دكّان للأثاث. كان العجوز على طرف الطاولة، وكان إلى جانبه دون رابا، الفحّام. أنتم تعرفون أن العجوز لا يحب النبيذ الأحمر. انظروا، انظروا كيف تبدو تلك العجوز! ربما هذا غير

صحيح. وما الضير في ذلك؟ أخيراً، بالنسبة إلى الموز، فقد أمسك كل شخص موزة مطبوخة، ولكن العجوز هو الذي بدأ. وعندما بدأ يغني: يا ماما! يا ليته لم يفكّر بالشرب! ها هو يقف حاملاً بيده ليتراً مليئاً حتى منتصفه، وعندما فتح فمه ليتكلّم، أخذته نوبة سعال. انقلب إلى الخلف وبُمْ! سقط في الدار. يا له من عجوز مسكين! أقسم لكم أنه كان يشبه كيساً من الذرة!

قال اليهودي الصغير والسيدة بريسوتي تُخرج منديلاً من محفظتها:

- مسكين دون بيبو!

قالت أم نيللي:

- أترى يا أتيليو؟ لقد أبكيتَ أمك. لا تبكي يا دونيا روزيتا، ففي النهاية لم يكن الأمر خطيراً.

قال القطيفة:

- بالتأكيد، يا صديقي. أنتَ لا تعرف الإرباك الذي سبّبه ذلك. نزلنا جميعاً إلى الأسفل، وكنتُ متأكّداً من أن أبي قد شجّ رأسه. أخذت النساء تبكي وتُعول ولم نعد نسمع شيئاً. عند ذلك، قلتُ لنيللي أن تطفئ البيك - آب، وكانت دونيا بيبا هناك تعاني من نوبة عصبية... يا لها من عجوز مسكينة! فقد كانت تتلوّى من الألم.

سأل اليهودي الصغير متلهّفاً لمعرفة التتمة:

- ودون بيبو؟

أجاب *القطيفة*:

- أقسم لكَ أن ما جرى كان ظاهرةً غريبة. عندما رأيتُه ممدّداً على البلاط فكّرت: «انتهى الأمر، لقد صرت يتيم الأب!» سرعان ما أُرسل الصغير ليناديٍ سيارة الإسعاف، وفي أثناء ذلك، خُلع قميص الأب لمعرفة إن كان ما يزال يتنفّس. هل تعرف ما هو أول شيء

فعله عندما فتح عينيه؟ لقد تحسّس بيده حافظة نقوده ليتأكد من أن أحداً لم يسرقها. هكذا هو العجوز. بعد ذلك قال لنا إن كتفه تؤلمه قليلاً ولكن لم يكن ذلك بالأمر الخطير، وقال لنا أن نواصل الاحتفال. أتذكرين يا أمي عندما أخذناكِ لتري أنه بخير؟ يا لها من قصة! فبدلاً من أن تهدأ أخذت تصرخ بقوة مضاعفة.

قالت والدة نيللي:

ـ إنه الانطباع. ذات مرة، أنا...

ـ الحاصل، عندما أتت سيارة الإسعاف، كان العجوز جالساً على الأرض، وأخذنا نسند خواصرنا من الضحك. للأسف أن الممرّضين لم يقبلوا إبقاءه في البيت، وأصرّوا على نقله، اذهب أيها العجوز المسكين. استفدتُ من الموقف وطلبتُ من أحد الممرّضين أن يفحص لي أذني التي كنتُ أسدّها باستمرار.

قال اليهودي الصغير بتأثّر:

ـ غير معقول. أنتَ تدرك ما نقصني. كان عليّ أن أتدرّب في ذلك اليوم.

قفز أحد الأصدقاء ورقبته غائصةٌ خلف ياقته المستعارة، وقال:

ـ انظروا من أتى! هكذا إذن، شيء رهيب!

إنهم مبهرجون، وقد دهنوا شعورَهم وارتدوا بدلات مخطّطة بمربّعات نظامية. شقَّ عازفو الباندونيونات في أوركسترا أسدروبال كريسيدا النموذجية طريقهم بين الطاولات التي صارت متراصّة. وخلفهم دخل صبي يرتدي بزّةً لونها رمادي لؤلؤي وقميصاً أسود وربطة عنق كريم وقد غُرز فيها شعار لاعب كرة قدم.

صرخ القطيفة رغم أن الجميع يعرفون هذه المعلومة:

ـ أخي! لقد أتى ليُحدث لنا مفاجأة.

اقترب المغنّي المشهور جداً هومبيرتو رولان من طاولاتهم وصافح الجميع بحرارة ما عدا أمه.

قال القطيفة:

ـ عظيم يا صاحبي! هل وضعتَ بديلاً لكَ في الإذاعة؟

ـ قلتُ لهم إن لدي ألماً فظيعاً في أسناني. وكان ذلك العذر الوحيد الممكن لئلا يحذفوني بعد الظهر. ثم إن الأصحاب أرادوا أن يأتوا لوداعكم.

سارع روبيرتو إلى وضع طاولة وأربعة كراسٍ. طلب المطرب قهوة مثلّجة، أما العازفون فطلبوا بيرة.

9

دخلت باولا وراؤول من باب شارع فلوريدا وجلسا إلى طاولة قرب النافذة. ألقت الفتاة نظرةً خاطفة على الصالة، أما راؤول فقد أخذ يستمتع كثيراً بالتعرّف إلى رفاق رحلتهما المفترَضين بين جميع هؤلاء من مواطني بوينس آيرس الذين يلمعون من التعرّق.

خاطبها قائلاً:

ـ لو لم تكن بطاقة الدعوة في جيبي لظننتُ أن أحد الأصدقاء قد مزح معي، ألا ترين أن الأمر غير معقول؟

ـ ما أراه في هذه اللحظة هو أن الجوّ خانقٌ، ولكنني أقبل أن الرسالة تعادل الرحلة.

فتح راؤول ورقةً لونها كريم ولخّصها قائلاً:

«عند الساعة الثامنة عشرة، في هذا المقهى. ستؤخذ أمتعتكم من البيت في الصباح. الرجاء عدم اصطحاب أحد. ستكون

استهلاكاتكم على نفقة الدوائر البلدية». يجب أن نعترف أنه يانصيب غريب جداً. لماذا اللقاء في مقهى؟ قولي لي!

قالت:

ـ منذ بعض الوقت ما عدتُ أفهم كلمةً واحدة من هذه القصة. كل ما أعرفه أنكَ ربحتَ جائزة وأنكَ دعوتني، معرّضاً بذلك سمعتي للخطر إلى الأبد.

ـ ولكن، لا. ستمنحكِ هذه الرحلة جاذبيةً جديدة. يمكنكِ أن تتكلّمي عن تقاعد روحي، أن تقولي أنكِ تكتبين سيرة حياة دايلان توماس، الشاعر الذي يخدم الآن في صالونات الشاي الدارجة. ومن ناحيتي أنا، إن ما يعجبني في هذا الجنون كله هو أن كل شيء يسير إلى الأسوأ.

قالت باولا:

ـ الحاجة إلى القدر. لنسمّها كذلك. في الواقع، إن هذا مسلٍّ أحياناً.

ـ في أسوأ الأحوال، إنها نزهة بحرية ككل النزهات الأخرى، مع فارق وحيد هو أننا لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون. المدة: من ثلاثة إلى أربعة أشهر. أعترف أن هذا بالتحديد ما جعلني أحزم أمري. إلى أين يمكنهم أن يذهبوا؟ إلى الصين؟

ـ أي صينٍ منهما؟

ـ إلى الصينين، لتبيان الحياد الأرجنتيني التقليدي.

ـ ليتهم يفعلون! ولكن سترى أننا سنقلع حتى جَنَوا ثم سيدورون بنا حول أوروبا حتى نصرخَ: ارحمونا!

قال راؤول:

ـ إني أستبعد ذلك. لو كان هذا في مخطّطهم لقالوه بصوتٍ عال.

قالت باولا:

- ومع ذلك، ألم تكن المسألة مسألة خط سير على النشرة التمهيدية؟

- لا شيء محدّد جيداً. أمور عادية نسيتُها، وتلميحات تقوم على إيقاظ غرائزنا كمغامرين وحبنا للمصادفة. باختصار، إنها رحلة جميلة، لا يحدّها إلا الوضع الدولي. أي أنهم لن يأخذونا إلى الجزائر ولا إلى لاس فيغاس ولا إلى فلاديفوستوك. لعبتهم الكبرى هي أنهم سيعطوننا إجازة مأجورة. أي بيروقراطي يمكن أن يقاوم ذلك؟ ودفتر الشيكات الذي يوزّعونه على المسافرين، هو الآخر محسوب. دولارات، أتفهمين، دولارات.

- لا ريب في ذلك، ذلك لأنهم سيرون إن كانت المرافئ البعيدة والهواء البحري سيشفيانك من مرض الحب.

- وإمكانية دعوتي.

قالت باولا وهي تنظر إليه:

- ذلك أفضل من مهدّئات الغاردينال.

بقيا يتبادلان نظرةَ تحدٍّ لبعض الوقت.

- لقد وعدتِني بألا ترتكبين حماقات، لقد وعدتِني بذلك.

- بالتأكيد.

- تقولين بالتأكيد عندما يكون الأمر هو الأقل تأكيداً.

- لا حظ أني قلتُ: سيكون ذلك أفضل من الغاردينال.

- Bon, d'accord. on n'en parle plus(*)

(*) قالها بالفرنسية. وتعني: حسنٌ، لنكفّ عن الحديث في هذا الموضوع.

قالت باولا:

ـ طبعاً. لا تغضب يا عزيزي. أنا ممتنّة لكَ جداً، صدّقني. لقد أنقذتني من مأزق كبير عندما دعوتَني، رغم أنني سأفقد في ذلك ما تبقّى من سمعتي. حقاً يا راؤول، أنا مؤمنة بأن هذه الرحلة ستكون مفيدةً لي، لا سيما إذا تحولت إلى مغامرة تافهة. كم سنضحك من ذلك.

ـ إنها ستغيّرنا بعض الشيء. لقد مللتُ من إجراء مخططات مدن لعائلتكِ ولعائلتي. أعلم جيداً أن حل الرحلة البحرية هذا حلٌّ غبي، ماهو إلا تراجع من أجل القفز. يجب أن ننهيها بخير لكي نعود ونستأنف العمل كما في السابق. ولكن من الممكن أن يكون ذلك أكثر من السابق بقليلٍ جداً أو أقلّ منه بقليلٍ جداً.

ـ أنا لا أعرف لماذا لم تدعُ صديقاً، أو أحداً ما أقرب مني.

ـ تماماً من أجل هذا يا عزيزتي. من أجل قطع جميع العلاقات مع عاصمتنا. أما بالنسبة إلى القرب من أحد، فأنتِ تعرفين...

قالت باولا وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:

ـ أعتقد أنكَ رجل طيب جداً.

ـ شكراً. أعتقد أني لستُ كذلك، ولكن عندما تقولين ذلك يصبح حقيقة.

ـ أعتقد أن هذه الرحلة ستكون ممتعة جداً.

ـ جداً.

شعرت بالسعادة تغزوها فجأةً، فتنهّدت بعمقٍ ثم سألته:

ـ هل تناولتَ أقراصاً ضد دوار البحر؟

لكن راؤول أخذ ينظر إلى مجموعة من الشبان الصاخبين الذين يتحركون في وسط المقهى، وصرخ قائلاً:

ـ يا أيتها السماء! يبدو أن أحدهم سيغنّي.

أ

استفاد بيرسيو من الحوار بين الأم والولد فالتفت حوله وأخذ يفكّر. طبّق تفكيره على كل حضورٍ، أو بالأحرى سحب خيط التفكير، وسيبحث في العمق عن السبيل الدقيق الذي يبيّن له المشهد القادر على فتح أول ثغرة في التركيب العام. دون كبير جهد، غادر الصور الثانوية للحدث المركزي، وحَسَب البيان النهائي وأعدّه. سبر أغوار محيطه وعرّاه، فصل وحلّل وزان. اتخذت رؤيته للأشياء شكلَ الحمّى الباردة، شكل هلوسة بلا نمور ولا حشرات، قوة الصياد الذي يطارد طريدته دون أن يسقط عن حبال البهلوان أو يذهب إلى الهذر. ها هم الكومبارس الذين أتوا مرافقين للمسافرين دون أن يشكّوا في رهان الانطلاق يغادرون المقهى. تملّك بيرسيو سرورٌ أكثر فأكثر حيويةً في أن يعزل تحت مجهره الجمهرة المتراصّة من أولئك الذين بقوا، عمّن هم مسافرون حقاً. إنه لا يعرف قواعد اللعبة أكثر منهم، ولكنه يحسّ أن هذه القواعد في طور الولادة، وبأنها تنبثق من كلٍّ من اللاعبين، إنه يستشعر رقعة شطرنج لانهاية لها يتصارع عليها خصومٌ بُكْمٌ، وبأن الفيلة فيها والأحصنة لها أشكال دلافين وساتيرات. وكل حركةٍ فيها معركة، وكل خطوة نهر من الكلام أو الدموع، وكل مربّع من الرقعة حبة رمل، بحر دم، مسرحية للمشعوذين يجتازون مرجاً من الجلجل والتصفيق.

وهكذا فإن مسابقة بلدية للنوايا الحسنة حرّكتها روحُ عمل الخير ـ وربما دون دراية، وعلمٌ غامض يحرّك فيه القدرُ الألعاب ـ جعل هذا الاجتماع ممكناً في لندن، وخلق هذا الجيش الصغير الذي

حزر بيرسيو قادتَه ومحاسبيه والمنشقّين عنه، ومن يعلم؟ ربما عرف أبطالَه. راقب قطع ثلج الزمن التي تفصل نظرةَ رجل ذي ابتسامةٍ ترتدي الأحمر. قدّر المسافات غير القابلة للحساب التي كانت تفصل بين أقدار صارت فجأةً في حزمةٍ بسبب هذا الموعد. تأمّل المزيج المخيف لهذه الكائنات الوحيدة التي وجدت نفسها معاً فجأةً بعد أن غادرت سيارات الأجرة والمحطات والعشّاق والمكاتب، والتي لا تصنع إلا جسداً واحداً غير قادرٍ على التعارف، وغير قادر أيضاً على معرفة أنه الحجة الغريبة لملحمة مبهمة ربما يكون من العبث روايتها، أو عدم روايتها.

10

قال بيرسيو وهو يتنهّد:

ـ ربما لذلك نحن في طور تشكيل جسدٍ لا أحد يراه، أو أنّ أحداً يراه أو لا يراه.

قالت كلوديا:

ـ تبدو وكأنكَ صاعد من غوصةٍ، وتريد أن أفهمك. أعطني الأفكار الوسيطة على الأقل، أم أن جبهة هجومك مُحكمة الإغلاق تماماً؟

ـ لا، بل على العكس. ولكن من الأسهل على المرء أن يرى من أن يحكي ما رآه. أنا ممتنّ لكِ كل الامتنان لأنكِ منحتِني إمكانية القيام بهذه الرحلة يا كلوديا. كم سأكون مرتاحاً بينكِ وبين خورخي. أمضي نهاري كلّه على سطح السفينة في الغناء ولعب الجمباز، إذا كان ذلك مسموحاً.

سأله خورخي:

ـ ألم تسافر في السفينة سابقاً؟

ـ لا، ولكني قرأتُ روايات لكونراد وبيو باروخا ولكتّابٍ ستقرأهم بعد عدة سنوات. ألا ترين يا كلوديا أننا عندما نغيّر من نشاطاتنا يبدو وكأننا نتخلّى بعض الشيء عما نحن لكي ننتمي إلى آلةٍ مجهولة أو لأم أربع وأربعين لنكون لها رباطاً أو زوجاً جديداً من الأرجل؟

ـ أعتقد يا بيرسيو أننا لسنا شيئاً مهمّاً لولا ما تسمّيه تخلّياً. إننا سلبيون جداً، نقبل قدرنا بسهولة. وفي أحسن الأحوال نحن نمطيون، أو من أولئك القدّيسين الحجريين الذين يكون عشّهم على رؤوسهم.

قال بيرسيو بمرح:

ـ ليست ملاحظتي إلا معيارية. في الواقع، أنا أسقط من جديد في إجماعٍ بَلِيثٍ موضتُه، ولكن هذا ما أسعى إلى الدوران حوله لكي أصل إلى الطرف الآخر. من المعروف أن مجموعةً ما أكثر أو أقل من مجموع مكوّناتها. إن ما أودّ أن أعرفه ـ إذا ما استطعتُ أن أضع نفسي داخل هذه المجموعة أو خارجها ـ وأعتقد أن هذا الأمر ممكن ـ، هو إن كانت هذه الأم أربع وأربعين البشرية تستجيب في تشكّلها وفي انحلالها، لشيء أكثر من المصادفة؛ إن كانت صورةً بالمعنى السحري للكلمة، وإن كانت هذه الصورة قادرة في ظروف معيّنة على أن تتحرّك وفق مستويات أكثر جوهريةً من مستويات أعضائها منفصلين. أوف.

ـ أكثر جوهريةً؟ لنتفحّص أولاً هذه الكلمة المشبوهة.

ـ عندما نرى مجموعةً من النجوم، نشعر بشيء من اليقين بأن التوافق والإيقاع الذي يوحّد النجوم فيما بينها (إيقاع نفترض

وجوده، بالتأكيد، ولكننا لا نفترضه ضمن إطار أنه يحدث شيءٌ ما هناك يحدّد هذا التوافق) هو أكثر جوهرية من كل نجمةٍ مأخوذةٍ على حدة. ألم تلاحظي أن النجوم الوحيدة، تلك النجوم المسكينة التي لم تستطع أن تنتمي إلى مجموعة، تبدو تافهة إلى جانب تلك الكتابة غير القابلة لفك رموزها؟ لا تُفَسَّر الميزة الموجَّهة منذ الأزل إلى مجموعة النجوم فقط بأسباب فلكية أو مقوّية للذاكرة. ولا بدّ أن الإنسان قد أحسّ منذ البداية أن كل واحدة منها كانت عُصبةً، مجتمعاً، عرقاً: شيئاً ما مختلفاً جداً، بل وربما معاكساً. لقد عشتُ بعض ليالٍ حربَ النجوم، وعشت لعبتها، لعبة التوترات التي لا تُطاق. ويجب أن أقول إني لا أستطيع أن أرى منها الكثير عن سطح مسكني، فثمة دخان في الجو دائماً.

ـ ألم تكن تنظر إلى النجوم بالتلسكوب؟

ـ أوه، لا. ثمة أشياء يجب النظر إليها بالعين المجرّدة. هذا لا يعني أني ضد العلم، ولكني أعتقد أن الرؤية الشعرية وحدها قادرة تماماً على القبض على الصور التي تشكّلها الملائكة وترسمها. هذا المساء، هنا، في هذا المقهى الفقير، ربما توجد صورةٌ من هذه الصور.

سأل خورخي وهو ينظر حوله:

ـ أين هي يا بيرسيو؟

أجاب بيرسيو بجديةٍ كاملة:

ـ لقد بدأت باليانصيب. اختارت لعبة كرات اليانصيب بضعة رجالٍ وبضع نساءٍ من بين مئات الآلاف. ثم اختار الرابحون، بِدورهم، من سيرافقونهم، وذلك أمر أنا مدينٌ لكم به كثيراً. لاحظي يا كلوديا أنه ما من شيء براغماتي أو نفعي في رسم هذه الصورة. إننا لسنا النجمة الكبرى للكاتدرائية القوطية بل نحن تحجير الوردة في المشكال. قبل أن تتساقط أوراقنا وأن نترك أمكنتنا لتركيب

جديد من النزوات، أية لُعَبٍ قامت بيننا؟ وكيف ستتآلف الألوان الباردة مع الألوان الحارة؟ وكيف سيتّفق القمريون والعطارديون؟ وكيف ستتآلف الأمزجة والطبائع؟

سأل خورخي:

ـ عن أي مشكالٍ تتكلّم يا بيرسيو؟

سُمع شخصٌ يغني لحن تانغو.

11

ارتأى الأب والأم كما أخت التلميذ فيليبي تريخو أن يطلبوا الشاي مع الكاتو. وأن يعرفوا في أية ساعة سيتناولون العشاء على متن السفينة، دون أن نقول إنهم رأوا أن من غير المستحسن أن يسافروا والمعدة فارغة (لا يمكن تسمية البوظة غذاءً، فهي شيءٌ يذوب مباشرةً). ما إن يصعدوا إلى السفينة عليهم أن يطلبوا أطعمةً صلبة وأن يناموا على ظهورهم. الأمر الأكثر أهميةً بالنسبة إلى دوار البحر هو عدم اتخاذ أفكارٍ ثابتة. تشعر الخالة فيليسا بدوار البحر بمجرّد أن تذهب إلى المرفأ أو أن تشاهد فيلماً عن الغواصات. كان فيليبي يصغي بسأم قاتل إلى العبارات التي بات يحفظها عن ظهر قلب. الآن ستقول أمه إنها كانت تشعر بدوار البحر عندما كانت تذهب إلى الدلتا. وسيبادر السيد تريخو إلى القول إنه نصحها آنذاك بألا تأكل البطيخ. وستجيب السيدة تريخو أن السبب ليس البطيخ لأنها أكلته مع الملح وبأن البطيخ المملَّح لم يضرَّ أحداً. كان بود فيليبي أن يعرف ماذا يدور من كلامٍ على الطاولة المجاورة بين لوبيز والقط الأسود: عن الثانوية طبعاً، وإلا عمَّ يمكن أن يتكلّم المدرّسون؟ فكّر بأنه كان من الواجب عليه أن يذهب ويسلّم عليهما، ثم قال لنفسه لماذا أفعل ذلك وأنا سألتقيهما على متن السفينة. هذا أمر لا يزعج لوبيز فهو شخص عاطفي. أما القط الأسود! ليكن حنفية الماء تلك التي ماؤها فاتر والتي كان لها ثمن! سحقاً!

أخذ يفكّر، رغماً عنه، بلانغريتا التي بقيت في البيت بهيئةٍ ليست حزينة حقاً، ومع ذلك كانت حزينة. ليس بسببه طبعاً، بل إن ما كانت تأسف عليه بالفعل، تلك البوهيمية، هو عدم تمكّنها من القيام بالرحلة مع أسيادها. لقد كان سخيفاً في واقع الأمر. لو أنه طالَبَ أن تأتي لانغريتا معهم لاضطرّت أمه للتضحية لتجنّب كارثة. إما لانغريتا أو لا أحد. «ولكن فيليبي...». «حسنٌ، ألستِ مسرورة بأن يكون أحدٌ ما في خدمتك خلال الرحلة؟» لكنهم لن يلبثوا أن يكتشفوا الحيلة. إنهم قادرون على أن يوجّهوا إليه صفعة سن الرشد، وشكوى إلى القاضي ثم وداعاً للرحلة البحرية. تساءل إن كان العجائز سيضحّون حقّاً بالرحلة من أجل ذلك. طبعاً لا. في الواقع إنه يسخر بعض الشيء من لانغريتا. عبثاً حاول أن يداعبها في الممر وأن يعدها بسوار ما إن يتمكّن من أخذ المال من أهله، لكنها لم تسمح له بأن يركبها في غرفته. اغربي أيتها القذرة. لكنه عندما تذكّر ساقيها... انتابَهُ ذلك الشعور بهجر الجسد الذي أعلن عن ظاهرة معكوسة فانتصب بحيوية على كرسيّه، وتناول أكبر قطعة من الشوكولا قبل بيبا بجزء من الثانية، فقالت الفتاة:

ـ أنتَ فظّ ونهم دائماً!

ـ اخرسي يا غادة الكاميليا!

صاحت السيدة تريخو:

ـ يا أولاد!

من يعلم؟ قد يكون على متن السفينة فتيات يتسلّى معهن. تذكّر رغماً عنه حديثَه مع أوردونييث، رئيس عصابة طلاب الثانوي، والنصائح التي أعطاه إياها ذات ليلةِ صيف على مقعد من مقاعد حديقة كونغريسو: «يجب أن تغوي امرأةً، فأنت الآن أكبر من أن تهتزّ». وعندما احتجّ بشدة ولكن باضطراب، ردّ أوردونييث وهو يلكزه على ركبته: «يالله! يالله! لا تتخابث عليّ، أنا أكبر منك بسنتين وأعرف الأمر تماماً، ما زلتَ تستمني في هذه السن. لا بأس في ذلك

على أية حال، ولكن ما دمتَ الآن ذاهباً إلى الحفل الراقص، فيجب أن تكون جدّياً. وأول فتاة تأكل الطعم يجب أن تأخذها لتجدّف على نهر التيغر، إنه مكان تستطيع فيه أن تمارس الحب جيداً. وإذا كنتَ لا تعرف إلى أين تذهب، قل لي لكي أطلب من أخي المحاسب أن يُخلي لكَ بيتَه ذات ظهيرة. إذا حصلتَ على سرير فذلك أفضل طبعاً...». ثم تتابعت سلسلةٌ من التفصيلات ومن الذكريات ونصائح الأصدقاء. وعلى الرغم من غضب فيليبي الشديد، فقد شكر أوردونييث. ما أكبر الفارق بينه وبين ألفييري! ولكن ألفييري...

قالت السيدة تريخو:

ـ هه، هناك من سيغنّي.

قالت بيبا:

ـ هذا المكان غير مناسب نهائياً للغناء. يجب ألا يسمحوا لهم بذلك.

نزولاً عند رغبة عدد كبير من الأهل والأصدقاء، وقف المطرب المشهور هومبيرتو رولان، وراح القطيفة واليهودي الصغير يُبعدان الناس بالكلام وبدفعات من مرفقيهما ليساعدا الموسيقيين على أن يأخذوا أمكنتهم من حولهما ويعزفوا على راحتهم. سُمعت ضحكاتٌ، وبعض الدعابات، وتجمّع الناس عند نوافذ المقهى، في الشارع. وراح رجل شرطة ينظر إلى هذه التحرّكات من شارع فلوريدا.

صاح اليهودي الصغير:

ـ رائع! رائع! إن أخاك شخص ممتاز يا قطيفة!

عاد القطيفة ليجلس بجانب نيللي وهو يقوم بحركات كبيرة ليُسكت الناس، ثم قال:

ـ هل سيسكت هؤلاء أم لا؟ ما هذا المقهى الجهنمي؟

سعل هومبيرتو رولان وأخذ يمسّد شعره، ثم قال:

ـ نعتذر عن عدم التمكّن من جلب البطارية. سنبذل جهدنا.

ـ عظيم جداً يا صديقي، عظيم جداً.

ـ بمناسبة سفر أخي العزيز وخطيبته الرائعة، سوف أغني لكم تانغو فيسكا كاديمو: جلاد القلوب.

قال اليهودي الصغير:

ـ رائع!

عزفت الباندونيونات الجمل الموسيقية الأولى، وبعد أن وضع هومبيرتو رولان يده اليسرى في جيب بنطاله ومدّ اليمنى في الهواء، أخذ يغني:

أنتِ، أيتها الليدي التي تجيدين التكلّم بالإنكليزية

والتي لا تخرجين أبداً من دون سيارتكِ الرولز

والتي ترسلين زجاجات الويسكي المكدّسة،

قولي، ماذا أتيتِ لتفعلي في التانغو؟

حدث في مقهى *لندن* انقلاب مفاجئ بقدر ما هو سريع. ما كادت طاولة القطيفة تغوص في صمتٍ مطبق حتى بدأت محادثاتٌ على طاولات مجاورة بطريقةٍ مبالغٍ فيها. نظر القطيفة واليهودي الصغير نظرات حانقة حولهما في حينِ أخذ هومبيرتو يضخّم صوته. وجد كارلوس لوبيز هذا المشهد مضحكاً جداً وأبلغ مدران بذلك. بيد أن د. ريستيللي غَضِبَ من الوجهة التي اتّخذتها الأحداث.

قال لوبيز:

ـ ارتياحٌ يُحسَد عليه هؤلاء الناس. ثمة نوعٌ من الكمال في طريقتهم في التصرّف، مهما كانت محدودة. واحتقارهم لكل ما هو ليس تانغو أو راسينغ يثير الإعجاب.

قال مدران:

ـ انظروا إلى دون غالو، لقد بدأ يغضب.

كان دون غالو قد انتقل من الذهول إلى علائم التهديد لسائقه الذي دخل راكضاً ليُصغي قليلاً إلى سيده ثم يخرج من جديد. ذهب ليتحاور مع الشرطي الذي كان يراقب المشهد من خلال نافذة مطلّةٍ على شارع فلوريدا. شوهد الشرطي يرفع يديه إلى جانبي رأسه ثم يحرّكهما حركةَ العاجز.

ويُسمّونكِ جلادة القلوب

لأنكِ تجنّنينا ببرودتك.

استمتعت باولا وراؤول كل الاستمتاع، بعكس من لوسيو ونورا المحبَطَين. أبدت أسرة فيليبي شعوراً بالبرودة، في حين أن فيليبي راح ينظر بانبهار إلى حركة الأصابع على الباندونيونات. أخذ خوليو، الأبعد قليلاً، يحتفي ببوظته الثانية. وغاصت كلوديا وبيرسيو في حديثهما الميتافيزيقي. وبعيداً عن اللامبالاة والرضا الذي أبداه مرتادو مقهى لندن وصل هومبيرتو رولان إلى القفلة الكئيبة لأغنيته:

ولكن بالنسبة إليّ أنا تبقين دائماً تلك

التي لم تعرف كيف تحافظ على حبي الحقيقي.

وسط الصيحات والتصفيق والطرْق بالملاعق على الطاولات، وقف القطيفة متأثّراً جداً وضغط بقوة على قلب أخيه، ثم صافح عازفي الباندونيون الثلاثة، ضرب على صدره ثم أخرج من جيبه منديلاً كبيراً وأخذ يتمخّط. انحنى هومبيرتو رولان بتواضع، في حين بدأت نيللي والنسوة جوقةً من المدائح أخذ المطرب يستمع إليها بابتسامةٍ لا تكلّ. في تلك اللحظة أخذ أحد الأولاد، وكان غير ظاهر حتى الآن، يطلق سعالاً حاداً لأن قطعة الكاتو بالكريما علقت في بلعومه. حدثت جلبةٌ كبيرة على طاولة المطرب وهتف الحضور جميعاً لروبيرتو بأن يجلب كأساً من الماء.

قال القطيفة بحنان:

ـ لقد كنتَ رائعاً جداً.

أجاب هومبيرتو:

ـ ليس أكثر من العادة.

قالت أم نيللي:

ـ كم يغني بإحساس!

قالت السيدة بريسوتي:

ـ هو دائماً هكذا. لم يكن من الواجب القول له بأن يدرس أو يعمل، لا شيء إلا الفن.

قال اليهودي الصغير:

ـ إنه مثلي تماماً. فِشر! وصلات مباشرة! لا شيء إلا الوصلات المباشرة!

انتزعت نيللي قطع الكاتو من بلعوم الطفل. فتفرّق الناس المتجمّعون على النوافذ. وبدا د. ريستيللي مرتاحاً وهو يمرّر إصبعه خلف ياقته المستعارة.

قال لوبيز:

ـ حسنٌ، يبدو لي أن الوقت قد حان.

تقدّم رجلان يرتديان بزّةً كحلية ووقفا في وسط المقهى. صفّق الأول بيديه وأشار الآخر طالباً الصمت، ثم صاح: «أرجو من جميع الضيوف الذين لا يحملون دعوةً مكتوبة أن ينسحبوا».

قالت نيللي:

ـ مم؟

أجاب أحد أصدقاء القطيفة:

ـ علينا أن ننسحب. أتدركين ذلك، في اللحظة التي نكون في أوج متعتنا.

مضت المفاجأة الأولى فانطلقت صيحات الاستغراب والاحتجاج من كل جانب. رفع الرجل الذي تكلّم يدَه، أدار راحته إلى جهة المحتجّين ثم قال: «أنا مفتّش الدوائر البلدية، وأنا أنفّذ أوامر رؤسائي. إني أطلب من الأشخاص المدعوين بالبقاء في أماكنهم، أما الآخرون فعليهم أن يغادروا فوراً».

قال لوسيو لنورا:

ـ انظري! ثمة رتلٌ من رجال الشرطة في الشارع. إنها أشبه بمداهمة منها برحلةٍ بحرية.

فوجئ نادلو المقهى، مثلهم مثل الزبائن، ولم يكن لديهم ما يكفي من الأيادي لقبض أثمان الطلبات المستهلَكة، وحدثت ارتباكات غير عادية في الحسابات وفي النقود التي يجب دفعها وفي قطع الكاتو المرفوضة وفي بعض التفصيلات التقنية الأخرى. سُمعت أصوات انتحاب قوية على طاولة آل بريسوتي: فالسيدة بريسوتي وأم نيللي تمرّان بامتحان الوداع القاسي. واست نيللي أمَّها وحماتَها المُقبلة. عانق القطيفة هومبيرتو رولان من جديد وربّت على ظهور أفراد الفرقة جميعاً.

صاح الأصدقاء:

ـ حظاً سعيداً، حظاً سعيداً! كاتبني يا قطيفة!

ـ سأرسل إليكَ بطاقةً بريدية يا عزيزي.

صاح اليهودي الصغير ناظراً نظرةً مستفزّة إلى الطاولات الأخرى:

ـ يعيش سردان!

اقترب رجلان هيئتهما مميزة من مفتش الدوائر البلدية. نظرا إليه وكأنه هابطٌ من القمر، ثم قالا:

ـ ربما كنتَ تنفّذ أوامر رؤسائك، ولكني لم أرَ في حياتي سوء استخدامٍ للسلطة كهذا.

قال الرجل دون أن يعيرهما نظرةً:

ـ تحرّكا، تحرّكا!

قال د. لاسترا:

ـ أنا الدكتور لاسترا، وأعرف حقوقي وواجباتي مثلك. هذا المقهى مكانٌ عام، ولا يستطيع أحدٌ أن يُخرجني منه بلا أمرٍ مكتوب.

أخرج المفتش ورقةً من جيبه ثم أراه إياها فقال الدكتور:

ـ ما معنى هذا؟ ما هذا إلا ظلم مُشَرعَن. هل نحن في حالة حصار مثلاً؟

نصحه المفتش قائلاً:

ـ أرسل شكواك عن طريق التسلسل. هيا يا فينياس، أخرج السيدات من الصالون الصغير، وإلا فسيبقين يتبرّجن حتى الصباح.

في الشارع، تجمهر كثيرٌ من الناس وحاولوا أن يكسروا حاجز الشرطة لكي يروا ما حَدَثَ وعَطّل المرور. خرجوا إلى شارع فلوريدا الأقل ازدحاماً خائفين ومنزعجين. دار مفتش الدوائر البلدية والمدعو فينياس على الطاولات وأخذا يطلبان الدعوات المكتوبة ويسجلان أسماء المدعوين. وراح شرطيٌ يرتفق الكونتوار يتحدّث مع النادلين وأمين الصندوق الذين لديهم أوامر بعدم مغادرة أماكنهم. الآن يبدو مقهى لندن فارغاً تقريباً وكأنه يفتح أبوابه للتو، الأمر الذي تناقض تماماً مع نور الغروب والضوضاء التي تملأ الخارج.

قال مفتش الدوائر البلدية:

ـ حسنٌ، الآن، يمكنكم أن تُسدِلوا الستائر.

ب

لماذا شبكةُ العنكبوت أو لوحةٌ لبيكاسو هما بكل بساطة ما هما؟ ولماذا لا تفسّر اللوحةُ الشبكةَ؟ ولماذا لا يعطينا العنكبوت سببَ

وجود اللوحة؟ ما معنى أن يكون الوضع هكذا؟ إن ما يُرى من قطعة طباشيرٍ يتعلّق بالغيمة التي تمرّ من أمام النافذة، أو بأملِ مَن يتأمّلها. فالأشياء تثقل بمجرّد أن ننظر إليها. ثمانية وثمانية تساوي ستة عشرة زائد مَن يجمعها. إذن كون الشيء هكذا قد لا يكون هكذا، بل قد يكون في أحسن الأحوال يساوي هذا أو يعلن عنه بهذه الألفاظ، أو يخدع بهذه الطريقة. إذا ما نُظر من هذه الزاوية إلى مجموعةٍ من الناس يريدون السفر، فإنها لا تقدّم أية ضمانة، ليس بوصفها مجموعةً ولا بوصفه سفراً بمجرّد أن نفترض أن الظروف يمكن أن تتغيّر، وأن السفر يمكن ألا يحدث. ولكن إذا لم تتغيّر الظروف وإذا حدث السفر فإن لوحة بيكاسو ومجموعة الناس الذين سيسافرون سوف تتبلوران ولن يعود بوسعنا أن نتصور هؤلاء كمجموعة من الناس على وشك السفر. على أية حال، إن هذه الرغبة الحزينة جداً والبلاغية جداً في أن يكون شيءٌ ما أخيراً وفي ألا يتحرّك، سترى قطرات الزئبق التي لا يمكن القبض عليها تجري على طاولات مقهى لندن، أعجوبة الطفولة.

إن ما يقرّبكم من شيء هو كل ما يدفعكم ويوجّهكم نحوه. قفا الشيء، السر الذي دفعه (نعم، هو كما لو أنه كان قد دفعه، نشعر وكأنه من المستحيل أن نقول: الذي حمله، الذي صنعه) إلى أن يكون ما هو عليه. كل مؤرخ يسير في صالة عرضٍ مليئةٍ بأشكالٍ على نمط جان آرب، ولا يستطيع الدوران حولها، ولا يستطيع أن يراها إلا مواجهةً، وهي على جانبي الصالة، يجب عليه أن ينظر إليها كما لو أنها لوحات معلّقة على جدار. المؤرّخ يعرف تماماً أسباب معركة زاما، هذا صحيح، ولكن الأشكال التي يعرفها ما هي إلا أشكال أخرى لجان آرب في صالات عرضٍ أخرى. هكذا، ودون أن يحمل التشابه اللطيف جداً تناوباته المحبّبة إلى الحاضر الذي نحن فيه والذي سنبقى فيه، من الممكن تماماً أن يكون هذا على مستوى الأرض هو مقهى لندن، وأن يكون على ارتفاع عشرة أمتار رقعة شطرنج فظّة لا تتوافق بيادقها مع المربعات وينقصها كل الانسجام بين الظل والنور، وبعد إقامة كل اتفاق، وأن يكون على ارتفاعٍ

عشرين سنتمتراً وجه أتيليو بريسوتي الضخم، وأن يكون على ارتفاع ثلاثة ميليمترات سطحٌ من النيكل الأملس (زر، مرآة؟)، وعلى خمسين متراً أن يتوافق هذا جيداً مع عازف الغيتار الذي رسمه بيكاسو عام 1918 والذي ينتمي إلى أبولينير.

إذا كانت المسافة التي تجعل شيئاً ما ما هو عليه، تقاس بيقيننا بمعرفة الشيء كما هو، فمن العبث متابعة هذا المونولوج والقيام بنسج هذا النسيج. والأقل من ذلك، يجب السعي إلى شرح أسباب هذه الدعوة إلى مقهى لندن التي جعلتها رسائل ذات ترويسة رسمية مع توقيع مصدَّق ظاهرةً بما فيه الكفاية. وكل تطوّرٍ في الزمن (وجهة نظر لا يمكن تحاشيها، وسببية زائغة!) لا يقوم إلا مقابل مفقر على المربعات الإيلية ـ قبل والآن وبعد ـ التي تسترها أحياناً الديمومة البرغسونية أو تأثير خارج زمني لا تستطيع الأحلام أن تسوّغه إلا بصورة مُبهمة. اللحظة البسيطة الحاضرة لما هو في طور الحدوث (قامت الشرطة بإسدال ستائر المقهى) يكسر الزمن ويعكسه إلى وجوهٍ صغيرة لا حصر لها. يمكن انطلاقاً من بعضها إقامة شعاع شفاف والعودة إلى الخلف، وعندئذ سيكون هناك من جديد في حياة باولا لافال حديقة في أكاسوسو، وسيدفع غابرييل مدران باب طفولته الملوَّن في لوماس دو زامورا. لا شيء أكثر، وقليلةٌ هي الأشياء في غابة السببية التي أدّت إلى هذه الدعوة. يلمع من جديد تاريخ العالم في آخر زر من بزّة آخر رجال الشرطة الذين جعلوا الناس يمشون مجتمعين. في اللحظة نفسها التي يتركّز الاهتمام على هذا الزر، فإن شبكة العلاقات التي تضمه وتدفعه إلى أن يكون هذا الشيء، كما لو أنه متطلّع نحو الرعب من شساعةٍ بحيث أن هذا ليس له أي معنى في السقوط ووجهه إلى الأرض. الزر يشبه مركز الدوامة التي تهدّد بابتلاع كل من ينظر إليها. ولكن إذا ما تجرّأ المشاهد أكثر ونظر إلى أبعد فقد تكون له رؤيةٌ مرهقة للعبة القاتلة للمرايا تنطلق من النتائج إلى الأسباب. في كل مرة يصرّ قارئو الروايات السيئون على ضرورة إمكانية الحدوث، فإنهم يتحملون بلا

دواء الموقف التافه الذي يشير إلى مقدمة السفينة بيده بعد عشرين يوماً من السفر ليقول: «من هنا نمضي إلى الأمام».

12

كان الليل قد خيّم تقريباً عند خروجهم، وراحت غيومٌ حمراءُ من، شدة الحرارة، ترتطم بالسماء.

رجا المفتشُ شرطيَّين بلطفٍ بالغ أن يتكرّما بمساعدة السائق على نقل دون غالو إلى الحافلة التي تنتظرهم على مسافة أبعد قليلاً، قرب مبنى البلدية القديم.

كانت بعيدة بما فيه الكفاية، ووجب عليهم اجتياز الشارع، فاضطرّ الشرطي إلى أن يوقف المرور. ولحسن حظه، لم يبقَ إلا القليل من الفضوليين في الشوارع. كثرت تعليقات الناسِ لدى مرورهم من أمام مقهى *لندن* بسبب مظهره الغريب بستائره المُسدَلة، ولكن دون أن يتوقّفوا.

سأل راؤول أحدَ رجال الشرطة:

ـ قل لي بحق الشيطان، لماذا لم يوقفوا الحافلة أمام المقهى؟

أجاب الشرطي:

ـ تلك هي الأوامر، يا سيدي.

سمحت التعارفات التي بدأها المفتش ثم أكملها المسافرون أنفسهم، وهم نصفُ مستمتعين ـ نصفُ خائفين، بأن يشكّلوا مجموعة متراصّة تتبع كموكبٍ كرسيَّ دون غالو النقّال. كانت حافلتهم تشبه حافلة الشرطة رغم عدم وجود أية كتابة على طلائها الأسود البرّاق. وكانت نوافذها عالية وبابها ضيق، ولم يكن من السهل إدخال دون غالو إليها، حيث قام كلٌّ من الحاضرين بإبداء نصائحه ضمن ارتباكٍ عام. وما إن استقرّ دون غالو حتى صعد الجميع وأخذوا يتلمّسون مقاعدهم في الحافلة المظلمة. جلست نورا

ولوسيو في صدر السيارة بعد أن اجتازا الممر الضيق متلاصقَين. وبقيا في مكانيهما، لا يتحرّكان، يرقبان بحذرٍ المسافرين الآخرين ورجالَ الشرطة الذين راحوا يبتعدون. بدأ مدران ولوبيز حديثاً مع راؤول وباولا، وأخذ د. ريستيللي يتبادل التعليقات حول الوضع الراهن مع بيرسيو. شَعَرَ خورخي وكلوديا بكثيرٍ من المتعة، كلٌّ على طريقته. أما الآخرون فقد شغلهم الحديث بصوتٍ عالٍ عن الانتباه إلى ما يحدث.

قام النادلون برفع الستائر المعدنية في مقهى لندن فبقيت ترنّ في أذن لوبيز كنغمةٍ أخيرة أو كعلامةٍ أخيرة من مقطوعة موسيقية لن يسمعوها بعد ذلك أبداً. وإلى جانبه أشعل مدران سيجارةً ثانية وأخذ ينظر إلى إعلانات الصحف غير المقروءة. زعق بوق السيارة وانطلقت. أعلنت مجموعة آل بريسوتي الدامعة بصوتٍ عالٍ أن الوداع صعبٌ دائماً، وأن هناك من يسافرون طبعاً، ولكن هناك من يبقون، وأنه ما دام الإنسان بصحته فمن البدهي... وردَّ الآخرون على ذلك بأن الأسفار هي نفسها دائماً، بعض الناس فرحٌ وبعضهم الآخر حزين. هناك من يسافرون، حسنٌ، ولكن يجب التفكير بمن يبقون أيضاً. العالم مصنوع بشكلٍ سيء. الوضع نفسه دائماً: كلُّ شيءٍ للبعض، ولا شيء للبعض الآخر.

سأل مدران:

ـ ما رأيك بخطاب المفتش؟

ـ لقد حدث أمرٌ غالباً ما يحدث. بدت لي آراء الرجل لا تُدحض، بل إني شعرتُ في النهاية بالارتياح التام لهذا الوضع الجديد، ولكنه يبدو لي الآن أقل وضوحاً.

ـ ثمة تفصيلٌ فخم يمتّعني. ألا ترى أنه كان من الأسهل بكثير لو دُعينا مباشرة إلى الجمارك أو إلى الرصيف؟ ولكن ذلك كان سيحرم شخصاً ما، ربما هو الآن ينظر إلينا من نافذة أحد مكاتب البلدية، من متعة حقيقية.

قال لوبيز:

ـ ثمة طيف إخفاق في كل هذا، إذ يبدو أنهم سيلغون الرحلة، أو أنهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيفعلون بنا.

قال مدران وهو يتذكّر بيتينا:

ـ سيكون ذلك مؤسفاً. أنا لا أحبّ أبداً أن أبقى على الرصيف في اللحظة الأخيرة.

وصلوا إلى الحوض الشمالي. تناول المفتش ميكروفوناً وتحدّث إلى الركاب كما لو أنه شيشرون وكالة كوك. لاحظ راؤول وباولا اللذان يجلسان في الأمام أن السائق يقود ببطءٍ شديد لكي يُتيح الوقتَ للمفتش لكي يتشدّق بكلماته.

همس راؤول في أذن باولا:

ـ هل أعجبكِ أحدٌ من الرحلة؟ فالبلاد ممثّلة تمثيلاً جيداً. النخبة المثقفة والمؤيدة لكرة القدم... إني أتساءل ماذا أفعل هنا.

ـ أشعر وكأني سأستمتع. اسمع الشروحات التي يلقيها علينا فيرجيلنا. إن كلمة «صعوبة» تتردّد كثيراً.

ـ لا نستطيع أن نطلب أن تسير الأمور كلها على ما يرام بعشر بيزوسات. ما رأيك بالأم والطفل؟ إني أحبّ وجهه، ثمة شيءٌ ناعم جداً في فمه وفي خدّيه.

ـ ما يحيّرني هو المعاق. إنه يذكّرني بقرادة ضخمة.

ـ وما رأيك بالصبي الذي يسافر مع أسرته كلّها؟

ـ بل قُل الأسرة التي تسافر مع الصبي.

قال راؤول:

ـ الأسرة أكثر ضبابيةً في نظري.

قالت باولا: «كل شيء يتعلّق بلون الزجاج الذي ننظر من خلاله».

ألحّ المفتّش على مسألة وجوب الحفاظ في كل مناسبةٍ على الهدوء الذي «هو من شيم الأشخاص الجيّدين» وأنه يجب على المرء ألا تبلبله تفصيلات التنظيم أو المصاعب (قال «مصاعب» بإهمال).

وقال د. ريستيللي لبيرسيو:

ـ كل شيء يسير نحو الأفضل. وكل شيء منظّم، ألا ترى ذلك؟

ـ بل سأقول إنه مضطرب بعض الشيء.

ـ أبداً. إن للسلطات أسبابها لكي تنظّم الأمور كما فعلت. أنا شخصياً، لن أخفي عليكَ بأني كنتُ سأغيّر في بعض التفصيلات، وخاصة في القائمة النهائية للمسافرين. لأن من بين هؤلاء الأشخاص ثمة من هم مخالفون، مثل الشاب الذي يجلس خلفنا...

ـ لم نتعارف بعد. و«ربما لن نتعارف أبداً».

ـ يمكنكَ ألا تعرفهم يا سيدي العزيز، أما من ناحيتي أنا، فإن عملي كمدرّس...

قال بيرسيو بحركةٍ واسعة من يده:

ـ حسنٌ، في حالات الغرق، غالباً ما يكون أحطّ الأنذال هم من يبدون أبطالاً. تذكر حالة أندريا دوريا.

قال د. ريستيللي مستَفَزّاً بعض الشيء:

ـ أنا لا أذكره.

ـ حسنٌ، إنه راهب أنقذ بحّاراً. كما ترى، لا يمكن لأحد أن يعرف. ألا ترى أن ما قاله المفتّش مزعج بما فيه الكفاية؟

ـ ما يزال يتكلّم. ربما من الواجب علينا أن نستمع إليه.

ـ المضجر في الأمر هو أنه يكرّر دوماً الكلامَ نفسه. ها قد وصلنا إلى الرصيف.

قلق خورخي على مصير كُرَته ووقّافته ذات الأزرار المذهَّبة. تُرى في أية حقيبة وضعتا؟ وماذا عن *مغامرات دافي كروكيت*؟

قالت كلوديا:

ـ سوف نلتقي جميعاً في المقصورة.

ـ شيءٌ جميل أن تكون لنا مقصورة واحدة، نحن الاثنين. هل تشعرين بدوار البحر يا أمي؟

ـ لا، لا أحد سيشعر بدوار البحر ما عدا بيرسيو، ربما، والسيدات والآنسات اللواتي كنّ يجلسن إلى الطاولة التي كانوا يغنّون عليها ألحان التانغو.

استعرض فيليبي تريخو سلسلةً من التوقّفات المتخيَّلة («إلا إذا حدثت منغّصاتٌ غير متوقَّعة وأجبرتهم على التغيير في آخر لحظة». كما قال المفتّش). أخذ السيد والسيدة زوجتُه ينظران إلى الشارع ويلاحقان بنظرهما كلَّ مصباحٍ كما لو أنهما لن يرياه أبداً بعد الآن، وكما لو أنه فراق موجع.

قال السيد تريخو:

ـ كم هو محزنٌ فراق الوطن!

قالت بيبا:

ـ لا تتكلّم هكذا. لن نغادره إلى الأبد.

وقالت السيدة تريخو:

ـ طبعاً يا عزيزتي. الإنسان يعود دائماً إلى حيث رأى النور. كما يقولون في الشعر.

اختار فيليبي أسماء توقّفات كما لو أنها فواكه يقلّبها ويُديرها في فمه ويعضّ عليها بأسنانه: ريو، داكار، الدار البيضاء، يوكوهاما. فكّر: «ما من شخصٍ في الثانوية سيُتاح له أن يرى

مثل هذه الأماكن دفعةً واحدة. سوف أرسل لهم بطاقاتٍ بريدية ملوَّنة». أغمض عينيه وتمطّى في مقعده. شدّد المفتّش على ضرورة مراعاة بعض الاحتياطات، بصورة إجبارية للأسف.

قال:

- يجب أن أشدّد على ضرورة مراعاة بعض الاحتياطات الإجبارية للأسف. لقد حرصت الإدارة على جميع التفصيلات، ولكن بعض المصاعب قد تضطرّنا إلى أن نعدّل الرحلة بمظاهر معيّنة.

كسرت همهمةٌ غير متوقَّعة أبداً من دون غالو بورينيو الصمتَ المضاعف. (صمت المفتش وتباطأ المحرّك).

- على أية سفينة سنسافر؟ أنا لا أحب ألا أعرف على أية سفينة سنسافر...

فكّرت باولا: «هذا هو السؤال، هذا هو السؤال المحزن الذي يمكن أن يجعل كل شيء هباءً. ولكن سيجاب: سنسافر على...».

أجاب المفتش:

- يا سيد بورينيو، السفينة تشكّل إحدى المصاعب التقنية التي كنتُ أُلمحُ إليها. عندما سُررتُ بلقائكم قبل نحو ساعة، كانت الإدارة في طور مراجعة الموافقات الأخيرة حول هذا الموضوع. ولكن يمكن في هذا الوقت أن تكون قد استجدّت مصاعب قد تغيّر الموقف بشكل كبير. لذا فإنني أرى من المفضَّل الانتظار بضعَ دقائق قبل إعطائكم المعلومة المطلوبة.

قال دون غالو بجفاء:

- على أية حال، مقصورة فردية مع حمام، هذا ما تمّ الاتفاق عليه.

فقال المفتش بهدوء:

ـ اتفاق! لا أظن أن هذه هي الكلمة المناسبة. ولكن لا أظن، ياعزيزي بورينيو، أن هناك مشكلة من هذه الناحية.

فكرت باولا: «هذا ليس كما في حلم. سيكون الأمر أسهل. سيقول راؤول أن هذا يشبه رسماً، رسماً...».

سألت:

ـ كيف يكون الرسم؟

سألها راؤول:

ـ كيف، كيف يكون الرسم؟

ـ ستقول إن كل هذا يشبه رسماً.

ـ نعم أيتها الحمقاء الأسطورية، سيكون الأمر كذلك. وهكذا لن نعرف على أية سفينةٍ سنسافر.

13

وانفجرا ضاحكَين لأن الأمر سيّان عندهما. ولكنه لم يكن كذلك عند د. ريستيللي الذي بدأ، لأول مرة في حياته، يشكّ في الوضع الراهن. أما مدران ولوبيز فقد دفعهما تدخّل دون غالو إلى تدخين سيجارةٍ جديدة، إذ أمتعهما ذلك، هما الآخران.

قال خورخي الذي فهم تماماً ما يحدث:

ـ كأنه قطار شبح. ما إن تدخله حتى تحدث معكَ أمورٌ كثيرة. يمرّ عنكبوتٌ على وجهكَ، وترى هياكل عظمية تتراقص..

وقالت كلوديا:

ـ إننا نُمضي حياتَنا ونحن نتذمّر من عدم حدوث شيء مهمّ فيها، وعندما يحدث شيءٌ فإن معظم الناس يتذمّرون. لا أعرف ما رأيكم في القطارات ـ الأشباح، ولكنها، بالنسبة إليّ، ممتعةٌ أكثر من الشركة العامة للخطوط الحديدية.

قال مدران:

ـ أنا أفهمكِ. في الواقع، إن ما يُقلق دون غالو وفئةً من الناس هنا، هو أننا نعيش نوعاً من القلق من المستقبل. لذا نراهم منشغلين، يسألون عن اسم السفينة. وماذا يعني اسم السفينة؟ ولكن هذا ضمانة لما ما يزال يسمّى «غداً».

قال لوبيز:

ـ وخلال هذا الوقت، بدأتُ أرى الخيال المشؤوم لطرّاد صغير ولسفينة شحنٍ متعدّدة الألوان. أظنها سويدية، ككل السفن التي تبدو نظيفة.

قالت كلوديا:

ـ معكَ حق في الكلام عن القلق من المستقبل. ولكن نحن في مغامرة سوقية بعض الشيء، ومع ذلك فهي مغامرة. والمستقبل هو العامل الأهم فيها. إنه البهار، إذا ما استطعتُ استخدام هذه الصورة المطبخية.

قال مدران:

ـ طبعاً، ولكن الناس جميعاً لا يحبون التوابل الحادة. لا شك في أن هناك طريقتين متعاكستين تماماً في تقوية الحاضر. الدوائر البلدية تلغي كل مرجعٍ محسوس للمستقبل وتصنع لغزاً سلبياً. المبصرّون يقلقون، ولكني أتلذّذ بهذا الحاضر العبثي.

قالت كلوديا:

ـ ولكن جزئياً، لأني لا أؤمن بالمستقبل. ما يخبّئونه عنا ليس إلا أسباب الحاضر. وهم لا يعرفون أيَّ سحرٍ يمكن أن تولّده ألغازُهم البيروقراطية.

قال لوبيز:

ـ أنا أصدّقك في أنهم لا يعرفون ذلك. يا له من سحر! بل

بالأحرى هو ركام مبهم من المصالح والتوصيات وحق الأسبقية، كما هي الحال دائماً.

وقفت الحافلة أمام عنبر للجمارك. كان المرفأ غائصاً في الظلام. لا المصابيح القليلة المضاءة في البعيد، ولا سجائر رجال الشرطة كانت معدودةً بين الأنوار. سرعان ما ضاعت الأشياء في الظلام، ورائحةُ المرفأ الكثيفة انسحقت على الوجوه الحائرة أو المسرورة لأولئك الذين نزلوا من الحافلة. اتجّه الجميع نحو البوابة التي كان المفتش ينتظرهم أمامها. فكّر راؤول: «ليست مجرد مصادفة أن يسيروا كمجموعة متراصّة، إذ لم يكن من الحكمة البقاء في الخلف».

تقدّم شرطيٌ وقال بلطف:

ـ مساء الخير أيها السادة.

أخرج المفتش بطاقات من جيبه وأراها للشرطي. أُضيء مصباحٌ كهربائي وسُمع صوتُ منبّه سيارة في البعيد وسعل شخصٌ لم يكن مرئياً.

قال الشرطي:

ـ من هنا، إذا شئتم أن تتبعوني.

أخذ المصباح الكهربائي يجرّ عيناً صفراء على الأرض الإسمنتية التي انتثرت عليها نتف القش ودوائر من الأغلفة وأوراقٌ مدعوكة. تضخّمت الأصوات فجأةً وهي ترنّ في عنبر واسعٍ فارغ. دارت العين الصفراء حول المقعد الطويل للجمارك ثم توقّفت لكي تبينّ الطريق لأولئك الذين يتقدّمون بحذر.

سُمع صوتُ القطيفة وهو يقول: «أوه يا صديقي، لقد جعلوا منها قصة طويلة، وكأننا في فيلم لبوريس كارلوف». عندما أشعل فيليبي تريخو سيجارةً (نظرت أمّه إليه مذهولةً وهي تراه يدخّن بحضورها لأول مرة) هزّ نورُ عود الثقاب، للحظة، الصفَّ الطويل،

غير الواثق، الذي كان متجهاً صوب البوابة التي في الصدر حيث يرتسم بغموض ضوءُ الليل الشحيح. تعلّقت نورا بذراع لوسيو وأغمضت عينيها وهي لا تريد أن تفتحهما إلا بعد أن يصلا إلى الجهة الأخرى، تحت سماءٍ بلا نجوم، ولكن تفوح منها رائحةُ فضاءٍ طلق. هما أول من رأى السفينة. وعندما التفتت نورا، فرحةً جداً، لتُخبر الآخرين، أحاط رجال الشرطة والمفتش بالمجموعة، وانطفأ المصباح، ولم يبقَ إلا نورٌ ضئيل لمصباحِ شارعٍ بعيد ينير أسفل عبّارة خشبية. صفّق المفتّش عدة صفقات قويّة بيديه، وأتتهم أصوات أقوى، ميكانيكية، من جوف العنبر، وكأنها تسخر.

قال المفتش:

ـ أنا ممتنٌّ لكم للتفهّم الذي أبديتموه. ولم يبق لي إلا أن أتمنّى لكم رحلةً سعيدة. سوف يستقبلكم ضباط السفينة على سطح السفينة وسوف يدلّون كلاً منكم إلى مقصورته. وستنطلق السفينة بعد ساعة.

اكتشف مدران فجأةً أن السلبية والسخرية دامتا طويلاً فانفصل عن المجموعة. ككل مرةٍ ينظر فيها إلى نفسه وهو يتحرّك، دهمته ضحكةٌ ولكنه كتمها، ثم سأل:

ـ قل لي أيها المفتش، هل تعرف اسم السفينة.

حنى المفتش رأسه بلطف، وكأن له إكليل رأس يُظهِر دائرة مضاءة على شعره في الغبش.

ـ نعم يا سيدي، إن أحد رجال الشرطة من الذين اتصلت معهم الإدارة خلال هذا الوقت أتى وأخبرني. إنها *مالكولم* من *ماخنتا ستار*.

قال لوبيز:

ـ إنها سفينة شحن، بحسب الخط.

ـ سفينة شحن مختلطة. من أفضل سفن الشحن، صدّقوني. وهناك طاقم ممتاز لعددٍ محدود من الأشخاص المختارين. ولديّ

خبرتي في هذا المجال، رغم أنني أمضيتُ معظم حياتي في التسجيل.

قال شرطي:

ـ ستكونون على أحسن ما يرام. لقد صعدتُ على متن السفينة وأستطيع أن أطمئنكم. كان هناك إضراب للعمال، لكن الأمور تعود إلى نصابها شيئاً فشيئاً. أنتم تعرفون ما هي الشيوعية، ولقد وصلت العدوى إلى الطاقم، حتى في الشركات الأكثر جدّيةً. لحسن الحظ أننا في بلد يسود فيه النظام والسلطة. ومهما كان الآخرون من غرينغو فلن يلبثوا أن يفهموا ويكفّوا عن أن يكونوا سخفاء.

قال المفتش وهو ينتحي جانباً:

ـ اصعدوا أيها السادة، أرجوكم. لقد سررتُ بمعرفتكم، وأنا آسفٌ لعدم تمكني من مرافقتكم حتى النهاية.

صدرت ضحكةٌ صغيرة بدث مفتَعَلةً لمدران. تزاحمت المجموعة كلّها عند بداية العبّارة. صافح بعضهم المفتشَ والشرطة، وساعد القطيفة، مرة أخرى، في نقل دون غالو الذي بدا نائماً. تشبّثت السيدة بريسوتي بقوة بدرابزين العبّارة، بينما صعد الآخرون بسرعةٍ صامتين. عندما التفت راؤول، تماماً قبل أن يضع قدمه على سطح السفينة، رأى المفتشَ ورجال الشرطة في الأسفل يتحدّثون بصوتٍ خافت. كل شيءٍ في الخفاء، كما هي الحال دائماً، الضوء والأصوات والعنابر وحتى صوت ارتطام الماء بجسم السفينة. لم يكن هناك كثيرٌ من الأنوار، ولا حتى على متن *مالكولم*.

ج

الآن، مرةً أخرى، سيفكّر بيرسيو، سوف يلتقط الفكرة كخنجرٍ قصير وحادّ وسوف يسدّده نحو هذا الاهتزاز الأصمّ الذي يصل حتى مقصورته، ونحو هذا الصراع حول عدد كبير من قطع اللباد، نحو هذه النزهة في غابة من بلوط الفلّين. من المستحيل عليه أن

يعرف في أية لحظةٍ أخذ الكركند الضخم يحرّك ساعده الكبير، المقود أو السرعة، النائم طوال عدة أيام. استيقظ مهتاجاً وتفقّد جناحيه وقوائمه وذيله قبل أن يهاجم البحر، صفارة انذار تزأر، وقمرة عادية ومتقلّبة. صار بيرسيو يعرف السفينة دون أن يغادر مقصورته. إنه يتوضّع في هذه اللحظة السمتية التي سيجذب فيها قاطران قذران وعنيدان، متراً بعد متر، الأم الكبرى المصنوعة من النحاس والحديد وسيفصلانها عن الرصيف، وعن مماسها الممغنط. بينما هو يفتح بذهول حقيبة سوداء ويُعجب بالخزانة حيث يمكن ترتيب كل شيء جيداً، كؤوس الكريستال المقطوعة جيداً والمعلّقة بصورةٍ صحيحة على الحاجز، والمكتب ومرفقة الورق الجلدية فاتحة اللون، شعر وكأنه قلب السفينة، تفاحة الخس التي تصل إليها الخفقات المتسارعة في اهتزاز متخامد. شيئاً فشيئاً رأى السفينة كما لو أنه، مثل قبطان، استقرّ على العبّارة التي منها يتحكّم بمقدمة السفينة وبالصارية الأولى وبالحد المنحني الذي يوقظ الزبد الزائل. رؤية المقدمة تنبسط أمامه بصورةٍ غريبة كما لو أنه أنزل لوحةً، وأنه عندما أسندها أفقياً براحتيه المفتوحتين، رأى الخطوط والجزء العلوي وحجومه تبتعد عن المستوى الأول، وكل العلاقات المتَصوَّرة عمودياً من قبل الرسام تتغيّر وتنتظم وفقَ نظام آخر، هو أيضاً ممكنٌ ومقبول. كل ما استطاع بيرسيو أن يراه (هو مايزال في مقصورته، كما لو أنه يحلم أو كما لو أنه يرى العبّارة على شاشة رادار) تبدّد في ظلمات مائلة إلى الخضرة تتخلّلها أنوار صغيرة صفراء من اليسار ومن اليمين ومصباحٌ أبيض معلّق على ما يمكن أن يكون الصارية المائلة (ولكن من المستحيل أن يكون لمالكولم، سفينة الشحن هذه، فخر ماختنا ستار، صارية مائلة). مقابل النافذة الكبيرة التي يحميه زجاجها المائل إلى البنفسجي من الريح التي تهب من النهر (كل شيء وحل من حوله، إنه ريو دولا بلاتا «(نهر الفضة، يا له من اسم!)» ممتلئاً بسمك الشبوط وسمك المرجان وبخيوط الذهب في فضة نهر الفضة، ياله من ترصيعٍ سخيف، ويا لها من مجوهراتٍ شنيعة!). بدأ بيرسيو يرى شكل مقدّمة السفينة وسطحها.

أخذ يراهما بصورةٍ أفضل فتنكّر شيئاً، لوحةً تكعيبية مثلاً، ولكن بشرط أن تبقى مستلقيةً على راحتيه المفتوحتين، وقد صار أسفلها من الأمام وأعلاها من الخلف. وها قد بدأ بيرسيو يلمح الأشكال غير المنتظمة من اليمين ومن اليسار، ولمح في البعيد ظلالاً غامضة مائلة إلى الزرقة كلوحة عازف الغيتار لبيكاسو، وفي الوسط لمح صاريتين تسندان على مضضٍ حبالهما، صاريتين هما في اللوحة دائرتان، الأولى سوداء والثانية خضراء مع خطوط سوداء، إنه فم الغيتار، ولو تمكن من غرس صاريتين في اللوحة المستلقية على راحتيه المفتوحتين، لحصل على مقدّمة السفينة، لحصل على مالكولم التي تنطلق من بوينس آيرس، تلك الكتلة التي تهتز في النهر وتطقطق.

الآن، مرةً أخرى سوف يفكّر بيرسيو، ولكن بعكس ما يفعله شخصٌ مُحبَط، لن يحاول أن ينظّم ما يحيط به، المصابيح الصفراء والبيضاء، والصواري، والمنارات؛ بل على العكس، سيفكّر بفوضى أكبر من ذلك، سيفتح ذراعي التفكير متصالبين لكي يدفع إلى أعمق الأعماق كل ما يظلمه بأشكالٍ قائمة ـ المقصورة والممر والفتحات وسطح السفينة والاتجاه والغد والرحلة البحرية.

لا يعتقد بيرسيو أن ما يحصل في تلك اللحظة معقول؛ إنه لا يريده على أية حال. إنه يقدّر التواجد الكامل لقطع لوحته التركيبية النهرية: ووجهَ كلوديا وحذاءَ أتيليو بريسوتي والستيوارد الذي (ربما) يتجول الآن في ممر مقصورته. يشعر بيرسيو، مرةً أخرى، أنه في هذه الساعة من الترسيم، ما يسمّيه الركاب اليومَ التالي يمكن أن يقوم على قواعد محدّدة هذا المساء. همّه الوحيد يأتي من ضخامة الخيار الممكن. هل سيتركون قيادتهم للنجوم أم للبوصلة أم للسيبيرنيتيك أم للمصادفة أم للمبادئ المنطقية أم للأسباب الخفية أم للألواح الخشبية أم لحالة الحويصل الصفراوي أم للجنس أم للطباع أم للمشاعر المسبقة أم للاهوت المسيحي أم للزن أفيستا أم لإفرازات ملكة النحل أم لدليل الخطوط الحديدية البرتغالية أم

للسونيه، أم بكل بساطة بضبط الطرق البحرية مع التنبؤات المتفائلة التي تحويها كل علبة محلّيات فالدا؟

تراجع بيرسيو هلعاً أمام خطر قسره الواقع، وتردّده الأبدي هو تردّد الحشرة المحبّة للألوان التي تجوب امتداد اللوحة رافضةً نجدة التلوّن الحرباوي. بما أن اللون الأزرق يجتذبها، تراها تدور حول الأجزاء الوسطى للغيتار حيث يسود اللون الأصفر الوسخ والأخضر الزيتوني. ستبقى على الحواف كما لو أنها تسبح قرب السفينة وعندما تصل من الجهة اليمنى نحو الفتحة المركزية ستكتشف أن المنطقة الزرقاء تقطعها مساحاتٌ عريضة خضراء. تشبه تلمُّسات هذه الحشرة بحثاً عن جسرٍ لكي تصل إلى منطقةٍ أخرى زرقاء تردّدَ بيرسيو الذي يحرص دائماً على ألا يخترق القوانين السرية. فبيرسيو يحسد أولئك الذين لا يطرحون مشكلة الحرية إلا بكلمات شخصية. ولكي يفتح باب مقصورته، يرى أن حركته والباب مرتبطان في آنٍ واحد ارتباطاً لا فكاكَ منه، على اعتبار أن اجتياز بابٍ يمكن أن يكون حركةً خاطئة قد تخرق قانوناً لا يستطيع أن يفهمه فهماً واضحاً. بمعنى آخر، إن بيرسيو حشرة محبّة للألوان وعمياء في آنٍ معاً، وهو مضطّر إلى ألا يجوب إلا المناطق الزرقاء في اللوحة، ولا يكفّ عن إيقافه شكٌّ فظيع. لكن بيرسيو يتمتّع بتلك الشكوك التي يسمّيها الفن أو الشعر ويعتقد أن من واجبه أن يتوقّع أي موقفٍ من زاويته الأكثر انفراجاً، وليس الموقف نفسه فحسب، بل كل مشتقّاته المتخيّلة، منذ صياغته الكلامية التي يثق فيها ثقة بريئة تماماً وحتى انعكاساته التي يسمّيها سحريةً أو ديالكتيكية بحسب حالة كبده أو حالة قلبه.

من المحتمل جداً أن يتغلّب تأرجحُ مالكولم على بيرسيو في النهاية؛ سيرقد وهو بالغ السعادة على سريره المناسب المصنوع من خشب الأرز بعد أن استمتع بتحريك كافة الأدوات الميكانيكية والكهربائية التي تُسهم في إسعاد السادة الركاب. ولكن بانتظار ذلك سوف يستسلم إلى تجربةٍ عزيزةٍ عليه: سوف يُخرج من حقيبته أقلام رصاص وأوراقاً ومؤشّراً للخط الحديدي وسوف يغرق في حساباتٍ

ناسياً الرحلةَ والسفينة لأنه يريد أن يخطو خطوةً إضافية نحو المظهر ويصل إلى مقدّمة واقعه الممكن. سيعمل في الساعة التي قَبِل فيها الركاب الآخرون جميعاً على متن السفينة ذلك المظهر بعد أن أعطوه جسداً وهم يصفونه بالاستثنائي أو بغير الواقعي. يا لها من مقاييس فقيرة للكائن لا يمكن للمرء إلا أن يرطم أنفه بها (لكن الآخرين سيصفون هذه الصدمة بأنها مجرّد عطاس تحسّسي).

14

- Eksta vorbede - You two married - هل أنتما معاً؟

أجاب راؤول:

- نحن معاً أكثر منا متزوّجين. وهذان هما جوازا سفرنا.

الضابط قصيرُ القامة يتصرّف بطريقةٍ ماكرة. شطب اسمَي باولا وراؤول وأشار إلى بحار طافح الوجه، وقال حرفياً قبل أن ينحني ليهتمّ بالراكب التالي:

- سوف يصحبكما إلى مقصورتكما.

سرعان ما أحبّت باولا رائحة المركب والطريقةَ التي تكتم بها الممرات الضجيج. كان من الصعب عليها أن تتخيّل، على بعد خطواتٍ فقط، الرصيفَ القذر ورجال الشرطة والمفتش.

قالت:

- وبوينس آيرس تبدأ، هناك، قريباً منا. أليس هذا غير معقول؟

- ما هو غير معقول أن تقولي: «تبدأ». لقد تكيّفتِ بسرعة مع الوضع الجديد. برأيي، إن المرفأ هو المكان الذي تنتهي المدينة عنده دائماً. والآن أكثر من أي وقتٍ آخر. على أية حال ليست هذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها.

ـ تبدأ! الأشياء لا تنتهي بهذه السهولة. أنا أحبّ رائحة المطهّرات هذه مع الخزامى. رائحة الفلاي ـ توكس للغيوم القاتلة للعث. عندما كنتُ صغيرة كان يحلو لي أن أضع رأسي في خزانة عمتي كاميلا؛ كان كل شيءٍ فيها أسود وغامضاً وله رائحة تشبه هذه تماماً.

قالت البحار:

ـ this way, please.

فتح الباب وسلّمهما مفتاحاً بعد أن أشعل الأنوار. مضى حتى قبل أن يتمكّنا من شكره أو إعطائه بخشيشاً.

قالت باولا:

ـ ما أجمل هذا! حقاً ما أجمل هذا!

قال راؤول وهو يعدّ الحقائب المكدّسة على السجاد:

ـ نعم، الآن يبدو أنه أمر لا يصدَّق أن تكون العنابر قريبةً جداً.

كان العدد صحيحاً، فأخذا يعلّقان ملابسهما ويرتّبان كل الأشياء التي بدا بعضها غريباً. استولت باولا على السرير الواقع تحت النافذة. استلقت عليه مع تنهيدة ارتياح ونظرت إلى راؤول الذي كان يشعل غليونه وهو يواصل ترتيب فراشي الأسنان ومعجون الأسنان وكتباً وعلب تبغ. سيكون من المضحك رؤية راؤول نائماً على السرير الآخر. ستكون هذه هي المرة الأولى التي ينامان فيها في غرفةٍ واحدة بعد أن التقيا في آلاف الغرف والشوارع والمقاهي والقطارات والسيارات والشواطئ والغابات. هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها مرتدياً منامته (المطوية بعناية على السرير). طلبت منه سيجارة. أشعلها لها وأتى ليجلس إلى جانبها وهو ينظر إليها نظرةً نصفها فرحٌ ونصفها ارتياب.

سألها:

ـ ليس سيئاً، إيه؟

- Pas mal du tout, mon chou(*).

- جميلةٌ جداً وأنتِ ممدّدة هكذا!

- أنا بخرّي.

وانفجرا ضاحكين. ثم قال:

- ليتنا نذهب في رحلة استطلاع.

- هممم، أنا أفضّل أن نبقى هنا. إذا صعدنا على سطح السفينة سنرى أنوار بوينس آيرس.

- وماذا لديكِ من مآخذ على أنوار بوينس آيرس؟ أنا سأصعد.

- أما أنا فسأعيد بعض النظام لهذه الفوضى، أنتَ تسمي ذلك ترتيباً... يا لها من مقصورة جميلة! لم يخطر ببالي أبداً أنهم سيعطوننا مقصورة بهذه الروعة!

- نعم، الحمد لله. إنها لا تشبه مقصورات الدرجة الأولى في السفن الإيطالية. أول مرة رأيتُ فيها الكونت غراندي، ظننتُ أنهم حمّلوا عليها الماغازان ريوني لكي يُضفوا جوَّ بيت أوشير مع الطنافس وأغطية الأسرّة وكل شيء، كل شيء. مزية سفينة الشحن هذه هي أنها لا تريد أن تبدو فقيرة. وخشب السنديان والمرّان يدلان بوضوح على نهج بروتستانتي.

- لا شيء يدلّ على أننا على مركب بروتستانتي. ومع ذلك فأنتَ على حق. أحبّ رائحة غليونك.

- احذري!

- لماذا أحذر؟

- لا أعرف. رائحة الغليون طبعاً.

ذهب إلى الطاولة وكدّس عليها الكتب والدفاتر، ثم جرّب المصابيح ودرس جميع إمكانيات الإضاءة. كم سرّه أن يكتشف أن

(*) لا بأس أبداً، يا عزيزي! م.

مصابيح الأسرّة يمكنها أن تتخذ الأوضاع الممكنة كافة. أذكياء هؤلاء السويديون. هذا إذا كانوا سويديين. كانت المطالعة إحدى آمال الرحلة. المطالعة في السرير دون أن يكون هناك شيء آخر يفعله.

قالت باولا:

- في هذه الساعة، لا بدّ أن أخي رودولفو الضعيف مستغرق الآن بالتنديد أمام أسرتي بتصرّفي المنحلّ. فتاة شابة من أسرة محترمة تذهب في رحلة دون أن تترك عنواناً ورفضت أن تحدّد لنا ساعة سفرها لتتجنّب الوداع.

- أودّ أن أعرف رأيه حين يعرف أنكِ تقاسمين عازباً غرفته.

- يرتدي منامةً زرقاء ويُبدي، الملاك المسكين، حنيناً وآمالاً أكثر جنوناً منه.

- ليست مستحيلة دائماً، وليست دائماً حنيناً. تعلّمي أن الهواء البحري المليء باليود يحمل لي الحظ. صحيح أنه حظ قصير وعابر كهذه الطيور التي سترينها قريباً والتي ستتبع السفينة حيناً؛ أحياناً ساعات، وأحياناً أياماً، ثم ينتهي بها الأمر أن تضيع في البعيد. ولكن سيان عندي أن تدوم السعادة قليلاً يا صغيرتي باولا. إن انتقال السعادة إلى العادة هو أمضى أسلحة الموت.

قالت باولا:

- أخي لن يصدّقك. أخي يعتقد أن ساتيراً(*) قد اختطفني. أخي...

- لا أحد يعلم أبداً. لكي تتقي كلَّ خطرٍ للسراب وكلَّ خطأ بسبب

(*) الساتير: كائن بين الآلهة والبشر والحيوانات، وهو أشبه بالجن، وقد اعتُبر عند اليونان إلهاً للغابات والجبال. م.

الظلمة وكلُّ حلم ينتهي مستيقظاً، ولكي تتصدّي لتأثير الهواء البحري انتبهي ولا تكشفي جسمكِ كثيراً. إن المرأة التي تتغطّى بملاءات حتى رقبتها تقي نفسها من الحرائق.

ـ أعتقد أنه لو كان لديكَ سرابٌ لاستقبلتُكَ بهذه المسرحية لشكسبير على الحواف الحادّة.

قال راؤول وهو يفتح الباب:

ـ طريقة غريبة لاستخدام شكسبير.

وفي تلك اللحظة تماماً، ظهر لوبيز في إطار الباب وهو يرفع ساقه اليمنى ليخطو إلى الأمام. لم يستطع راؤول أن يمنع نفسه من تذكّر إحدى تلك الصور الفورية لخيولٍ متحرّكة.

قال لوبيز وهو يقف فجأةً:

ـ هولا، هل حصلتما على مقصورة جيدة؟

ـ جيدة جداً. تعالَ والقِ نظرة.

ألقى لوبيز نظرةً ورفَّ جفنيه عندما رأى باولا مستلقيةً على السرير.

قالت باولا:

ـ هولا، ادخل إن استطعتَ أن تجد موطئ قدم.

قال لوبيز إن مقصورتهما تشبه كثيراً مقصورتَه ما عدا الحجم. ثم أضاف بأنه التقى بسيدة تدعى السيدة بريسوتي تقدّم للنظر وجهاً محنَّطاً.

سأل راؤول:

ـ هل أصيبت بدوار البحر؟ انتبهي يا باوليت. ماذا سيحلّ بتلك السيدات عندما نلتقي بالبيبيموث وببعض المخلوقات العجيبة البحرية الأخرى؟ هل نقوم بجولة؟ اسمكَ لوبيز على ما أظن. أنا اسمي راؤول كوستا، ومحظية الحريم المتعَبة هذه اسمها النبيل باولا لافال.

ـ أنتَ النبيل. إن اسمي أقرب إلى ألقاب إحدى ممثلات السينما. راؤول، قبل أن تخرج لترى النهر الذي بلون الأسد قل لي أين حقيبتي الخضراء.

ـ تحت السترة الحمراء أو مخبَّأة في الحقيبة الرمادية. مجموعة الألوان منوّعة جداً... هل تأتي يا لوبيز؟

ـ أنا قادم. إلى اللقاء يا آنسة.

أصغت باولا إلى كلمة «آنسة» بأذن معتادة على التقاط تباينات الكلمة كلها.

قالت بنبرة تبيّن للوبيز أنها فهمت مقصده وأنها تسخر منه بعض الشيء:

ـ نادِني: باولا، بكل بساطة.

تنهّد راؤول وهو ينظر إليهما من عند الباب. لقد كان يعرف صوتَ باولا جيداً جداً: تلك طريقةٌ ما لباولا ما في أن تقول شيئاً ما.

قال كمن يقول لنفسه:

ـ So soon, so, so, soon.

نظر إليه لوبيز ثم ذهبا.

جلست باولا على حافة السرير. فجأةً بدت لها المقصورة صغيرةً جداً، وخانقةً جداً. بحثت عن مروحة، لكنها وجدت المكيّف. شغّلته وهي ذاهلة. جرّبت أحد المقاعد، ثم آخر، ثم رتّبت الفراشي على الرف. قرّرت أنها تشعر بالراحة وأنها فرحة. هذه أشياء عليها أن تقرّرها الآن لكي تؤكّدها. ردّت لها المرآة ابتسامتها عندما بدأت تستكشف الحمّام المطلي بالأخضر الفاتح. نظرت هذه المرة بارتياحٍ إلى تلك المرأة الصهباء ذات العينين اللوزيتين التي تردّ لها ابتسامتَها بلطف. كانت رائحة الصابون الصغير، ذي رائحة الصنوبر، الذي أخرجته من علبة التواليت ما تزال رائحةَ حديقتها قبل أن تصبح ذكرى رائحة الحديقة. لماذا يجب أن يكون لحمّام

مالكولم، هو الآخر، رائحةَ حديقتها؟ إن لصابون رائحة الصنوبر ملمساً لطيفاً؛ لكل صابونٍ جديد شيءٌ ما محبَّب، هشٌّ، لم يمسّ، يجعله ثميناً بالنسبة إلينا. رغوته مختلفة، تتبدّد بصورةٍ غير محسوسة، تدوم أياماً وأياماً تحيط خلالها رائحةُ الصنوبر بالحمّام، ثمة صنوبرٌ قرب المرآة، فوق الرفوف، على فخذَيْ وشعرِ تلك التي تقرّر فجأةً أن تخلع ملابسها لتبدأ الحمّامَ الرائعَ الذي تهبها إياه ماخنتا ستار.

دون أن تتجشّم عناء إغلاق الباب المتصل، خلعت باولا حمالة صدرها، إنها تحبّ نهديها، تحبّ جسدَها كلَّه الذي يكبر في المرآة. الماء ساخنٌ جداً بحيث أنها اضطرّت إلى أن تقوم بدراسة متأنّية للخلاط اللامع قبل أن تدخل إلى المغطس الصغير. امتزجت رائحة الصنوبر بالهواء الساخن، وأخذت باولا تصوبن بكلتا يديها ثم بالاسفنجة الكاوتشوكية الحمراء منزِّهةً ببطءٍ الرغوةَ على سائر أنحاء جسدها فمرّرتها بين فخذيها وتحت إبطيها وعلى فمها. وفي الوقت نفسه طفقت تحسّ بمتعة الترنّح غير المحسوس، حتى لو أن ذلك يضطرّها أحياناً إلى التشبّث بالأنابيب بلعبةٍ بسيطة، وإلى أن تشتم قليلاً متعتَها الخفية. فاصل الحمّام، قوسان للحياة الجافة اللابسة. هكذا تحرّرت من الزمن وهي عارية، أصبحت من جديد الجسدَ الأبديَّ (وربما الروح الأبدية، لمَ لا؟) المُستباحَ للصابون ولرائحة الصنوبر ولماء المرشاش، تماماً كما كانت دائماً، مؤكّدةً بقاءها بلعبة اختلاف الأمكنة ودرجات الحرارة والعطور. ولكن ما إن تلفّ نفسها بالمنشفة الصفراء المعلّقة عند متناول يدها، حتى تستعيد سأمَها كامرأةٍ لابسة، كما لو أن كلَّ قطعةٍ من ملابسها تربطها بالتاريخ وتعيد إليها كلَّ سنةٍ من حياتها وكلَّ حلقةٍ من الذكرى وتلصق المستقبلَ على وجهها كقناعٍ من الطين. لقد بدا لوبيز محبَّباً (إذا كان هذا الرجل الشاب ذو الملامح الأرجنتينية النموذجية لوبيز بالفعل). وكونه يحمل اسماً شائعاً مثل «لوبيز» لهُوَ

مصيبة كغيرها. صحيحٌ أنه كان يسخر منها قليلاً عندما قال: «إلى اللقاء يا آنسة»، إلا أن كلمة «سيدة» كانت أسوأ. مَن على متن مالكولم يصدّق أنها لا تنام مع راؤول؟ لا يمكن أن نبالغ في الطلب من الآخرين. تذكّرت أخاها رودولفو من جديد، تذكّرت المحامي، الدكتور كونان، تذكّرت ربطة العنق الكحلية ذات الخطوط الحمراء. «شخصٌ مسكين لن يعرف أبداً ما معنى السقوط الحقيقي، الارتماء في وسط الحياة كما من أعلى مرقاة. عجوزٌ مسكين بمواعيده أمام المحاكم وهيئته كرجل رصين». بدأت تسرّح شعرَها بعصبية وهي عارية أمام المرآة، غارقةً في فرح بخار الماء الذي أخذت مروحةٌ خفيّة معلّقة عند السقف تمتصّه شيئاً فشيئاً.

15

الممرّ ضيّقٌ. ولا يعرف لوبيز وراؤول بالضبط. أين يذهبان فجأةً وجدا نفسيهما أمام باب مصفّح مُقفَلٍ بالمفتاح. فوجئا قليلاً فأخذا ينظران إلى الصفائح الفولاذية المطليّة باللون الرمادي وآلية الإغلاق الأوتوماتيكية.

قال راؤول:

ـ هذا غريب! كنتُ سأقسم أني مررتُ من هنا مع باولا منذ قليل.

ـ هذا مخرج للنجاة أو شيءٌ من هذا القبيل. ما اللغة التي يتكلّمونها على متن السفينة؟

البحّار المناوب الواقف قرب الباب ينظر إليهما بهيئة من لم يفهم شيئاً أو من لا يريد أن يفهم.

أخذا يقومان بحركات ليُفهِماه بأنهما يريدان المرور. لكنّ حركةً حاسمةً أفهمتهما بأن عليهما أن يعودا على أعقابهما. أطاعا، ومرّا من جديد من أمام مقصورة راؤول ثم قادهما الممر إلى سطح السفينة الأمامي. سمعا ضحكاتٍ وكلاماً في الظلام، ولمحا بوينس

آيرس التي ابتعدت بهيئتها كمدينةٍ ملتهبة. تقدّما تلمّساً، فقد اكتشفا وجودَ مقاعد على سطح السفينة ولفّات حبال ومرابط الحبال ودرابزين السفينة.

قال راؤول:

ـ جميلٌ أن نرى المدينة من هنا، ونرى وحدتها ورسمها الكامل! إن المرء ليغرق في عاداته فيها حتى لا يعرف شكلها الحقيقي.

ـ نعم، الأمر مختلفٌ تماماً، ولكن الحرارة هي نفسها. وكذلك رائحة الطين تلك التي تصعد أحياناً حتى أقواس شارع المرفأ.

ـ لطالما أخافني النهر، طبعاً بسبب قاعه الطيني، وبسبب الماء القذر الذي يبدو وكأنه يريد أن يخفي ما تحته. وربما قصص الغرقى التي كانت تخيفني عندما كنتُ طفلاً، ومع ذلك إنه لمن الممتع جداً السباحة فيه أو الصيد.

قال لوبيز الذي بدأ يميّز الأشكال:

ـ هذه السفينة صغيرة. ومع ذلك فإني أستغرب أمرَ ذلك الباب الحديدي المقفل. لدي انطباعٌ بأننا لا نستطيع أن نمرّ إلى أبعد من ذلك.

حاجز عالٍ يقطع سطح السفينة من طرفٍ إلى آخر. وتحت الأدراج المؤدّية إلى ممرات المقصورات ثمة بابان. لكن لوبيز سرعان ما اكتشف أنهما مُغلقان بالمفتاح هما أيضاً، فشعر بالانزعاج دون أن يعرف السبب. في الأعلى، أتاح لهما زجاجُ العبّارة المائل إلى البنفسجي رؤيةَ نورٍ يتحرّك. بصعوبةٍ استطاعا أن يلمحا خيال أحد الضباط، ومن فوقه يدور قوس الرادار متكاسلاً.

رغب راؤول في أن يعود إلى مقصورته ويتكلّم بهدوءٍ مع باولا. أخذ لوبيز يدخّن ويداه في جيبيه. مرّ شكلٌ يتبعه ظلٌّ ضخم. إنه دون غالو بورينيو يستكشف سطح السفينة. سمعا سعالَ شخصٍ يبحث عن

ذريعةٍ ليبدأ حديثاً معهما. أخيراً اقترب منهما فيليبي تريخو وهو منشغلٌ بإشعال سيجارته، وسألهما:

ـ هولا، هل مقصورتاكما جيدتان؟

أجابه لوبيز:

ـ لا بأس. وأنتم الآخرون؟

لم يستسغ فيليبي أن يُقرَن مع أسرته فقال موضّحاً:

ـ أنا مع أبي، وأمي وأختي في المقصورة المجاورة. يوجد حمام وكل شيء. انظرا من هنا، هناك أنوارٌ، لا بدّ أنها أنوار بيرّيسو وكويلمس، بل حتى لابلاتا.

سأله راؤول وهو يضرب على غليونه:

ـ هل تحب السفر؟ أم هذه هي مغامرتكَ الأولى؟

كذلك لم يستسغ فيليبي أن يتوغّل أحدٌ في ماضيه. رغب في ألا يجيب، أو في أن يقول إنه سافر مراراً، ولكن خشي أن يكون لوبيز مطّلعاً على كل حركات تلميذه وسكناته، فقال بغموض إن القيام بجولة على متن سفينة لأمرٌ ممتع.

قال لوبيز بود:

ـ نعم، السفر أفضل من المدرسة.

ـ ثمة من يدّعون بأن الأسفار تصنع الشباب، فلنرَ إن كان ذلك صحيحاً.

ضحك فيليبي من تزايد انزعاجه، فهو متأكّدٌ من أنه لو كان وحيداً مع لوبيز أو مع الراكب الآخر لاستطاع أن يتحدّث بحرية أكثر، ولكن كُتب عليه أن تكون حياته مستحيلةً بين أبيه وأخته ومدرّسَيه، وبخاصة القط الأسود. حلُمَ للحظةٍ بالنزول من السفينة سراً والتجول في عرض البحر والفرار، وحيداً. فكّر: «نعم، سأهرب وحيداً، هذا ما يجب أن أفعله». ومع ذلك لم يأسف لأنه اقترب من الرجلين. بوينس آيرس، بأنوارها هناك، تظلمه وتحمّسه في آنٍ

معاً؛ كان سيغنّي، يتسلّق الصارية، يركض على سطح السفينة، فليكن ذلك غداً صباحاً، عند أول توقّف مع أشخاص غرباء وكثيرٍ من الإناث. كان سيحبّذ أن يكون هناك مسبح. غزاه مزيجٌ من الخوف والفرح، وشعر بثقل نعاس الساعة التاسعة الذي ما يزال يعاني في إخفائه في المقاهي وفي الشوارع. أو أ...

سمعوا ضحكة نورا وهي تنزل الدرج مع لوسيو. لنورا ولوسيو، هما أيضاً، مقصورة جميلة. أحسّت نورا بالنعاس، هي الأخرى، وكانت تفضّل ألا يتكلّم لوسيو عن مقصورتهما المشتركة. ظنّت أنهم سيمنحونهما مقصورتين منفصلتين لكن لوسيو أصرّ... إن هما إلا مخطوبان. فكّرت ببعض القلق: «ولكننا سنتزوّج قريباً». لا أحد يعرف ما حدث في فندق بلغرانو (ما عدا إيسن، صديقتها المفضّلة) على أية حال في تلك الليلة... من المؤكّد أنهم سيعدّونهما متزوجينَ، ولكن قائمة الأسماء، والثرثرات... كم تبدو بوينس آيرس رائعة وهي مُنارةٌ هكذا، أنوار كافناغ وكومغا. إنها تذكّرها بروزنامة للبان أمريكان كانت قد وضعتها في غرفتها، ولكنه كان خليج ريو وليس خليج بوينس آيرس.

أخذ راؤول ينظر إلى وجه فيليبي كلما سحب أحدهما من سيجارته. بقيا لبعض الوقت جانباً. فيليبي يفضّل أن يتحدّث مع شخص شاب مثل راؤول (لا يتجاوز الخمس وعشرين سنة). كل شيء في راؤول أعجبه فجأةً، غليونه وسترته الرياضية ومظهره الغنيِ. فكّر: «لديه مال، هذا بادٍ، ولكنه ليس شخصاً متكلّفاً. أنا أيضاً، عندما سأملك المال... ».

قال راؤول:

ـ لقد بدأ النهر يتسع. هذه رائحة رهيبة ولكنها مليئة بالوعود. والآن، سوف نشعر شيئاً فشيئاً بانتقال حياة المدينة إلى حياة عرض البحر. سيكون ذلك مثل تعقيم عام.

ـ آه، نعم.

قال فيليبي ذلك دون أن يفهم العبارة الأخيرة.

ـ حتى نكتشف، ببطءٍ، الأشكالَ المختلفة للسأم. ولكن الأمر مختلف بالنسبة إليك، فهذه رحلتكَ الأولى.

ـ نعم، سيكون الأمر رهيباً، أبقى طوال النهار دون أن أفعل شيئاً.

ـ الأمر متعلّق بك. هل تحبّ المطالعة؟

قال فيليبي وهو يعاشر من بعيد لبعيد مجموعة القناع:

ـ طبعاً. هل تعتقد أنه يوجد مسبح على السفينة؟

ـ لا أعرف، يبدو ذلك صعباً على متن سفينة شحن. ولكن قد يرتجلون نوعاً من حوض مع ألواح وخزّانات، كما في الدرجة الثالثة في السفن الكبيرة.

ـ غير ممكن. مع خزانات؟ هذا مثير!

أشعل راؤول غليونه من جديد، ثم فكّر: «وسيتكرر هذا». سيستأنف التعذيب المزهر، لهذا التمثال الكامل الذي تخرج منه تأتأة حمقاء. أن يسمع وهو يعذر كل شيء، كأبله، حتى يقتنع أخيراً أن الأمر ليس بهذه الخطورة، وأن المراهقين متشابهون جميعاً، وأنه لا يستطيع أن يطلب المعجزات... يجب أن يكون عدو بيغماليون، أن يكون المحوّل إلى حجارة، ولكن ماذا بعد؟

الأوهام كما هي الحال دائماً، الإيمان بالكلام المجنّح، بالكتب التي تُعار بحماسة، والمقاطع المشار إليها بخطوط، والتفسيرات. تذكر بيتو لاسييرفا وابتسامته المغرورة مؤخّراً ولقاءاتهما العبثية في حديقة ليزاما وحديثهما على المقعد والنهاية المفاجئة، وبيتو وهو يحتفظ بالمال الذي طالبه به، كما لو أنه مستحقّ له، وحديثه السوقي، المنحرف ببراءة.

سأل فيليبي:

ـ هل رأيتَ المُسنّ على كرسيّه؟ إنه حالة، إيه؟ جميلٌ غليونك!

قال راؤول:

ـ لا بأس به. إنه يسحب جيداً.

ـ سأشتري غليوناً.

قال ذلك فيليبي ثم احمرّ خجلاً، ربما لم يكن يجدر به أن يقول هذا الكلام، فقد يعدّه الآخر صبياً.

قال راؤول:

ـ ستجد كل ما تريده في الوقفات. على أية حال، إذا شئتَ سلّفتكَ واحداً بانتظار الوقفة التالية، فأنا أحمل دائماً اثنين أو ثلاثة.

ـ حقاً؟

ـ طبعاً. يحبّ الإنسان أن يغيّر أحياناً. لا بدّ أنهم يبيعون تبغاً جيداً، لديّ منه أيضاً، إذا كنتَ تحب.

قال فيليبي بارتباك:

ـ شكراً.

اجتاحته دفقةٌ من السعادة، ورغبةٌ في أن يقول لراؤول إنه يفضّل أن يكون معه. فقد يتكلّمان عن النساء، على أية حال، إنه يبدو أكبر من سنه. كثيرون أعطوه تسعة عشر عاماً أو عشرين. تذكّر لانغريتا من جديد، ولكن بلا حماسة هذه المرة. لا بدّ أنها نائمة في مثل هذه الساعة. بل ربما هي تبكي كغبية لأنها وحيدة وعليها أن تطيع العمة سوزانا الفريدة في تسلّطها. إنه لمن المضحك أن يفكّر بتافهةٍ وهو برفقة رجلٍ شيك مثل راؤول. لا بد أنه سيضحك منه. لابدّ أن لديه فتاةً مثلها...

ردّ راؤول على تحية المساء التي ألقاها لوبيز وذهب ينام، تمنّى ليلةً سعيدةً لفيليبي ثم صعد الدرج ببطء. في الممر التقى بمدران وهو ينزل درجاً داخلياً مغطياً نفسه بدثارٍ أحمر. سأله:

ـ هل وجدتَ البار؟ إنه في الأعلى، قرب غرفة الطعام. لسوء الحظ، هناك بيانو في إحدى الزوايا، لكننا لن نعدم وسيلةً لتقطيع أوتاره.

ـ أو أن نخرّب دوزانه بحيث يصبح كل من يعزف عليه شبيهاً بكرينيك.

ـ يا للشيطان! يا للشيطان! ربما أثرت شياطين صديقي خوان كارلوس باز(*).

ـ سوف نتصالح بفضل مكتبتي الموسيقية الاثني عشرية.

نظر إليه مدران وقال:

ـ حسنٌ، يبدو أن الأمر أفضل مما كنتُ أظن. من النادر أن يعثر المرء على مثل هذه الأحاديث في رحلاته.

ـ هذا ما اعتقدته أنا أيضاً. حتى الآن، كانت حواراتي كلها عن الأرصاد الجوية، مع استطرادٍ عن فن التدخين. حسنٌ، سأذهب لأرى الصالونات في الأعلى حيث يُحتَمَل أن أجد بعض القهوة.

ـ نعم يوجد، ومن أفضل القهوة. إلى اللقاء غداً.

ـ إلى الغد.

بحث مدران عن مقصورته التي تطلّ على الممر الأيسر. لم يكن قد أفرغ حقائبه بعد. خلع سترته ثم أخذ يدخّن وهو يذرع مقصورته جيئةً وذهاباً دون غايةٍ محدّدة. ربما كانت هذه هي السعادة. وجد ظرفاً باسمه على مكتبه. كان يحوي بطاقة ترحيب على متن ماخنتا ستار ومواعيد الوجبات وتفصيلات عملية تخصّ الحياة على متن السفينة وقائمةً بأسماء الركاب وأرقام مقصوراتهم. هكذا عرف أن

(*) مؤلف موسيقي أرجنتيني من الطليعة.

لوبيز وآل تريخو ودون غالو وكلوديا فريري وابنها خورخي يسكنون في جهته نفسها. كذلك هناك إعلان يبلغ السادة الركاب باللغتين الفرنسية والإنكليزية أن الأبواب المتصلة مع سطح السفينة الخلفي يجب أن تبقى موصدة لبعض الوقت لأسباب تقنية، ويرجوهم بعدم محاولة تجاوز الحدود التي رسمتها سلطات السفينة.

همس:

ـ أوه! أكاد لا أصدّق.

ولكن لمَ لا؟ فبعد مقهى لندن وبعد المفتش وبعد دون غالو وبعد الحافلة السوداء وبعد الإبحار نصف السري، لماذا لا أصدّق أن السادة الركاب سيمتنعون عن الذهاب إلى الخلف؟ الأمر الأكثر استغراباً أن يكون من بين اثني عشر رابحاً مدرسان وتلميذ من المدرسة الثانوية نفسها. والأغرب من هذا، أن يكون بالإمكان الحديث عن كرينيك في أحد ممرات السفينة، وكأن شيئاً لم يحدث.

قال مدران:

ـ الأمر واضح جداً.

اهتزّت مالكولم اهتزازين أو ثلاثة اهتزازات خفيفة.

أخذ مدران يرتّب أمتعته بتكاسل. تذكّر راؤول كوستا بإعجاب واستعرض الآخرين. بعد كل حساب، هذه الرحلة مُرضية: كانت الفوارق واضحةً إلى درجة أنه شكّل عصابتين، منذ البداية، يرأس الأولى أصهب التانغو، ويرأس الثانية صبيان من أمثال كرينيك. وعلى الهامش بدا دون غالو متنبّهاً لكل ما يحدث، يدور على عجلاته الأربع، ليراقب بخبثٍ وسخرية. من الممكن أن تنشأ علاقاتٌ بين دون غالو ود. ريستيللي. وسوف يتراوح المراهق ذو الخصلة السوداء على جبهته بين الشباب السهل، الذي يمثّله جيداً لوسيو وأتيليو، وبين رصانة الرجال الناضجين. سيأخذ الزوجان الشابان كثيراً من

حمّامات الشمس، وكثيراً من الصور، وسيبقيان على سطح السفينة حتى وقتٍ متأخر لكي يعدّا النجوم. وفي البار، ستدور أحاديث عن الفن والأدب، وربما ساعدت الرحلة على نشوء مشروعات غرامية ومشادّات وصداقات ما تلبث أن تنتهي في مركز الجمارك مع تبادل لبطاقات الزيارة وربتات حارة على الظهور.

بيتينا تعلم الآن أنه لا بدّ أن يكون قد غادر بوينس آيرس. وستنهي رسالةُ الوداع التي تركها لها قرب الهاتف بلا حماسة رحلةَ حبٍّ كانت قد بدأت في خونان وانتهت في بوينس آيرس، بعد جولات بحرية وجبلية عديدة. لا بدّ أن بيتينا تقول الآن: «أحسن!» وسيعتريها فرحٌ غامرٌ قبل أن تنفجر باكية. وفي اليوم التالي ـ ثمة يومان تاليان مختلفان ـ سوف تتصل بماريا ـ إيلينا لتخبرها برحيل غابرييل؛ وبعد الظهر، ستتناول الشاي مع شولا أو دونيز في مقهى الأنغيلا، وستبدأ الحكاية التي سترويها عن مغامرتهما في تثبيت أو تنقية تنويعات من الغضب أو الفانتازيا الصرفة، وستأخذ شكلها النهائي الذي لا يكون فيه غابرييل شخصاً سيئاً جداً، ففي النهاية، لن تغضب بيتينا لأن غابرييل غادر لعدة أسابيع أو إلى الأبد. ربما تسلّمت منه رسالتَه الأولى من الخارج، ذات يوم، وربما ردّت عليه برسالةٍ إلى مركز البريد الذي سيحدّده لها. «ولكن إلى أين نحن ذاهبون؟» حتى هذه اللحظة، مؤخرة السفينة ممنوعة عليهم. ليس بالأمر المشجّع جداً أن نعرف أننا محجوزون في مساحة بهذا الضيق، حتى لو أن ذلك لن يدوم. تذكّر رحلته الأولى في الدرجة الثالثة، مع البحارة الذين كانوا يحمون في الممرات الهدوء المقدّس لركاب الدرجتين الأولى والثانية، ومنظومة الطبقات الاقتصادية وكثيراً من الأمور التي لطالما أمتعته وأغضبته في آنٍ معاً. وفيما بعد، سافر في الدرجة الأولى وعرف منغّصاتٍ أسوأ بكثير... فكّر وهو يكدّس الحقائب الفارغة: «ولكن لا شيء يشبه هذا الباب

المغلق». ظنّ أن سفره سيكون في البداية بالنسبة إلى بيتينا مثل باب موصد سوف تُتلف يديها في الضرب عليه، وسيكون حاجزاً من الهواء والعدم لن تستطيع أن تفعل شيئاً إزاءه («وجهة مجهولة... لا، لن يكون هناك رسالة، أسبوع، أسبوعان، شهر...»). أشعل سيجارةً أخرى بنفاد صبر، وقال لنفسه: «فليذهبوا إلى الجحيم مع سفينة شحنهم هذه! أنا لم أسافر لكي أصل إلى هنا». ولكي يقوم بشيءٍ ما، قرر أن يستحمّ.

16

قالت نورا:

ـ انظر، بهذا الكلّاب، نستطيع أن نترك الباب موارباً.

ذهب لوسيو لرؤية هذه الآلية عن كثب وأُعجب بها. وفي الطرف الآخر من المقصورة أخذت نورا تفتح حقيبتها البلاستيكية الحمراء ثم أخرجت منها علبة التواليت. راح ينظر إليها، مستنداً إلى الباب، وهي تعمل بدراية وسرعة. سألها:

ـ هل تشعرين بالراحة؟

أجابت وكأنها فوجئت بالسؤال:

ـ أوه، نعم. لماذا لا تفتح حقائبكَ وترتّب أمتعتك؟ أنا أخذت هذه الخزانة.

فتح إحدى الحقائب ببطء، ثم فكّر: «أنا أخذتُ هذه الخزانة». على انفراد، دائماً تأخذ قراراتها على انفراد، وكأنها تعيش لوحدها. نظر إليها، كانت يداها ترتّبان الجوارب والقمصان بمهارة على الرفوف. دخلت إلى الحمام، وضعت الزجاجات وفرشاة الأسنان فوق المغسلة، ثم أشعلت النور.

سألها:

ـ هل أعجبتكِ هذه المقصورة؟

ـ إنها رائعة، أروع مما كنتُ أتصوّر. ومع ذلك فقد تصوّرتها، كيف أقول لك؟ تصورتها أفخم من ذلك.

ـ ربما كتلك المقصورات التي نراها في السينما.

ـ نعم، ولكن هذه أكثر...

قال وهو يقترب منها:

ـ أكثر حميمية.

قالت وهي تنظر إليه بعينين مفتوحتين على اتساعهما:

ـ نعم.

بدأت تفهم نظرات لوسيو، وفمه الذي يرتعش كأنه يقول شيئاً ما. أحسّت بيده الساخنة على ظهرها، ولكن قبل أن يتمكّن من ضمّها استدارت وهربت. ثم قالت:

ـ لا، ألا ترى أن لدينا كثيراً من الأعمال؟ وهذا النور...

أغمض لوسيو عينيه.

وضع فرشاة الأسنان في مكانها ثم أطفأ نور الحمام. كانت السفينة ترتجّ قليلاً، وأخذت الأحاديث تتركّز شيئاً فشيئاً في المناطق دون أن تفاجئ الذاكرة. كانت المقصورة تموء سراً، وعند وضع الإصبع على أية قطعة أثاث يتولّد إحساسٌ بأن تياراً كهربائياً يمر فيها. كان هواء النهر الرطب يمر من خلال النافذة المفتوحة.

لم يتأخّر لوسيو في الحمام لكي يترك لنورا الوقت لتنام. لقد أمضت أكثر من نصف ساعة في ترتيب المقصورة، ثم أغلقت على نفسها الحمام لتظهر من جديد مرتدية المبذل وظهر من تحته قميص نومٍ زهري اللون. ولكن بدلاً من أن تنام فتحت علبة الزينة وشرعت

في برد أظافرها. عند ذلك خلع لوسيو قميصه وحذاءه وجواربه وحمل منامته واتجه إلى الحمام. ألفى الماء لذيذاً، ولاسيما أن نورا قد خلّفت وراءها رائحةً الكولونيا وصابون بالموليف.

عندما عاد وجد الأنوار قد أطفئت ما عدا مصباحَي السرير، ونورا تقرأ سهرات الأكواخ. أطفأ مصباحه وأتى ليجلس قربها فأغلقت المجلة وأنزلت أكمام قميصها حتى المعصمين بحركة أرادتها أن تكون خفيّة.

سألها:

ـ هل أنتِ مسرورة لكونكِ هنا؟

ـ نعم، الأمر مختلف جداً.

نزع المجلة من يدها بلطف، واحتوى رأسَها بين يديه، قبّلها على أنفها، على شعرها، على شفتيها. أغمضت عينيها واحتفظت بابتسامتها الجامدة والبعيدة التي أعادته إلى ليلتهما في فندق بلغرانو، إلى عذاب تلك الليلة المضني والعبثي. ضغط فمه على فمها بعنف، آلمها، لكنه لم يترك رأسها الذي كانت ترجعه إلى الخلف. انتصب ثم نزع ملاءة السرير، بحثت يداه عن جسدها تحت النايلون الزهري. أخذ يسمع صوتها المتقطّع: «لا، لا». أصبحت ساقاها عاريتين حتى الفخذين. توسّل إليه صوتُها: «لا، لا، ليس هكذا». ارتمى عليها وقبّلها عميقاً بين شفتيها المنفرجتين. راحت تنظر إلى مصباح السرير لكنه لم يطفئه هذه المرة. فعندما أطفأه في المرة السابقة، استبسلت في الدفاع عن نفسها في الظلام. وهذه الشكوى وهذا الأنين، وكأنه يؤلمها. التفت فجأةً وأخذ يشدّ قميصها. أدنى وجهه من فخذيها المتلاصقين، ومن بطنها الذي بدأت تدافع عنه بيديها. تمتم وهو ينزع قميص نومها: «أرجوكِ، أرجوكِ، أرجوكِ!». أجبرها على الانتصاب لكي تسمح للنايلون الزهري بأن يصل حتى عنقها ثم يضيع فجأةً في ظلام المقصورة. تكوّرت نورا رافعةً

ركبتيها ثم التفتت جانباً. نهض لوسيو بحماسة، خلع ملابسه ثم أتى ليستلقي بجانبها، طوّق خصرها بذراعيه، ضمّها إليه ثم عضّها من رقبتها بقبلةٍ ساندتها يداه ومدّتها حتى نهديها وفخذيها؛ بمداعبة قاسية وقوية وكأنه، الآن فقط، يعرّيها.

مدّت نورا يدها وأطفأت المصباح. «انتظر، انتظر قليلاً، أرجوك، لا، لا، ليس هكذا، انتظر قليلاً أيضاً». لكنه لم ينتظر هذه المرة. أحسّت به على ظهرها، وأضيف حضورٌ آخر إلى ضغط اليدين والذراعين اللتين تطوّقانها، إنه تلك الملامسة القاسية والحارقة لهذا الشيء الآخر الذي كانت قد رفضت أن تنظر إليه وأن تعرفه في ليلة الفندق، ذلك الشيء الذي كانت خوانيتا إيسن قد وصفته لها (ولكن لا يمكن القول أن ذلك كان وصفاً) حتى أرعبها، ذلك الشيء الذي قد يقتلها، أو يجرحها، ويجعلها تصرخ وهي ممدّدة بلا دفاع بين ذراعي الرجل، مصلوبة، مسمّرة تحته من فمها ومن ذراعيها، ذلك الشيء الذي كان دماً وتمزيقاً، ذلك الشيء الحاضر دوماً والمرعب دوماً في حوارات المدرسة الدينية، وفي حياة القديسين والقديسات، ذلك الشيء المخيف ككوز الذرة، يا لمعبد دراك المسكين (نعم، هكذا كانت خوانيتا تسميه)، يا للرعب! كوز ذرة يدخل إلى حيث ما تكاد الأصابع تدخل دون أن تُحدث ألماً. والآن، هذا الحريق في ظهرها، ذلك الضغط الشره بينما لوسيو يلهث في أذنها ويلتصق بها بقوةٍ أكثر فأكثر، ويداه اللتان ترغمانها على فتح فخذيها، وفجأةً، أحسّت بنارٍ سائلةٍ سريعة بين فخذيها، وبأنين متشنّج وبارتياح مؤقت لأنه لم يستطع أن يأخذها هذه المرة؛ شعرت به مغلوباً، مسحوقاً على ظهرها، يحرق رقبتها بلهاث حار تفرّ منه كلمات متناثرة، مزيجٌ من اللوم والحب والحزن المتّشح بكلماتٍ بذيئة.

أشعل النور، وتبع ذلك صمتٌ طويل، قال لها بعده:

ـ استديري، أرجوكِ أن تستديري.

ـ نعم، هل تريد أن نتغطّى؟

نهض وفرش الملاءة فوقهما. استدارت نورا والتصقت به.

سألها:

ـ قولي لي، لماذا؟ لماذا مرةً أخرى؟

قالت وهي تغمض عينيها:

ـ لقد خفت.

ـ مم؟ كيف يمكنكِ أن تتصوّري أني سأؤذيكِ؟ هل ترينني وحشاً إلى هذا الحد؟

ـ لا، ليس هذا.

بينما هو يداعب وجهها، أخذ يُنزل الملاءة شيئاً فشيئاً. انتظر حتى فتحت عينيها ليقول لها: «انظري إليّ، انظري إليّ الآن». ثبّتت عينيها على صدره وكتفيه ولكنه كان يعرف أنها ترى ما هو أدنى من ذلك. انتصب فجأةً وقبّلها ملتصقاً بفمها ليمنعها من الهرب. أحسّ بفمها يتصلّب ويرفض قبلته. تركها لحظةً ثم عاد إلى شفتيها، لامس لثتها بلسانه فشعر أنها تستسلم شيئاً فشيئاً. ولج إلى أعماق فمها وجذبها إليه ببطء. بحثت يده بلطف عن الطريق العميق، عن اليقين. سمعها تئنّ ولكن بعد ذلك، لم يعد يسمع إلا صرخاته هو. كفّت اليدان عن مقاومته وعن دفعه. انكفأ كلّ شيءٍ على نفسه وغاص في الصمت رويداً. أطفأ أحدهما المصباح. تلاقت شفتاهما من جديد، وأحسّ بطعم مالح على خدّيها، وبحثت شفتاه عن الدموع لتلعقهما وأخذت يداه تداعب شعرها. سمعها تتنفّس ببطء أكثر، وبين وقتٍ وآخر، أخذ يسمع نحيباً على شفا النعاس. انفصل عنها ليجد وضعاً مريحاً أكثر، ثم نظر إلى الظلام الذي ما تكاد النافذة تظهر بداخله. حسنٌ، هذه المرة... لم يفكّر، غاص في سلام كامل، لا داعي معه للتفكير. نعم، لقد دفعت هذه المرة عن كل المرات السابقة. أحسّ بطعم دموع نورا على شفتيه الجافتين. هذه المرة دفعت نقداً،

وليس بكلامٍ معسول، ولقد ولدت الكلمات واحدةً تلو الأخرى لتدفع حنان اليدين وطعم الدموع المالح. «ابكي يا جميلتي». كلمة ثم أخرى محدّدة: العودة إلى العقل. «ابكي يا جميلتي، حان الوقت لتمرّي بذلك، ما كنت لتأخذيني هكذا على السفينة طوال الليل». تحرّكت نورا، وحرّكت ذراعها. داعب شعرها وقبّلها على أنفها. في الخلفية كانت الكلمات تركض حرةً، والندم على الجبهة، مردداً تباكياً بغيضاً تقريباً وغريباً على اليد التي تتابع مداعبتها.

17

كلوديا تعلم أن خورخي لن ينام دون خبرٍ ما أو لقيةٍ ما غريبة. لا شيء يهدّئه كما تفعل معرفته بأن أم أربع وأربعين موجودة في المغطس أو أن روبنسون كروزو كان قد وُجد بالفعل. دفعت إليه بمنشور طبي وجدته في إحدى الحقائب لأنها لم تجد شيئاً آخر أفضل منه. قالت له بخبثٍ لتدفعه إلى النوم:

ـ هذا مكتوب بلغة غامضة، ربما يحوي أخباراً عن النجم.

جلس خورخي على سريره بارتياح ثم أخذ يقرأ المنشور بجدية وهو في غاية الاستغراب. قال:

ـ اسمعي يا أمي، اسمعي: «البيرولاز من «روش» هو الإتير البيروفوسفوري للأنفيرين، الذي يتدخّل في فسفرة السكريات والذي يؤمّن في العضوية نزع الكربون من الحمض البيروفي، العامل الاستقلابي المشترك في تحليل السكريات والدهون والبروتينات».

ـ عظيم. هل تريد وسادة؟

ـ لا، شكراً يا ماما. ما هو العامل الاستقلابي؟ يجب أن أسأل بيرسيو، لا بدّ أنه آتٍ من النجم. أعتقد أن الدهون والبروتينات هي أعداء البشر ـ النمل.

قالت كلوديا وهي تطفئ النور:

ـ هذا ممكن جداً. تصبح على خير يا عزيزي.

ـ تصبحين على خير يا أمي. هذه السفينة جميلة يا أمي.

ـ نعم، جميلة جداً. نم جيداً.

مقصورتهما هي الأخيرة في الممر الأيسر. فرحت كثيراً عندما علمت أن هذه المقصورة لا تحمل الرقم ثلاثة عشر، الذي تحبّه كثيراً، فحسب، بل إنها تطلّ على الدرج المؤدّي إلى البار وغرفة الطعام. وجدت في البار مدران الذي عاد ليتناول كأس كونياك بعد محاولة أخيرة وفاشلة في ترتيب بعض أموره. حيا الساقي كلوديا بلغة إسبانية دقيقة بعض الشيء وقدّم لها قائمة الموجودات مزينةً بشعار ماخنتا ستار.

قال مدران:

ـ السندويش لذيذ، نظراً لعدم وجود عشاء حقيقي.

قال الساقي:

ـ رجل البار يدعوك إلى استهلاك كل ما يعجبك.

ثم كرّر كلمةً كلمة، العبارةَ التي سبق أن قالها لمدران: «بكل أسف، لقد أقلعتم متأخّرين جداً إلى درجة أننا لم نتمكّن من تقديم العشاء».

قالت كلوديا:

ـ غريب، مع أنه كان لدينا الوقت الكافي لترتيب مقصوراتنا وأن نتوزّع عليها دون استعجال.

قام الساقي بحركة حائرة ثم انتظر الطلبات. طلبا منه كأس بيرة وكأس كونياك وعدة سندويشات.

قال مدران:

ـ نعم، كل هذا غريب جداً. هكذا فإن فرقة المهزوزين التي يقودها الأصهب الشاب على ما يبدو لم تظهر هنا. يمكن التصور المسبق بأن هذا النوع من الناس من الذين يتمتّعون بشهية أكثر منا، نحن اللمفاويين، إذا سمحتِ لي أن أضمكِ إلى هذه المجموعة.

قالت كلوديا:

ـ لا بدّ أنهم أصيبوا بدوار البحر.

ـ هل نام ابنك؟

ـ نعم ولكن ليس قبل أن يتناول نصف كيلوغرام من البسكويت بالزبدة.

ـ يعجبني ابنك. إنه طفل جميل بوجهٍ حسّاس.

ـ حسّاس جداً أحياناً. ولكنه يدافع عن نفسه بحبّ كبير للتسلية، وولع كبير بكرة القدم والميكانيك. قل لي، هل تعتقد حقاً أن هذا...

نظر إليها مدران وقال:

ـ حدّثيني عن ابنك. ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد اكتشفت للتو أننا لا نستطيع أن ننتقل إلى المؤخرة. لم يقدّموا لنا العشاء، لكن مقصوراتنا رائعة.

ـ لا يمكن أن نحلم بجوٍ من «التشويق» أفضل من هذا.

قدّم لها مدران بعض السجائر فشعرت أن هذا الرجل ذا الوجه النحيل والذي يرتدي ملابسه بإهمالٍ مدروس، يعجبها. كانت المقاعد عميقة، وكان هدير الآلات يساعد على عدم التفكير، وعلى الميل إلى الاسترخاء. مدران محقّ، فلماذا يطرح الإنسان على نفسه الأسئلة؟ إذا انتهى كل شيءٍ فجأةً فستندم على أنها لم تستفد استفادةً أفضل من هذه الساعات العبثية والسعيدة. يجب أن تسترجع شارع ألبيردي ومدرسة خورخي وروايات مسلسلة مع سماع شخير الحافلة وموات بوينس آيرس دون أي مستقبل بالنسبة إليها، والطقس الهادئ والرطب وأخبار الإذاعة.

تذكّر مدران قصص مقهى لندن متبسّماً. كانت كلوديا تريد أن تعرف أشياء أكثر عنه لكنها شعرت بأنه ليس رجلاً يميل إلى المكاشفة. قدّم الساقي كأس كونياك آخر. سمعت صفّارة إنذار في البعيد.

قال مدران:

ـ الخوف يولّد أشياء غريبة. لا بدّ أن كثيراً من الركاب بدؤوا يقلقون في مثل هذه الساعة. وسترين أننا سنستمتع كثيراً.

ـ اسخر ما شئت. ولكن، منذ زمن طويل لم أشعر بهذا الهدوء وهذا السرور. أنا أفضّل كثيراً *مالكولم* على *كوين ماري*.

سألها وهو ينظر إليها من طرف عينه:

ـ هل بسبب الجدة الرومانسية؟

ـ بسبب الجدة وحسب، فذلك كافٍ جداً في عالم يفضّل الناسُ فيه التكرار على وجه العموم، كالأطفال. هل رأيتَ الإعلانات الأخيرة للخطوط الجوية الأرجنتينية؟

ـ ربما. لم أعد اذكر.

ـ إنهم يمتدحون طائراتهم قائلين إننا سنشعر وكأننا في بيوتنا. أنا لا أتصوّر أمراً مرعباً أكثر من أن أصعد إلى طائرة، وأني ما أزال في بيتي.

ـ لا بدّ أنهم يقدّمون على متنها المتة والمشاوي والسباغيتي على خلفية نَوْح الباندونيونات البعيد.

ـ كل شيء عظيم في بوينس آيرس ما دامت لنا إمكانية تجنّبه. وها هي رحلتنا نوعٌ من الاختبار.

ـ أعتقد أنه سيكون اختباراً عسيراً بالنسبة لبعضٍ منا. ولكن بمناسبة الكلام عن إعلانات الخطوط الجوية، فإني تذكرتُ إعلان شركة أمريكية شمالية يقولون فيه إن الراكب سوف يعامَل بطرق خاصة: «ستشعر أنكَ شخصية مهمة» أو شيءُ ما من هذا القبيل.

إني أتذكّر بعضاً من زملائي الذين يشحبون لمجرد فكرة أن ينادونهم «سيد» وليس «دكتور»... نعم، يجب أن يكون لهذه الشركة زبائن كثر.

- نظرية الشخصية، هل كتبوا في هذا المجال؟

- لقد أوجدت مصالح كثيرة، وأنا خائف جداً. ولكنكِ كنتِ تفسّرين لي لماذا تعجبنا هذه الرحلة.

- أوه، لأننا سننهي الرحلة جميعاً، أو تقريباً، ونحن أصدقاء حميمون. لست أدري لماذا يقوم البعض بالتعتيم على سيرة حياته. الحقيقة هي أني خائبة لا ترضخ للقدر.

- هذا ما يجعلني أشك في أنكِ كذلك.

- أوه، ربما لأن هذا هو السبب الوحيد الذي يدفعني للقيام بأشياء من قبيل شراء ورقة يانصيب وأن أربح. إن الحياة تستحقّ هذا العناء، من أجل خورخي؛ من أجله ومن أجل أشياء أخرى نادرة جداً؛ بعض الموسيقا التي نعود إليها وبعض الكتب... أما الباقي فكله فاسد ومنتهٍ.

نظر مدران إلى سيجارته بإمعان وقال:

- أنا لا أعرف الكثير عن الحياة الزوجية، ولكني أعتقد أنها لم تكن ناجحة بالنسبة إليكِ.

- تطلّقتُ منذ نحو سنتين لأسباب متعدّدة بقدر ما هي ثانوية، لا خيانة ولا قسوة عقلية ولا إدمان على الكحول. كان زوجي السابق يدعى ليون ليوباوم، لا بدّ أن الاسم يذكّركَ بشيء.

- طبيب أمراض سرطانية أو عصبية، كما يبدو لي.

- طبيب أمراض عصبية، ولقد تطلّقتُ منه قبل أن أُسجّل على قائمة مرضاه. إنه رجل غريب. أستطيع الآن أن أقول ذلك بثقة أكثر من الماضي، وأنا أفكّر فيه بطريقة، لنقل بعد وفاتية. إني ألمحُ إلى نفسي، وإلى ما بقي مني، وهو ليس بكثير.

ـ ومع ذلك، تطلّقتِ.

ـ نعم، ربما لكي أنقذ ما بقي لي من شخصية. فذات يوم اكتشفتُ أني كنتُ أريد الخروج في الساعة التي كان يصل فيها إلى البيت، وأن أقرأ إليوت بينما هو يريد أن يذهب إلى حفلٍ موسيقي، وأن العب مع خورخي بدلاً من...

قال مدران وهو ينظر إليها:

ـ آه، لقد حافظتِ على خورخي.

ـ نعم، لقد سوّي كل شيء. يأتي ليون لرؤيتنا بين وقتٍ وآخر، وخورخي يحبّه على طريقته. وأنا أحيا كما أريد، وها أنذا.

ـ ولكنكِ تحدّثتِ عن فشل.

ـ عن فشل؟ في الواقع، كان الفشل هو الزواج من ليون. وهذا أمرٌ لا يمكن تسويته بالطلاق، ولا حتى بأن يكون لديّ طفل كخورخي، الأمر سابقٌ لكل هذا. إن العبث هو الذي أيقظني في هذه الحياة.

ـ لماذا؟ إذا لم أبالغ في سؤالك.

ـ أوه، هذا السؤال ليس جديداً. إني أطرحه على نفسي منذ أن بدأتُ أعرف. وأنا أمتلك سلسلةً من الأجوبة: من أجل الأيام الجميلة، من أجل أيام العاصفة... مجموعة من الأقنعة، وخلفها، أظن أن هناك ثقباً.

قال مدران وهو ينادي الساقي:

ـ ليتنا نشرب كأساً آخر من الكونياك. أمرٌ غريب، ولكني أظن أن مؤسسة الزواج ليس لها كثيرٌ من الممثّلين بيننا... لوبيز وأنا عازبان، وكذلك كوستا، على ما يبدو؛ د.ريستيللي أرمل، وثمة فتاة أو فتاتان عازبتان... أه، دون غالو! لا يمكن أن تعرفي الحالة المدنية لدون غالو. أنتِ اسمكِ كلوديا، أليس كذلك؟ وأنا غابرييل

مدران، وسيرة حياتي لا تحمل أي شيء مهم. بصحتكِ وصحة خورخي.

ـ بصحتكَ يا مدران. ولنتحدّث عنك.

ـ للفائدة أم للمجاملة؟ اعذريني، فأحياناً يقول المرء أشياء كمجرّد ردّ فعل لا إرادي. ولكني سأخيّب أملك عندما سأقول لكِ أولاً إني طبيب أسنان، وثانياً، أنا أمضي حياتي في عدم القيام بعمل مفيد. لديّ أصدقاء قلائل، وأنا معجب بنساء قلائل وأبني قصوراً من الرمال ما تلبث أن تنهار سريعاً. هوب، كل شيء يتساوى بالأرض. ولكن أبدأ من جديد. أبدأ من جديد.

نظر إليها ضاحكاً وأضاف:

ـ ولكني أودّ أن نتحدّث عنكِ، أنتِ، يا أم خورخي.

قالت كلوديا وهي تضحك أيضاً:

ـ إننا نتفوّه بكثيرٍ من الحماقات. الأقنعة دائماً، وبكل تأكيد.

ـ الأقنعة... إننا نميل دوماً إلى التفكير بالوجوه التي تغطّيها؛ في الواقع، القناع هو الذي يعوَّل عليه، سواء أكان هذا أو أي قناع آخر. قولي لي أيَّ قناعٍ تضعين، أَقُلْ لكِ أي وجهٍ تملكين.

ـ آخر قناع من حيث التاريخ يُدعى مالكولم. اسمع، أنا أحبّ كثيراً أن تتعرّف إلى بيرسيو. هل يمكننا أن نناديه؟ بيرسيو شخصٌ رائع، إنه ساحر حقيقي. أحياناً أخاف منه، ولكنه وديع كحمل. بقدر ما يحمل رمز الحمل من معانٍ.

ـ أهو ذلك الرجل القصير الذي كان معكم في مقهى لندن؟ لقد ذكّرني بصورةٍ لديّ لماكس جاكوب. هه، عندما نذكر القط...

قال بيرسيو:

ـ إن كأساً من الليمونادة قد يعدل المزاج، وربما سندويش جبن.

قالت كلوديا:

- يا له من مزيجٍ فظيع!

انزلقت يد بيرسيو كسمكةٍ في يد مدران. كان يرتدي بزّةً بيضاء وصندلاً أبيض. فكّر مدران وهو ينظر إليه بودٍّ: «قد يكون اشترى كل هذا في آخر لحظة، لست أدري من أين».

قال بيرسيو وهو يعبّ الهواء:

- تبدو الرحلة مخيّبة. النهر من حولنا يشبه مربّى الحليب. ولكن مقصورتي شيء عظيم، فلمَ أحاول أن أصفها؟ لامعة ومليئة بأشياء غامضة مزوّدة بأزرار كهربائية.

سأله مدران:

- هل تحب السفر؟

- اعلم أني أُمضي وقتي في السفر.

قالت كلوديا:

- إنه يتحدّث عن المترو.

- لا، بل إني أتحدّث عن الفضاء السفلي والفضاء العلوي. إنهما كلمتان غبيتان لا تعنيان شيئاً. ولكني أسافر، وجسمي النجمي، على الأقل، يعبر مسافات هائلة. أنا في هذا الوقت، سأبقى عند كرافت لتصحيح النسخ. وستكون هذه الرحلة مفيدة لي في مراقباتي القمرية وفك بعض الرموز الفلكية. هل تعرفون بماذا كان يفكر باراسيلز؟ أن القبة السماوية أقريباذين. شيء جميل، أليس كذلك؟ والآن ستكون كل المجموعات النجمية في متناول يدي. يقول خورخي إن النجوم يمكن أن تُرى من البحر بصورة أفضل من البر.

قالت كلوديا ضاحكة:

- إنه ينتقل بكل بساطة من باراسيلز إلى خورخي.

ـ خورخي يعرف أشياء، أو بالأحرى هو ناطق باسم أشياء سينساها. وعندما نلعب معاً بألعابٍ سحرية، لعبة الاستفزازات الكبرى مثلاً، فإنه يجد أكثر مني دائماً. الفارق الوحيد هو أنه يذهل بسرعة كالأويستيتي أو كزهرة التوليب. ليتني أستطيع أن أبقيه وقتاً أطول على ما يتصوّر... لكن النشاط من طبيعة الأطفال كما يقول فيشنر أو أحدٌ آخر من هذا النوع. المشكلة هي أرغوس، دائماً أرغوس.

سألت كلوديا:

ـ أرغوس؟

ـ نعم، متعدّد الوجوه، العشرة آلاف عين، المتزامن. هو كذلك: المتزامن، صرخ بيرسيو بحماسة، عندما أدّعي إلحاق رؤية خورخي بي، ألا أندّد بالحنين الرهيب لعرقنا؟ أرى بعيون أخرى، أن أكون في الوقت نفسه عينيّ وعينيكِ أنتِ يا كلوديا، الجميلتين جداً، وعينَي هذا السيد المعبّرتين جداً. بكل العيونِ في آنٍ واحد لأن ذلك سيقتل الزمن، سيصفّيه بضربةٍ واحدة. وداعاً، اذهبوا.

ثم أشار بيده ليطرد ذبابة.

ـ هل تعي؟ إذا رأيتُ في آنٍ واحد كل ما يراه الجنس البشري، الأربعة مليارات عين للجنس البشري، لن يكون الواقع متعاقباً، سيتحجر في رؤيةٍ مطلقة تختفي فيها الأنا، منعدمةً. ولكن أي لهب منتصر لهذا الانعدام! أي جواب! بدءاً من هذه اللحظة، من المستحيل تصور المكان، والأقل منه الزمان الذي هو الشيء ذاته ولكن بشكلٍ مختلف.

قال مدران:

ـ ولكن، إذا ما بقيتَ حتى هذه النظرة، فستعاود الإحساس بالزمن. مضروباً بصورةٍ مدوّخة بعدد هذه الرؤى الجزئية، ولكنه ما مايزال الزمن.

قال بيرسيو وهو يرفع حاجبيه:

ـ أوه، لن تكون جزئية. فكرتي هي ضم المجموعة الكونية كلها في تركيبٍ كلي، الأمر الذي لا يكون ممكناً إلا بالانطلاق من تحليل كلي هو الآخر. أنتما تفهمان، التاريخ البشري هو المحصّلة المحزنة لألف رؤية متفرّقة. كل شخصٍ ينظر لنفسه. الزمن يولد في العيون، هذا معروف.

أخرج من جيبه بروشوراً وتمعّنه بدقة. رأى مدران وهو يشعل سيجارته وسائقَ دون غالو يظهر من الباب. نظر قليلاً إلى البار ثم دنا من الساقي.

قال بيرسيو وهو يقلّب صفحات البروشور:

ـ بقليلٍ من الخيال، يمكن تكوين فكرة بعيدة عن أرغوس. أنا شخصياً، أقوم ببعض التمرينات من هذا النوع. هذا لا ينفع في شيء لأنه خيال صرف، لكنه يوقظ إحساسي بالكوني، وينتزعني قليلاً من الجاذبية تحت القمرية.

كان البروشور يحمل عنوان: « Guia oficial dos caminhos de ferro de Portugal». حرّك بيرسيو دليل الخطوط الحديدية كالعلم. وقال:

ـ إذا شئتما، فسأقوم ببيان. يمكن استخدام ألبوم صور أيضاً، أو أطلس أو دليل هاتف. ما يجب القيام به هو التوصّل إلى الانتشار في التزامن، والهرب للحظة من هذا المكان. ستفهمان: الساعة الشرعية: 22.30. نحن نعرف أنها ليست الساعة الشمسية وأننا متأخرون بأربع ساعات عن الساعة البرتغالية، ولكن ليس المقصود هو إنشاء أبراج، بل المقصود هو القول بأن الساعة هي 18.30 في البرتغال. ساعة جميلة في البرتغال مع كل فسيفساءاتها البرّاقة.

فتح الدليل بإصرار على الصفحة 30 وقال:

ـ هل نحن على خط الشمال الكبير؟ انظرا جيداً. في اللحظة نفسها، سيسير القطار 125 بين ميالهاد وأغويم، والقطار 324

سينطلق من توريس نوفاس، يتأخر عنه دقيقة بالضبط، وأقل من ذلك بكثير في الواقع، والقطار 326 يدخل في محطة سونزيلاس، والقطار 2721 غادر للتو كوينتا غراندي. هل بدأتما تفهمان؟ ولكن انقضت ثلاثون دقيقة، أي أننا تمكّنّا بصعوبةٍ من تصور خمسة أو ستة قطارات، ومع ذلك هناك كثيرٌ منها، القطار 4111 للخطوط الشرقية بين مونتي ريدوندو وغويا، والقطار 4373 توقّف في ليرا، والقطار 4121 وصل إلى بول. وخط الغرب؟ القطار 4028 توقف في كويمبرا، ولكن الثواني تمر والقطار 4735 وصل إلى فيرريدي، والقطار 1429 سينطلق من بامبيلهوزا، صفر رئيس المحطة، انطلق... والقطار 1432 يدخل إلى محطة كازال... هل أكمل؟

قالت كلوديا برفق:

ـ لا يا بيرسيو. اشرب ليمونادتك.

ـ لقد فهمتما، أليس كذلك؟ هذا تمرين يهدف إلى...

قال مدران:

ـ نعم، هذا أعطاني نوعاً من الرؤية الجوية لجميع قطارات البرتغال. ألم يكن هذا هو الهدف من التمرين؟

أجاب بيرسيو وهو يغمض عينيه:

ـ المقصود أن نتخيل أننا نرى، أن نمحو الكلمات ونرى فقط، كمثل هذه اللحظة، على قطعة صغيرة من الكرة الأرضية تسير كميةٌ من القطارات لا يمكن تخيلها. وبعد ذلك، نتصور قطارات إسبانيا وإيطاليا، وجميع القطارات التي هي في هذه اللحظة: 18.32، في مكانٍ ما وتريد أن تصل إلى مكانٍ ما وتنطلق من مكانٍ ما.

قالت كلوديا:

ـ هذا يدوّخني. لا يا بيرسيو، ليس في هذا المساء الأول، وأمام كأس من الكونياك.

شرح بيرسيو:

ـ ولكن هذا التمرين يفيد في جميع الأمور الأخرى، وخاصة في غايات سحرية. هل فكّرتما بالرسوم؟ إذا ما تناولنا خارطة البرتغال هذه وحدّدنا عليها جميع النقاط التي يوجد فيها قطارات في اللحظة 18.30، ووصلنا ما بينها، فمن المفيد أن نرى على أي رسم نحصل. لنغيِّر الرسم ربع ساعة بعد ربع ساعة ولنلاحظ بالمقارنة وبالتراكب كيف يتداخل الرسم أو يتحسّن أو يتشوّه. لقد حصلتُ على نتائج باهرة وأنا أعمل ذلك في أوقات فراغي عند كرافت. لم أبتعد عن التفكير أني سأشهد، يوماً ما، ولادةَ رسمٍ سيتوافق تماماً مع عملٍ مشهور كغيتار بيكاسو أو كطبق فاكهة بيتوروتي. إذا حصل ذلك فسيكون لي عندئذٍ مفتاح أو وحدة قياس. وسيكون بوسعي تأمّل الإبداع انطلاقاً من قاعدته التماثلية الحقيقية، وسأقطع صلتي مع الزمكان الذي هو اختراع محشوّ بالعيوب.

سأل مدران:

ـ العالم سحريّ إذن؟

أجاب بيرسيو بمرارة:

ـ السحر بحدّ ذاته شوّهته أحكامنا المسبَقة الغربية. ولكي نتمكن من الوصول إلى صيغة للواقع الكوني، يجب أن يكون الإنسان متقاعداً، يمتلك جلّ وقته، لكي يدرس تركيب النجوم ويجسّ المادة الدقيقة. ماذا يمكنكما أن تفعلا في أسبوعٍ من أربعين ساعة؟

قالت كلوديا وهي تنهض:

ـ حسنُ، أتمنى أن توفّر لكَ هذه الرحلة الوقت للدراسة. بدأت أحسّ بدوار السائح اللذيذ. إلى الغد.

بعد قليل، عاد مدران إلى مقصورته، وهذه المرة وجد الطاقة اللازمة لإفراغ حقائبه. فكّر وهو يدخّن سيجارته الأخيرة لذلك اليوم: «كويمبرا»، «ليوباوم، طبيب الأعصاب». كيف تتطابق الأمور كلها بسهولة! ربما كان من السهل أيضاً استخراج رسمٍ معبّر لهذه

اللقاءات ولهذه الذكريات التي يضاف إليها ذكرى بيتينا التي كانت تنظر إليه نظرةَ مفاجأةٍ وامتعاض كما لو أن إشعال النور في الحمام جريمة لا تغتفر. قال وهو يفتح صنبور الحمام: «أوه، السلام!».

18

أشعل راؤول مصباح سريره ثم أطفأ عود الثقاب الذي دلّه عليه. كانت باولا نائمةً وهي متّجهة نحوه. شكّل شعرُها النحاسي لطخةَ دم على الوسادة بفضل نور المصباح الضئيل. قال وهو يخلع ملابسه بهدوء: «ما أجملها! كم يسترخي وجهها! لقد اختفت هذه السدود بين حاجبيها التي عجزت حتى ضحكتها عن محوها! وفمها، كأنه ملاك من ملائكة بوتيشيللي. إنها فتيةٌ جداً وعذراء جداً...». تبسّم بسخرية وغنّى: «thou still unravish'd bride of quietness» و«ravish'd et archiravish'd, la pauvrette» يا أيتها الباولا الصغيرة، سرعان ما ستعاقَبين من قِبل تمرد غير مكتمل في هذه البوينس آيرس التي لم تعطها إلا أشخاصاً من أمثال روبيو الأول (ولكن هل كان الأول؟ نعم، باولا لم تكن تكذب عليه)، أو من أمثال روشو نيرا الأخير، هذا دون حساب فلان وفلان، ومغازلات الشطآن ومغامرات العطل الأسبوعية والمقاعد الخلفية في سيارات الميركوري والشيفروليه. لبس منامته الزرقاء ودنا من سرير باولا حافيَ القدمين. أثارته رؤيتها وهي نائمة رغم أن هذه لم تكن المرة الأولى. ولكن، الآن تبدأ مرحلة حميمة، بالنسبة إلى باولا وبالنسبة إليه، مرحلة سرية قد تدوم أسابيع، وربما أشهراً، وهذه الصورة الأولى لها وهي واثقة ونائمة إلى جانبه تحنّنه قليلاً. لقد جعلت المأساةُ اليومية من باولا فتاةً لا تُطاق خلال الأشهر الأخيرة. مكالماتها الهاتفية عند الساعة الثالثة صباحاً وانتكاستها نحو المخدّرات ونزهاتها التي كانت على غير هدى، ورغباتها القريبة من الانتحار، وتسلّطاتها المفاجئة (تعالَ فوراً وإلا سأرمي بنفسي

من النافذة) ونوبات فرحها لأنها نجحت في كتابة قصيدة، وبكاؤها اليائس الذي خرّب ربطات عنقه وستراته. والليالي التي كانت تفاجئه فيها رغم أنه طلب إليها مئة مرة أن تخبره مسبقاً، وطريقتها في النظر إلى كل شيء، وفي التساؤل: «أنتَ وحيد؟» كما لو أنها تخشى أن يكون أحدهم مختبئاً تحت السرير أو تحت الكنبة، والضحك والبكاء السريعان، والأحاديث السرية التي لا تنتهي بين أقداح الويسكي والسجائر. الأمر الذي لم يمنعها من توجيه ملاحظات مستفزّة بقدر ما هي صحيحة: «أنا ليس لدي فكرة عن تعليق هذه المسخرة هنا». أو: «ألا ترى أن هذه المزهرية زائدة على هذا الرف؟» أو تدخلاتها الأخلاقية الثائرة وجهودها المستميتة في أن تمذهبه، والحقد الذي تكنّه لأصدقائه، وتدخّلها المحتمل في علاقته مع بيتو لاسييرفا الذي يمكن أن يفسّر انقطاع العلاقة وهرب بيتو.

ولكنها كانت أيضاً باولا الرائعة، المخلصة، الرفيقة العزيزة لليالٍ كثيرةٍ جميلة: اجتماعات سياسية في الجامعة، عواطف حب وكراهية أدبيان. يا لباولا الصغيرة المسكينة! ابنة أبيها الوزير، وابنة العائلة المدّعية والمستبدّة. الفتاة المتعلّقة ككلب صغير بالمناولة الأولى، وبالمدرسة الدينية الأولى، وبعمي وبخوريَّ، وبالوطن وبكريستوف كولومبوس، وفجأة، بالشارع، كصرخة، والفصل السخيف والمفجع الذي أبعدها عن أسرة لافال إلى الأبد ومقابل لا شيء، الفصل الأول لسقوطها. يا لباولا الصغيرة المسكينة! كم بدت غبية ساعة اتخاذ القرارات! قرارات لم تكن مصيرية أبداً (راؤول ينظر إليها وهو يهزّ رأسه)، كانت باولا ما تزال تأكل من خبز لافال، الأسرة البورجوازية الكبيرة التي عرفت كيف تدفن الفضيحة وتدفع شقة جميلة للنعجة الجرباء. وكان هذا سبباً آخر للعصاب والأزمات، والتمردات، والرغبات والانتساب إلى الصليب الأحمر أو للذهاب إلى الخارج، وكل هذا تجترّه بين غرفة الجلوس وغرفة النوم والبراد والهاتف. يا لباولا الصغيرة المسكينة! ولكن كم هو أمرٌ سارٌّ أن يراها نائمةً هكذا نوماً عميقاً (غاردينال

أم سيبونيريل؟ فكّر راؤول) وأن يفكّر بأنها ستبقى هنا طوال الليل، تتنفّس بهدوء إلى جانبه، هو الذي عاد الآن إلى سريره، أطفأ المصباح وأشعل سيجارة، ثم راح يخبّئ اللهب بيديه.

السيد تريخو ينام ويشخر في المقصورة السادسة من الجهة اليسرى، تماماً كما ينام ويشخر في غرفة الزوجية في شارع أكويتي. ما زال فيليبي واقفاً رغم أنه يكاد يسقط من النعاس؛ استحمّ ونظر عن كثب إلى لحيته الوليدة، مشّط شعره من جديد بعناية لمتعة أن يرى نفسه، وأن يشعر بأنه يعيش ملء المغامرة. دخل إلى مقصورته وارتدى منامته القطنية، جلس على أحد المقاعد ليدخّن سيجارة كاميل بعد أن سوّى من وضع أحد المصابيح المتحرّكة وأخذ يتصفّح مجلة سبور بتمهّل. ليت والده لا يشخر، ولكنه بهذا يبالغ في الطلب. لا عزاء لفيليبي لأنه لم يحصل على مقصورة له بمفرده؛ وإذا ما عاكس فتاةً بالمصادفة فالمشكلة ستكون... في حين لو أن العجوز كان نائماً في مقصورةٍ أخرى لكان كل شيءٍ سهلاً. تذكّر أفلاماً وروايات عاش فيها الركاب في مقصوراتهم مغامرات درامية. تساءل فيليبي: «لماذا دعوتهما؟» ثم خطرت بباله لانغريتا التي لا بدّ أنها تتعرّى الآن في سقيفتها محاطةً بالمجلات والمذياع والبطاقات البريدية لجيمس دين ومارلون براندو. تصفّح المجلة وتوقّف عند صورة لمعركة ملاكمة، تصوّر نفسه منتصراً على حلبة عالمية، يوقّع الأوتوغرافات، متحدياً البطل الآخر. فكر فجأةً وهو يتثاءب: «غداً سنكون في عرض البحر». المقعد رائع، ولكن عقب السيجارة يُحرق أصابعه. أطفأ المصباح ثم أضاء مصباح السرير. اندسّ في سريره وهو يستمتع بكل سنتيمتر من الملاءة ومن الفراش القوي واللينّ في آنٍ معاً. فكّر براؤول، لا بدّ أنه نائم الآن بعد أن دخّن آخر غليون، هو فقط، بدلاً من أن يكون عجوزاً في مقصورته، لديه تلك الفتاة الصهباء. لا بدّ أنه ينعم الآن بالدفء بقربها، الاثنان عاريان، مستمتعان. بالنسبة إلى فيليبي إن كلمة

استمتع تحوي كل ما يمكن للممارسات الوحدوية والمطالعات ومكاشفات الأصدقاء في المدرسة أن توحي به وتثيره. أطفأ المصباح، نام ببطءٍ على جانبه مادًا ذراعيه في الظلام ليحتضن جسد لانغريتا وجسد الصهباء، وكذلك أصغر أختٍ لأحد أصدقائه وابنة عمه لوليتا. داعب الكاليدوسكوب بنعومة، ثم لامست أصابعه الوسادة الطويلة، أخرجها من تحت رأسه، ألصقها بجسده في حين أن فمه راح يعضّ القماش الفاتر والتافه. استمتع، استمتع، لم يعرف كيف خلع منامته والتصق عارياً بالوسادة الطويلة، انتصب، انبطح وأخذ يدفع بردفيه، لكنه تألّم دون أن يصل إلى المتعة، بل عبَرَه تشنّجٌ أثاره ويأسه. عضّ الوسادة، طوّقها بفخذيه، ثم أخذ يُبعدها ويقرّبها، وأخيراً استسلم إلى العادة، إلى الطريق السهل، فاستلقى على ظهره وواصلَتْ يدُه ذهابها وإيابها الموقّع، هي الغمد الذي يضغطه ويُرخيه، يسرّع حركته ويبطّئها بحركةٍ خبيرة. لانغريتا تأتي الآن لتنبطح فوقه هذه المرة، كما في الصور التي أراه إياه أوردونييث، وأخذت تلهث وتتأوّه وتخنق أنّاته مخافة أن يستيقظ السيد تريخو.

قال كارلوس لوبيز وهو يطفئ المصباح:

ـ أخيراً، لقد خفتُ كثيراً ألا يعمل هذا الوحش المائي أبداً.

رسمت سيجارته منحنياتٍ في الظلام، ثم أظهرت النافذة دائرةً من الضياء الحليبي. أخذ لوبيز يفكّر، في سريره، بمدران الذي حالفه الحظ والتقى به من بين رفاق السفر، وبقصة غالو، وبالصهباء، صديقة كوستا، وبالتصرّف الغريب للمفتش، وأخيراً بزيارته القصيرة لمقصورة راؤول وإلى تبادل الكلام الجارح مع الفتاة ذات العينين الخضراوين. إنه لا يسأم، ذلك الراؤول كوستا. لو لم يره بأم عينيه... ولكنه رآه، في النهاية، لا غرابة في أن يتقاسم رجلٌ وامرأة المقصورة رقم 10. ومع ذلك فهو غريب. فلو أنه التقى

بتلك المرأة مع مدران، على سبيل المثال، لبدا ذلك له طبيعياً جداً. أما مع كوستا، فهو لا يعرف لماذا... الأمر سخيف لكنه هكذا. تذكّر أن كوستال دومنترلان كان يُدعى كوستا في البداية. لماذا يعود إلى هذا دائماً؟ بدا له صوتُ باولا عندما كلّمتْه وكأنه على هامش الموقف. صحيحٌ أن هناك نساء لا يستطعن أن يمتنعن عن أن يكنّ مستفزّات. وكوستا كان يبتسم عند الباب. الاثنان رائعان جداً، ومختلفان جداً. وهنا جوهر المسألة، تماماً زوج متباعد جداً. لم يشعر بالصلة بينهما، هذا التشابه التدريجي للعبة الحب أو الصداقة الذي يُغرق كل التناقضات الأكثر ظهوراً في إيقاع يجرّهما ويموضعهما.

قال لوبيز بصوتٍ عالٍ:

- إني في طور التهيّج. على أية حال، سيكونون رفاق رحلةٍ مُدهشين، ومن يعرف؟ من يعرف؟...

طارت السيجارة كحباحب ثم ضاعت في النهر.

د

عند منتصف الليل تماماً، استقرّ بيرسيو، المتسلّل، الخائف قليلاً ولكن المثار الذي لا يقاوَم، في ظل مقدمة السفينة، مستعداً للسهر. السماء الجنوبية الجميلة تفتنه. رفع رأسه الأصلع ونظر إلى العناقيد المتوهّجة. لكنه يريد أيضاً أن يقيم تواصلاً - وأن يمتّنه - مع السفينة التي تحمله، لذا انتظر النوم الذي يجعل الناس متساوين. فرض على نفسه السهر اليقظ الذي يجعله يتواصل مع جوهر الليل المائع. وقف قرب لفّةٍ محتملة من الحبال (من حيث المبدأ، لا يوجد أفاعٍ على متن السفينة). أحسّ بهواءِ مصبِّ النهر الرطب على جبينه، تفحّص بصوتٍ خافت عناصر المعرفة التي استطاع أن يجمعها بدءاً من مقهى لندن. أنشأ قائمة مصطلحاتٍ دقيقة فيها حضور عشوائي لثلاثة عازفي باندونيون وسنزانو في الماء، ولحاجز مقدمة السفينة

وحركة الرادار، تنحلّ بالنسبة إليه في هندسةٍ بطيئة ولكنها أكيدة، في مقاربة بطيئة لأسباب هذا الموقف الذي يتعرّض إليه مع المسافرين الآخرين. لا شيء عند بيرسيو ينزع إلى صيغته التحديدية، ومع ذلك فهو مسكون بقلقٍ أبديٍّ إزاء المشكلات المطروحة. إنه واثق من أن نظاماً يتبيّنه بصعوبةٍ عن طريق التماثل، يسود فوضى الجَيب نجد فيها وداع مطربٍ لأخيه، وكرسياً متحرّكاً، وغليوناً إنكليزياً، وطبيب أسنانٍ في عطلة. هناك اليقين الغامض بأن هناك نقطة نستطيع أن نرى فيها كل عنصر مختلف وكأنه شعاعٌ في العجلة. ليست سذاجة بيرسيو كبيرة إلى درجة أنه يجهل ضرورة تفكيك الظاهرة قبل أن يُقدم على أية محاولة بناء، لكنه لا يستطيع أيضاً أن يمتنع عن محبة كاليدوسكوب الحياة غير القابل للحساب. إنه يتذوّق لذة الإحساس بأن قدميه مرتاحتان في صندل التنس الجديد جداً، يسمع بهدوء صرير إحدى البكرات وصوت ارتطام ماء النهر بجسم السفينة. كان عاجزاً عن التخلّي عن هذه الأصوات لكي يستقرّ نهائياً في الأبعاد التي لم تعد الأشياء فيها إلا حالات وحيث هذه المجموعة المثيرة تركت مكانها لتوازن قلق للقوى ولتوترات الطاقة. إنه يتطلّع إلى عمل فلكي بسيط، وإلى طريقة مقاربة تقليدية عن طريق الصورة الغامضة وعن طريق أوراق التاروت والمصادفة الكاشفة التي يستبّونها. يؤمن بيرسيو بعبقرية مجنّحة قد تساعده على حلحلة تشابك الأحداث، وشبيهاً بمقدمة مالكولم التي تشقّ مياه النهر إلى نصفين، والليلّ والزمان، أخذ يتقدّم بهدوء عبر تأملاته دون أن يعبأ بالأحداث الطارئة - المفتش مثلاً، أو الممنوعات الغريبة السائدة على متن السفينة - ولكنه كان يكتفي بالعناصر التي يجب أن تؤدّي إلى الانسجام. عيناه تتفحّصان منذ لحظة عبّارة القيادة، والنافذة الواسعة الفارغة التي تمرّر نوراً بنفسجياً. في عمق المقصورة الشفّافة، وبعيداً عن الزجاج الفوسفوري في ضباب النهر الخفيف، من المؤكّد أن هناك أحداً ما يدير السفينة. شعر بيرسيو بخوفٍ بطيء يتصاعد في داخله درجةً بعد درجة. وأخذت تتراكض

ذاكرته رؤى لقوارب منحوسة بلا قادة، رؤى كان فيها الإله توكولكا، وشعار الطب بيده، يراقب مهدِّداً منطقة الشمال الغربي المنكوبة والتي يجتازها آرثر غوردون بيم وقارب إيريك في سرداب الأوبرا الطويل. مزيج غريب. ولكن خشي في الوقت نفسه، دون أن يعرف لماذا، اللحظةَ المتوقَّعة التي سيظهر فيها خيال القبطان خلف الزجاج. لقد توالت الأمور حتى الآن في نوع من الهذيان المحبَّب، قابل للحل وللفهم رغم قلة ترتيب العناصر المعزولة، لكن شيئاً ما يقول له (وقد يكون هذا الشيء بالتحديد التفسيرَ اللاواعي لكل ما حدث) أن نظاماً سيقوم خلال الليل. لهذا ارتعش بيرسيو وتراجع، وفي تلك اللحظة بالذات ظهر خيالٌ في مركز القيادة، جزء علوي أسود، جامداً، واقفاً وجامداً، ضمن إطار النافذة. في الأعلى، النجوم تدور ببطء. كفى وصول القبطان لتغيّر السفينة اتجاهها. الصارية الكبيرة لم تعد تداعب سيريوس، إنها تتجه نحو الدب الأصغر، تخزه وتتحرّش به وتجعله يفرّ. فكر بيرسيو والقشعريرة تنتابه: «لدينا قبطان». كما لو أنه، في فوضى التفكير السريع والنائس لدمه، أخذ القانون، أبو المستقبل، يتخثّر ببطء، إن القانون هو بداية طريق شاق.

اليوم الأول

19

توّجت النشاطاتِ الليلية لأتيليو بريسوتي بنقلٌ للأثاث. فقد وجب عليه، بمساعدة ستيوارد عابس وأخرس، أن ينقل سريراً من مقصورته إلى المقصورة المجاورة التي ستتقاسمها أمه مع أم نيللي ونيللي نفسها. لم يكن الأمر سهلاً، بسبب شكل المقصورة وحجمها، وقد أوشكت دونيا روزيتا مراتٍ عديدة أن تتخلّى عن هذا الأمر وتذهب للنوم في مقصورة ابنها، ولكن *القطيفة* احتوى رأسَه بيديه وهو يقول إن ثلاث نساء معاً ليس مثل أمٍّ وابنها، في مقصورة ليس فيها حاجز. توصّلوا أخيراً إلى حشر السرير بين باب المدخل وباب الحمّام ثم ذهب القطيفة ليجلب سلة الدراق التي أهداه إياها اليهودي الصغير. كانوا جميعاً جائعين جداً، لكن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يرنّ الجرس ليسأل إن كانوا سيذهبون إلى العشاء. أكلوا الدرّاقات، وأخرجت أم نيللي مرطبان كرز مغطّسٍ بماء الحياة وقطعة شوكولا مونييه. عاد القطيفة إلى مقصورته مرتاح الضمير وارتمى على سريره كخشبة حتى صباح اليوم التالي.

كانت الساعة السابعة عندما استيقظ، وكانت شمسٌ ضبابية قد تسلّلت إلى مقصورته. جلس على سريره ثم راح يتأمل بإعجابٍ، وهو يهرش جسمه عبر قميصه، فخامةَ مقصورته وبهاءها على ضوء النهار. فكّر: «أي حظٍّ أن تكون الأم سيدةً، وهكذا تكون مضطرّةً للنوم مع الآخرين». شعر بالرضا بعد أن تأكّد من أهمية الحرية التي تمنحه إياها مقصورة خاصة. المقصورة رقم 4، السيد أتيليو

بريسوتي. وماذا لو يصعد سطح السفينة قليلاً ليرى ماذا يحدث؟ يبدو وكأن السفينة قد توقّفت. ربما وصلنا إلى مونتيفيديو. أي حمام وليس له رائحة، هل شعرتَ بذلك؟ وورق المرحاض زهري، هكذا إذن. هذا المساء أو غداً، يجب أن أدشّن الحمّام. لا بدّ أنه جيد جداً. ولكن انظر إلى هذا الحوض، إنه يشبه مسبح السبورتينغ، يمكنكَ أن تغسل رقبتكَ هنا دون أن تطرش الماء في كل مكان.

صوبن القطيفة وجهَه وأذنيه بحيوية وهو يحرص على ألا يبلّل قميصه. ثم ارتدى منامته الجديدة المقلّمة، وحذاءه الرياضي، ومشّط شعره قليلاً قبل أن يخرج. نسي أن يغسل أسنانه في حومة عجلته رغم أن دونيا روزيتا كانت قد اشترت له فرشاة أسنان قبل الإقلاع.

مرّ من أمام أبواب المقصورات اليمينية. لا بدّ أن الناس مايزالون نائمين يشخرون. ومن المؤكّد أنه سيكون أول الواصلين إلى سطح السفينة. ولكنه وجد نفسه وجهاً لوجه مع الصبي المسافر مع أمه والذي كان ينظر إليه بودّ.

قال خورخي:

ـ صباح الخير. أنا من وصل أولاً!

قال القطيفة بتعالٍ:

ـ كيف حالك يا صديقي؟

دنا من الدرابزين وأمسك به بكلتا يديه، ثم قال:

ـ يا إلهي! ولكننا نرسو أمام كويلمس!

سأله خورخي:

ـ ولكن هل هذه هي كويلمس بكل هذه الصهاريج وهذه الخردة؟ هل هنا تُصنع البيرة؟

ـ لا، ولكن هل أنتَ تعرف؟ وأنا الذي كنتُ أظن أننا وصلنا إلى مونتيفيديو، وأننا سنتوقّف فيها، أنا لا أعرف...

ـ كويلمس ليست بعيدة عن بوينس آيرس، أليس كذلك؟

ـ أنتَ تتكلّم، ما عليكَ إلا أن تركب الترامواي وستكون فيها في أقلّ من دقيقتين. وتقول أن طاقم السفينة اليابانية ربما كان على الرصيف ويقوم بالتلويح لك. ولكن قل لي، ما هذه الرحلة؟

نظر إليه خورخي بعينٍ متفحّصة ثم قال:

ـ منذ ساعة ألقيت المرساة. صعدتُ في الساعة السادسة، لم أعد نعساناً. وأنت تعرف أن لا أحد يمرّ من هنا. مرّ بحاران فقط، كانا يعملان، لكنهما لم يفهما شيئاً مما قلته لهما. من المؤكّد أنهما دهنيّان.

ـ أنهما ماذا؟

ـ دهنيّان. إنهما رجلان غريبان، لا يتكلّمان أبداً. لو كانا بروتينيين لسهل حلّهما.

نظر القطيفة إلى الطفل بطرف عينه. فتح فمه ليسأله عن أمرٍ ما عندما لمح نيللي وأمها في أعلى الدرج. كانتا ترتديان البنطال والصندل وتضعان نظارة شمسية ومنديلاً على الرأس.

قالت نيللي:

ـ يا إلهي، يا أتيليو، ما هذه السفينة الرائعة! كل شيء فيها يلمع ويبرق، والهواء! يا له من هواء!

قالت السيدة بيبا:

ـ يا له من هواء! كم تستيقظ مبكّراً يا أتيليو!

اقترب أتيليو فقدّمت نيللي خدّها فطبع عليه قبلةً، ثم مدّ ذراعه مباشرةً وأراهما الشاطئ.

قالت أم نيللي:

ـ ولكني أعرف هذا.

قالت نيللي:

ـ بيريسّو!

أجاب القطيفة بحزن:

ـ كويلمس. ما هذه الرحلة؟ قولي لي!

قالت أم نيللي:

ـ كنتُ أظنّ أننا في عرض البحر وأن السفينة لم تعد تتحرّك. ربما كان هناك شيءٌ ما مكسورٌ ويصلحونه.

ـ أو ربما يملؤون المازوت من كويلمس.

سأل خورخي:

ـ هذه السفن تعمل على الفيول أويل.

قالت نيللي:

ـ من فضلك، ماذا يفعل هذا الصبي الصغير هنا بمفرده؟ أمكَ في الأسفل يا عزيزي.

قال خورخي وهو ينظر إليها مباشرةً:

ـ نعم، إنها تعدّ العناكب.

ـ تعدّ ماذا، يا صغيري؟

ـ لدينا مجموعة من العناكب، نحملها معنا في أسفارنا. مساء أمس فرّ خمسة منها، لكن أمي وجدت ثلاثة.

فتحت نيللي وأمها فميهما. وانحنى خورخي ليتحاشى رفسةَ القطيفة نصف الودية ـ نصف الجدّية.

قال القطيفة:

ـ ألا تريان أن الصبي يسخر منكما؟ لنصعد إلى غرفة الطعام ونرَ ما إذا كانوا يقدّمون القهوة بالحليب. أنا جائع...

قالت أم نيللي بلهجة جادّة:

ـ سمعت أنهم يقدّمون وجبات فطور وفيرة جداً ومتنوّعة جداً

على هذه السفن. بل يبدو أنهم يقدّمون عصير البرتقال. أتذكرين هذا الفيلم يا نيللي؟ حيث تمثّل تلك الفتاة... التي كان والدها مسؤولاً ما في إحدى الصحف، ولم يكن يريد أن يتركها تخرج مع غاري كوبر.

- لا يا ماما، لا، ليس في هذا الفيلم.

- بلى، أنتِ لا تذكرين، إنه فيلم بالألوان، تغنّي فيه هذا البوليرو باللغة الإنكليزية... نعم، معكِ حق، ليس مع غاري كوبر، إنه فيلم حادث القطار، أتذكرين؟

- لا يا ماما، هذا فظيع، دائماً تخلط كل شيء.

خلصت دونيا بيبا إلى القول:

- لقد قدّموا عصير برتقال في هذا الفيلم.

لم تُجب نيللي، بل تعلّقت بذراع القطيفة وهما يصعدان إلى البار وسألته بصوتٍ خافت إن كانت تعجبه بالبنطال؛ أجاب أتيليو بحمحمة مخنوقة وهو يضغط على ذراعها حتى جعلها تصرخ ألماً.

قال القطيفة وهو يهمس في أذنها:

- فكّري، فكّري أنه كان يمكنكِ أن تكوني زوجتي لو أن أباك أراد.

- آه، أتيليو!

- كانت المقصورة ستؤول إلينا لوحدنا، هذا كل شيء.

- أتظن أني لم أفكّر بهذا، أنا أيضاً، ليلاً؟ أقصد أن أقول أنه كان من الممكن لنا أن نكون متزوّجين.

- والآن يجب أن ننتظر أن يعطينا والدكِ الشقة.

- نعم، أنتَ تعرف بابا: طيب، لكنه عنيد.

قال القطيفة باحترام:

- إنه بغل حقيقي. لحسن الحظ أننا نستطيع أن نكون معاً طوال الرحلة، نلعب بالورق ونصعد إلى سطح السفينة مساءً. هل رأيتِ من

هنا، كل هذه اللفات من الحبال؟... إنها ممتازة لنختبئ. آه، يا أمي، إني أتضوّر جوعاً...

قالت نيللي:

ـ هواء النهر محفّز جداً، كيف ترى ماما بالبنطال؟

قال القطيفة الذي كان يراها شبيهةً بسدادة الشمبانيا:

ـ ليس سيئاً. أمي العجوز لا تريد أن تلبس هذه الأشياء، إنها عقلية قديمة. وأبي يكون قادراً على ضربها، تعرفين كيف هو.

ـ أهلك عنيفون جداً. اذهب ونادِ أمكَ واصعدا. انظر إلى هذه الأبواب كم هي نظيفة.

قال أتيليو وهو يمرّ من أمام البار:

ـ اسمعي كيف يثرثرون في الداخل. لقد لبّوا جميعاً دعوة السندويشات. سنذهب معاً لننادي العجوز، لا أحبّ أن تدخلي إلى البار بمفردك.

ـ ولكنني لستُ طفلةً يا أتيليو!

ـ ذلك لأن أسماك قرش كبيرة على هذه السفينة. ستأتين معي، وكفى.

20

أُعدّت ستّ طاولات في البار من أجل الفطور. كان الساقي يوزّع أواخر الفوط المزهّرة عندما دخل لوبيز ود. ريستيللي. اختارا طاولةً، وسرعان ما انضمّ إليهما دون غالو دون أن يكلّف نفسه عناء التعريف بنفسه. سأله لوبيز إن كانت صحته جيدة.

قائلاً دون غالو بلهجة غاليسية لم تغيّر فيها شيئاً خمسون عاماً من التجارة في الأرجنتين:

ـ لا بأس. رطوبة عالية، وفوق كل هذا لم يقدّموا لنا وجبة العشاء أمس.

وافقه د. ريستيللي، الذي كان يرتدي بزّةً بيضاء وقبعة سفر، قائلاً بأن التنظيم مختلٌ بعض الشيء، ولكن الظروف المخفّفة التي أفصح عنها المفتّش تفسّر الأمور قليلاً.

قال دون غالو:

ـ أبداً، أبداً. هذا غير مقبول أبداً. كما في كل مرة تريد البيروقراطية أن تحلّ محل المبادرة الخاصة. لو أن وكالة إكسبرنتر نظّمت هذه الرحلة فكن على ثقة أن هذه المنغّصات ما كانت لتوجد أبداً.

كان لوبيز في غاية الاستمتاع. أراد أن يحمّي النقاش أكثر قائلاً إن الوكالات الخاصة تعرف أيضاً كيف تجعل المثانات مصابيحاً(*)، وأن التومبولا السياحية هي اختراع رسمي في نهاية الأمر.

أضاف د. ريستيللي:

ـ طبعاً، طبعاً، لا بدّ أن السيد بورينيو ـ هذه كنيتك، على ما أعتقد ـ لا ينسى أن الفضل الأول يعود إلى القرارات الذكية التي اتّخذتها حكومتنا.

قال دون غالو بجفاء:

ـ غير موافق. أنا لم أعرف أبداً حكومةً اتّخذت قراراً ذكياً. هذا إذا اقتصرنا في حديثنا على عالم الأعمال الذي أعرفه جيداً، ماذا تقول في الإجراءات الجديدة حول استيراد القماش؟ جحشنة، بكل تأكيد. بوصفي رئيساً فخرياً لغرفة القماش منذ خمسة عشر عاماً، قلتُ رأيي بصراحة في رسالتين مفتوحتين واحتجاجٍ قدّمتُها كلّها للوزير. وكانت النتيجة: صفر، أيها السادة. هذه هي الحكومة.

(*) المقصود بهذا التعبير: إيهام الناس بأمور سخيفة. م.

اتّخذ د. ريستيللي، المستمتع مثل لوبيز، هيئة الديك وقال:

ـ اسمح لي، أنا لا أريد أبداً أن أدافع عن مجموع عمل الحكومة، ولكنّ مدرّساً للتاريخ يمتلك، لنقل ذلك، مجموعة من نقاط المقارنة، وأستطيع أن أؤكّد لكَ أن الحكومة الحالية، ومعظم الحكومات بصورةٍ عامة، تمثّل الاعتدال والتوازن في وجه قوى خاصة، محترمة بكل تأكيد، ولكنها تسعى إلى امتلاك سلطات لا يمكن أن تُمنحَ لها دون الإضرار بالنظام الوطني. وهذا لا يسري على قوى الوطن الحية فحسب، بل على الأحزاب السياسية أيضاً، وأخلاق البلاد والمؤسّسات المشتركة. ما يجب تجنّبه بأي ثمن هو الفوضى، حتى بأشكالها الأكثر نظافةً.

أتى الساقي حاملاً القهوة بالحليب، وأخذ يستمع إليهم بإصغاء شديد ويحرّك شفتيه كما لو أنه يردّد الكلمات الأكثر أهميةً.

أمره دون غالو دون أن ينظر إليه:

ـ أنا أريد كأساً من الشاي مع كثيرٍ من حمض الليمون. نعم، نعم، سنتكلّم بعد قليل عن الفوضى، في حين أنه من البدهي أن الفوضى الرئيسية هي تلك التي تخفيها الحكومة تحت قوانينها ومراسيمها. وسترى ما أقوله لك. وستكون هذه الرحلة فاشلة، ستفشل فشلاً ذريعاً.

سأله لوبيز:

ـ لماذا سافرتَ إذاً ما دمتَ تعرف؟

ارتبك دون غالو ارتباكاً واضحاً لكنه قال:

ـ لا علاقة لذلك. ولماذا لا أسافر، ألم أربح الجائزة؟ كذلك فإن عيوب هذا النوع من الرحلات لا يظهر إلا بالتجربة.

ـ بحسب أفكارك، إن هذه العيوب موجودة دائماً، ألا ترى ذلك؟

ـ بلى، ولكن ماذا إذا سارت الأمور بصورةٍ جيدة؟

قال د. ريستيللي:

ـ بمعنى آخر، أنتَ تعترف أن المبادرة الرسمية يمكن أن تتوَّج بالنجاح. أنا شخصياً، أحاول أن أكون متفهّماً وأن أضع نفسي في مكان مَن يحكم (فكّر لوبيز بتحبّبٍ أكثر منه بخبث: «هذا ما كنتَ تريده، أيها النائب الخائب»)، دفة الدولة شيءٌ جاد يا عزيزي، وهي لحسن الحظ في أيدٍ أمينة. ربما لا تكون حيوية بما فيه الكفاية، ولكنها حسنة النية.

قال دون غالو وهو يدهن الزبدة بحيوية على قطعة البسكويت:

ـ ها قد عدنا، فكرة الحكومة القوية. لا يا سيدي، ما نحن في حاجةٍ إليه هو التجارة القوية، والتبادل الأكثر اتساعاً بين المدن، وأفضّل إمكانيات الشراء بالنسبة إلى الناس جميعاً، طبعاً دون تجاوز بعض الحدود.

قال د. ريستيللي:

ـ هذا لا يتعارض مع ما قلته. ولكن يلزم لذلك حكومة متنبّهة تتمتّع بسلطات فعّالة. أنا أقبل الديمقراطية في الأرجنتين، بل أنا أدافع عنها، ولكن الخلط بين الحرية والإباحية أمر لا أقبله أبداً.

ـ من يتكلّم عن الإباحية؟ أؤكّد لكَ أني حريص مثلك على مسألة الأخلاق.

ـ أنا لا أقصد بهذه الكلمة المعنى الشائع، ولكن بما أنكَ أعطيتَها هذا المعنى، أنا سعيد لأننا اتفقنا على هذه النقطة.

قال لوبيز وقد بدأ يشعر بالسأم الشديد:

ـ وعلى هذه الرائحة الزكية لمربّى الفريز هذا. لا أعرف ما إذا كنتما تعلمان أننا متوقّفون منذ بعض الوقت.

قال دون غالو برضا:

ـ من المؤكّد أن هناك عطلاً. هيه، أنتَ، هات كأس ماء.

حيّوا بلطفِ الوصولَ التدريجي لدونيا بيبا ولجميع أفراد أسرة

بريسوتي التي استقرّت بعد كثيرٍ من المشاورات على إحدى الطاولات المليئة بالزبدة والمربّى. اقترب القطيفة منهم، على ما يبدو لكي يُريهم منامته بتفاصيلها. قال:

ـ صباح الخير، كيف الحال؟ هل علمتم ما حصل؟ إننا أمام كويلمس. الأمر كما أقول لكم.

صاح د. ريستيللي:

ـ كويلمس! ماذا تقول أيها الشاب؟ لا بدّ أنكَ لا تعرف ماذا تقول. يجب أن نكون في خليج مونتيفيديو.

قال القطيفة:

ـ لقد تعرّفت إلى الغازومترات. وها هي خطيبتي هنا تمنعني من الكذب. هاهي البيوت والمصانع، أقول لكِ هذه كويلمس.

قال لوبيز:

ـ ولم لا؟ لقد وضعنا في أذهاننا أن أول توقّف سيكون في مونتيفيديو، ولكن ماذا لو اتجهنا جنوباً مثلاً؟

صاح دون غالو:

ـ جنوباً! وماذا سنفعل في الجنوب أيها الرجل؟

قال لوبيز:

ـ هذا ما نأمل أن نعرفه قريباً.

ثم سأل الساقي:

ـ هل تعرف خط السير؟

اعترف الساقي بأن لا يعرفه، أو أنه بالأحرى، كان يعرفه حتى اليوم السابق؛ لا بد أنها رحلة إلى ليفربول مع جميع التوقفات العادية، ولكن منذ أن بدأت المفاوضات مع اليابسة صار في جهلٍ مطبق. أوقف شرحه ليذهب ويخدم القطيفة الذي طلب على وجه

السرعة أكثر من فنجان قهوة لحليبه، فالتفت لوبيز نحو الآخرين حائراً. ثم قال:

ـ كان يجب أن يبحث عن ضابط. لا بدّ أنهم أعدّوا خطّ سيرٍ في هذه الساعة.

أتى خورخي راكضاً نحو لوبيز الذي استلطفه، وقال:

ـ هناك أناس يتوافدون، أما طاقم السفينة فلا نراه. هل أستطيع أن أجلس معكم؟ بعض القهوة بالحليب من فضلك وبعض الخبز بالمربى. هه! هاهم من كلّمتكم عنهم.

ظهر مدران وفيليبي نصف مندهشين، نصف نائمين. وخلفهم ظهر راؤول وباولا. وبينما هم يتبادلون التحيات والمصافحات دخلت كلوديا وبقية أسرة تريخو. لم يكن غائباً إلا نورا ولوسيو، دون ذكر بيرسيو؛ ولكن بيرسيو لا يعطي أبداً الانطباع بأنه غائبٌ عن أي مكان.

امتلأ البار بأصوات نقل الكراسي وبالثرثرات وبدخان السجائر. معظم الركاب يلتقون فعلاً لأول مرة. ومدران الذي دعا كلوديا إلى طاولته ألفاها أكثر شباباً مما كان يظن مساء اليوم السابق. بدت باولا أصغر من سنّها الحقيقي. ولكن بدا وكأن ثقلاً يجثم على أجفانها، وبأن عرّةً تقلّص جانب وجهها. بدت في هذه اللحظة من عمر كلوديا. سرعان ما عرفت الطاولات كلها بأن السفينة ترسو قبالة كويلمس، الأمر الذي أثار كثيراً من الضحكات والتعليقات الساخرة. انتاب مدران إحساسٌ عبثي بالغيظ وهو يرى راؤول كوستا يدنو من إحدى النوافذ ويتحدّث مع فيليبي. ثم ذهبا وجلسا إلى الطاولة التي كانت تجلس إليها باولا بينما كان لوبيز يستمتع بخبثٍ باستياء أسرة تريخو التي كانت تنظر بسوء إلى انفصال ابنها. ظهر السائق من جديد ليحمل دون غالو فسارع

القطيفة إلى مساعدته. فكر لوبيز: «يا له من شاب شهم! كيف نشرح له بأنه كان عليه أن يترك منامته تحت الوسادة؟» حدّث مدران بذلك بصوتٍ خافت، من طاولة إلى أخرى.

فقال مدران:

ـ آه، الأمر يتكرّر دائماً. لماذا نتضايق من جهل بعض الناس أو من فظاظتهم، في حين أننا، لا أنتَ ولا أنا، فعلنا شيئاً لتطويرهم؟ إننا نفضّل أن نرتّب أمورنا بحيث لن تحصل بيننا أقل صلاتٍ ممكنة، ولكن عندما تضطرّنا الظروف للعيش معهم...

قال لوبيز:

ـ لقد ضعنا. أنا على الأقل. أنا أشعر بالتعقيد الشديد أمام كل هذه المنامات وهذه الغومينا وهذه البراءة.

ـ وهذا ما يستفيدون منه لاشعورياً لكي يطردونا، لأننا، نحن أيضاً، نزعجهم. كلما بصقوا على سطح السفينة بدلاً من أن يبصقوا في البحر، هذا كما لو أنهم يُطلقون علينا رصاصة بين أعيننا.

ـ أو عندما يرفعون صوت المذياع، ثم يعوون لكي يتمكّنوا من التفاهم، ولكنهم عندئذٍ لا يعودون يسمعون المذياع، يزيدونه نبرةً وهكذا دواليك.

قال مدران:

ـ الأسوأ من هذا هو عندما يُخرجون كل الكنز التقليدي للأماكن المشتركة والأفكار المتلقّاة. إنهم غريبون جداً من نوعهم، على شاكلة ملاكم على الحلبة أو بهلوان، ولكني لا أرى نفسي مسافراً طوال حياتي مع أبطال وبهلوانات.

قالت كلوديا وهي تقدّم لهم سجائر:

ـ لا تكونوا سوداويين جداً، ولا تُعلنوا أفكاركم البورجوازية المسبقة. وما قولكم في السلسلة الوسيطة، أسرة طالب

الثانوية؟ لديكم هنا أشخاص مساكين أتعس منا، لا يتفاهمون لا مع مجموعة الأصهب ولا مع طاولتنا، طبعاً، ولكن نحن من سيتراجع برعب.

كان أفراد أسرة تريخو البائسون يتحدّثون بصوتٍ خافت، مع صرخات حادة مفاجئة ونداءات وسوقية ابنهم مع أخته. لم تكن السيدة تريخو مستعدّة للسماح لهذا المأفون بأن يستفيد من الموقف ويتحرّر في سن السادسة عشرة والنصف. وإذا لم يحدّثه أبوه بقوة... لكن السيد تريخو لا يتوانى عن القيام بذلك، يمكنها أن تطمئنّ. أما بيبا فقد كانت صورة كاملةً للازدراء والرفض.

قال فيليبي:

ـ حسن، لقد كان الأمر يستأهل هذه الرحلة أثناء الليل، فما كدتُ أستيقظ حتى نظرتُ عبر النافذة، وماذا رأيت؟ مداخن، حتى كدتُ أن أعود إلى فراشي.

قالت باولا وهي تتثاءب:

ـ هذا سيعلّمكَ الاستيقاظ باكراً. وأنتَ يا عزيزي لا توقظني بعد الآن أبداً. فلديّ صفّ كبير من الجرذان السنجابية سواء من جهة لافال أو من جهة أوخيدا، ولقد آليتُ على نفسي ألا أكمد بريق شعاراتي.

قال راؤول:

ـ عظيم. لقد فعلتُ ذلك لصالحكِ، ولكن ما دمتِ تأخذين الأمر هكذا...

كان فيليبي يُصغي بحيرة، بدا له أن الأوان قد فات قليلاً لأن يوافق على ذلك. عمل على أن يأكل بيضته المسلوقة وهو ينظر بطرف عينه إلى طاولة أسرته. كانت باولا تنظر إليه من خلال سحابتين من الدخان. إنه ليس أفضل من الآخرين ولا أسوأ منهم.

كان يبدو أن السن تسوّي بينهم وتجعلهم عنيدين وقساة ولذيذين بالتساوي. قالت لنفسها: «سوف يتألّم»، ولكنها لم تكن تفكّر بفيليبي.

قال لوبيز:

ـ نعم، هذا هو الأفضل. اسمع يا خورخي، إذا كنتَ قد انتهيت فاذهب وابحث عن أحد أفراد طاقم السفينة واطلب منه أن يصعد إلى هنا.

ـ ضابط أم أي دهني؟

ـ من الأفضل أن يكون ضابطاً، من هم الدهنيون؟

ـ ليست لديّ أية فكرة، ولكنهم الأعداء. إلى اللقاء.

أشار مدران إلى أحد السقاة الذي كان محنيّاً على الكونتوار، فاقترب على مضض.

ـ من هو القبطان؟

فاجأ الساقي لوبيز ود. ريستيللي ومدران كثيراً عندما قال إنه لا يعرف. ثم أضاف:

ـ هكذا هي الحال، حتى أمس كان القبطان لوفان، ولكن سمعتهم يقولون مساء أمس... منذ أن أبحرتم حدثت تغيّرات و...

ـ كيف، تغيّرات؟

ـ نعم، ترتيبات جديدة. أظن أننا الآن لم نعد ذاهبين إلى ليفربول. مساء أمس سمعت... (صمت ونظر حوله). من الأفضل أن تسألوا مسؤول المطعم. ربما كان يعرف أشياء أكثر دقّةً. وهو سيصل بين لحظةٍ وأخرى.

تبادل لوبيز ومدران نظرتين وتركاه يذهب. بدا وكأنه لم يبقَ إلا الإعجاب بمصانع كويلمس والثرثرة. عاد خورخي ليقول إنه لم

يتمكّن من رؤية الضابط وأن البحّارين اللذين كانا يطليان الرافعة لم يفهما اللغة الإسبانية.

21

قال لوسيو:

ـ لننشرها هنا. ستجفّ سريعاً مع المروحة، وسنتمكّن من وضعها بعد ذلك.

عصرت نورا طرف الملاءة التي كانت قد غسلتها.

ـ هل تعرف كم الساعة؟ التاسعة والنصف، ونحن نرسو في مكانٍ ما.

قالت نورا:

ـ أنا أستيقظ دائماً في مثل هذه الساعة، أنا جائعة.

ـ وأنا أيضاً، لا بدّ أنهم قدّموا وجبة الغداء. فمواعيد الوجبات على متن السفينة مختلفة.

تبادلا النظر، ثم دنا لوسيو من نورا وطوّقها بذراعيه بهدوء. أراحت رأسها على كتفه ثم أغمضت عينيها.

سألها:

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ نعم يا لوسيو.

ـ تحبّينني قليلاً، أليس كذلك؟

ـ قليلاً جداً.

ـ وأنتِ سعيدة؟

ـ أممم.

ـ لستِ سعيدة؟

ـ أمممم.

قال لوسيو:

ـ أممم.

ثم قبّلها على شعرها.

نظر إليهما الساقي نظرةً مستنكرة ثم نظّف الطاولة التي كانت أسرة تريخو قد غادرتها. انتظر لوسيو أن تجلس نورا ثم دنا من مدران الذي أطلعه على الموقف. وعندما أطلع نورا بذلك فضلت أن تصدّقه. إن النسوة عموماً هنّ اللواتي يُبدين استنكارهنّ، كما لو أن كلّ واحدةٍ منهن كانت قد وضعت لنفسها مسبقاً خطّ سير تمّ الاعتداء عليهِ بقسوة منذ اليوم الأول. وقفت كلوديا وباولا على سطح السفينة تنظران بإحباطٍ إلى مجموعة المصانع على الشاطئ.

قالت باولا:

ـ تصوّري أن بوسعنا أن نعود إلى البيت بالحافلة.

قالت كلوديا ضاحكةً:

ـ لقد بدأتُ أعتقد أن هذه الفكرة ليست سيئة، ولكني أرى في كل هذا جانباً مضحكاً يسلّيني. لم يعد ينقصنا إلا أن نلقي المرساة في جزيرة ماسييل(*) مثلاً.

ـ وراؤول الذي كان يرانا في جزر ماركيز قبل نهاية الشهر.

ـ وخورخي الذي يتأهّب لكي يطأ أرض حبيبه القبطان هاتراس.

قالت باولا:

ـ يا له من طفل رائع! لقد بدأنا نصبح صديقين.

(*) جزيرة دلتا نهر الريو دولا بلاتا أمام بوينس آيرس.

ـ هذا يسعدني لأن خورخي ليس سهلاً. عندما لا يعجبه شخصٌ ما... إنه يشبهني. أنا خائفة كثيراً، هل أنتِ مسرورة من هذه الرحلة؟

ـ مسرورة، ليست الكلمة المناسبة.

قالت باولا ذلك وهي ترفّ أجفانها وكأن رملاً قد دخل في عينها. ثم أضافت:

ـ أنا بالأحرى مسكونة بالأمل، وأظنّ أني بحاجةٍ إلى تغيير حياتي بعض الشيء، مثل راؤول، لذا قرّرنا أن نقوم بهذه النزهة البحرية. وأظنّ أن الأمر نفسه بالنسبة للجميع.

ـ ولكن هذه ليست أول رحلة تقومين بها.

ـ لا، فقد ذهبتُ إلى أوروبا منذ ستة أشهر، وكانت رحلة فاشلة.

قالت كلوديا:

ـ هذا ممكن بلا شك. فأوروبا ليست متحف الأوفيسز أو ساحة الكونكورد فقط. رغم أن الأمر نفسه بالنسبة إليّ، أنا التي أعيش في عالم الأدب. وربما كانت النسبة المئوية من الخيبة أكبر من أن يُفَكَّر فيها في هذه الجهة من البحر.

ـ ليس الأمر كذلك، على الأقل فيما يخصّني. بصراحة أنا لست قادرةً على تحمّل الشخصية التي استحقّتني بالقسمة. منذ طفولتي وأنا أحلم بتحقيق بعض الأمور وكان الإخفاق بانتظاري دائماً. هنا أمام كويلمس، وعلى هذا النهر الذي بلون زرق الأوز، بالإمكان اختراع فصل طويل من التبرير. ولكن أزفت اللحظة التي يجب فيها الدخول في النموذج المثالي، التي يقيس فيها المرء نفسه مع الأعمدة اليونانية مثلاً. عندئذ يغوص أكثر، ثم أضافت وهي تُخرج السجائر من حقيبتها: إني أستغرب ألا تنتهي بعض الرحلات برصاصةٍ في الرأس.

قبلت كلوديا سيجارةً وهي تردّ التحية لأسرة تريخو وأسرة

بيرسيو اللتين أرسلتا إليها إشارات كبيرة من طرف سطح السفينة. وكانت حرارة الشمس قد بدأت تشتدّ.

قالت كلوديا:

ـ الآن فهمتُ لماذا أُعجب بكِ خورخي. هذا بغضّ النظر عن العينين الخضراوين اللتين تفتنان ابني. ورغم أن الاستشهاد بالأقوال صار موضةً قديمة، تذكّري هذه الجملة لإحدى شخصيات مالرو: «الحياة لا تستأهل ولكن لا شيء يعادل الحياة».

قالت باولا:

ـ أحب أن أعرف كيف انتهت تلك الشخصية.

أحسّت كلوديا أن صوتها قد تغيّر. أسندت يدها على ذراعها وقالت:

ـ لا أذكر. ربما برصاصة في الرأس أيضاً، ولكن من شخصٍ آخر، ربما.

نظر مدران إلى ساعته وقال:

ـ بدأت المزحة تصبح طويلة. بما أننا لسنا إلا قلة هنا فلنرسل واحداً منا ليخرق جدار الصمت.

وافق لوبيز وفيليبي، لكن راؤول رأى أن يذهبوا جميعاً للبحث عن أحد الضباط. على جسر المقدّمة لم يكن إلا بحاران أشقران يهزّان رأسيهما وهما يتحدّثان بلغة أجنبية قد تكون النرويجية أو الفنلندية. عادوا من الممر الأيمن دون أن يلتقوا بأحد. كان باب مقصورة مدران موارباً. حيّاهما الستيوارد بلغة إسبانية مهشّمة. كان من الأفضل أن يلتقوا بمسؤول المطعم الذي لا بدّ أنه مستغرقٌ في إعداد وجبة الغداء في غرفة الطعام. لا، لا يمكن العبور على سطح السفينة الخلفي دون أن يعرف أحدٌ لماذا. القبطان لوفان، آه،

لم يعد القبطان لوفان. لقد كان القبطان لوفان حتى أمس. وثمة شيء آخر: كان يرجو هؤلاء السادة بأن يغلقوا مقصوراتهم بالمفتاح إذا كان لديهم أشياء ذات قيمة...

قال لوبيز سئماً:

ـ هيا لنرَ مسؤول المطعم.

عادوا إلى البار ليجدوا فيه لوسيو وأتيليو اللذين يتساءلان عن سبب توقّف مالكولم. ومن هناك انتقلوا إلى غرفة المطالعة حيث يقبع بيانو أسكنديناڤي قبيح. ومن هناك انتقلوا إلى غرفة الطعام التي انتزعت أبعادُها من راؤول صَفرة إعجاب. كان مسؤول المطعم يوزّع أزهاراً وفوطاً (لا بدّ أنه مسؤول المطعم لأنه يبتسم ابتسامة مسؤول مطعم ويعطي أوامر لصبي كان يصغي إليه عابساً). تقدم منه لوسيو ولوبيز. رفع مسؤول المطعم حاجبين من فلفل وملح وحياهما بلامبالاة لا تخلو من اللطف.

قال لوبيز:

ـ أنا وهؤلاء السادة مفاجَؤون قليلاً، ها قد بلغت الساعةُ العاشرةَ صباحاً ولم نحصل على أي إيضاح حول الرحلة التي سنقوم بها.

ـ أوه، الإيضاحات حول الرحلة... أعتقد أنهم سيعطونكم تعليمات تفصيلية. في الحقيقة أنا نفسي لست على اطّلاع على الأمر.

قال لوسيو بنبرةٍ أعلى مما يجب:

ـ إذاً، لا أحد هنا على اطّلاع على الأمر! هل تجدون من التهذيب أن يتركونا هكذا؟. منقارنا في الماء. أضاف ذلك وهو يحمرّ ولا يعرف ماذا يقول.

ـ أقدّم لكَ اعتذاراتي كلها يا سيدي. ما كنتُ لأظن أنه منذ الصباح... إننا مشغولون بما فيه الكفاية. سنقدّم الغداء عند الساعة

الحادية عشرة تماماً، والعشاء عند الثامنة مساء. وسنقدّم الشاي في البار عند الساعة الخامسة. والركاب الذي يرغبون تناول وجباتهم في مقصوراتهم...

قال راؤول:

- بمناسبة الرغبة، أنا أرغب أن أعرف لماذا لا يمكننا العبور على سطح السفينة الخلفي.

- Technical reasons «أسباب تقنية».

ثم سارع إلى ترجمة العبارة.

- هل هناك عطلٌ في الآلات؟

- أوه، لا.

- لماذا أمضينا الصباح بأكمله أمام كويلمس؟

- سنرفع المرساة قريباً.

- إلى أين؟

- لا أعرف يا سيدي، أظن أن التعليمات ستعلمكم.

- هل يمكننا أن نسأل أحد الضباط؟

- قيل لي أن أحد الضباط سيأتي ليرحّب بكم على الغداء.

سأل لوسيو ليقول شيئاً عملياً:

- هل يمكننا أن نرسل برقيةً؟

سأله مسؤول المطعم:

- إلى أين يا سيدي؟

قال القطيفة:

- كيف إلى أين؟ إلى بيتنا لكي أعرف أحوال أسرتي. لقد أجريت عملية الزائدة الدودية لابنة عمي.

قال راؤول:

ـ المسكينة! حسنٌ، لم يبقَ لنا إلا أن ينزل الوحي مع المقبّلات. سوف أتملّى من شاطئ كويلمس، جولة فيكتوريو كومبولو(*) ورجال عظماء آخرون.

قال مدران لراؤول:

ـ غريب، لم يتغيّر شيء. لدي انطباعٌ لا يفارقني بأننا محشورون في مغامرة مضحكة. مسلية بمعنى من المعاني، ولكن لستُ أدري إلى أية درجة. ما رأيكم أنتم؟ ألا ترون أن كل هذا يتّخذ لبوساً غريباً؟

ـ Not with a bang but with a wimper.

سأل فيليبي وهو ينزل الدرج إلى سطح السفينة:

ـ هل تجيد الإنكليزية؟

نظر إليه راؤول مبتسماً:

ـ نعم بكل تأكيد. أقول «بكل تأكيد» لأن كلَّ الذين أعيش في وسطهم يجيدونها. ولكن أنتَ تدرسها في المدرسة، أليس كلك؟

أجاب فيليبي الذي سيكلّفه ذلك امتحان مرور:

ـ قليلاً.

رغب في أن يذكّر راؤول بهديته حول الغليون، لكنه خجل. لم يخجل بالضبط بل وجب عليه أن يجد الفرصة السانحة. كان راؤول يتحدّث عن مزايا اللغة الإنكليزية، دون أن يلحّ عليها، وكان يتشدّق بنوع من الشفقة المضحكة. فكّر: «الجملة التي لا يمكن تجنّبها للمؤرّخ. والمقاربة المليئة بالحذر والنباهة، الجولة الأولى من الاستطلاع...».

قال آلياً:

ـ بدأ الطقس يصبح حاراً. إنها رطوبة ريو دو لا بلاتا التقليدية.

(*) ملاكم مشهور.

ـ نعم، ولكن لا بد أن القميص الذي ترتديه رهيب.

سارع فيليبي إلى وضع إصبعين على القماش: «إنه من النايلون بكل تأكيد».

ـ بل إنه من بوبلين الحرير.

ـ كأنه من النايلون. عندي أستاذ كل قمصانه من النايلون. يأتي بها من نيويورك، ونسمّيه «القائد».

ـ لماذا تحب النايلون إلى هذا الحد؟

ـ لأن... لأن تلك هي الموضة. إن دعايته تملأ كل مكان. ومن المؤسف أن يكون غالياً في بوينس آيرس.

ـ ولكن لماذا تحبه، أنت؟

قال فيليبي:

ـ لأنه ليس بحاجة إلى الكوي. يُغسَل القميص ثم يُعلَّق وينتهي الأمر. «القائد» هو من شرح لنا ذلك.

نظر إليه راؤول مباشرةً وهو يخرج سجائره من جيبه وقال:

ـ أرى أن لديك حسّاً عملياً يا فيليبي. ولكن ألسنا مضطرّين إلى الاعتقاد بأنك تغسل ثيابك وتكويها؟

احمرّ فيليبي وسارع إلى قبول السيجارة.

سأل وهو يدير عينيه:

ـ هل تسخر مني؟ ولكن النايلون... للرحلات...

وافقه راؤول لكي يُخرجه من هذا المأزق، النايلوني بالطبع.

22

كان قاربٌ يقوده رجلٌ وصبي يتّجه صوب مالكولم من الجهة اليمنى. حيّتهما كلوديا وباولا بيديهما ودنا القارب. سألهما الرجل:

ـ لماذا ترسون هنا؟ هل هناك خطبٌ ما؟

أجابت باولا:

ـ هناك سرّ، أو إضراب.

ـ هل ترين ذلك يا آنسة، من المؤكّد أن شيئاً ما قد انكسر.

فتحت كلوديا حافظة نقودها، أظهرت ورقتين من فئة العشر بيزوسات، وقالت:

ـ أدِّ لي خدمةً من فضلك، اذهب إلى مؤخرة السفينة وانظر ماذا يحدث. نعم إلى المؤخرة، وانظر أيضاً إن كان هناك ضبّاط وإن كانوا يُصلحون شيئاً ما.

ابتعد القارب دون أن يخاطر الرجل، المُحبَط بصورةٍ واضحة، بأي تعليق. أما الصبي الذي كان قد ألقى الشص في الماء فقد أخذ يلفّه بسرعة.

قالت باولا:

ـ يا لها من فكرة جيدة! ولكن لكل ما يحدث جانبٌ غريب، أليس كذلك؟ إرسال جاسوس... شيء عبثي.

ـ ربما لا يكون هذا أكثر عبثيةً من الوقوع على الرقم الرابح من بين جميع الاحتمالات التي تفترضها أرقام من خمسة أعداد. ولكن من المؤكد أن بيرسيو يعديني.

بينما كانت تشرح لباولا من هو بيرسيو رأت القارب يبتعد دون أن يلقي الرجل نظرةً إلى الخلف، ولم تفاجأ كثيراً.

قالت كلوديا:

ـ إخفاق الـ astuzie feminile(*)، آمل أن يحالف الحظّ الرجالَ أكثر. هل أنتما مرتاحان في مقصورتيكما؟

قالت باولا:

(*) كيد النساء. م.

ـ جداً. المقصورات ممتازة بالنسبة إلى سفينة كهذه. لا بدّ أن راؤول المسكين سيندم سريعاً على سفره معي. إنه النظام شخصياً، بينما أنا... ألا ترين أنه شيء لذيذ أن تنثري شيئاً ما في كل مكان؟

ـ لا، أبداً. ربما ذلك لأني مسؤولة عن بيت وطفل. لا، أعتقد أني أفضّل أن أرى تنوراتي في درج التنورات، إلخ.

قالت باولا ضاحكةً:

ـ سيقبّل راؤول يديكِ إذا سمع ذلك. أول شيء فعلتُه هذا الصباح هو أني غسلتُ أسناني بفرشاة أسنانه. المسكين، هو الذي يحتاج إلى الراحة.

ـ سيحصل عليها في النهار، فالسفينة ليست قليلة الهدوء.

ـ لا أعرف، يبدو راؤول قلقاً، فقصة هذه المؤخّرة الممنوعة توتّره. لا يا كلوديا، أعتقد حقاً أني سوف أفسد رحلة راؤول.

شعرت كلوديا بأن هذا الإلحاح يُخفي شيئاً ما. لا يهمّها هذا الأمر كثيراً ولكنّ باولا تعجبها بطريقتها برفّ أجفانها وبسرعتها في تغيير وضعها. قالت:

ـ أعتقد أنه تعوّد على أن تأخذي فرشاة أسنانه.

ـ لا، ليس فرشاة الأسنان. الكتب التي أضيعها، وفناجين القهوة التي أقلبها على سجاداته... وليس فرشاة الأسنان حتى هذا الصباح.

ابتسمت كلوديا دون أن تقول شيئاً. تردّدت باولا وقامت بحركةٍ كما لتطرد ذبابةً ثم قالت:

ـ ربما كان من الأفضل أن أقول لكِ مباشرةً: إننا أصدقاء جداً، أنا وراؤول.

ـ إنه شاب لطيف جداً.

ـ بما أن لا أحد تقريباً على متن السفينة لا يعرف ذلك، فقد أحببتُ أن تعرفي ذلك، أنتِ على الأقل.

- شكراً يا باولا.

- أنا من يجب عليّ أن أشكركِ على التقائي بشخصٍ مثلك.

- نعم، قد يحصل أن... أنا أيضاً، أشعر أحياناً بحاجةٍ للشكر لمجرّد حضورٍ أو حركةٍ أو صمت. أنا أعرف أني أستطيع أن أتكلّم، أن أقول شيئاً لا أستطيع أن أقوله لشخصٍ آخر، وأن يصبح ذلك سهلاً فجأةً.

قالت باولا:

- هذا كما لو أنهم يقدّمون إليكِ زهرة.

أسندت بخفّة يدَها إلى ذراع كلوديا ثم أضافت وهي تسحب يدها:

- ولكن يجب ألا تثقي بي، فأنا قادرة على القيام بكثيرٍ من الشرور، وأنا منحرفةٌ انحرافاً لا براء منه مع نفسي ومع الآخرين. راؤول المسكين يتحمّلني حتى نقطة معيّنة... لن تتصوّري كم هو طيب ومتفهّم، ربما لأني لستُ موجودة حقاً بالنسبة إليه، أقصد أن أقول على المستوى الفكري فقط، إذا صحّ القول. وإذا حدث بمصادفة غير محتملة أن نمتُ معه، فإنه سيكرهني منذ صباح اليوم التالي، ولن يكون الأول.

أسندت كلوديا ظهرها إلى الدرابزين لتحمي نفسها من أشعة الشمس التي صارت حادة. سألتها باولا بصوتٍ حاد:

- ألن تقولي شيئاً؟

- لا، لا شيء.

- حسنٌ، ربما كان ذلك أفضل. لماذا أضجركِ بمشكلاتي؟

تنبّهت كلوديا إلى النبرة الغاضبة والثائرة، فقالت:

- لدي انطباعٌ بأني لو طرحتُ أي سؤالٍ أو أتيتُ بأية فكرة لما وثقتِ بي هذه الثقة، ولحذرتني. بهذا الحذر الكامل والشرس الذي

تكنّه النساء لبعضهن البعض. ألا تخشين أن أقوم بإفشاء هذه الأسرار؟

- أوه، مُسارّات! هذه ليست مسارّات.

سحقت باولا السيجارة التي أشعلتها للتو، «لقد كان ذلك تماماً من أجل أن أريك جواز سفري، أنا مرعوبةٌ من أن يظنّوني ما أنا لست عليه، ومن أن تستلطفني امرأةٌ مثلك على أساسٍ من سوء تفاهمٍ فظيع.

- وكان من أجل ذلك، راؤول، انحرافك وغرامياتك التعيسة؟»

أخذت كلوديا تضحك، ثم مالت فجأةً وقبّلت باولا على خدّها. أي غباء! يا له من غباءٍ عظيم!

طأطأت باولا رأسها وقالت:

- أنا أسوأ من هذا بكثير. ولكن احذري ذلك، احذري ذلك.

وجدت نيللي هذا الصدار جريئاً جداً. أما دونيا روزيتا فهي أكثر تسامحاً مع شباب اليوم. ورأت أم نيللي رأياً وسطاً: الصدار جيد، لكن لونه صارخ. وعندما سئل أتيليو عن رأيه أجاب بلباقة لو أن هذا الصدار على امرأة ليست صهباء ما كان ليثير الانتباه، ولكنه على أية حال لن يسمح لخطيبته بصدار مقوّر كهذا.

أحرقت الشمس نقراتهم فالتجؤوا إلى الخيام التي نصبها البحّارة. وبعد أن جلسوا على كراسٍ طويلة مختلفة الألوان وجدوا أنفسهم راضين تماماً عن قسمتهم. لم يكن ينقص سعادتَهم شيءٌ إلا المتة، وكان ذلك خطأ دونيا روزيتا التي لم تُرِد أن تجلب الترموس وجوزة المتة مع المصاصة الفضية، هدية والد نيللي لدون كورسيو بريسوتي. ندمت دونيا روزيتا في قرارة نفسها على ما فعلت، ولكنها لاحظت أنه ليس من اللياقة في شيء شرب المتة على جسر

الدرجة الأولى، وقد ردّت عليها دونيا بيبا بأنه كان بوسعهم أن يشربوها في المقصورة. اقترح القطيفة أن يذهبوا إلى البار ليشربوا قدحاً من البيرة أو من السانغريتا. لكن النسوة فضّلن كثيراً مقاعدهن المريحة ومنظر النهر.

اقترب دون غالو منهن، حيث كانت النسوة ترقب كلَّ نزولٍ له على الدرج بعيونٍ مرعوبة، ليشكر القطيفة على الخدمة التي أدّاها لسائقه. ردّ القطيفة والنسوة بصوتٍ واحد أن لا شكر على واجب. وسألته دونيا بيبا إن كان قد سافر كثيراً. حسن، نعم، إنه يعرف قليلاً العالم الواسع، وعلى الأخص منطقة لوغو ومقاطعة بوينس آيرس، ولقد ذهب إلى الباراغواي على سفينة ميهانوفيتش، رحلة رهيبة عام 1928، ولقد كان الطقس حارّاً، كان حارّاً...

قالت نيللي وهي تشير قليلاً إلى الكرسي والسائق:

ـ ودائماً...

ـ لقد كنتُ آنذاك أقوى من باولينو أوزكودون يا ابنتي. ذات مرة في بنواخو، شبّ حريقٌ في أحد المخازن...

أشار القطيفة إلى نيللي بأن تنحني لكي يتمكّن من أن يكلّمها في أذنها.

ـ سوف تبدي عناداً تلك العجوز، بعد قليل! بينما أدارت ظهرها وضعت في الحقيبة كأس المتة وكيلوغرامين من المتة. سأصعّدها إلى هنا هذا المساء وسيبقى الآخرون مستغربين.

قالت نيللي التي واصلت إعجابها بصدار باولا من بعيد:

ـ أوه يا أتيليو، أنتَ إذاً، أنتَ...

قال القطيفة مبدياً إعجابه بالمنظر:

ـ وماذا تريدين؟

جذب الصدار البرتقالي لوبيز أيضاً، وكان قد نزل إلى سطح

السفينة. كانت باولا تقرأ جالسةً تحت أشعة الشمس، فأتى وارتفق الدرابزين منتظراً أن ترفع عينيها إليه، فقالت:

ـ إيه يا بروفسّور، كيف حالك؟

تمتم لوبيز:

ـ horesco referens، لا تناديني بروفسور، وإلا رميتكِ عن ظهر السفينة، أنتِ وكتابك.

ـ الكتاب لفرانسواز ساغان، وهو لا يستحقّ هذه المعاملة. أرى أن الهواء النهري قد أيقظ لديكَ ذكريات القرصنة.

ـ هل قرأتِ روايات مغامرات؟ علامة جيدة، علامة جيدة جداً. أنا أعلم بالخبرة أن النساء الأكثر أهميةً هنّ دائماً اللواتي قرأن كتباً للصبيان عندما كنّ فتيات صغيرات، ستيفنسن، مثلاً؟

ـ نعم، ولكني استقيتُ تبحّري من مجموعة تيت بيتس التي كان والدي يحتفظ بها كإحدى المجموعات المثيرة للفضول، والتي نشرت رواية بعنوان: كنز القمر الأسود.

ـ آه، وأنا أيضاً قرأتُها. وقد كان للقراصنة أسماء غريبة مثل: سيناشيريب وإيدن وماكاريبو سميث.

ـ أراهن أنكَ لم تعد تذكر اسم السيّاف الذي مات دفاعاً عن قضية عادلة؟

ـ بكل تأكيد أذكره. إنه كريستوفر دون.

قالت باولا وهي تمدّ إليه يدها:

ـ نحن روحان متآخيتان. يعيش العَلَم الأسود. لقد امّحت كلمة بروفسور إلى الأبد.

ذهب لوبيز باحثاً عن كرسي بعد أن تأكّد من أن باولا تفضّل الكلام على قراءة كتاب *ابتسامة ما*. عاد مسرعاً ونشيطاً يحمل كرسياً طويلاً لامعاً لونه أخضر وأبيض. لم يكن قصير القامة، لكن

منظره كان يوحي بذلك لأنه كان يرتدي سترات بلا كتافيات وبناطيل ضيقة ولأنه كان يتنقّل دائماً بسرعة. جلس قرب باولا متشهّياً، وأخذ ينظر إليها دون أن يتكلّم.

قالت وهي تنظر إليه:

ـ أيتها الشمس، أيتها الشمس، أية أشعة؟ يا إلهي الحامي! يستطيع ماكس فاكتور أو هيلينا روبنشتاين أن ينقذانا من هذا الامتحان العسير.

ـ الامتحان يعطي النتائج التالية: جمال غير عادي يكمده قليلاً تعرّضٌ لهواء علب الليل وأكواب المارتيني دراي.

ـ Right you are(*).

ـ علاج مطلوب. شمس بكمية معتدلة وقرصنة غبّ الطلب. هذا ما تمليه عليّ تجربتي كساحر، ذلك لأني أعرف تماماً أني لن أستطيع أن أخلّصكِ من عيوبكِ دفعةً واحدة. عندما يذوق المرء متع الأسفار على متن السفينة، وعندما يعرّض للخطر ما يقارب المئة بحار...

ـ تبقى الندبات طبعاً، كما في التانغو. ويبقى المرء يحمل علاماتها.

ـ إنها تُختَزل لديكِ إلى فلسفة تعبيرية تسبّبها بلا شك حياة الخفّاش التي تعيشينها وفرط القراءة، ومن ناحية أخرى فقد سمحت لنفسي بأن أقول أنكِ كنتِ تكتبين الحكايات والقصص القصيرة.

همست باولا:

ـ راؤول، أيها الجاسوس القذر، سوف أحكم عليكَ بعذاب الصلب، عارياً ومدهوناً بالقطران.

قال لوبيز:

(*) أنت على حق. م.

ـ مسكين راؤول، مسكين وسعيد، راؤول.

ـ سعادة راؤول عابرة دوماً، نظرية مغامرة جداً، بِع الزئبق، اشترِ البترول، صفِّ أي سعر، رعب عند الظهر وكافيار على العشاء. وهذا ليس أكثر سوءاً هكذا.

ـ نعم هذا دائماً أفضل من علاج البروفسور. من ناحيتي ليس لدي أفعال فحسب، بل أنا لا أقترفها. أنا أعيش في اللافعل، وهذا لا يكلّف كثيراً.

ـ حيوانات بوينس آيرس هي نفسها يا عزيزي جامايكا جون. لهذا السبب صعدنا على متن مالكولم بحماسة وكنا قد وصفناها بالرجعية.

ـ ولكني كنتُ أتكلّم وأنا أسخر منك، فأنت تبدو لي منساقاً في نقد ذاتي أين منه نقد موسكو الذاتي.

ـ لا، الرحمة! لقد تكلّمتُ مع كلوديا عن نفسي بما فيه الكفاية. هذا يكفي اليوم.

ـ هل كلوديا لطيفة؟

ـ لطيفة جداً. حقاً هناك مجموعة هامة من الأشخاص.

ـ ومجموعة أخرى غريبة. سنرى أية تحالفات وأية انفصالات وأية فرارات ستحصل مع الزمن. أرى دون غالو هناك يتحدّث مع أسرة بريسوتي. سيكون دون غالو المراقب النزيه الذي يمضي من طاولة إلى أخرى بكرسيّه الغريب. أليس غريباً أن ترى كرسياً متحركاً على متن سفينة؟ واسطة نقل على واسطة نقلٍ أخرى؟

أضاف لوبيز:

ـ المشكلة الكبرى ستكون آل تريخو. الصغير سيأتي معنا، هذا مؤكَّد («أتتكلم...». فكرت باولا). وسيكون استقبال الباقي بلطف، ولكن هذا لن يدوم طويلاً. على الأقل فيما يخصّنا، أنا وأنتِ. لقد

سمعتهم يتحدّثون، وهذا يكفيني. إنهم من نوع: «أتريد كاتو بالكريمة؟ إنه مصنوع في البيت». أما بالنسبة إلينا، أنا أتوقّع حلفاً هجومياً ودفاعياً، لقاءً محتملاً عند المسبح ـ إن كان هناك مسبح ـ ولقاءات أكيدة على الغداء والشاي والعشاء، إلا إذا كان راؤول...

ـ لا تشغل نفسك براؤول، أوه تلميذ كلاوسفيتز.

ـ لو كنتُ راؤول، لما سرّني أن أسمعكِ تقولين هذا، ولكن بصفتي المتواضعة كارلوس لوبيز، فإني أعدّ تحالفنا تحالفاً لا ينفصم.

قالت باولا بلامبالاة:

ـ ها قد بدأتُ أعتقد بأن راؤول كان سيُحسن صنيعاً لو طلب مقصورتين.

نظر إليها لوبيز لحظةً وشعر بالاضطراب رغماً عنه.

قالت:

ـ أعرف أن هذه الأمور ليست دارجة لا في الأرجنتين ولا في أي مكان آخر. ولهذا بالضبط نقوم بها، أنا وراؤول. أنا لا أطلب منك أن تصدّقني.

قال لوبيز الذي لم يكن يصدّقها أبداً:

ـ بلى، أنا أصدّقك.

رنّ صنج رنةً خفيفة في الممر، ثم رنّ آخر أقوى منه في أعلى الدرج.

قال لوبيز بانطلاق:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فهل تقبلينني على طاولتك؟

ـ سنكون قرصانين، بكل سرور.

توقّفا عند أسفل الدرج الأيسر. كان أتيليو يساعد السائق على

إصعاد دون غالو الذي كان يهزّ رأسه بطريقةٍ محبّبة. تبعه الآخرون بصمت. في الممر وقف لوبيز فجأةً وسأل:

ـ قولي لي، هل رأيتِ أحداً على عبّارة القيادة؟

نظرت إليه باولا وقالت:

ـ الآن تذكرت، لا. ولكن من الصحيح أننا نرسو أمام كويلمس، وأن هذا لا يتطلّب عين عنقريط.

اعترف لوبيز:

ـ موافق. ومع ذلك فإن الأمر غريب. ماذا كان سيناشيريب إيدن سيفكّر في ذلك؟

23

مقبلات متنوعة

فروج بالطرخون

سلطة ثلاثية الألوان

جبن

كأس ملبا

كاتو بيتي فور

فواكه

قهوة ـ منقوعات

ليكور

على الطاولة رقم واحد، رتّبت بيبا تريخو نفسها بحيث تجلس مقابل الصالة لكي يستطيع كل شخص أن يُعجب بصدارها الجديد وسوارها المصنوع من التوباز التركيبي. لاحظت السيدة تريخو أن الكؤوس المقطوعة هي الأكثر أناقة. تحسّس السيد تريخو جيب

صداره ليتأكد من أنه يحمل البروميكول وقرص الألكا سيلتزر، وأخذ فيليبي ينظر إلى الطاولات الأخرى نظرةً كئيبة.

على الطاولة رقم اثنان، قال راؤول لباولا إن أطباق السمك تذكّره بكروكيات رآها مرسومة في إحدى المجلات الإيطالية. كانت باولا تصغي إليه بذهول وهي تنوي أن تُغير على طبق التونا بالزيت والزيتون الأسود.

انتاب كارلوس لوبيز شعورٌ غريب بالحماسة، وشهيُّته التي تكون متواضعة عادة، تنامت مع أطباق القريدس والكرفس والمايونيز.

الطاولة رقم 3: رَسَم خورخي بإصبعه دائرة حول صينية المقبلات فقبلت كلوديا هذه الحركة المسكونية بابتسامة. بيرسيو يقرأ بإمعان لصاقة زجاجة النبيذ، ويتأمل هذا الشراب ويشمّه طويلاً قبل أن يُترع كأساً منه.

مدران ينظر إلى رئيس الخدم الذي ينظر إلى الصبي الذي ينظر إلى صينيته.

كلوديا تحضر سندويشة زبدة لابنها وهي تفكر بالقيلولة التي ستقيلها بعد أن تسبقها رواية لبيوي كاساريس.

الطاولة 4: ألمحت أم نيللي إلى أنها لا تحب حساء الخضار، وإلى أنها تفضّل عليها حساء الحبوب مع الشعيرية الرفيعة.

دونيا بيبا لديها انطباع بأنها تعاني من دوار البحر، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقول إن السفينة تتحرّك.

نيللي تنظر إلى بيبا تريخو وكلوديا وباولا وتفكّر بأن أبناء تلك الأوساط يرتدون ملابسهم دائماً بشكل خاص.

القطيفة معجبٌ بالخبز. الرغيف صغير جداً، فردي جداً، ولكنه عندما قَسَم رغيفاً شعر بالخيبة، فما هذا إلا قشرة خبز.

الطاولة 5: د. ريستيللي يملأ أقداح جلسائه ويتحدّث بمهارة عن مزايا كل من نبيذ بورغوني ونبيذ بوردو.

دون غالو يصفق بلسانه ويذكر النادل بأن سائقه يأكل في المقصورة وبأن لديه شهية عظيمة.

نورا ليست سعيدة لكونها تجلس مقابل هذين السيدين العجوزين. أخذت تتساءل عما إذا كان لوسيو يستطيع أن يطلب من رئيس الخدم تبديل طاولتهما.

ملأ لوسيو طبقه بالسردين والتون، وهو أول من لاحظ اهتزازاً خفيفاً للطاولة، وأول من لاحظ الاختفاء التدريجي للمدخنة التي كانت تقسم النافذة إلى قسمين.

انفجر الفرح وسط الجميع. قفز خورخي من مكانه ليرى التحرك، وانتشر تفاؤل د. ريستيللي كهالةٍ حول وجهه، ولكن دون أن يسري ذلك على دون غالو. ومع ذلك ما يزال مدران ولوبيز ينتظران قدوم الضابط. وبعد أن طرح لوبيز السؤال بصوتٍ خافت على رئيس الخدم، رفع هذا يديه بحركةٍ تنم عن اليأس وقال إنه سيحاول أن يرسل أحد الخدم لاستعجاله. كيف «سيحاول»؟ نعم، لأن الاتصالات مع مؤخّرة السفينة ليست سهلة حتى إشعارٍ آخر. ولماذا؟ لأسبابٍ تقنية على ما يبدو. هل هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا على مالكولم؟ بمعنى ما، نعم. ما معنى: «بمعنى ما»؟ إنها طريقة في الكلام.

بذل لوبيز جهداً هائلاً في ألا يقول له: «اغرب عن وجهي!» وقَبِل قطعةً من الموستر اللذيذ مقابل ذلك.

قال لمدران:

ـ لا يمكن أن تأخذ منه شيئاً. يجب أن نستطلع الأمر بأنفسنا.

ـ ليس قبل القهوة وكأس لذيذ من الكونياك. الاجتماع في مقصورتي. أخبِرْ كوستا. ثم التفت إلى بيرسيو الذي كان يستفيض

في الحديث مع كلوديا وسأله: «كيف ترى هذا الأمر يا صديقي العزيز؟».

أجاب بيرسيو:

ـ الحق يقال إني لا أراهم. لقد أخذت من الشمس ما يجعلني أشعر بأني مضيءٌ من الداخل. أنا مصنوع بحيث أكون متأمِّلا أكثر من أن أتأمّل. طوال الصباح وأنا أفكر بدار النشر، وبمكتبتي، ورغم أني ركّزت على ذلك، لم أتوصّل إلى تحقيقهما. كيف لثماني عشرة سنة من العمل اليومي أن تتحوّل إلى سراب لمجرّد أن النهر يحيط بي ولأن الشمس تلهب رأسي؟ يجب تحليل الجانب الميتافيزيقي لهذه التجربة بعناية.

قالت كلوديا:

ـ هذا يُسمّى بكل بساطة: العطل المدفوعة الأجر.

للحظةٍ غلب صوت أتيليو بريسوتي كل الأصوات للاحتفاء بوصول كأس من الملبا. في الوقت نفسه دفعت بيبا تريخو كأسها بتكشيرةٍ تنم عن احتقارٍ أنيق هي وحدها تعرف ثمنه. لقد غزاها تفوّقُها وهي ترى نيللي وباولا وكلوديا وهن يتلمّظن ببوظتهن. لكن انتصارها الأسمى تجلّى بسحقها خورخي باحتقارها، هذه الدودة التي ترتدي بنطالاً قصيراً، والتي خاطبتها بلا تكليف وهي تلتهم بوظتها. كانت عيناها تنظران بتمعّن إلى صينية الصبي وعليها كأسان مليئان.

قالت السيدة تريخو:

ـ ألا تحبين البوظة يا بيبا؟

أجابت بيبا وهي تنظر نظرة ثابتة إلى وجه أخيها المستمتع:

ـ لا، شكراً.

ـ كم هي حمقاء هذه الصغيرة. ولكن بما أنكِ لا تريدين...

كانت ستضع كأس البوظة أمامها عندما انتزعته يدُ رئيس الخدم لدى مروره. ثم قال:

ـ لقد ذابت يا سيدتي. خذي هذه.

شعرت المرأة بالخجل الشديد أمام فرح أبنائها وزوجها المكتوم.

جلس مدران على طرف السرير وأخذ يهزّ قدمه على إيقاع تمايل السفينة غير الملحوظ. ذكّرته رائحة الغليون بالسهرات التي أمضاها في نادي المقيمين الأجانب وأحاديثه مع مدرّسه للغة الإنكليزية السيد سكوت. في هذه الساعة من المؤكَّد أن بيتينا قد اتصلت بالنادي بصوتٍ أرادته أن يكون مهملاً. فكر: «ستتصل غداً وستطلب ويلي أو ماركيز ساي. المساكين، لن يعرفوا بماذا يجيبونها. فأنا لم أخبرهم. إني أتساءل أين كان عقلي». لماذا انصرف هكذا من غير استئذان، دون أن يخبر أحداً بالرحلة التي ربحها؟ لقد خامره هذا التساؤل في الليلة الماضية قبل أن ينام. لعبته تُخفي شيئاً ما، وهي لا تخلو من بعض القسوة. قال لنفسه: «إنها أقرب إلى الانتقام منها إلى الهجر». ولكن لماذا ما دامت فتاةً طيبة جداً؟ إلا إذا كان هذا لأنها كذلك. فكّر أيضاً أنه لم يكن يرى إلا عيوبها في الفترة الأخيرة: عرضٌ مشتركٌ جداً، وسوقيٌّ جداً. إنها لا تريد أن تفهم أن هذا ناديه. وقالت له بنبرةٍ تقارب الوطنية: «ولكنكَ لستَ مقيماً أجنبياً. اذهب واختر نادياً للغرينغو، رغم أن كل النوادي الموجودة في بوينس آيرس...». من المحزن له أن يفكّر بأنه لن يراها أبداً بسبب عباراتٍ كهذه.

قال لوبيز فجأةً:

ـ يجب ألا نجعل من ذلك مسألة كرامةٍ جريحة. من المؤسف حقاً أن يُفسَد منذ اليوم الأول أمرٌ يجدر به أن يكون مسلّياً. ومن جهة

أخرى، لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي. سينتهي الأمر بأن يبدو لي موقفاً غير مريح، والله يعلم أني فوجئتُ بذلك.

قال راؤول:

ـ حسن، اليد الحديدية في قفاز حريري. أعتقد أننا سنشقّ بالمجاملة طريقاً حتى صلاة التقديس.

قال لوبيز:

ـ هيا بنا. وشكراً على الكونياك يا عزيزي، إنه لذيذ.

سكب لهما مدران كأساً آخر ثم ذهبوا.

كان الباب الحجري على بعد خطوتين من المقصورة. أخذ راؤول يتفحّصه بعين خبيرة وحرّك رافعةً مطليةً باللون الأخضر. قال:

ـ لا نستطيع فعل شيء. إنه لا ينفتح إلا بضغط الغاز. وهذه الرافعة للنجدة.

الباب اليميني للممر قاوم هو الآخر رغم جهودهم كلها. جعلتهم صفرةٌ حادّة مباغتة يجفلون جميعاً. حيّاهم القطيفة وهو نصف متحمّس ونصف قلِق، ثم قال:

ـ وأنتم أيضاً؟ منذ بعض الوقت وهذه القضية تقلقني. هذه الأبواب، إنها الموت. ماذا يُعدّ هؤلاء المعتوهون؟ ألا ترون أن هذه الأمور ليست جيدة؟

قال لوبيز:

ـ طبعاً. ولم تجد أي بابٍ آخر؟

قال خورخي بصوتٍ مرتفع وقد ظهر فجأةً كشيطانٍ صغير:

ـ كل شيء مسدود.

قال القطيفة:

ـ أنتَ تتكلّم عن الأبواب. هناك بابان على سطح السفينة، ولكنهما مغلقان بالمفتاح. يجب أن نجد سرداباً أو شيئاً من هذا القبيل.

سألهم خورخي:

ـ هل تجهّزون حملةً ضد الدهنيّين؟

ـ نوعاً ما. هل رأيتَ بعضهم؟

ـ الفنلنديان فقط، أما من هم على سطح السفينة الخلفي فهم ليسوا من الدهنيين. لا بد أنهم من السكريات أو من البروتيدات.

قال القطيفة:

ـ إن هذا الصبي يقول أشياء مسلية. فمنذ الصباح وهو متمسّك بالدهنة.

صحّح خورخي قائلاً:

ـ الدهنيين.

شعر مدران بالقلق دون أن يعرف السبب، وهو يرى خورخي يبحث معهم.

قال له:

ـ اسمع! سوف نكلّفكَ بمهمة صعبة. اذهب إلى سطح السفينة وراقب البابين. قد يخرج الدهنيون من هناك. عند أول خطر عليكَ أن تصفر ثلاث مرات. هل تعرف كيف تصفر صفيراً قوياً؟

قال خورخي مرتبكاً:

ـ ليس كثيراً، فأسناني متباعدة.

قال القطيفة وهو يرغب في إبداء مواهبه:

ـ لا تعرف؟ اسمع! عليك أن تفعل هكذا.

ثم جمع إبهامه وسبّابته وأدخلهما في فمه ثم أصدر صوتاً حاداً جداً مزّق أغشية الطبل في آذانهم. جمع خورخي إبهامه وسبّابته، ولكن بعد أن فكّر قليلاً، هزّ رأسه ومضى راكضاً.

قال لوبيز:

ـ حسنٌ، لنستأنف الاستكشاف. ربما كان علينا أن نتفرّق، ومن يجد ممراً أولاً عليه أن يُخبر الآخرين.

قال القطيفة:

ـ هذا عظيم. كأننا نلعب لعبة العسكر والحرامية.

ذهب مدران ليأخذ سجائره من مقصورته. رأى راؤول فيليبي يظهر في نهاية الممر. كان يلبس بنطالاً من الجينز وقميصاً له مربعات يعطيه هيئة خيالٍ سينمائي. شرح له ما قرّروا القيام به، ثم رافقه إلى نهاية الممر حيث يلتقي البهوان.

سأل فيليبي بقلق:

ـ ولكن عمَّ نبحث؟

أجاب راؤول:

ـ وما أدراني؟ عن ممر يوصلنا إلى مؤخرة السفينة مثلاً.

ـ لا بد أن هناك يشبه هنا.

ـ ربما، ولكن، بما أننا لا نستطيع الذهاب إليه، فالأمر مختلف كلياً.

قال فيليبي:

ـ ربما كانوا في طور القيام ببعض الإصلاحات، وقد يفتحون الأبواب هذا المساء.

ـ في تلك الحال ستكون المؤخرة شبيهةً بالمقدمة.

قال فيليبي الذي أخذ فهمُهُ يتضاءل:

ـ نعم. إذا كان ذلك للتسلية فهذا جيد، ربما وجدنا ممراً قبل الآخرين.

تساءل راؤول لماذا مدران ولوبيز هما الوحيدان اللذان يفكران مثله. أما الآخرون فلا يرون في ذلك إلا لعبة. ثم قال «في النهاية، إنها لعبة بالنسبة إليّ، أنا الآخر. أين الفارق؟ فبكلّ تأكيد هناك فارقٌ».

قبل أن يصلا إلى الممر اليساري اكتشف راؤول الباب. كان ضيقاً جداً، مطلياً باللون الأبيض، بلون الممر، وقبضته المركَّبة لاتكاد تُرى في الغبش. أداراها بقليلٍ من الأمل، ولكنها رضخت له. كشف الباب الموارب عن درج نازل يضيع في الظلام. تنهّد فيليبي بعمق، وسَمعت أصوات لوبيز وأتيليو في الممر اليميني. سأل راؤول وهو ينظر نظرةً مواربة إلى فيليبي:

ـ هل نخبرهم؟

ـ من الأفضل ألا نفعل. لنذهب لوحدنا.

بدأ راؤول النزول، وأغلق فيليبي الباب خلفهما. الدرج يُفضي إلى ممر ضيّق يُرسل إليه مصباحٌ بنفسجي نوراً شحيحاً. لم يريا باباً إلى اليمين ولا إلى اليسار. أصوات الآلات تُسمع بقوة. تقدّما دون أن يصدرا ضجة حتى وصلا إلى باب حجري محاط ببابين آخرين شبيهين. سأل راؤول:

ـ إلى اليمين أم إلى اليسار؟ اختر أنت!

استغرب فيليبي رفع الكلفة بهذه الصورة. اختار الباب اليساري دون أن يجرؤَ على إجابة راؤول بنبرته نفسها. أنزل القبضة ببطء فانفتح الباب على ما يشبه غرفة مهملات تفوح منها رائحة الانغلاق. رأيا أدوات وصناديق وفرجاراً قديماً وعلباً مليئة بالمسامير والكمّاشات وقطعاً من غراء الخشب ونشارة صاج. بينما أخذ فيليبي يقترب من إحدى النوافذ ويمسحها بخرقة، رفع راؤول غطاء

أحد الصناديق المعدنية الصغيرة ثم أغلقه بسرعة. صار النور أقوى في ذلك المكان، واعتادت عيناهما على الضوء المنبعث من حوض الأسماك.

قال راؤول ساخراً:

ـ غرفة العدة! لم ننجز شيئاً حتى الآن.

ـ بقي لنا الباب الآخر.

كان فيليبي قد أخرج سجائره. وقدّم واحدةً لراؤول ثم أضاف:

ـ ألا ترى أن هذه السفينةَ غامضة؟ حتى إننا لا نعرف إلى أين تقودنا. إنها تذكرني بفيلم شاهدتُه منذ زمن طويل، من بطولة جون غارفيلد. عندما أبحروا على مركب بلا بحارة واكتشفوا في النهاية أنه مركب الموت. خفتُ آنذاك رغم أني كنتُ أعرف أنه لم يكن يعدو كونه فيلماً سينمائياً.

قال راؤول بعد أن جلس على زاوية الطاولة الواسعة، وهو يُخرج الدخان من أنفه:

ـ نعم، لقد كانت قصة لسوتون فان. لا بدّ أنكَ تحب السينما، أليس كذلك؟

ـ بالضرورة.

ـ أتذهب إليها كثيراً؟

ـ لا بأس. لدي صديق يسكن بالقرب من بيتنا، أذهب معه إلى سينما روكا أو إلى صالات المركز. السينما ممتعة مساء السبت.

ـ أترى ذلك؟ نعم، بالتأكيد، إن مركز المدينة أكثر حركة، وهناك نحظى بكثيرٍ من اللقاءات.

ـ نعم. لا بدّ أنكَ تعيش حياة عاشق الليل، بكل تأكيد.

ـ قليلاً. والآن أقلّ.

ـ نعم، بعد أن يتزوّج الإنسان.

نظر إليه راؤول وهو يدخّن مبتسماً:

ـ أتسخر مني؟ أنا لستُ متزوّجاً.

استمتع برؤية الخجل على وجه فيليبي الذي أخذ يداريه بالسعال وكأنه اختنق من الدخان.

ـ حسنٌ، أريد أن أقول...

ـ أعرف ما كنتَ تريد قوله. في الواقع أنتَ مستاء من اصطحاب أبويكَ وأختك، أليس كذلك؟

أشاح فيليبي بوجهه منزعجاً وقال:

ـ ماذا كان عليّ أن أفعل؟ ما زالوا يرونني صغيراً جداً، وبما أني أملك الحق في اصطحابهم، إذن...

ـ وأنا أيضاً أعدّكَ صغيراً جداً، ومع ذلك كنتُ أفضّل أن تأتي وحيداً، أو مثلي. كان ذلك أفضل بالنسبة إليك، لأن على هذه السفينة... على كل حال، أنا لا أعرف بماذا تفكّر.

لم يكن فيليبي يفكّر بشيء. نقّل بصره على التوالي بين يديه وحذائه. فكّر راؤول: «يشعر وكأنه عارٍ. إنه يجلس بين كرسيين، بين زمنين، بين حالتين، كأخته تماماً». مدّ يده وربّتَ على رأس فيليبي. شعر هذا بالإهانة فأرجع رأسه إلى الخلف.

قال راؤول:

ـ في النهاية، لديكَ صديق، وهذا ليس بشيءٍ قليل.

تذوّق كخمرٍ الابتسامةَ البطيئةَ والخجولة والمتحمّسة التي ولدت على ذلك الفم المتجمّع والوقح. نزل عن الطاولة الواسعة وحاول عبثاً أن يفتح الخزانات. ثم قال:

ـ حسنٌ أعتقد أن علينا أن نواصل طريقنا. ألا تسمع كلاماً؟

فتحا الباب قليلاً فأتتهم الأصوات من حجرةٍ مجاورة، وكانت تتكلّم لغةً غريبة.

قال راؤول وفيليبي ينظر إليه باستغراب:

ـ الدهنيون، أهكذا يسمّي خورخي بحّارة المؤخرة؟

ـ هيا بنا، إذا كنتَ تريد.

فتح راؤول الباب فجأةً.

غيّرت الرياح التي كانت تأتي حتى ذلك الحين من الخلف اتجاهها وهاجمت مقدمةَ مالكولم التي كانت تتجه عرضياً. غادرت النسوة سطح السفينة، أما لوسيو وبيرسيو وخورخي فقد جلسوا على طرف سطح السفينة، ومن هناك، راحوا يراقبون التحوّل البطيء لماء النهر إلى أمواج خضراء وعميقة. لم يكن ذلك جديداً على لوسيو، فهو يعرف الدلتا جيداً والماء هو هو في كل مكان. أخذ يتابع بذهول تعليقات بيرسيو وتفسيراته، ويعود باستمرار إلى نورا التي كانت قد فضّلت (لماذا كانت قد فضّلت؟) أن تبقى مع بيبا تريخو في قاعة المطالعة لتتصفّح المجلات والكتيّبات السياحية. ما يزال يستعيد عبارات نورا المضطربة لدى استيقاظها، والحمّام الذي أخذاه رغم احتجاجاتها. نورا التي كانت عارية تحت الماء، وهو الذي كان يريد أن يصوبن ظهرها ويقبّلها، نورا الفاترة والهاربة. لكنها رفضت بعناد أن تنظر إليه مواجَهةً بل حوّلت بصرها عنه وهي تتظاهر بالبحث عن المشط أو الصابون. اضطرّ أخيراً إلى أن يعقد منشفةٍ حول جسمه وأن يضع رأسه تحت ماء الصنبور البارد.

قال بيرسيو:

ـ أعتقد أن المصارف هي عبارة عن قطّارت على السفينة.

كان خورخي مهتمّاً جداً بتفسيراته؛ يطرح الأسئلة ويتلقّف الأجوبة. كان معجباً (إعجاباً أعمى وعلى طريقته) ببيرسيو الساحر، بيرسيو كليّ الوجود. وكذلك كان لوسيو، مثله مثل مدران ولوبيز،

يعجبه لأنه لا يعامله على أنه صبي غرير ولا يتكلّم عن «الطفل» كما تفعل تلك «العجية»، أم بيبا التي تظن نفسها شخصية عظيمة. أما الآن، فإن الشيء الوحيد المهم هو المحيط، لأن المحيط هكذا، وهذا هو الماء المالح، وتحته الأسماك شائكة الزعانف وأسماك بحرية أخرى وقناديل البحر والطحالب كما في روايات جول فيرن، وربما نيران سان إلم.

ـ هل كنتَ تسكن في يان إلم سابقاً يا بيرسيو؟

ـ نعم، ولكني اضطررتُ للانتقال بسبب وجود جرذان في المطبخ.

ـ كم عقدةً تعتقد أننا قطعنا؟

حسب بيرسيو أنه من المفترض أن يكونوا قد قطعوا خمس عشرة عقدة. أخذ يذكر الكلمات الجميلة التي كان قد تعلّمها من الكتب والتي تثير فرحه الآن: خطوط العرض، وردة الرياح، المسافة الزاوية، الدفة، الملاحة في أعالي البحار. لقد أسف على اختفاء السفن الشراعية، إذ كان بوسعه أن يتحدّث ساعات وساعات عن الصواري وقواعد الصواري والأشرعة المثلثة. أخذ يتذكّر عبارات كاملة دون أن يعرف أين قرأها. «كان ذلك مسكناً كبيراً ذا سقف زجاجي، محاطاً بمصباحين نحاسيين ينيران وردة الليل».

التقوا بسفن أخرى الهاغيوس نيكولاوس والفالكون. كانت طائرةٌ مائية تطير فوقهم أحياناً وكأنها تراقبهم. ثم انفتح أمامهم أفقٌ أزرق وأصفر وكانوا وحيدين، أحسّوا بوحدتهم لأول مرة. لم يعد هناك من شاطئ ولا عوامات ولا قوارب صغيرة ولا حتى نوارس ولا موجة تلوّح بذراعيها. إنه مركز الطريق الأخضر الواسع. أخذت مالكولم تتقدّم نحو الجنوب.

صاح راؤول:

ـ هيه! هل نستطيع أن نصل إلى المؤخرة من هنا؟

نظر إليه أحد البحارة بلامبالاة وكأنه لم يره. أما الآخر، وكان عريض المنكبين، كبير الكرش، فقد تراجع خطوة ثم فتح فمه:

ـ *هاسدالا*، لا مؤخرة.

ـ لماذا لا مؤخرة؟

ـ لا مؤخرة من هنا.

ـ من أين إذاً؟

ـ لا مؤخرة.

ـ لا يملك كثيراً من المفردات، هذا الشخص. يا له من دب! انظروا إلى الأفعى الموشومة على ذراعه.

قال راؤول:

ـ وماذا تريد؟ إنهم دهنيون.

تراجع أقصرُ البحّارَين إلى آخر الحجرة حيث يوجد باب. اتكأ إليه بهيئة بالغة الطيبة.

قال راؤول:

ـ ضابط، أريد أن أتحدّث مع ضابط.

رفع البحّار الذي لم يكن أخرس يديه وراحتاهما باتجاههما. نظر إلى فيليبي الذي كان يُدخل يديه في جيبيه متخذاً هيئةَ الواثق.

ـ أبلغ الضابط، يا أورف، أبلغه.

وافق أورف الذي كان في آخر الحجرة، لكن راؤول لم يكن راضياً. تفحّص الحجرة، كانت أوسع من الحجرة اليسارية، وفيها طاولتان وكراسٍ ومقاعد، وسرير غارق في الفوضى وخرائط لعمق البحر مثبّتة على الجدران بمسامير كبس مذهّبة. ورأى في الزاوية مقعداً عليه فونوغراف. وثمة قط ينام على قطعة سجادةٍ ممزقة. تصوّرا البحارين بصورة سيئة (يرتديان كنزتين صوفيتين مقلّمتين

وبنطالين أبيضين متّسخين) وهما يعيشان في هذه الحجرة التي هي نصف غرفة نوم ونصف غرفة مهملات. ولكنها لا يمكن أن تكون حجرة ضابط، إلا إذا كانت للمكانيكيين. «ولكن ما أدراني أنا بطريقة عيش الميكانيكيين؟ فمع رواياتي التي قرأتها لكونراد وستيفنسن، أنا متخلّف قليلاً».

ـ حسنٌ، اذهب ونادِ الضابط.

قال البحار الثرثار:

ـ هاسدالا، اذهب.

ـ لا، ضابط.

ـ أورف يبلّغ الضابط.

ـ مباشرةً.

سأل فيليبي راؤول عما إذا كان من الأفضل إبلاغ الآخرين، فقد أقلقه ذلك الحوار الذي كان يدور في مكانه، فقد بدا أن أياً من المتحدّثين لا يريد أن يأخذ زمام المبادرة، لا في هذا الاتجاه ولا في غيره. واصل البحّار الضخم النظر إليه بإمعان، وانتاب فيليبي شعورٌ غير مريح بأن الآخر ينظر إليه نظرةً عنيدة لا يستطيع أن يتحمّلها، هي أقرب إلى الودية والفضول، ولكنها قوية بحيث أنه لا يستطيع الصمود أمامها. حاول راؤول أن يقنع أورف الذي كان مستنداً إلى الباب يستمع إليهم بصمت، ويُبدي بين الفينة والأُخرى حركاتٍ تنمّ عن العجز.

قال راؤول وهو يهزّ كتفيه:

ـ حسنٌ، أعتقد أنكَ على حق، من الأفضل الذهاب.

خرج فيليبي أولاً. عند العتبة، التفت راؤول إلى الوراء وأمعن النظر إلى البحّار الموشوم، وصرخ:

ـ أيها الضابط!

ثم أغلق الباب خلفه. كان فيليبي قد ابتعد، لكن راؤول بقي لحظةً يصيخ السمع. سُمع صوتُ أورف وهو يسخر، وكان صوتاً جهورياً. انفجر الآخر ضاحكاً ضحكةً خلخلت الهواء. زمّ راؤول شفتيه وانطلق نحو الباب اليساري. دخل إلى غرفة المهملات وعاد حاملاً بين يديه الصندوق الصغير المصنوع من الصفيح، ثم ركض ليلحق بفيليبي الذي صار الآن على الدرج. ثم قال له وهو يصعد الدرجات اثنتين اثنتين:

ـ اصعد بسرعة.

شعر فيليبي بالمفاجأة وظن أنهما يتبعانهما. وعندما رأى الصندوق رفع حاجبيه. لكن راؤول وضع يده على كتفه ودفعه إلى الأمام. في هذه اللحظة تذكّر فيليبي بطريقة غامضة أن راؤول قد عامله رافعاً الكلفة بينهما لأول مرة على هذا الدرج بالذات.

24

بعد ساعة من ذلك، جال عامل البار على المقصورات وسطح السفينة لكي يبلغ المسافرين بأن أحد الضباط ينتظرهم في قاعة المطالعة. كانت غالبية النساء يعانين من دوار البحر. وكان دون غالو وبيرسيو ود. ريستيللي يأخذون قيلولة. وحدهما، كلوديا وباولا رافقتا الرجال الذين أخبرهم راؤول باكتشافه.

كان الضابط نحيلاً. بدا منشغلاً وهو يتكلّم اللغة الإسبانية بصعوبة، ولكن بدقة. لم يدرِ مدران لماذا خطر بباله أن هذا الضابط لا بدّ أن يكون دانماركياً أو فنلندياً.

رحّب بهم الضابط باسم *ماختنتا ستار* وباسم قائد مالكولم الذي لم يتمكّن حتى الآن من الترحيب بهم بنفسه. وأبدى أسفه بسبب فيض من الأشغال غير المتوقّعة التي منعته من أن يأتي في وقت أبكر من هذا، وأبدى تفهّمه للقلق الخفيف الذي شعر به الركاب. وأكّد أن

جميع الإجراءات قد اتّخذت لجعل هذه الرحلة البحرية من أمتع الرحلات: فقد وُضع تحت تصرّفهم مسبح وحمام للشمس وصالة للجمباز وصالة ألعاب وطاولتا بينغ ـ بونغ ومقذف للكرات وموسيقا مسجّلة. وسوف يتعهّد مدير المطعم بتلبية اقتراحاتهم، ومن البَدَهي أن يكون الضباط في خدمة الركاب.

قالت كلوديا قاطعة الصمت المزعج الذي أعقب كلام الضابط:

ـ بعض هؤلاء النسوة يعانين من دوار البحر، فهل يوجد طبيب على متن السفينة؟

قال الضابط إن الطبيب لن يتأخر في المجيء لإبداء احترامه للمرضى وللأصحاء. اقترب مدران منه وقال:

ـ عظيم، نحن نشكرك. ومع ذلك، بقيت بعض النقاط التي نريد استيضاحها. أولاً، هل أتيتَ من تلقاء نفسكَ أم استجابةً لإلحاحنا؟ وثانياً، لماذا مؤخرة السفينة ممنوعة علينا.

صرخ القطيفة وقد بدا أخضر اللون قليلاً وهو يقاوم بقوةٍ دوار البحر:

ـ نعم، لماذا؟

ـ أيها السادة، كان عليّ أن آتي لزيارتكم منذ الأمسية الأولى ولكن منعتني الأسباب التي أتيتُ على ذكرها والتي تمنعنا حالياً من الاتصال مع المؤخرة. ثمة أشياء قليلة يمكن رؤيتها، لاحظوا، ثم أضاف بسرعة، من هذه الجهة من السفينة. هناك الطاقم والحمولة... أنتم في القسم الأكثر إراحة.

سأله لوبيز:

ـ وما هي هذه الأسباب؟

ـ آسف، إن الأوامر التي لديّ...

أجاب لوبيز:

ـ الأوامر! نحن لسنا في حرب. ولا تلاحقنا غوّاصة، ولا ننقل أسلحةً ذرية أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن قل لي: هل ننقل سلاحاً ذرياً؟

قال الضابط:

ـ أوه، لا. يا لها من فكرة!

تابع لوبيز وهو يضحك من نفسه لهذا السؤال:

ـ هل تعرف الحكومة الأرجنتينية أننا نبحر في ظروفٍ كهذه؟

ـ لقد انتهت المفاوضات في اللحظة الأخيرة، وعلينا أن نحلَّ المسائل العملية بأنفسنا.

ثم أضاف ببعض الزهو:

ـ *الماخنتا ستار* مشهورة دائماً بحسن معاملة ركابها.

شعر مدران بأن الحديث بدأ يراوح في مكانه، فسأل:

ـ ما اسم القبطان؟

ـ سميث. القائد سميث.

قال لوبيز:

ـ مثلي.

ضحك راؤول ومدران.

فهم الضابط أنهم يسخرون منه فقطّب حاجبيه.

قال راؤول:

ـ في السابق كان اسمه لوفات. آه، ثمة شيء آخر: هل أستطيع أن أرسل برقيةً إلى بوينس آيرس؟

فكر الضابط قبل أن يجيب. لسوء الحظ إن تركيب الراديو في مالكولم لا يسمح بإرسال رسائل عادية، ولكن عبر البريد، عند أول

توقّف لهم في بونتا أريناس... الطريقة التي أنهى بها راؤول عبارتَه لا تدلّ على أنه يريد أن يرسل رسالةً إلى أيٍّ كان.

ـ إنها ظروف طارئة.

قال الضابط ذلك وهو يدعوهم بحركةٍ من يده إلى تقبّل هذه الظروف الطارئة:

قال لوبيز وهو يبدو مستفزّاً أكثر فأكثر:

ـ اسمع، نحن هنا مجموعة كاملة من أشخاص لا مصلحة لهم في إفساد رحلتهم البحرية. ولكني شخصياً أرى أن الأساليب التي يستخدمها قائدكم ليست مقبولة. نعم، لماذا تخبّئون عنا سبب سجننا؟ نعم، لا تتخذ هذه السحنة الغاضبة.

أضاف لوسيو مباشرةً:

ـ نعم، وثمة شيءٌ آخر، إلى أين ستأخذوننا بعد بونتا أريناس؟ إن التوقّف في بونتا أريناس أمر غير متوقَّع أبداً.

ـ إلى اليابان، ستكون رحلةً ممتعةً جداً عبر المحيط الهادي.

صرخ القطيفة مدهوشاً:

ـ يا أمنا! إلى اليابان! إذن لن نذهب إلى كوباكابانا؟

قال راؤول:

ـ لندع خط السير جانباً الآن. أريد أن أعرف لماذا لا نستطيع الوصول إلى مؤخرة السفينة. لماذا أنا مضطرّ إلى التنقيب عن ثقبٍ كفأرٍ، وأن أصطدم برجالكم الذين يسدّون عليّ طريقي؟

قال الضابط وهو ينظر حوله كمن يبحث عن مغيثٍ وقال:

ـ أيها السادة، أيها السادة، أرجو أن تفهموا أن وجهة نظرنا...

قال مدران بجفاء:

ـ للمرة الأخيرة، ما هو سبب تصرّفكم؟

بعد صمتٍ سُمع خلاله صوتُ سقوط ملعقة صغيرة في البار، هزّ الضابط كتفيه النحيلين ثم قال:

ـ أيها السادة، كان يجب عليّ أن أصمتَ ما دمتم تبدؤون رحلةً ترفيهية. ما يزال الوقت مناسباً... نعم، أنا أفهم. حسنٌ الأمر بسيط جداً، ثمة إصابتان بالتيفوس بين رجالنا.

كان مدران أول من قام بردّ الفعل، وفعل ذلك بعنفٍ بارد فاجأ الموجودين جميعاً. ولكن ما إن بدأ يقول للضابط أنهم لم يعودوا في زمن الفصد والحقنة الشرجية، رفع الضابط يده بحركة مبالغٍ فيها وقال:

ـ اعذروني. ربما أسأت التعبير. كان عليّ أن أقول إن المقصود هو التيفوس 224. لا بدّ أنكم لا تعرفون، ولا نحن كذلك، وهنا تكمن المأساة، إننا لا نعرف الكثير عن التيفوس 224. لقد أعطى الطبيب المرضى آخر المكتشفات حول هذا المرض، ولكنه يرى أن من الواجب الآن تطبيق حزام صحي.

انفجر غضب باولا وهي تقول:

ـ ولكن قل لي، كيف تمكّنا من الانطلاق من بوينس آيرس مساء أمس؟ ألم يعلن طاقمك المكون من أكثر من مائتي شخص رأيَه؟

وقال لوبيز:

ـ بلى، لقد كانت المؤخرة مغلقةً في وجهنا منذ الإقلاع.

ـ ثم كيف سمحت لكم الدوائر الصحية في المرفأ بالخروج؟ أو بالأحرى كيف سمحوا لكم بالدخول ما دامت حالة تفشّي التيفوس معلنة؟

رفع الضابط عينيه إلى السقف وبدا مُحرَجاً أكثر فأكثر. لكنه قال:

ـ أيها السادة، لا تضطرّوني إلى قول أكثر مما تسمح به

أوامري. هذه الحالة مؤقتة، وأنا واثق من أن المرضى سيجتازون مرحلة العدوى خلال عدة أيام. أما الآن...

قال لوبيز:

ـ أما الآن، فلدينا الحق الكامل في الاعتقاد بأننا وقعنا بين يدي عصابة من المستفيدين. تماماً، لقد سمعتَني جيداً: عصابة من المستفيدين قفزت فوق صفقة جيدة في آخر لحظة مُخفِيةً ما كان يجري على متن السفينة. قائدكَ السيد سميث نخّاس حقيقي. اذهب وقل له ذلك عن لساني.

تراجع الضابط خطوةً ثم بلع ريقه وقال:

ـ القائد سميث هو أحد الاثنين المصابَين إصابةً خطرة.

ثم خرج قبل أن يتسنّى لأحد أن يبدي أية ردة فعل.

صعد أتيليو إلى سطح السفينة ثانيةً وهو يمسك الحاجز بكلتا يديه ثم ارتمى على كرسي طويل قرب نيللي وأمها ودونيا روزيتا التي لم تكن تكفّ عن الأنين. النسوة الثلاث يعانين من دوار البحر، ولكن ليس بالطريقة نفسها كما شرحت دونيا روزيتا إلى السيدة تريخو المصابة هي الأخرى بدوار البحر. فدونيا روزيتا مصابة بدوار البحر الجاف، أما نيللي وأمها فإنهما تتقيّآن باستمرار.

ـ لقد قلتُ لهما ألا تشربا المزيد من الصودا، فها هي ترتج في معدتيهما. أنتِ لستِ على ما يرام، أليس كذلك؟ هذا واضح تماماً يامسكينة. أما أنا، لحسن الحظ، بهذه الغثيانات الجافة، فإني لاأتقيّأ تقريباً، ولكني خمولة كلياً. مسكينة نيللي، انظري كم هي تتألم. أنا لم آكل إلا أشياء جافة في اليوم الأول، هكذا بقي كل شيء في الداخل. أذكر أني عندما ذهبت في القارب إلى مقهى دوريتا الشعبي كنتُ الوحيدة التي لم أتقيّأ في طريق العودة. أما الآخرون... ياإلهي... انظري دونيا بيبا، كم هي في حالٍ سيئة.

أتى أحد البحارة الفنلنديين حاملاً إناءً يحوي نشارة وأخذ يصلح بعض الأعطاب التي لحقت بالسطح. احتوى القطيفة رأسَه بين يديه وهو يئن أنيناً حاداً وحانقاً، ثم قال لنيللي التي كانت تنظر إليه بما تبقّى لديها من وعي:

ـ ذلك ليس لأني أعاني من دوار البحر، إنها البوظة التي أكلتُ منها قطعتين على التوالي. كيف تشعرين أنتِ؟

ـ سيئة جداً يا أتيليو، انظر إلى أمي ألا يمكن أن نأتي بطبيب؟

قال وهو يزفر:

ـ طبيب! لا تتكلّمي عن الطبيب. ماذا لو قلتُ لكِ عما يحدث... ولكن من الأفضل لي ألا أقول شيئاً لئلا تزداد حالكِ سوءاً.

ـ ماذا يحدث يا أتيليو؟ يمكنكَ أن تقول لي بمفردي، ماذا يحدث على هذه السفينة الغريبة؟

ـ إنه النّوء، الحليق الآخر شرح لنا كل شيء عن البحر. اسمعي، اسمعي كم هي تنحني. وانظري، يبدو أن كتلة الماء هذه سوف تسقط فوقنا. أتريدين أن أعطّر منديلك؟

ـ لا، لا. قل لي ماذا يحدث.

قال القطيفة وهو يصارع كرة تنس صعدت إلى حلقه:

ـ ما يحدث... يقال أن الطاعون الدبيلي منتشر على متن السفينة.

25

كسرت ضحكةُ باولا الصمت ثم أعقبتها عباراتٌ غاضبة أو حانقة. ثم قرّر راؤول أن يطلب من مدران ولوبيز ولوسيو أن يأتوا إلى مقصورته. لاحظ فيليبي الذي كان يتوقّع شربَ كونياك وأحاديث

تدور بين الرجال أنه لم يكن من بين المدعوين. انتظر لحظات وهو لا يستطيع أن يصدّق ذلك. راح يراقب أية إشارة لكن راؤول خرج من الغرفة دون أن ينظر إليه. مكث عاجزاً عن قول كلمةٍ واحدة، وغزاه انطباعٌ وكأن بنطاله قد سقط على مرأى من الناس جميعاً، ووجد نفسه وحيداً مع باولا وكلوديا وخورخي الذين اقترحوا الصعود إلى السطح من جديد. قبل أن يتمكّن من الالتفات سنحت له الفرصة في الانفلات فجأةً فذهب وانغلق في مقصورته التي كانت فارغةً لحسن حظه. جعله حنقه واضطرابه الشديدان يقف لحظةً مستنداً إلى الباب يفرك عينيه. فكّر أخيراً: «لا! ولكن ماذا يحسب نفسه ذاك الشخص؟» كان يعرف تماماً أنهم مجتمعون لكي يعدّوا خطة هجوم، وها هم قد تركوه جانباً! أشعل سيجارةً لكنها أثارت اشمئزازه فسحقها بحذائه. كل هذه الأحاديث، وكل هذه الصداقة والآن... ولكن عندما نزلوا الدرج وعندما سأله راؤول ما إذا كان يجب إبلاغ الآخرين، مع ذلك نما انطباعٌ لدى فيليبي بأنه لم يكن مستاءً من أن يعيش المغامرة وحيداً معه. وبعد ذلك، عندما تحدّثوا في المقصورة الفارغة... تفوه! لماذا عرَضَ صداقته إذا كان سيرميه كفردة جوارب قديمة؟ ولماذا قال له إن لديه الآن صديقاً؟ ولماذا عرض عليه غليوناً؟ شعر بأنه يختنق. وامّحى غطاء السرير الذي كان ينظر إليه ولم يعد يرى إلا دوران الخطوط والأقلام اللزجة التي تخرج من عينيه وتسقط على وجهه. مرّر يديه على وجهه مهتاجاً ثم خفَّ إلى الحمام وغطّس رأسه في الماء البارد. عاد وجلس على حافة السرير حيث كانت السيدة تريخو قد وضعت مناديل ومنامة نظيفة. تناول منديلاً ونظر إليه بإمعان وقد تداخلت التذمّرات والشتائم على شفتيه. وسط خيبة أمله أخذ يبني شيئاً فشيئاً قصةَ تضحيةٍ جميلة سيُقدِم خلالها على إنقاذهم جميعاً، لا يعرف مما تتكون بالضبط، ولكنه يعرف أنه سينقذهم، وفي نهاية القصة سيسقط عند قدمي باولا وراؤول وقد

انغرست سكينٌ في قلبه. سيسمع احتجاجاتهم وصيحات ندمهم. سيتناول راؤول يده ويضغط عليها بيأس، وستطبع باولا قبلةً على جبينه. المساكين التعساء، سوف يقبّلونه على جبينه طالبين منه الصفح، أما هو فسيصمت كإله وسيموت كما يموت الرجال، عبارة لم يعد يدري أين كان قد قرأها ولكنّها أثّرت فيه أيّما تأثير. ولكن قبل أن يموت كالرجال، سوف يُريهم، أولئك الأوغاد. في البداية سيُريهم المقت المطلق، وصقيع اللامبالاة. صباح الخير، مساء الخير، نقطة، انتهى. في النهاية سوف يأتونه ليسرّوا إليه بما يقلقهم فتكون تلك ساعة الانتقام. آه، لقد قرّرتَ شيئاً كهذا؟ أنا لستُ موافقاً. لي رأيي في ذلك، فهذا يعنيني أنا. لا، لماذا سأقول ذلك لك؟ هل وثقتَ بي حتى الآن؟ ومع ذلك، أنا أول من اكتشف السرداب. نعم، نعم، من غير المفيد القيام بابتزاز عاطفي الآن، ابحث عن مكان آخر. نفعل كل ما من شأنه أن ينفعك، وهذه هي النتيجة. وماذا لو حدث لنا مكروه في الأسفل؟ اضحكوا ما طاب لكم، فأنا لن أحرّك ساكناً. عندئذ سيواصلون بحثهم دون أن يعبؤوا به وتلك هي التسلية الوحيدة على متن هذه السفينة التعيسة. حسنٌ، هو الآخر سيقوم بالبحث ولكن لنفسه. تذكّر البحّارين في المقصورة اليمينية، وخاصة ذلك الضخم الموشوم. ذلك الذي اسمه أورف بدا أقل وعورةً، وإذا ما صادفه لوحده... تخيّل نفسه وهو يضع قدمه بانتصار على جسر المؤخرة، مكتشفاً أولاً فتحات مؤخرة السفينة وممراتها. آه، صحيح، هناك هذا الطاعون اللعين المعدي بشكلٍ رهيب، وما من أحدٍ على متن السفينة ملقّح ضدّه. على أية حال، إن سكيناً في القلب أو الطاعون مئتان وشوية، لا فرق. أغمض عينيه نصف إغماضة ليحسَّ أكثر بمداعبة باولا على جبينه. ستتمتم قائلةً وهي تداعبه: «يا صغيري المسكين! يا صغيري المسكين!» ارتمى فيليبي على السرير واستدار باتجاه الجدار. يا للصغير المسكين بالغ الشجاعة.

هذا أنا يا فيليبي، أنا راؤول، لماذا فعلتَ هذا؟ لماذا كل هذه الدماء يا صغيري المسكين. لا، لا، أنا لا أتألّم يا راؤول، ليست الجراح هي التي تؤلمني. وستقول باولا: «لا تتكلّم، انتظر، سوف ننزع قميصك». وسيغمض عينيه كما يفعل الآن، ومع ذلك سيرى باولا وراؤول يبكيان فوقه، وسيحسّ بيديهما كما يحسّ بيده الآن وهي تشقّ طريقها بين ثيابه.

قال راؤول:

ـ كوني ملاكاً واذهبي لتلعبي الفلورانس نابتنغال عند أولئك السيدات اللواتي يعانين من دوار البحر، رغم أن شحوبكِ، أنتِ أيضاً، لا بأس به.

قالت باولا:

ـ كذّاب! لستُ أدري حقاً لماذا تريد أن تطردني من مقصورتي.

ـ لأنه يجب علينا أن نعقد مجلساً حربياً. اذهبي ووزّعي الدرامامين على المحتاجين. تفضّلوا أيها الأصدقاء، واجلسوا حيث تريدون، بدءاً من الأسرّة.

كان لوبيز آخر الداخلين بعد أن نظر إلى باولا وهي تبتعد غاضبة. ما إن أغلق الباب حتى وصلته رائحة باولا وملأت وجهه، طاغيةً على رائحة الغليون ورائحة الخشب الملمَّع. كانت مزيجاً من الكولونيا والشعر المبلّل والمكياج. تذكّر اللحظة التي رأى فيها باولا ممدَّدة على السرير الجوّاني، وبدلاً من أن يذهب للجلوس عليه قرب لوسيو بقي واقفاً مكتوف اليدين عند الباب.

عندما أصبحوا وحيدين ذهب راؤول إلى الخزانة وأخرج علبة الصفيح. وضعها على الطاولة ثم جلس على أحد المقاعد وهو يضرب غطاء العلبة بأطراف أصابعه ضربات خفيفة، وقال:

ـ أعتقد أننا تناقشنا اليوم كفايةً بشأن الوضع. ولكني لا أعرف آراءكم الشخصية حول هذا الموضوع، وأعتقد أن علينا أن نستفيد من كوننا وحيدين ومجتمعين لكي نعرض وجهات نظرنا. وسأبدأ بوجهة نظري. أنتم تعرفون أنني أجريتُ وتريخو الصغير حواراً مثمراً مع اثنين من سكان الأعماق. وتبينّ من هذا الحوار، أو من لهجة هذا الحوار وجوّه، وكذلك من الخطاب الذي أتحفنا به الضابط للتو أننا لا نخاطر بأرواحنا فحسب، بل إن في الأسفل أمراً خطيراً جداً. أعتقد أننا ضحايا عملية نصب كبيرة، ليست عملية نصب من النوع الدارج، بل هي أكثر... ميتافيزيقيةً إذا ما عذرتموني على استخدام هذه الكلمة.

قال مدران:

ـ ولماذا نعذرك؟ يا للمثقفين الأرجنتينيين الذي يخشون استخدام الكلمات الكبيرة!

قال لوبيز:

ـ لنتوسّع في الحديث. لماذا استخدمتَ كلمة ميتافيزيقية.

ـ لأني، إذا ما صدّقتُ كلام كوستا، فإن الأسباب المباشرة لهذا الحجر الصحي، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، تخفي خلفها أمراً يغيب عنا، بالتحديد لأنه من نوع... أوه، الكلمة المطلوبة.

نظر إليهم لوسيو نظرةَ المفاجَأ، وتساءل للحظةٍ ما إذا كانوا قد اجتمعوا ليسخروا منه. ما أغضبه هو أنه لم يفهم كلمةً واحدة مما قالوا، ولكي يبدو جاداً سعل واتّخذ هيئة المنتبه، ثم قال:

ـ يجب ألا ننسى قصة هذا التيفوس.

ـ هل صدّقتَها؟

ـ ولم لا؟

قال لوبيز:

ـ إنها تبدو لي ملفّقة من أولها إلى آخرها، ولا أعرف لماذا. كل ما أعرفه أنهم أقلعوا بنا على عجل ولكن *المالكولم* كانت ترسو في الحوض الشمالي، ومن الصعب أن نصدّق أن سفينة على متنها حالتان مرضيتان بهذه الخطورة يمكنها أن تفرّ من المراقبين الصحيّين.

قال مدران:

ـ هذا ليس مستحيلاً. ولكني أرى أنه، من أجل سكينة أنفسنا، علينا أن نترك الآن هذا الأمر جانباً. أنا آسف لأني أبدو بهذا التشكيك، ولكني أعتقد أن السلطات وجدت نفسها في مأزقٍ كبير أمس في الساعة السادسة، وإنهم لم يخرجوا منه كما يجب، أي دون أن يتكبّدوا وخز الضمير والمسؤوليات. أعرف أن هذا لا يفسّر وصول مالكولم إلى بوينس آيرس والطاعون على متنها. ولكن الاتفاقات المشبوهة نوعاً ما مع سلطات المرفأ ممكنة في الوصول كما في المغادرة.

قال لوسيو:

ـ يمكن أن يعلَن المرض بعد إجراء الرقابة، فهذه الأشياء تبقى زمناً طويلاً في طور الحضانة، أليس كذلك؟

ـ نعم، هذا ممكن. ولم تشأ الماخنتا ستار أن تترك صفقة كهذه تفرّ منها. ولم لا. ولكن هذا لا يوصلنا إلى أية نتيجة. لننطلق من واقع أننا على متن السفينة وأننا بعيدون عن الشاطئ. ماذا علينا أن نفعل؟

قال لوبيز:

ـ يجب أن نطرح السؤال بشكل مختلف: هل يجب علينا أن نفعل شيئاً؟ لنتّفق أولاً على هذه النقطة.

قال لوسيو غاضباً بعض الشيء:

ـ نظراً للسبب الذي ذكره الضابط من الأفضل أن نبقى هادئين،

على الأقل خلال عدة أيام. فالرحلة ستكون طويلة. أليس الذهاب إلى اليابان أمراً عظيماً؟

قال راؤول:

ـ ربما كان الضابط يكذب.

ـ كيف يكذب؟ إذن ليس هناك تيفوس؟

ـ يا عزيزي، لديّ انطباعٌ بأن هذه القصة ملفّقة جملةً وتفصيلاً. ولكني، مثل لوبيز، لا أستطيع تفسير ذلك. I feel it in my bones(*)، كما يقول الإنكليز.

قال مدران:

ـ أوافقكَ الرأي. ربما كان هناك وباء بالفعل في مؤخرة السفينة، ولكن هذا لا يفسّر تصرّف الضباط ولا تصرّف القبطان، إلا إذا كان مريضاً فعلاً. يبدو أنهم، منذ إقلاعنا، أخذوا وقتهم في التساؤل عما يفعلون بنا. لو أنهم كانوا أكثر مجاملةً لنا، منذ البداية، لما شككنا بهم.

قال لوبيز:

ـ نعم، إننا نتكلّم هنا عن عزة النفس. إننا نلومهم على قلة أدبهم ونرفع رأسنا. وعدا ذلك إن قصة هذه الأبواب المغلقة لا تروقني.

طأطأ لوسيو رأسه، وراح استغرابه لردود الأفعال الغريبة هذه يزداد. لو أخذنا الأمر جدياً لأفسدنا كل شيء. يا لها من رحلة ترفيهية مضحكة. لماذا كانوا بهذه الحساسية؟ باب زائد، باب ناقص. بمجرّد أن يُنصَب المسبح وطاولة البينغ بونغ، لن نبالي كثيراً بالمؤخرة. هناك كثيرٌ من السفن مقدّماتها ممنوعة على الركاب ومع ذلك لا يغضبون كل هذا الغضب.

(*) أشعر بذلك في قرارة نفسي. م.

قال لوبيز وهو يجلس على حافة سرير راؤول:

ـ ليتنا نعرف ما إذا كان ذلك يُخفي سراً. ربما كان المقصود مجرّد عناد وقلة تهذيب. ربما عدّنا القبطان شحنةً يجب أن تُعبَّأ في الأمام، وهنا بالتحديد بيت القصيد.

قال راؤول:

ـ وإذا كان هذا هو المقصود، فماذا علينا أن نفعل؟

أجاب مدران بصوت حازم:

ـ نلجأ إلى القوة.

ـ ها هو رأي صريح أشاطره، وكذلك لوبيز، كما أرى، وأنت؟

سارع لوسيو إلى القول:

ـ وأنا أيضاً بكل تأكيد. ولكن يجب علينا أن نتأكّد أولاً من أنهم سجنونا بمحض نزوتهم.

قال راؤول:

ـ الطريقة المثلى هي الإلحاح على الإبراق إلى بوينس آيرس. لقد بدا لي تفسير الضابط سخيفاً لأن تجهيز الراديو في أية سفينة يسمح تماماً بإرسال أية رسالة. لنلحّ وسنرى نوايا هؤلاء الـ... دهنيين.

أخذ لوبيز ومدران يضحكان، ثم قال هذا الأخير:

ـ لندقّق مفرداتنا. إن خورخي يسمي بحّارة المؤخرة دهنيين، والضباط هم السكريّون. إن هؤلاء السادة السكريين من يجب علينا أن نجابههم.

قال لوبيز:

ـ يسقط السكريّون! وأنا الذي أمضيت الصباح أتحدّث عن روايات المغامرات... باختصار، لنفترض أنهم رفضوا أن يرسلوا

رسالتنا إلى بوينس آيرس، وهذا تصرّف محتمل جداً إذا لم يكونوا قد صفّوا النية هناك، وإذا خافوا من أن تفرّ الصفقة منهم. في مثل هذه الحالة، لا أعرف ماذا نستطيع أن نفعل.

قال مدران:

- أنا أعرف. بل أعرف جيداً يا صديقي. سنخلع باباً ونلتفّ عليهم من الناحية الأخرى.

قال لوسيو:

- وإذا لم تسر الأمور على ما يُرام؟ أنتم تعرفون أن الأنظمة على متن السفن ليست كما هي على الأرض، وأن هناك... نظاماً آخر. أنا لا أقصد شيئاً، ولكني أرى أن من الواجب عدم تجاوز الحدود المسموح بها قبل التفكير ملياً.

قال راؤول:

- فيما يخصّ تجاوز الحدود، إن الدهنيين هم قدوتنا. وإذا ما خطر ببال القبطان سميث غداً أن يحجزنا جميعاً في مقصوراتنا فسيكون ذلك من حقّه.

قال لوبيز:

- أنتَ تتكلّم مثل سبارتاكوس. إذا ما أعطيناهم إصبعاً طلبوا الذراع، كما قال الصديق بريسوتي الذي أفتقد غيابه.

قال راؤول:

- لقد كدتُ أدعوه، ولكنه... بدائي بحيث يجدر بنا أن نقدّم له ملخّصاً عن الموقف وإعداده للقضية إذا ما أردنا إعداد خطة. إنه صبي ممتاز، يعجبه الدهنيون والبروتيدات كثؤلول في القدم.

- باختصار: برقية إلى بوينس آيرس، نتيجة محتملة: رفض، التصرّف المباشر: خلع الباب.

قال لوبيز:

ـ كل شيء يبدو لي سهلاً إلا خلع الباب، فقد لا يعجبهم هذا.

قال لوسيو:

ـ من المؤكَّد أن هذا لن يعجبهم. بوسعهم أن يعيدونا إلى بوينس آيرس، وستكون عندئذ مزحة سخيفة.

قال مدران وهو ينظر إلى لوسيو بودّ حانق:

ـ صحيح، أن نجد نفسنا على جادة بيرو صباح بعد غد فذلك أمر مضحك. ولكن يا صديقي العزيز في جادة بيرو لا يوجد باب حجري.

مرّر راؤول يده على جبينه كمن تذكّر أمراً مزعجاً، ولكن بما أن الآخرين بقوا صامتين، وجد نفسه مضطرّاً للكلام:

ـ كل هذا يؤكّد الانطباع الذي تولّد لديّ منذ لحظات: ما خلا لوسيو الذي لديه رغبة، مفهومة بالتأكيد، في رؤية الجيشاوات وسماع صوت كوتو، إننا مستعدّون لنبادل بكل بساطة إمبراطورية الشمس ببار أرجنتيني أبوابه مشرعة على الشارع. هل ثمة مقياس مشترك بين الاثنين؟ في الواقع، لا. فلوسيو لديه كل الحق في أن ينصحنا بأن نحافظ على هدوئنا لأن هذه السلبية سيكون ثمنها غالياً جداً: كيمونوهات وفوجي ـ ياما... and yet, and yet(•).

قال مدران:

ـ نعم، الشتيمة التي قيلت منذ قليل.

ـ بالضبط، يا عزيزي لوسيو ليس المقصود أبواباً ولا سكريين. ما من شك أن مؤخرة السفينة مكان موبوء تفوح منه رائحة القطران والارتشاح. لن نرى فيها شيئاً أكثر مما يوجد هنا: البحر، البحر، يتكرر باستمرار، and yet...

قال مدران:

(•) ومع ذلك. م.

ـ باختصار، يبدو أن الأغلبية متفقة على هذه النقطة، بل هناك إجماع لأن لوسيو يوافقنا الرأي. يبقى أن نعرف ما إذا كان يجب علينا إبلاغ الآخرين. حالياً، من الأفضل عدم إبلاغ أحد إلا ريستيللي وبريسوتي.

قال لوبيز:

ـ بما أن لدي أحياناً حسّاً عملياً متطلّباً، أحب أن أعرف كيف سننتقل إلى القوة، إذا ما وصلنا إلى تلك المرحلة.

أجاب راؤول:

ـ الأمر بسيط جداً، ما دمتم تحبون أن تلعبوا أدوار القراصنة، خذوا.

رفع غطاء العلبة، كانت تحوي مسدّسين عيار ثمانية وثلاثين ومسدساً آلياً عيار اثنين وثلاثين بالإضافة إلى خمس علب من الطلقات مصنوعة في روتردام.

26

قال أحد البحارة وهو يرفع لوحاً خشبياً كبيراً بكل سهولة:

ـ هاسدالا.

أجابه البحّار الآخر باقتضاب:

ـ سا!

ثم غرس مسماراً في طرف اللوح الخشبي. كان القفص الخشبي للمسبح مُنجَزاً تقريباً وهو يجثم في وسط سطح السفينة. وبينما كان أحد البحّارين يضبط الدعامة الأخيرة، أخذ الآخر يفرش غطاءً داخل القفص ويثبّته بسيور.

قال القطيفة متذمّراً:

ـ ويسمّون هذا مسبحاً! تلمّسوا هذه المسخرة قليلاً، يبدو وكأنه مخصّص لغسل الخنازير. ألا ترى ذلك يا دون بيرسيو؟

ـ أنا أكره الحمامات في الهواء الطلق، لا سيما إذا كان المرء معرّضاً لابتلاع فضلات الآخرين.

ـ نعم، ومع ذلك هذا جميل. ماذا تريد؟ ألم تذهب في حياتك إلى مسبح السبورتينغ؟ إنه ذو مقاييس أولمبية والمياه فيه معقّمة.

ـ المقاييس الأولمبية، ما معنى هذا؟

ـ حسنٌ، إنها مقاييس الألعاب الأولمبية، ماذا أقول لك؟ المقاييس الأولمبية موجودة في جميع الصحف. بالمقابل، انظر قليلاً إلى هذا الشيء: ألواح خشبية وغطاء في الداخل. لو كنتُ أعرف ذلك لما أتيت. انظر إيميليو الذي ذهب إلى أوروبا منذ عامين، قال لي إنه حتى في الدرجة الثالثة على سفنهم يوجد مسبح من الرخام مياهه خضراء تماماً.

نظر بيرسيو إلى المحيط الأطلسي. لقد فقدوا أي أثرٍ للشاطئ وها هم يُبحرون في بحرٍ هدأ فجأةً، وبدت زرقتُه معدنيةً، يقترب جوف الأمواج من اللون الأسود. لم يعد هناك إلا نورسان يتبعان السفينة بعنادٍ متشبّثين بالصارية.

قال القطيفة:

ـ كم هما نهمان هذا الطائران! يبدوان وكأنهما يريدان أن يبتلعا المسامير. أحبّهما عندما يريان سمكةً فينقضّان عليها ويلتهمانها. أية ضربة منقار تتلقّاها في بطنها... هل تعتقدون أننا سنرى مجموعات من خنازير البحر في أثناء رحلتنا؟

ـ خنازير البحر؟ ربما.

ـ لقد روى لي إيميليو أنه كان يرى باستمرار عن ظهر سفينته خنازير بحر وأسماكاً طيارة، ولكن نحن...

قال بيرسيو بحنان:

ـ لا تكن متشائماً. الرحلة ما تكاد تبدأ وفي يومها الأول، مع التغيير ودوار البحر... بعد ذلك سوف تستمتعون كثيراً.

ـ أوه، أنا يعجبني هذا. الإنسان يتعلّم دائماً أشياء، كما في الخدمة العسكرية، أليس كذلك؟ ومع ذلك، أية حياة كلابٍ عشناها في الثكنة! التدريبات والسجن والمطعم. ما أزال أذكر يومَ قدّموا لنا حساءً كانت إحدى الذبابات هي أحسن ما فيه. ومع ذلك عندما نخرج منها نعرف كيف نركّب زراً ولا نعود أولئك النقّاقين على الطعام، والحال هنا مشابه، أليسّ كذلك؟

أجاب بيرسيو وهو يراقب بانتباه شديد البحّارَين الفنلنديين وهما يثبّتان بالبراغي أنبوباً يخرج من إحدى زوايا المسبح:

ـ ربما.

أخذ الماء الجميل أخضر اللون يتصاعد في قاع المسبح. هذا على الأقل ما أعلنه خورخي وهو منحنٍ على جدار المسبح الخشبي ومتأهّب للارتماء في الماء. شفيت النسوة قليلاً من دوار البحر وأتين ليبدين إعجابهنّ بالأعمال وليتّخذن الأمكنة الاستراتيجية تحسّباً لقدوم المستحمّين. لم ينتظرن طويلاً باولا التي أخذت تنزل الدرج ببطءٍ لكي يتسنّى لكلٍّ من الحاضرين أن يُعجب بالبيكيني الأحمر الذي ترتديه. تبعها فيليبي مرتدياً مايوهاً أخضر وواضعاً منشفةً على كتفه. كان خورخي يصرخ من متعة الماء. أخذ الثلاثة يتواثبون في الماء بالقدر الذي سمح لهم بذلك حجم المسبح المتواضع. علّمت باولا خورخي كيف يجلس في الماء مغلقاً أنفه، وفيليبي، الذي مايزال عابساً، بدا وكأنه لا يستطيع مقاومة متعة الماء وحماسة خورخي، تسلّق عدة مرات جدار المسبح ليغوص، رغم صرخات السيدات وتأنيباتهم. انضمّ إليهم القطيفة رغم حنقه

المستمرّ، أتى برفقة نيللي وهي ترتدي مايوهاً تصطفّ عليه بغرابة خطوطٌ حلزونية بنفسجية وزرقاء. سألت فيليبي ما إذا كانت بيبا ستسبح فأجاب بأنها تعرّضت للتو لإحدى النوبات وبأنه سيستغرب قدومها.

سألت بوجل:

ـ لديها نوبات؟

قال فيليبي وهو يزمّ أنفه:

ـ نوبات رومانسية. المسكينة مجنونة.

ـ أوه، لقد أخفتَني. إن أختكَ الصغيرة لطيفة حقاً.

ـ من الواضح أنكِ لا تعرفينها جيداً.

سأل فيليبي القطيفةَ:

ـ ما رأيك بهذه الرحلة؟ إني أتساءل من هو هذا السخيف الذي نظّم هذه الرحلة. إذا ما انفردتُ به فسأجعله يُمضي أسوأ ربع ساعة في حياته.

سأله القطيفة وهو يتمخّط خلسةً بأصابعه:

ـ بمن ستفعل هذا؟ يا له من مسبح ممسوخ، مخصّص لثلاثة أو أربعة أشخاص فقط. إننا محشورون فيه كأننا في علبة سردين. تعالي يا نيللي، سأعلّمكِ السباحة تحت سطح الماء. لا تخافي ياصغيرتي، افعلي مثلي، وهكذا ستشبهين إيستر ويليامز.

أنشأ الفنلنديان ما يشبه السطيحة على إحدى حواف المسبح فذهبت باولا لتتمدّد تحت أشعة الشمس. غاص فيليبي مرةً أخرى، نفخ وهو يهزّ رأسه كما رآهم يفعلون في البطولات ثم صعد إلى جانب باولا.

سألها:

- راؤول... كِ، ألن يأتي للسباحة؟

ردّت باولا ساخرةً:

- راؤولي!..لا أعرف فيما يتآمر مع أصدقائه الأعزاء الذين بفضلهم ستفوح من المقصورة رائحة التبغ الأسود. ألم تكن معهم يافيليبي؟

نظر إليها فيليبي بطرف عينه: لا لم يكن معهم، إنه يفضّل أن يتمدّد قليلاً بعد الغداء ليطالع. وماذا يقرأ؟ أوه، الآن يقرأ عدداً من مجلة سيليكسيون. آه، يالها من مطالعة جيدة بالنسبة لطالب. نعم، إنها ليست سيئة، فهي تعطي فكرة موجزة عن الأعمال العظيمة.

قالت باولا وهي تنظر إلى البحر:

- موجزة، إنها عملية أكثر.

قال فيليبي وهو يشعر بضيق يتنامى أكثر فأكثر دون أن يعرف السبب:

- نعم بالتأكيد. إذ لم يعد لدينا الوقت لنقرأ روايات طويلة في هذه الأيام.

قالت باولا قاطعةً المزاح وناظرةً إليه بتحبّب:

- ولكنكَ في الواقع لا تهتمّ كثيراً بالكتب.

ثمة شيء مثير في فيليبي، فقد كان مراهقاً جداً ووسيماً جداً وغبياً جداً وسخيفاً جداً، كان كل شيء جداً. إنه لا يرتقي إلى توازنٍ ما إلا إذا صمت. حينئذ يَقبل وجهُه سنّه. ويداه مقروضتا الأظافر تتدلّيان بلامبالاة وبلطف. ولكن إذا أراد أن يتكلّم، إذا أراد أن يكذب (لأن الكلام كذبٌ في سن السادسة عشرة)، فإن كل اللطف يتلاشى ولا يبقى إلا ملامح غرور أخرق. مثيرة هي الأخرى، ولكنها مستفِزة،

مرآةٌ معكّرة تتذكّر فيها باولا نفسَها وهي في الثانوية، وتتذكّر محاولاتها الأولى في التحرّر والانحلال الذليل لأشياء كثيرة كان بوسعها أن تكون جميلة. إنها تشفق على فيليبي، تتمنّى أن تداعب شعره وتقول له أي شيء يعيد إليه ثقته بنفسه. قال إنه يحب المطالعة، لكن دروسه... كيف؟ ألا يطالع الإنسان في أثناء دراسته؟ بلى، يطالع بالتأكيد، ولكن كتب المنهاج وملاحظات الدروس، وليس ما يسمّى كتاباً كرواية لسومرست موم أو لإيريكو فيريسيامو. في الواقع إنه ليس كبعض زملائه الذين يضعون نظارات بسبب كثرة مطالعاتهم. الحياة قبل كل شيء. الحياة، أية حياة؟ حسنٌ الحياة، الخروج ورؤية الأشياء والسفر مثل الآن والتعرّف إلى البشر... لقد قال لهم مدرّسهم بيرالتا إن أهمّ شيء في الحياة هو التجربة.

ـ آه، التجربة، طبعاً للتجربة أهميتها. وأستاذكَ لوبيز ألا يحدّثكَ عن التجربة هو الآخر؟

ـ لا. أية فكرة هذه! ومع ذلك لو أراد... نلاحظ أنه رجل خبير في النساء. ولكنه ليس من الأشخاص الذين يتباهون بذلك. إننا نستمتع جيداً مع لوبيز، ولكن يجب الاجتهاد، وعندما يكون مسروراً منا يستطيع أن يُمضي نصف ساعة ليحدّثنا عن آخر مباراة في كرة القدم.

ـ غير ممكن!

ـ بلى، أقسم لكِ. لوبيز شخص حسّاس. إنه غير جاد مثل بيرالتا.

ـ لا أصدّق.

ـ ومع ذلك هو كذلك، هل كنتِ تظنين أنه مثل القط الأسود؟

ـ القط الأسود؟

ـ المؤخرة القاسية!

ـ آه، المدرس الآخر.

ـ نعم، معكرونة.

ـ لا، ليس هكذا.

ـ حسن، لأنهما لا يمتلكان شيئاً مشتركاً. لوبيز جيد جداً، وزملائي كلهم متفقون على ذلك. حتى أنا، أتعلّم أحياناً من دروسه. أحبّ كثيراً أن أصبح صديقاً له، ولكن بالتأكيد...

ـ لديكَ الفرصة هنا. يوجد عدة أشخاص جيدين على هذه السفينة: مدران مثلاً.

ـ نعم، ولكن ليس كلوبيز، أو كراؤول... كِ.

طأطأ رأسه وسالت قطرة ماء على طول أنفه. ثم تمتم:

ـ إنهم جميعاً لطيفون. ولكنهم مسنّون. أما راؤول فهو شاب جداً.

قالت باولا:

ـ إنه ليس شاباً إلى هذا الحد. أحياناً يبدو مسنّاً جداً لأنه يعرف أشياء كثيرة وهو مثقل بما يسمّيه بيرالتا خاصّتك: التجربة. ولكنه أحياناً شاب جداً ويقترف حماقات أكبر منه.

نظر إليها فيليبي نظرة محبطة فصمتتْ. فكرت مازحة: بقي القليل وسأسقط في القِوادة. لنتركهم يرقصون رقصتهم. مسكينة نيللي، إنها تشبه إحدى ممثلات السينما الصامتة وخطيبها يطفو في مايوهها... ومع ذلك كان يجدر بها أن تحلق شعر إبطها.

بصورة طبيعية تماماً، انحنى مدران على العلبة وتناول مسدساً ووضعه في جيب بنطاله الخلفي بعد أن تأكّد من أنه مشحون ومن أن بكرته تدور بسهولة. كان لوبيز سيفعل مثله لكنه فكّر بلوسيو ثم توقّف فجأةً. فقد مدّ لوسيو يده ثم سحبها وهو يهزّ رأسه قائلاً:

ـ إني لا أفهم لماذا هذا السلاح.

قال له لوبيز وهو يتناول المسدس الآخر دون أي ندم تجاه لوسيو:

ـ أنتَ لستَ مضطراً لأخذ مسدس.

ثم ناول المسدس لراؤول الذي كان يبتسم. ثم قال:

ـ أنا دقة قديمة، لم أحبّ في حياتي الأسلحة الآلية. فيها شيء تافه. لا شك في أني أفضّل المسدسات بسبب الوسترن. أنا أعود إلى ما قبل أفلام الغانغستر، ما رأيكم؟ أتذكرون وليم. س. هارت؟ هذا مضحك، فاليوم يوم ذكريات. القراصنة في الصباح، والآن الكاوبوي. وسآخذ علبة الطلقات هذه إذا سمحتم.

قرعت باولا الباب قرعتين ثم دخلت ورجتهم أن يذهبوا لأنها تريد أن ترتدي مايو السباحة. نظرت إلى علبة الصفيح مفاجأةً لكنها لم تتكلّم. ذهب مدران ولوبيز إلى مقصورتيهما ليخبّئا مسدسيهما. رأيا نفسيهما مضحكَين بجيبيهما المنتفخين، ناهيك عن علبتي الطلقات المخبّأتين تحت سترتيهما.

من الحمام سمعت باولا وهي تغنّي راؤول يفتح درج الخزانة، فسألته:

ـ ما معنى هذه الترسانة؟

ـ آه، هل انتبهتِ إلى أن هذا ليس كستناء مثلّجة؟

ـ أتصوّر أنكَ لم تحمل هذه العلبة مع أمتعتك.

ـ لا، إنها من غنائم الحرب، حرب... باردة حتى الآن.

ـ وأنتم تنوون أن تلعبوا دور الثوريين؟

ـ لا، ليس قبل أن نستنفد جميع السبل الدبلوماسية يا عزيزتي. أعرف جيداً أني لست في حاجة لأقول لك أني سأكون ممتنّاً جداً لكِ إذا لم تقولي لأحد عن هذه اللقية. كل هذا سينتهي بطريقة مضحكة،

وربما بمزحة، وسنحتفظ بالأسلحة كتذكار من مالكولم. أما الآن فقد قرّرنا أن نقوم بجولة على مؤخرة السفينة بالرضا أو بالقوة.

ـ قلبي الحزين يبكي على مؤخرة السفينة، قلبي المغطى... كانت تغني ذلك ثم خرجت مرتدية البيكيني فصفر راؤول صفرة إعجاب.

قالت وهي تنظر إلى نفسها في مرآة الخزانة:

ـ تبدو وكأنكَ تراني لأول مرة وأنا أرتدي هذه الملابس. ألن تغيّر ملابسكَ، أنتَ أيضاً؟

ـ فيما بعد، يجب علينا الآن أن نبدأ الخصومة مع الدهنيين. لقد أعددتِ أجمل السيقان لهذه الرحلة.

ـ لقد تركتُ الآخرين يقولون ذلك. أنا مستعدّة لأن أكون لكَ موديلاً، أستطيع أن أقف بقدر ما تشاء، ولكني أعتقد أنكَ تفضّل عليّ موديلات أخرى.

ـ أرجوكِ ألا تجعلي لسانكِ كلسان الأفعى. ألم يبدأ الهواء البحري بتلطيف الجو؟ اتركيني بسلام، أنا على الأقل.

ـ عظيم يا sweet prince «أيها الأمير العذب»، إلى اللقاء قريباً.

فتحت الباب ثم التفتت وأضافت:

ـ لا ترتكبوا حماقات. الله يعلم أني لست مبالية، ولكن أنتم الثلاثة مفضلون لدي. إذا أفسدتموهم لي... هل أستطيع أن أكون عرّابتكم للحرب؟

ـ إذا أحببتِ. بشرط أن ترسلي لي شوكولا ومجلات طليعية. هل قلتُ لكِ أنكِ رائعة بهذا المايوه؟ نعم قلته لكِ. سوف تدوّخين الفنلنديين، وواحداً من أصدقائي.

قالت وهي تعود إلى المقصورة:

ـ بمناسبة لسان الأفعى، هل صدّقتَ تلك القصة عن مرض التيفوس؟ لا، كما أظن. ولكن إذا لم نصدّقها فذلك أسوأ، لأننا لن نعود نفهم شيئاً.

ـ هذا يذكّرني بطفولتي، وبالفترات التي شعرتُ خلالها بأني أصبحتُ ملحداً. لقد بدأت المصاعب في تلك اللحظة. من الممكن جداً أن تكون قصة التيفوس هذه تخفي عملية تهريب خسيسة. ربما ينقلون خنازير إلى بونتا أريناس أو باندونيونات إلى طوكيو، وكل شيء مخجل كما يعلم الجميع. لديّ مجموعة كاملة من الفرضيات من هذا النوع، وكل واحدة منها أسوأ من الأخرى.

ـ وإذا لم يوجد شيءٌ في المؤخرة؟ وإذا تبينّ أن الأمر مجرد قرار تعسّفي من القبطان سميث؟

ـ لقد فكّرنا بهذا يا عزيزتي. فكّرتُ به بصورةٍ خاصة عندما حملتُ هذه العلبة. وأكرّر قولي أنه إذا لم يكن من شيء على المؤخرة فالأمر أسوأ. أتمنى من كل قلبي أن أجد شركة لليليبوسيان أو جبنة كاممبيرأو بكل بساطة اجتياحاً للجرذان.

قالت باولا وهي تغلق الباب:

ـ لا بدّ أن هذا من تأثير اليود.

بعد أن تحاشى طاولة السيد تريخو و د. ريستيللي اللذين كانا يعتمدان عليه من أجل إحياء حديث ممل، ذهب ليجلس قرب كلوديا التي كانت تفضّل البار ومقهاه ذا الألعاب البحرية. طلب كأس بيرة وأطلع كلوديا على نتائج المجلس الحربي، دون أن يأتي على ذكر علبة الصفيح. كان من الصعب عليه أن يتكلّم بجدية عن كل هذا لأن انطباعاً لم يبرحه في أنه يروي قصة متخيَّلة تلامس الواقع دون أن تؤذي الراوي ولا المستمع. بينما كان يعدّد الأسباب التي تسوّغ

الهجوم شعر بأنه متعاطف مع أعدائهم. بدا كمن يصعد قمة إحدى الصواري فيشرف على المعسكرين بصورة غير منحازة.

ـ هذا مضحك تماماً إذا ما أمعنّا التفكير به. حريٌّ بنا أن نعينّ خورخي قبطاناً وأن نتركه يتصرّف على هواه. من المؤكّد أن هواه سيكون موافقاً للواقع أكثر من أفكارنا.

قالت كلوديا:

ـ ولم لا؟ فخورخي أيضاً شعر بأن أمراً غريباً يحدث. قال لي منذ لحظة: «إننا في حديقة حيوان، ولكننا لسنا نحن الزوّار». أو شيئاً من هذا القبيل. لقد فهمتُ ما يقصده تماماً لأن الانطباع نفسه الذي لديه نما لديّ منذ أمس. ومع ذلك، هل لدينا الحق في التمرّد؟ ليس الخوف هو الذي يدفعني إلى قولٍ كهذا بل الخشية من أن نُسقِط حاجزاً ربما يدعم ديكور المسرحية بأكملها.

ـ مسرحية؟ نعم، ربما. أنا أميل إلى رؤية لعبةٍ خاصة جداً مع أولئك الذين يقفون في الطرف الآخر. عند الظهر خطوا الخطوة الأولى، والآن هم ينتظرون بفارغ الصبر أن نردّ. إنهم يدفعون بالبيادق البيض و...

ـ ها قد عدنا إلى مفهوم اللعب. أعتقد أنه يشكّل جزءاً من المفهوم الحركي للحياة، دون أوهام ودون مفارقات. إننا نكتفي بأن نكون قلعة جيدة أو فيلاً جيداً، نتقدّم قطرياً أو نقفز إلى الأمام لإنقاذ الملك. في النهاية ليست مالكولم مختلفةً كثيراً عن بوينس آيرس أو على الأقل عن الحياة التي أعيشها في بوينس آيرس. أكثر فأكثر ميكانيكيةً وبلاستيكية؛ مع أدوات كهربائية في المطبخ أكثر فأكثر وكتبٍ في المكتبة أكثر فأكثر.

ـ لكي يكون ذلك مشابهاً تماماً للحياة على متن مالكولم، يجب أن يكون لديكِ عنصر غامض.

ـ إنه موجود ويُدعى خورخي. أي سرٍّ أكبر من حاضر ليس فيه

شيءٌ من الحاضر؟ مستقبل مطلق. شيءٌ ما مفقود مسبقاً أقوده وأساعده وأشجّعه وكأنه سيكون لي إلى الأبد. وأفكّر بأن أول فتاة صغيرة قادمة لتنتزعه مني بعد عدة سنوات، فتاة صغيرة تقوم في هذه اللحظة باللعب بالكلمات المتقاطعة أو بقراءة سندريللا.

ـ لا يبدو أن ذلك يتعبك.

ـ لا، فالتعب شيء أكثر محسوسيةً وحضوراً وواقعيةً من أن يُطبَّق على هذا الانطباع. إني أنظر إلى خورخي باستمرار من وجهتي نظر، وجهة نظر اليوم التي تجعلني سعيدةً جداً، ووجهة نظر أخرى تقع في نقطة أبعد كثيراً حيث أرى امرأة عجوزاً تجلس على مقعد ويحيط بها بيتٌ فارغ.

وافقها مدران بهزّةٍ من رأسه. في النهار يمكن ملاحظة الغضون الصغيرة التي تحيط بعيني كلوديا لكن التعب المرتسم على وجهها لم يكن مصطنعاً، كذلك الموجود عند صديقة راؤول كوستا، بل كملخّصٍ وكثمن مدفوع جيداً وكرماد خفيف. أحبّ مدران صوت كلوديا الأجش وطريقتها في قول «أنا» بلا تفخيم ولكن برنة تدفعكَ إلى أن تتمنى أن تسمعها مرةً أخرى.

قال لها:

ـ أنتِ لمّاحة جداً، وهذا ثمنه غالٍ. كم من النساء يعشن لحظتهنّ الراهنة دون أن يفكّرن بأنهن سيفقدن أولادهن يوماً، أولادهنّ وأشياء كثيرة أخرى. مثلي أنا ومثلنا جميعاً. حافة رقعة الشطرنج مليئة بالفيلة وبالأحصنة المقتولة. ولكن الحياة تعني إمعان النظر بالقطع التي تؤدّي اللعبة.

ـ نعم، بتأمين هدوء عابر مع مواد مسبقة الصنع على وجه العموم. الفن، على سبيل المثال أو الرحلات... أغرب ما في الأمر أن هذا يمكنه أن يؤمّن لك سعادة غير عادية، شعوراً بالاستقرار داخل الوجود بصورة نهائية. هذا يُرضي ويكفي كثيراً من الناس

المتطوّرين. أما أنا فلا أعرف... يعود ذلك إلى هذه السنوات الأخيرة، أشعر بأني أقل سعادةً عندما أكون سعيدة. لقد أخذ الفرح يؤلمني. ومع ذلك يعلم الله ما إذا كنتُ قادرةً على أكون سعيدة.

قال مدران ساهماً:

ـ هذا شيء لم يحصل لي بعد. ولكني أعتقد أن بوسعي أن أفهمه، إنها القطرة المرّة في العسل. حتى الآن عندما كنتُ أستشعر طعم المرارة كنتُ أزداد تذوّقاً لحلاوة العسل.

ـ يدّعي بيرسيو، على مستوى آخر، أن العسل هو بلا شك شكلٌ من أشكال العلقم الأكثر مرارة. ولكن دون أن أريد أن أبلغ الفراغ الأعلى، كما يتلذّذ بالقول، أعتقد أن قلقي في الفترة الأخيرة... أوه، إنه ليس قلقاً مهماً جداً أو ميتافيزيقياً، إنه بالأحرى علامة ما تكاد تُدرَك. أشعر أني متوترة، غريبة عن نفسي قليلاً، دون سبب ظاهري. وغياب هذه الأسباب يقلقني بدلاً من أن يطمئنني. لأني مؤمنة بغريزتي.

ـ وهذه الرحلة هل هي دفاع ضد هذا القلق؟

ـ الدفاع كلمة رسمية بعض الشيء. أنا لستُ مهدّدة حقيقةً، ولا أشعر بأني مستعدّة لقبول المصير العادي للأرجنتينيات اللواتي لديهن أطفال. أنا لم أستجب لتأسيس ما يسمّى بيتاً وأنا أتحمّل بكل تأكيد نصيباً لا بأس به من المسؤولية عن فشل بيتي. لم يشأ زوجي أبداً أن يفهم أن براداً أحدث موديل أو رحلةً إلى مار دو بلاتا لا يمكنهما أن يفرحاني. ما كان عليّ أن أتزوّج أبداً، هذا كل ما في الأمر، ولكن كانت لديّ أسبابي الجيّدة للزواج، أهلي من بين أناس آخرين، كان لديهم إيمان ساذج بي... لقد ماتوا، وأنا حرة في إظهار وجهي الحقيقي.

ـ ولكنكِ لا تعطيني الانطباع بأنكِ ما يسمّى امرأة متحرّرة. ولا حتى متمرّدة بالمعنى البورجوازي للكلمة. غريب، أنا لا أستطيع أن

أحدّد مكانك، وأعتقد أني لستُ آسفاً على ذلك. الزوجة والأم الكلاسيكيتين...

ـ أعرف، الرجال يتراجعون، وجلين، أمام النساء الكلاسيكيات، ولكن هذا دائماً قبل الزواج.

ـ إذا كنتِ تقصدين بكلاسيكية تناول الغداء ظهراً، والرماد في المنفضة ومساء أيام السبت في ريكس، أعتقد أن إحجامي سيكون كبيراً قبل الزواج كما بعده، الأمر الذي يجعله مستحيلاً. لا تعتقدي أن لدي نقطة ضعف تجاه الطراز البوهيمي. أنا أيضاً لدي علّاقة صغيرة في خزانتي لتعليق ربطات عنقي. إنه شيء أعمق، الحدس بأن امرأةً «كلاسيكية» ضاعت بوصفها امرأة. أم الغراك مشهورة بأبنائها وليس بنفسها، وسيكون التاريخ أكثر حزناً مما هو عليه إذا كانت بطلاته كلّهن قد تجمّعن ضمن هذا النوع من النساء. لا، أنت تحبطينني لأن لديك هدوءاً واتزاناً يكذّب ما قلتِه لي. والحمد لله أن هذه الأنواع من الاتزان غالباً ما تولّد الرتابة الأكمل على الأخص في رحلة إلى اليابان.

ـ أوه، اليابان، أي هيئة شكّاكة تتخذ!

ـ وأنتِ أيضاً تعتقدين أننا لن نصل إليها. قولي لي الحقيقة إذا كنت تطلبينها مبكراً جداً. لماذا سافرتِ على مالكولم؟

نظرت كلوديا إلى يديها وفكرت:

ـ كلّمني أحدهم منذ لحظة. أحدهم ليست الحياة لديه إلا سلسلة من تأجيلات مؤقتة. إني أعطي لهذا الشخص انطباعاً قوياً من القوة والاتزان بحيث أنه أسرّ إليّ واعترف لي بنقاط ضعفه كلها. لا أريده أن يعرف ما سأقوله لك لأن مجموع نقاط ضعف لشخصين قد يصبح قوةً رهيبة وقد يسبّب كوارث. ولكن، اعلم أني أشبه كثيراً ذلك الشخص. أعتقد أني توصّلتُ إلى مرحلة بدأتْ فيها الأشياء الأكثر

محسوسيةً تفقد معناها وتختلط. أعتقد... أعتقد أني ما أزال أحبّ ليون.

ـ آه.

ـ وفي الوقت نفسه أعلم أني لا أستطيع تحمّله، وأن نبرة صوته وحدها تشتّتني عندما يأتي لرؤية خورخي ويلاعبه. هل يمكن فهم شيءٍ كهذا؟ هل يمكن أن نحب شخصاً مجرّدُ حضوره كفيلٌ بتحويل الدقيقة إلى نصف ساعة؟

أجاب مدران فجأةً:

ـ لا أعلم. أنا شخصياً تعقيداتي أكثر بساطة. هل أعرف ما إذا كان بالإمكان محبة شخصٍ بهذه الطريقة؟

نظرت إليه كلوديا ثم حوّلت بصرها. لقد تكلّم مدران بنبرة مستَفَزّةٍ تعرفها جيداً، إنها نبرة الرجل المنزعج من تفصيلات لايستطيع فهمها، وعلى الأخص، لا يستطيع تقبّلها. فكرت بلامبالاة: «سوف يصنفني من بين المصابات بالهستيريا. لا شك في أنه على حق، هذا بالإضافة إلى أنه من المضحك جداً أن أحكي له أموراً كهذه». طلبت منه سيجارة ثم انتظرت أن يناولها الولاعة.

قالت:

ـ كل هذه الثرثرة بلا فائدة. منذ أن بدأتُ أقرأ الروايات، وقد بدأتُ مبكراً جداً، اكتشفتُ أن الحوارات كلها مضحكة جداً، لسبب بسيط هو أن أي ظرف بسيط بوسعه أن يضعِ لها حداً ويمنعها. وهكذا كما لو أني كنتُ في مقصورتي، أو لو أنكَ قرّرتَ أن تذهب إلى سطح السفينة بدلاً من أن تأتي لتشرب البيرة... لماذا نعطي أهميةً لكلام تسبّبه أسخف المصادفات؟

ـ سأم فرضيتك هو أننا نستطيع أن نطبّقها على جميع مناحي الحياة، بما فيها الحب الذي لطالما بدا لي الأكثر خطورةً والأكثر قَدَرية. إن قبول وجهة نظرك يعني تتفيه الوجود، وتسليمه إلى لعبة العبث الصرفة.

ـ ولم لا؟ فبيرسيو يقول إن ما نسمّيه العبث ما هو إلا جهلنا.

نهض مدران عندما رأى لوبيز وراؤول يدخلان، انضمّ إليهما عند البار متحاشياً بصورة واضحة طاولة ريستيللي. وأخذت كلوديا تقلّب صفحات بعض المجلات.

فتح لوبيز النار مباشرة، وبدا عامل البار سهل المنال أكثر مما كانوا يظنون. المؤخرة؟ كان الهاتف مفصولاً في تلك اللحظة، ومسؤول المطعم هو من يؤمّن الاتصال مع الضباط. نعم، لقد كان مسؤول المطعم قد لُقّح ومن المؤكد أنهم كانوا يمرّرونه إلى غرفة التعقيم عندما كان يعود.

أضاف عامل البار ببلاهة:

ـ من ناحية أخرى، وبدءاً من الغد، سيكون هناك حلاق يعمل من الساعة التاسعة إلى الثانية عشرة. صالون الحلاقة جميل جداً، سأريكم إياه.

ـ حسنٌ، ولكن الآن، نريد أن نتلفن إلى بوينس آيرس.

ـ ولكن الضابط قال... قال الضابط، أيها السادة. كيف تريدون مني أن...؟

ثم أضاف شاكياً:

ـ أنا جديد على متن السفينة، صعدتُ عليها في سانتوس، منذ خمسة عشر يوماً.

قال راؤول:

ـ سنطّلع على سيرة حياتك فيما بعد. تفضّل ودلّنا فقط على طريق سطح السفينة الخلفي.

ـ آسف جداً أيها السادة، فأوامري... أنا جديد هنا.

رأى هيئة مدران ولوبيز، فبلع ريقه وأضاف:

ـ كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أُريكم الطريق المؤدي إلى هناك، ولكن الأبواب مغلقة و...

قال راؤول:

ـ أنا أعرف طريقاً لا يوصل إلى أي مكان، وسنرى إن كان هو.

جفّف عامل البار يديه (اللتين كانتا جافتين تماماً) بخرقة تحمل شعار ماخنتا ستار، ثم غادر البار على مضض ماشياً أمامهم على الدرج. توقّف أمام أحد الأبواب مقابل مقصورة د. ريستيللي ثم فتحه بمفتاح صغير مسطّح. كان يطلّ على مقصورة صغيرة مؤثّثة بأثاث بسيط لكنها نظيفة جداً. على أحد الجدران لوحة كبيرة لفيكتور إيمانويل، كما عُلّقت قبعة كرنفال على مشجب. أدخلهم عامل البار وهو على هيئة كلب التيرنوف ثم أغلق الباب خلفهم مباشرةً. قرب السرير هناك باب ما يكاد يُرى بين قضبان الأرز. قال العامل وهو يرسم نصف دائرة بيده السمينة والرخوة:

ـ مقصورتي. حقاً تريدون... نعم، هذا هو المفتاح، ولكن أكّرر لكم أنه لا يجدر بكم... فقد قال الضابط...

قال لوبيز:

ـ افتح، ولا تهتمّ بالباقي. ثم عُد إلى بارك لتقديم البيرة. لا أعتقد أنه من الضروري أن تتكلّم عن هذا كله للسادة المسنّين الظمآنين.

ـ أوه، لا، لن أقول شيئاً.

دار المفتاح دورتين في ثقب الباب فانفتح على دَرَج. فكّر راؤول: «هناك كثير من الطرق التي تؤدّي إلى جهنّم على ظهر هذه السفينة! إن شاء الله لن يؤدي هذا الطريق أيضاً إلى أحد الموشومين. أو إلى شارون مع أفاعٍ على ذراعه». تبع الآخرين

داخل سرداب طويل مظلم. «مسكين فيليبي! لا بدّ أن يعضّ معصميه، ولكنه صغير جداً على هذا كلّه...». يعرف أنه كان يكذب، وأن ما فعله عبارة عن خبث لذيذ دفعه إلى حرمان فيليبي من متعة المغامرة. فكّر ببعض الندم: «سوف نكلّفه بمهمة خاصة لنعوّضه».

رأوا ثلاثة أبواب في نهاية السرداب، وكان أحدها موارباً. فتحه مدران فرأى مستودعاً للكراتين الفارغة والألواح الخشبية ولفّات الخيوط الحديدية. تنبّه راؤول فجأةً إلى أن لوسيو لم يتبعهم.

كان الباب الثاني مغلقاً، والثالث يؤدي إلى ممر آخر أفضل إنارة. ثلاث فؤوس ذوات أنصبة حمراء معلّقة على الجدار. والممر يؤدي إلى باب كُتب عليه: GED OTTAMA. كما كُتب بأحرف أصغر: P. pickford. دخلوا إلى مقصورة واسعة جداً مليئة بالخزانات المعدنية وبالكراسي ذوات القوائم الثلاث. وقف رجلٌ وقد فوجئ بهم عندما رآهم يدخلون ثم تراجع خطوةً إلى الخلف. كلّمه لوبيز بالإسبانية، عبثاً. ثم حاول باللغة الفرنسية. وكلّمه راؤول بالإنكليزية وهو يزفر.

قال الرجل الذي كان يرتدي بنطالاً أزرق فاتحاً وقميصاً أحمر مشمَّر الأكمام:

ـ آه، ركاب. ولكن لا يمكنكم أن تمرّوا من هنا.

قال راؤول:

ـ اعذرنا على ظهورنا بهذا الشكل. إننا نبحث عن مقصورة الراديو، من أجل رسالة عاجلة.

ـ ليس من هنا. عليكم أن تمروا...

ثم ألقى نظرة خاطفة على الباب الذي إلى يساره. وصل إليه مدران قبله بثانية. ابتسم له بود ويداه في جيبيه، وقال:

ـ Sorry، أنتَ ترى جيداً أنه يجب علينا أن نمر من هنا. تصرّف وكأنكَ لم ترَ شيئاً.

تسارعت أنفاس الرجل وتراجع فارتطم بلوبيز. اجتاز الثلاثة الباب ثم أغلقاه بسرعة، لقد سارت الأمور جيداً.

يبدو أن المالكولم مكوّنة من الممرات بصورة رئيسية، وأخذ لوبيز يعاني من رهاب الانغلاق. وصلوا إلى منعطف قبل أن يجدوا أبواباً، وفجأةً رن جرس إنذار. استغرق رنينه خمس ثوان فأصمّهم.

قال لوبيز بهياج شديد:

ـ العمى! هل سيظهر أخيراً هؤلاء الفنلنديون الساقطون؟

رأوا باباً موارباً، فلم يستطع منع راؤول من التفكير بأن الانضباط مهلهل بعض الشيء على متن السفينة. رفس لوبيز الباب بقدمه فردّ عليه مواءٌ ساخط. قفز قطّ أبيض ثم أخذ يلحس قائمته بعيداً بهيئة غاضبة. المقصورة فارغة ولكنها فخمة، لها ثلاثة أبواب، اثنان منها مغلقان والثالث صعب الفتح. شمّ راؤول الذي بقي متأخراً يداعب القط، وكان قطة، من الباب الموارب رائحة انغلاق، رائحة عنبر السفينة. فكّر: «رغم أننا لم ننزل كثيراً إلى الأسفل! لا بدّ أننا ما نزال على مستوى السطح الأمامي، وأخفض رأسه قليلاً». كانت عينا الهرة الزرقاوان، الثابتتان والفارغتان، تتبعانه. انحنى ليداعبها لآخر مرة. سمع في تلك اللحظة جرس إنذار في البعيد. مدران ولوبيز ينتظرانه في مستودع مليء بعلب البسكويت ذات الأسماء الإنكليزية والألمانية.

قال راؤول:

ـ أتمنى أن أكون مخطئاً، ولكن لدي انطباعٌ بأننا عدنا إلى نقطة البداية. خلف هذا الباب... زلق مزلاج أمان، «للأسف أنا على حق...».

كان أحد الأبواب المغلقة التي رأوها في نهاية ممر الوصول. رائحة الانغلاق الكريهة نفسها صفعت وجوههم. لا أحد منهم يريد أن يرى من جديد الرجل ذا القميص الأحمر.

قال راؤول:

ـ لا ينقصنا في الوقت الحاضر إلا أن نرى المينوتور.

سمعوا مواء الهرة البيضاء في البعيد. قصدوا الباب الذي كُتب عليه GED OTTAMA، وهم يهزّون أكتافهم. بدا الرجل وكأنه لم يتزحزح من مكانه، ولكنه بدا وكأنه ينتظر أن يراهم من جديد.

قال:

ـ Sorry، ليس من هنا طريق عبّارة القيادة. مقصورة الراديو في الأعلى.

أجابه راؤول الذي كان يتكلّم الإنكليزية بطلاقة أكثر من الآخرين ويدير العمليات هذه المرة:

ـ معلومة ثمينة. ومن أين نذهب إلى مقصورة الراديو؟

ـ من الأعلى. يجب اتباع الممر حتى... آه، ولكن صحيح، الأبواب مغلقة.

ـ هل يمكنكَ أن تُرينا الطريق، فنحن نريد أن نتكلّم مع أحد الضباط مادام القائد مريضاً.

نظر الرجل إلى راؤول نظرة المفاجَأ. «يريد أن يقول لنا إنه لا يعرف أن القائد مريض» خطرت هذه الفكرة لمدران الذي انتابته رغبة مباغتة في الذهاب إلى البار وشرب كأسٍ من الكونياك بهدوء. لكن الرجل اكتفى بمدّ شفتيه بهيئة اليائس وقال:

ـ لدي أمرٌ بمراقبة هذا القطاع. إن كنتم في حاجة إليّ في الأعلى عليكم أن تخبروني. آسف، لا أستطيع أن أرافقكم.

ـ حتى لو لم تأتِ معنا، ألا تريد أن تفتح لنا الأبواب؟

ـ ولكن يا سيدي، المفاتيح ليست معي. لقد قلتُ لكم سابقاً أني لا أهتمّ إلا بهذا القطاع.

استشار راؤول أصدقاءه. اعترى الثلاثةَ انطباعٌ بأن السقف أخفض، وبأن رائحة الانغلاق أقوى. حيّوا الرجل بإيماءة من رؤوسهم ثم عادوا على أعقابهم بصمت. لم يتبادلوا كلمةً واحدة حتى وصلوا إلى البار. أشعة شمسٍ رائعة كانت تدخل عبر النوافذ الواسعة وتتقافز على صفحة مياه المحيط الملساء. طلبوا مايشربونه. أسف مدران وهو يتلذّذ بشرب كأس البيرة على كل ذلك الوقت الذي أضاعوه في أسفل السفينة. لقد تصرّف كغبي صغير ليأتي في النهاية من يسخر منه... رغب في الصعود من جديد إلى سطح السفينة ليتحدث مع كلوديا، وأن يتمدّد على سريره ليقرأ ويدخّن. فكّر: «في النهاية، لماذا نحن نأخذ الأمر بهذه الجدية؟». أخذ لوبيز وراؤول ينظران إلى البعيد، وبدوا كمن يصعدان إلى السطح بعد أن غاصا طويلاً في بئرٍ عميقة، أو في سينما أو في كتابٍ لا يمكن تركه قبل إنهائه.

27

في نهاية النهار مالت الشمس إلى الاحمرار وهبّ نسيمٌ بارد طرد السابحين وأدّى إلى تفرّق السيدات. أسهب السيد تريخو ود. ريستللي في مناقشة الموقف، ووصلا إلى نتيجة مفادُها أن الرحلة جميلة لولا تهديد هذا التيفوس. قاسمهم دون غالو رأيهم، ولكن ربما كان تفاؤله عائداً إلى أن الأصدقاء الثلاثة يجلسون عند نهاية سطح السفينة وإلى أن الهواء الذي كانوا يتنفّسونه لم يكن موبوءاً. وجد السيد تريخو، الذي كان قد غاب قليلاً ليأتي بنظارته الشمسية،

فيليبي في المقصورة يرتدي ملابسه. ولأنه فكر بأن هذا الشاب ربما يعرف شيئاً ما عن التصرف الغريب لمجموعة مدران (فهيئة المتآمرين التي اتخذوها، وخروجهم المفاجئ من البار لم تغب عن انتباهه)، سأله بلباقة وسرعان ما حصل على معلومات عن المهمة في أسفل السفينة. كان أكثر مهارةً من أن يلوم ابنه أو يوجّه إليه الاعتراضات الأبوية الكلاسيكية، فتركه يتأمل نفسه في المرآة وصعد إلى سطح السفينة ليطلع أصدقاءه على الأمر. وعندما اقترب منهم لوبيز، بعد نصف ساعة، خمولاً، استقبلوه بحفاوة وأبلغوه ملاحظةً بأنه على متن السفينة، كما في أي مكانٍ آخر، يجب أن تُحترم مبادئ الاستفتاء الديمقراطية... رغم أن حماسة الشباب يمكن أن تبرّر ذلك. ثبّت لوبيز عينيه على الأفق المستقيم وهو يستمع إلى موعظة د. ريستيللي الذي يحترمه أكثر من أن يرسله للتنزّه بالضرورة. ردّ بأن مهمتهم اقتصرت على بعض دوريات الاستطلاع بعد أن بدت لهم تفسيرات الضابط غير مقنعة. وإن كانت أبحاثهم غير مثمرة حتى الآن فإن هذا لن يمنعهم من الاستمرار في الاعتقاد بأن رواية الضابط عن التيفوس محض هُراء.

هنا رفع دون غالو رأسه كديكٍ غاضب وأكّد أن الخيال الأكثر مرضاً وحده هو الذي يمكنه أن يشكّك في تفسيرات الضابط الواضحة والصحيحة تماماً. كما حرص على التأكيد أن لوبيز وأصدقاءه، إذا ما استمرّوا في مضايقة عمل القائد وفي زرع بذور الفوضى، فإنه سيعارضهم لأن تصرّفهم قد يسفر عن نتائج سيئة على الركاب جميعاً. اكتفى السيد تريخو بالتأكيد أن عليهم أن يبدوا جميعاً أصدقاء حميمين وأن يتشاوروا قبل أن يتّخذوا أي قرار.

قال لوبيز ضاحكاً:

- اسمعوا، إذا كان هذا يريحكم فإننا لم نستطع أن نستوضح شيئاً، لقد سئمنا كجرذان ميتة، وأضعنا حمّاماً جيداً في المسبح.

بدا له من العبث محاولة أن يشرح أي شيء لهؤلاء الثلاثة المحترمين، مادامت الشمس الغاربة تدعو إلى الصمت. تقدّم نحو رأس السفينة ومكث هناك يراقب ألعاب زبد الماء الذي تلوّن بالأحمر والبنفسجي. بدا المساء بالغ الهدوء وبدا النسيم وكأنه يحوم حول مالكولم دون أن يمرّ على الأشياء. في البعيد، وإلى اليسار رأى عموداً من الدخان. تذكّر بلامبالاة بيتَهُ، هو في الواقع بيت أخته وصهره حيث له شقة مستقلة. في تلك اللحظة وجب على روث أن تُدخل المقاعد المصنوعة من الروتان تحت الشرفة، وكان صهره يتحدّث في السياسة مع أحد زملائه الذي أخذ يدافع عن شيوعية غامضة مشوبة بشعر صيني مترجم عن الإنكليزية، وكان الأطفال على وشك سماع الأمر الكئيب بأن يصعدوا ليأخذوا حمّامهم. كل هذا كان أمس، يعيش خلف هذا الأفق الأحمر والفضي. ولكن بعد أسبوع، بعد أن يكون الحاضر قد فقد جِدّته، ستستعيد الذكريات قوتها. منذ خمسة عشر عاماً يعيش عند روث، ومنذ عشر سنوات أصبح مدرساً. خمسة عشر عاماً وعشرة أعوام ويوم في البحر وشعر أصهب (في الواقع، لا علاقة للشعر الأصهب في هذا كله) كافيةٌ لتخلط شطراً كبيراً من حياته وتسحقه. قد تكون باولا في البار، وقد تكون أيضاً في مقصورتها مع راؤول، في هذه الساعة المناسبة لممارسة الحب بينما الليل يخيم في الخارج. إنهما يمارسان الحب على سفينة تبحر ببطء، في مقصورة كل شيء فيها وكل رائحة وكل ضوء هو رمز للمسافة وللبعد وللحرية الكاملة. لا بدّ أنهما يمارسان الحب، وهو لم يكن ليصدّق كلمة من تلك القصة الغامضة، ولا من إعلان الاستقلال ذلك الذي أعطته له. لا يُبحر الإنسان مع امرأة كهذه ليكلّمها عن خلود سرطان الماء. كان بوسعها أن تسخر منه بتحبّب إن راق لها ذلك. سيتركها تلعب لبعض الوقت وبعد ذلك... فكّر غاضباً: «جاميكا جون»، ليس أنا من سيكون كريستوفر داون خاصتك، يا جميلتي». ليته يستطيع تمرير أصابعه على شعرها والإحساس به يسيل بين أصابعه كالدم. قال

وهو ينظر إلى الأفق الأحمر القاني: «أنا أبالغ في التفكير بالدم». لا ريب أنه خطأ سنحاريب إيدن. ثم تابع: «ومع ذلك، ماذا لو كانت في البار؟ وهو باقٍ هنا يضيع وقته كالأبله...». استدار وسار مسرعاً إلى الدرج. انكفأت بيبا تريخو التي كانت تجلس على إحدى الدرجات لتدعه يمر.

قال لها لوبيز الذي لا يعرف كيف يبدأ حديثه:

ـ مساؤك سعيد. ألستِ تعانين من دوار البحر، أنتِ؟

سألته محتجة:

ـ أنا، دوار البحر؟ حتى إني لم أتناول القرص، أنا لا أعاني أبداً من دوار البحر.

قال لوبيز الذي لم يعد يعرف ماذا يقول حول هذا الموضوع:

ـ عظيم جداً.

يبدو أن بيبا كانت تنتظر أمراً آخر... ليت لوبيز يستطيع أن يتحدّث معها لبعض الوقت... لكنه ابتعد بعد تحية صغيرة من يده، ومدّت له لسانها بعد أن أدار ظهره. إنه أبله، ولكنه ألطف من مدران. على أية حال، المفضّل لديها هو راؤول الذي يشغله فيليبي والآخرون بطريقة فضائحية. إنه يشبه وليم هولدن بعض الشيء، لا بل هو أقرب إلى جيرار فيليب. لا، لا يشبه جيرار فيليب أبداً. إنه أنيقٌ بقمصانه الغريبة وبغليونه. تلك المرأة لا تستأهل رجلاً كهذا.

لا بد أن هذه المرأة في البار تشرب جِن فريز.

ـ إلى أين وصلت مهمتكم؟ هل جهّزتم الراية السوداء وسيوف الاقتحام؟

ـ ولماذا؟ إننا نحتاج إلى حملاجات لنفتح الباب الحديدي، ولقاموس سداسي اللغات لكي نتفاهم مع الدهنيين. ألم يقل لك راؤول...

ـ لم أره بعد، احكِ لي!

حكى لها لوبيز وانتهزت الفرصة لتسخر منه ومن الاثنين الآخرين بالمناسبة نفسها. وأخبرها أيضاً عن رد الفعل الحذِر الذي أبداه المسنّون الثلاثة، الأمر الذي جعلهما يضحكان. عامل البار يحضّر كأسين من الجِن فريز اللذيذ، وليس في البار إلا أتيليو بريسوتي الذي يشرب كأساً من البيرة ويقرأ ميروار ـ سبرينت. ماذا فعلت باولا طوال فترة بعد الظهر؟ حسنٌ، لقد سبحت في مسبح مضحك وتأملت الأفق وقرأت فرانسواز ساغان. ما هذا الدفتر الأخضر؟ إنها تسجّل بعض الملاحظات أحياناً أو تكتب بعض الأشياء. أية أشياء؟ حسن... قصيدة.

قال لها لوبيز بنفاد صبر:

ـ لا تقوليها وكأنها جريمة. إني أتساءل ماذا حلَّ بالشعراء الأرجنتينيين لكي يختبئوا بهذا الشكل. لدي صديقان شاعران، أحدهما شاعر جيد جداً، وهما يفعلان مثلكِ: يحمل كل منهما كرّاساً ويتخذ هيئةً كهيئة شخصيات غراهام غرين عندما تلاحقهم السكوتلانديارد.

ـ ولكنّ هذا لا يهمّ أحداً. إننا نكتب من أجلنا ومن أجل مجموعة محدودة جداً إلى درجة أنها لا تشكّل أية قيمة إحصائية. وأنت تعرف جيداً أن الإحصائيات في هذه الأيام هي التي تقرّر أهمية أي إنتاج.

ـ غير صحيح. وإذا انعزل شاعرٌ في هذا الموقف فإن شعره هو أول من سيعاني من ذلك.

ـ ولكن لم يقرأ أحدٌ جاميكا جون. طبعاً بعض الأصدقاء يفعلون فعلهم، وأحياناً تسقط قصيدة على قارئ كنداء أو دعاء. أعترف أن هذا كثير، وهذا يكفي حتى من أجل الاستمرار. وبالنسبة إليك لا تظننّ أنكَ مضطرّ لتطلب مني خربشاتي. ربما أعرتكَ إياها ذات يوم من تلقاء نفسي. أليس هذا أفضل؟

ـ بلى، إذا أتى ذاك اليوم.

ـ الأمر يتعلّق بنا. أنا أميل إلى التفاؤل، ولكن هل نعرف ما يخبّئه لنا الغد؟ كما تقول السيدة تريخو. هل رأيتَ شكلها؟ تلك المسكينة؟

قال لوبيز وهو لا يشعر بأية رغبة في التحدّث عن السيدة تريخو:

ـ أنا أشفق عليها. إنها تشبه رسوم مدران كثيراً. ليس مدران صديقنا، بل مخترع الغرافودرام. لقد تبادلت بضع كلمات مع ابنتها المراهقة التي كانت تتأمّل الأفق وهي جالسة على درج سطح السفينة. سوف تسأم تلك الصغيرة هنا.

ـ هنا وغير هنا. لا تذكّرني بسن الخامسة عشرة وبالساعات أمام المرآة... وبكل الأشياء المثيرة للفضول، وبتلك الأخبار المغلوطة والتفاهات والملذّات المغلوطة هي الأخرى. هل تحب روايات ليسموند ريهمان؟

ـ نعم، بعضها. ولكني أفضّلكِ أنتِ، أفضّل أن أستمع إليكِ وأنتِ تتكلّمين، وأن أتأمل هاتين العينين. لا تضحكي، عيناك موجودتان وليس لهما أي دواء. طوال فترة الظهيرة وأنا أفكّر بشعرك، حتى عندما كنا في تلك الممرات اللعينة في الأسفل. كيف يصبح شعرك عندما يتبلّل؟

ـ يشبه خشب بنما المسلوق أو البورتش، إنه مقرف جداً. هل يعجبك شَعري حقاً يا جاميكا جون؟ لا تعتمد عليّ كثيراً، اسأل راؤول، إنه يعرفني جيداً. لديّ سمعة سيئة بين أولئك الذين يعرفونني لأني أشبه السيدة التي بلا رحمة، أنا أبالغ طبعاً؛ إن ما يجعلني أخطئ هو أنني أبالغ في الشفقة على نفسي وعلى الآخرين. أضع قطعة نقود في كل يد ممدودة ويبدو أن ذلك سيء مع مرور الزمن. لا تتخذ هذه الهيئة الآسفة، فأنا لن أروي لكَ قصة حياتي.

ماقمتُ به هذا الصباح هو إفشاء كثير من الأسرار إلى الجميلة، الجميلة والطيبة جداً كلوديا. إن كلوديا تعجبني كثيراً؛ وأنت، قل إنها تعجبك يا جاميكا جون.

ـ كلوديا تعجبني. إنها تستخدم كولونيا رائعة ولها طفل رائع، وكل شيء لديها جيد، بما في ذلك هذا الجِن فريز.

أضاف وهو يضع يده على يد باولا التي لم تسحبها:

ـ لنشرب كأساً آخر.

قالت بيبا:

ـ يمكنك أن تعتذر، فقد مشيتَ على تنّورتي. بخفّك القذر.

صفر فيليبي لحناً من المامبو ثم قفز إلى سطح السفينة. لقد تعرّض طويلاً لأشعة الشمس بعد السباحة، والحمى تحرق كتفيه وظهره ووجهه. ولكنّ هذا جزء من الرحلة، وهواء المساء المنعش يملؤه سروراً. لم يعد من أحد على سطح السفينة ما خلا المسنّين الثلاثة جالسين هناك في الطرف. اختبأ خلف إحدى المداخن وأشعل سيجارة وهو ينظر نظرةً ساخرة إلى بيبا التعبة وهي تجلس على درج سطح السفينة. مشى بضع خطوات ثم استند إلى الدرابزين. البحر يشبه، يشبه... البحر كقطعة كريستال مغطّاة بالقصدير. وذلك الفريليش المخنّث ينشدها أمام عيني مدرّس الأدب المعجبتين. اذهب، يازهرة المبولة. الأول على صفه، ذلك المخنّث القذر. «أنا يا سيدتي، سأذهب ياسيدتي، نعم يا سيدتي، هل تريدين طباشيراً ملوناً ياسيدتي؟» والمدرسات مجنونات بهذا المخنُث، عشرة على عشرة في كل المواد. لحسن الحظ أنه لم ينل من المدرّسين بهذه السهولة. ومع ذلك هناك أربعة يقدّرونه حق قدره، ومع ذلك إنه يحصل أحياناً على عشرات. كان يمضي أوقاته كلها في الدراسة، يكفي النظر إلى عينيه المحاطتين بالسواد. ومع ذلك، ليس هذا سبب ذلك. فقد روى

دورونتي أنه رأى فريليش في المدينة رفقةَ شخصٍ أكبر منه سناً لا بد أنه يملك المال. لقد شوهدا ذات ظهيرةٍ في صالون الشاي *سانتا في*، وكان فريليش أحمر اللون تماماً... لا بدّ أن الآخر كان الذكر بالتأكيد. إنه يعرف جيداً كيف كانت الأمور تجري منذ مساء احتفال طلاب الصف الثالث. كانوا قد مثّلوا مسرحية يلعب فيها دور الزوج. في الاستراحة بين الفصلين دنا منه ألفييري وأسرّ له في أذنه: «انظر إلى فيانا كم هي جميلة!» وكانت فيانا صبياً في الصف الثالث ج. إنه أكثر تخنّثاً من فريليش، إنه من أولئك الذي يسمحون للآخرين بمداعبتهم وبدغدغتهم أثناء الاستراحات، ومن الذين يتلوّون لذةً عندما يُلمَسون. ولكن، بالإضافة إلى ذلك، يجب الاعتراف بأنه شخص جيد، كريم، جيوبه دائماً مليئة بالسجائر الأمريكية ودبابيس ربطات العنق. تلك المرة كان فيانا يلعب دور فتاةٍ وكان قد تمكيج بشكل مثير جداً. كم استمتع بينما هم يمكيجونه! لقد تجرّأ وذهب إلى المدرسة مع بقايا ريميل على أهدابه. يا لها من حصة! فقد استُقبل بالصفير والصيحات والأصوات الحادة والمعانقات التي لم تخل من بعض القرصات والرفسات. ولكن في ذلك المساء كان فيانا سعيداً جداً، وكان ألفييري ينظر إليه ويقول: «انظر كم هي جميلة، إنها تشبه صوفيا لورين!». وألفييري أيضاً، هذا الشخص الغريب المضحك، صارم الهيئة، يعرف قدر نفسه، ولكن فجأةً، إذا لم يكن أحدٌ منتبهاً، يضع يده على ظهرك ويسألك بابتسامة على زاوية فمه: «هل تحب النساء أيها الصغير؟» وينتظر الجواب ساهماً وعيناه نصف مغمضتين. وعندما أتى فيانا إلى الكواليس ليلقي نظرةً قلقة وفاقدة الصبر، قال ألفييري لفيليبي: «انظر جيداً، سترى من تنتظر». وبعد لحظة أتى شخصٌ قصير القامة، ضخم الجثة، يرتدي بزّة رمادية ومعطفاً من الغابردين منفوخاً مع فولار من الحرير وخاتماً من الذهب. كان فيانا ينتظره بفارغ الصبر ويده على كشحه كصوفيا لورين تماماً، في حين أخذ ألفييري يهمس في أذن فيليبي: «إنه صانع بيانوهات يا صديقي. هل تدرك الحياة التي تجعله يعيشها؟

ألا ترغب في أن يكون معك مال كثير وأن يأخذوك بالسيارة إلى التيغر أو مار دو بلاتا؟». لم يجب فيليبي المأخوذ بالمشهد الذي يجري أمامه. كان فيانا وصانع البيانوهات يتكلّمان بحيوية. بدا الآخر وكأنه يلومه على أمرٍ ما، عند ذلك رفع فيانا تنورته ونظر إلى حذائه النسائي الأبيض مستغرباً. في تلك اللحظة، قال ألفييري: «إذا كنتَ ترغب نخرج في إحدى هذه الأمسيات. سوف نمرح، وسوف أعرّفكَ بنساء كثيرات إذ لا بد أنهن بدأن يشغلنك، إلا إذا كنتَ تفضّل الرجال، لا أعرف». وضاع صوته بين ضربات مطرقة مسؤول المسرح وجلبة الجمهور. تخلّص فيليبي ببطء من تطويق ذراع ألفييري لكتفه وقال إنه يجب عليه أن يحضّر نفسه للفصل الثاني. مازال يتذكّر رائحة نفَس ألفييري العابقة بالتبغ الأشقر، ووجهه اللامبالي ذا العينين نصف المغمضتَين الذي لا يرتبك أبداً أمام المدرسين ولا أمام المدير. لم يعرف أبداً رأيه بألفييري، أحياناً يقول إنه رجل مولع بالنساء، فقد سمعه يتحدّث مع طلاب في صف الشهادة خلال الاستراحات: كان يقول إنه صاحَبَ امرأةً متزوّجة، وأخذها إلى شقة مفروشة، في البداية كانت خائفة من زوجها المحامي، وبعد ذلك مارسا الحب طوال ثلاث ساعات، وبقيت الكلمة تترجّع في باله بين الفينة والأخرى. كان ألفييري يتباهى بانتصاراته التي لا نهاية لها، لم يتركها تنام لحظة واحدة، لم يكن يريدها أن تنجب أطفالاً منه لذا كانا يأخذان جانب الحيطة. ولكن ذلك كان يستدعي باستمرار جملةً من التعقيدات والتغييرات السريعة خلال الظلمة، وشيءٌ ما يطير وينسحق على الباب أو على الجدار بصوتٍ مبلّل، وفي المساء تصبح حال الغرفة مزرية، ولا بد أن الخادم تثور ثائرته... كانت معاني بعض الكلمات تفرّ من فيليبي، ولكن هذه أمور لا يُسأل عنها، سوف تُفهَم ذات يوم، وهذا كل ما في الأمر. لحسن الحظ، لم يكن أوردونييث بخيلاً بالأسرار، وهو يكثر من إعطاء التفاصيل والرسوم والكتب التي ما كان فيليبي ليجرؤ على شرائها، ولا على إخفائها في غرفته مع هذه الفضولية بيبا التي

تحشر نفسها دائماً فيما لا يعنيها وتحبّ أن تحشر أنفها في دروجه. الأمر الذي يغضبه هو أن ألفييري لم يكن أول من لاحقه، هل له شكل لوطي؟ ثمة أشياء غير واضحة في هذا. فألفييري لا يبدو عليه ذلك أبداً... ولا علاقة له بفريليش وفيانا اللذين من الواضح أنهما «لوطيان حقيقيان» والصبيان الذين يختارهم ألفييري لهم هيئة ذكورية دائماً ووسيمون مثله. هذا هو النموذج الذي يعجب ألفييري وليس المومسات الصغيرات من أمثال فريليش وفيانا. وما يزال يذكر اليوم الذي ركبوا فيه الحافلة معاً، كان ألفييري قد دفع عنه ومع ذلك تظاهر بأنه لم يرَه في الطابور، وعندما جلسا في مؤخرة الحافلة، أخذ يحدّثه عن خطيبته بطريقة طبيعية، وبأنه سيراها هذا المساء. هي معلمة، وسيتزوّجان عندما يجدان شقة. كل هذا بصوتٍ خافت، في أذن فيليبي الذي كان يصغي إليه نصف مهتم ونصف حذِر لأن ألفييري، في النهاية، مراقِب، سلطة. وبعد لحظات من الصمت، وقد بدا أن الموضوع قد استنفد، أضاف ألفييري متنهّداً: «نعم، سوف أتزوّج قريباً، ماذا تريد، ومع ذلك فإني أحب الصبيان». أراد فيليبي أن يبتعد عنه من جديد، وألا يتعرّف إليه رغم أن ألفييري كان يسرّ إليه من ندّ إلى ند. حتى عندما يتكلّم عن الصبيان، فهو لا يقصد بالتأكيد الرجالَ من أمثال فيليبي. نظر إلى ألفييري من زاوية عينه مبتسماً بصعوبة كما لو أن هذا كان أمراً طبيعياً جداً، وأنه اعتاد على الحديث في مثل هذه الأمور. قد يكون هذا الأمر في منتهى السهولة لو أنه مع فريليش أو فيانا، مع لكعة في الأضلاع أو في مكان آخر. ولكن الأمر مختلف مع ألفييري، فهو مراقب، رجل عمره أكثر من ثلاثين سنة، بالإضافة إلى أنه شهواني يصطحب نساء المحامين إلى شقق مفروشة.

فكّر فيليبي وهو يسحق سيجارته: «لا بدّ أن في أعضائهم شيئاً ما ليس على ما يُرام». منذ لحظة، كان قد ألقى نظرةً على البار ورأى باولا ولوبيز يتحدّثان. نظر إليهما بحسد. هكذا إذاً! الأب الصغير لوبيز لا يضيع وقته، يبقى أن نعرف كيف ستكون ردة فعل

راؤول. ليت لوبيز يستطيع أن يأخذ الفتاة، أن يصحبها إلى مقصورته ولا يعيدها إلا بعد أن يكون قد نام معها، مثل زوجة المحامي. وسيكون للآخر الخيار بين أن يردّ كرجل أو أن يستسلم ويضع قروناً. أخذ فيليبي يتنزّه راضياً عبر مخطّط قصته الصغيرة التي كل شيء فيها واضح جيداً وفي مكانه تماماً. وليس مثل ألفييري، فهذه الكلمات ذات المعنى المزدوج ولا يُعرَف إن كان هذا الرجل يتحدّث جدياً أم يسعى إلى شيء آخر... رأى راؤول ود. ريستيللي ينزلان الدرج فأدار لهما ظهره. إن شاء الله لا يأتي هذا ليبحث عنه... هذا بغليونه الإنكليزي. لقد بدا في منتهى القذارة معه بعد هذا الظهر. نعم، ولكنهم عادوا خائبين، فقد أخبره والده بإخفاق مهمتهم. ثلاثة رجال في سنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى المؤخرة ويروا ما يحدث فيها...

خطر ذلك بباله مباشرةً قرّر دون تفكير. بقفزتين اختبأ خلف لفّة من الحبال لئلا يراه راؤول وريستيللي. وبعد أن مرّا ركض نحو الدرج. نظرت إليه بيبا بشفقة وهي تراه ماراً من أمامها وتمتمت:

«يبدو وكأن عمره ثلاث سنوات. سيحكم علينا الناس حكماً سيئاً بسببه». التفت فيليبي من أعلى الدرج وشتمها، ثم ركض باتجاه باب الدهليز ودفعه بهدوء. كان مفتوحاً كما في السابق، والدرج خلفه. هناك، عامَله راؤول برفع للكلفة أول مرة. هذا غير معقول، حقاً هذا غير معقول. بعد أن أغلق الباب غزا المكانَ ظلامٌ أكثف من ظلام بعد الظهر: الغريب هو أنه يرى الآن المكان أكثر ظلمة بكثير رغم أن المصباح مُنارٌ كما في السابق. بعد أن وصل إلى منتصف الدرج توقّف وأصاخ بسمعه إلى الأصوات الآتية من الأسفل. الآلات تطرق بقوة، وتصاعدت رائحة تشبه رائحة الشحم والقطران. هنا تحدّثا عن فيلم *السفينة الشبح* وهنا قال راؤول إنه كان على بعض... وبعد ذلك، قَبِل أنه ليس من المضحك أن يتحمّل فيليبي أسرته. ما يزال يتذكّر كلامه جيداً: «كنتُ أفضّل أن تأتي وحيداً. ماذا يعنيه أن

أكون وحيداً أم لا... فُتح الباب اليساري، وبقي الآخر مغلقاً كما في الصباح، ولكن سُمِعت ضربات في الحجرة. بقي فيليبي جامداً أمام الباب وقد سال العرق على جبينه فمسحه بكم قميصه. تناول سيجارةً أخرى وأشعلها بسرعة. سوف يريهم، أولئك الصبيان الثلاثة المساكين.

28

قالت السيدة تريخو: «في الشهر الماضي أنهتْ سنتَها الخامسة في الكونسرفاتوار مع تهاني لجنة التحكيم، والآن سوف تبدأ عملها بوصفها عازفة حفلات موسيقية».

بدا تأثّر دونيا روزيتا ودونيا بيبا واضحاً. فدونيا بيبا كانت تفضّل أن تكمل ابنتها نيللي دراستها في الكونسرفاتوار لكن هذه الصغيرة لم تسمعِ كلامها. ومع ذلك فإن لديها بعض المواهب: عندما كانت صغيرة جداً، كانت تحفظ كل التانغوهات التي تسمعها، وكانت تُمضي ساعات طويلة في سماع برامج الموسيقا الكلاسيكية في الإذاعة. ولكن عندما كان الأمر يتعلّق بالدراسة، فلا.

ـ ومع ذلك، صدّقيني يا سيدتي أني لطالما كرّرت ذلك على مسامعها. وناضلتُ كثيراً، لو أحكي لكِ... ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ فهي لا تحب الدراسة.

ـ بالتأكيد يا سيدتي، إنها ليست مثل بيبا، فهي تُمضي ثلاث ساعات يومياً على البيانو، وأؤكّد لكِ أن هذا تضحيةٌ من قبل زوجي ومن قبلي، ففي النهاية، من المتعب سماع كل هذه الساعات من البيانو في بيت صغير. ولكننا كوفئنا عندما نجحت الصغيرة في امتحانها بتقدير. إن تسمعيها... وربما جعلوها تعزف في إحدى هذه السهرات، فغالباً ما يكون هناك فنانون يقيمون حفلات موسيقية خلال هذه الرحلات الطويلة. بالطبع لم تجلب بيبا النوطات الموسيقية

معها ولكنها تحفظ عن ظهر قلب *البولونيز* وضوء *القمر*، فهي تواصل عزفهما حتى الآن... لستُ لأني أمها، ولكنها بالفعل تعزفهما بإحساس!

ـ الموسيقا الكلاسيكية ليست في متناول الجميع. إنها ليست كموسيقا هذه الأيام، وهذه الأشياء التي تذاع في الإذاعة ليست إلا ضجيجاً. أنا عندما أسمعها سرعان ما أقول لزوجي: «غيّر المحطة يا إنزو بسرعة، فقد بدأتُ أحسّ بألمٍ في رأسي». أرى أن من الواجب منع إذاعة هذه الأشياء.

ـ نيللي تقول إن موسيقا اليوم لا تشبه أبداً موسيقا أيام زمان مثل بيتهوفن وغيره.

ـ وهذا ما تقولها بيبا أيضاً، وهي قادرة على الحكم، كما ترين. في هذه الأيام يوجد كثير من الموسيقا الحديثة، وقد كتب زوجي مرتين للإذاعة يدعوهم إلى تغيير برامجهم، ولكن أنتِ تعرفين الأمر مع كل هذه الخربطات... كيف حالكِ يا ابنتي؟ أرى أن هيئتكِ ليست على ما يرام.

نورا بخير لكن ملاحظة السيدة تريخو أربكتها. بينما كانت مارّةً في قاعة المطالعة وقعت على مجموعة النسوة، ولم تعرف كيف تتصرّف لكي تعود إلى البار. وجب عليها أن تجلس معهن وتبتسم كما لو أنها سعيدة جداً. تساءلت ما إذا كان على وجهها شيءٌ ما يعطي هذا الانطباع... ولكن لا، هذا مستحيل. قالت:

ـ لقد شعرت قليلاً بدوار البحر بعد الظهر، ولكن لا بأس. لقد ذهب مع الدرامامين. وأنتنّ هل تعافيتنّ تماماً؟

أجابت النسوة بأن هدوء البحر في هذا المساء يسمح لهن بتناول الشاي بالحليب، ولكن إذا عادت السفينة إلى الاهتزاز مثل الظهر... آه، كم كان الشبان مثلها سعداء! إنهم لا يفكّرون إلا بالاستمتاع، فهم لم يخبروا الحياة بعد. طبعاً، عندما يسافر المرء

مع شاب بلطافة لوسيو فلا بد أن يرى الحياة وردية. هذا أفضل بالنسبة إليها، تلك الصغيرة المسكينة. وفي النهاية الأمر أفضل الآن، فلا أحد يعرف ماذا يخبّئ له الغد. في الأخير مادام الإنسان بصحة جيدة...

سألتها السيدة تريخو وهي تنظر إليها بإمعان:

ـ لا بدّ أنكما متزوّجان منذ وقت قصير، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدتي.

شعرت نورا بأنها ستحمرّ خجلاً ولكنها لا تعرف كيف تخفي ذلك. أخذت العجائز الثلاث ينظرن إليها بابتساماتهنّ الخبيثة وأيديهن الرخوة متصالبة فوق بطونهن البارزة. «نعم يا سيدتي». وتظاهرت بأنها أصيبت بنوبة سعال قوية، فسألتها النسوة إن كانت مصابة بالرشح، ونصحتها دونيا بيبا بالتدليك بالفابوروب. عانت نورا في إخفاء كذبتها وجبنها؛ عدم تمكّنها من مواجهة السؤال. لوسيو قال أكثر من مرة: «ماذا يهمّني ما يفكّرن به عنا مادمنا سنتزوّج. هذا أفضل دليل على الثقة يمكنكِ أن تقدّميه لي. ثم يجب أن نناضل ضد الأحكام البورجوازية المسبقة». ولكنها لا تستطيع، والآن أكثر من أية مرة في السابق. «نعم يا سيدتي، ليس منذ وقت طويل».

قالت السيدة روزيتا إنها لا تطيق الرطوبة، وإنها ما كانت لتبقى في جزيرة مارسيل لولا عمل زوجها. وأسرّت للسيدة تريخو التي تواصل النظر إلى نورا: «أنا أعاني من نوعٍ من الروماتيزم يصيب جسمي كله، ولا أحد يستطيع أن يخلّصني منه مع أني راجعت كثيراً من الأطباء. بل إني استقدمتُ بانتاليون الشافي الذي اشتهر بهذه الأمور، ولكن لا شيء. الرطوبة دائما تُضرّ العظام، وتترك في جسمكِ نوعاً من الوديعة، وبعد ذلك، مهما حاولت التطهّر منها وأخذتِ من الهيباتوم، لا فائدة». وجدت نورا الفرصةَ مناسبةً للفرار

فنهضت وهي تنظر إلى ساعتها وكأن لديها موعداً. تبادلت دونيا بيبا والسيدة تريخو إشارة ذكاء وابتسامة. لقد فهمتا، بالطبع لقد فهمتا... هيا يا ابنتي، لا بدّ أنه ينتظرك. أسفت السيدة تريخو على ذهاب نورا، فقد كانت في صفّها أكثر من هاتين السيدتين، صحيحٌ أنهما لطيفتان، ولكن تلك المسكينتين أدنى منها. بدأت السيدة تريخو تشكّ في أن لديها عالماً كبيراً تستطيع التكلّم معه خلال هذه الرحلة، الأمر الذي أثار قلقها. لم تكن أم الطفل الصغير تتكلّم إلا مع الرجال. لا بدّ أنها فنانة أو روائية لأن الأمور النسوية حقّاً لا تعنيها، فهي تدخّن باستمرار وتتحدّث في موضوعات غير مفهومة مع مدران أو لوبيز. أما الأخرى، الفتاة الصهباء، فثقيلة الظل وأصغر من أن تفهم الحياة، ولا يمكن التحدّث معها بأحاديث جادة. وطريقتها في التنزّه بالبيكيني، هذا البيكيني الأكثر لا أخلاقية، ومغازلة الجميع بمن فيهم فيليبي. يجب أن تكلّم زوجها في هذا الأمر. وماذا لو سقط ابنها الصغير بين براثن هذه الساحرة؟ تذكّرت عيني السيد تريخو عندما تمدّدت باولا على حافة المسبح لتأخذ حماماً شمسياً. لا، إنها ليست رحلة كما كانت قد تصوّرتها.

فتحت نورا باب مقصورتها. لم تتوقع أن تلقى لوسيو فيها، بل ظنّت أنه على سطح السفينة. كان جالساً على حافة السرير ينظر في الفراغ. سألته:

- بم تفكّر؟

لم يكن لوسيو يفكّر في شيء على الإطلاق ولكنه قطّب حاجبيه وكأنها أخرجته من تفكير عميق. ثم ابتسم لنورا ودعاها لتجلس بجانبه. تنهّدت بحزن. لا، إنها لا تشعر بشيءٍ خاص... نعم لقد ذهبت إلى البار وتحدّثت قليلاً مع النسوة الثلاث السِّمان... عن كل شيءٍ تقريباً. لم تفرج شفتيها عندما احتوى لوسيو وجهَها بيديه وقبّلها.

ـ أنتِ لستِ على ما يرام يا حبيبتي؟ لا بدّ أنكِ متعَبة...

توقّف وقد خشي أن ترى في ذلك تلميحاً ما. ولم لا، ففي النهاية، بالتأكيد هذا أمر متعب ككل تمرين عنيف. هو الآخر يشعر أنه متعَب، ولكن هذا ليس بالتأكيد بسبب... قبل أن يتيه في أحلام يقظته، فكّر من جديد بالاجتماع في مقصورة راؤول. لقد احتفظ منه بطعم مرّ في فمه. كان يفضّل لو أن حادثاً غير منتَظر أتاح له الانضمام إلى عصابة الأصدقاء الثلاثة التي استُبعد منها فجأة. ولكن في النهاية لقد أحسن صنعاً، فقد كان من الغباء اصطناع روايات بوليسية وتوزيع مسدسات. لمَ أرادوا أن يخرّبوا الرحلة منذ اليوم الأول؟ طوال بعد الظهر وهو يرغب في التحدّث مع واحد منهم، خاصةً مع مدران الذي يعرفه سابقاً والذي يبدو الأكثر تعقّلاً بينهم، ويقول له إنهم يستطيعون الاعتماد عليه تماماً إذا ما ساءت الأمور (الأمر غير المتوقّع)، ولكنّ إثارة المتاعب أمر غير مفيد وخطر. يالها من مجموعة مجانين! هذا بدلاً من أن يلعبوا معاً طابق بوكر.

نهضت نورا وهي تزفر وأخرجت فرشاة شعر من حقيبتها، ثم قالت:

ـ لا، أنا لستُ تعبة. أشعر أنني بأحسن حال. لا أعرف، أعتقد أن ذلك لأن هذا هو اليوم الأول في الرحلة.

ـ نعم، يجب عليكِ أن تنامي جيداً هذه الليلة.

ـ طبعاً.

أخذت تمشّط شعرها ببطء، ولوسيو ينظر إليها. فكر: «والآن سأراها هكذا كل يومٍ تمشّط شعرها».

ـ من أين يمكن إرسال رسالة إلى بوينس آيرس؟

ـ لا أعرف. من بونتا آريناس بلا شك. أعتقد أننا سننزل فيها. هل ستكتبين رسالةً إلى أهلك؟

ـ طبعاً، لا بدّ أنهم قلقون... صحيح أني تركتُ لهم ورقة أقول

فيها إني ذاهبة في رحلة، ولكن أنتَ تعرف الأمهات، إنهن يتخيّلن أشياء وأشياء.. ربما من الواجب عليّ أن أكتب لأختي أولاً، وهي ستشرح لهما كل شيء.

ـ أعتقد أنكِ ستقولين لهم أنكِ معي.

ـ نعم، على أية حال هم يعرفون ذلك، فأنا ما كنتُ لآتي بمفردي.

ـ هذا سيُفرح أمكِ، إني أرى ذلك من هنا.

ـ ماذا أفعل، لا بد أن تعرف يوماً، ولكني أفكّر بأبي... إنه حسّاس جداً، وأنا لا أريد أن أسبّب له الألم.

ـ ها قد عدنا، الألم! ولماذا سيتألّم والدك من فضلك؟ لقد ذهبتِ معي وأنا سأتزوجك. لا أرى شيئاً رهيباً في ذلك. لماذا تتحدّثين عن ألم وكأن هناك مأساة.

ـ لا، ولكن أريد أن أقول إن أبي طيب جداً...

قال لوسيو بمرارة:

ـ سئمتُ من كل هذه الحساسية. لقد فلقتِني بها، أنا الذي هدم سعادة بيتكم، وإلي يرجع السبب إذا ما طار النوم من عيني أبويكِ المقدّسَين.

ـ أرجوكَ يا لوسيو، أنا لا أقصدك أنتَ، أنا التي اخترتُ ما قمنا به، وأنا التي اخترتُ أن أتبعكَ بكامل حريتي.

ـ نعم، ولكنهم لا يريدون أن يفهموا ذلك، وسأكون دائماً ذلك الدون جوان المقيت الذي خرّب عليهم سهراتهم وطوابق اللوتو. العمى في الآخر.

لم ترد نورا. اهتزّت المصابيح قليلاً. فتح النافذة، أخذ يسير طولاً وعرضاً ويداه خلف ظهره، وأخيراً اقترب من نورا وقبّلها على عنقها.

ـ جعلتِني أتفوّه بحماقات. أعرف جيداً أن الأمر سيسوّى ولكن لا أعرف ما بي اليوم، إني أرى كلّ شيء أسود. في الواقع إننا لا نستطيع أن نفعل غير ذلك إذا ما أردنا أن نتزوّج. إما أن نذهب معاً أو تثير أمكِ مصيبة.

قالت نورا بصوت خافت:

ـ كان بوسعنا أن نتزوّج من قبل.

ـ ولماذا نتزوّج من قبل؟ نتزوّج أمس؟ ولماذا؟

ـ أقصد...

تنهّد لوسيو، ذهب ليجلس على السرير، ثم أضاف:

ـ صحيح، لقد نسيت أن الآنسة كاثوليكية. بالتأكيد كان بوسعنا أن نتزوّج أمس، ولكن ذلك سيبدو عملاً غبياً. كنا سنضع شهادة الزواج في جيبنا، هذا كل ما في الأمر. أنتِ تعرفين أني لا أريد أن أتزوّج في الكنيسة. في البلدية ما دمتِ تريدين ذلك، ولكن خلّصيني من غربانك. أنا أيضاً أفكر بأبي. مات ومع ذلك أفكّر به، ماذا تظنّين؟ عندما يكون الإنسان اشتراكياً يبقى اشتراكياً مدى الحياة.

ـ طيب، طيب يا لوسيو، أنا لم أطلب منكَ أبداً أن نتزوّج في الكنيسة، أنا أقول فقط...

ـ أنتِ تقولين ما يقلنه جميعاً. إنهن يشعرن بخوف رهيب من أن يتركهن الرجال بعد أن يناموا معهن. لا داعي لأن تنظري إليّ هكذا. لقد نمنا معاً؟ لم نقم بذلك وقوفاً، أليس كذلك؟

أغمض عينيه. غزاه شعور بأنه تعيس وقذر، ثم أضاف:

ـ لقد جعلتِني أقول كلاماً مشرّفاً، يا حبيبتي. أرجوكِ أن تفكّري بأن لديّ ثقة كبيرة بكِ، أنا أيضاً، وبأني لا أريد أن تخيّبي أملي، لا أريد أن أكتشف أنكِ مثل الأخريات... هل كلّمتكِ سابقاً عن ماريا ـ إستير؟ أريدكِ أن تكوني مثلها وإلا...

وإلا يجب على نورا أن تفهم أنه قد يتركها كما ترك ماريا إستير. لقد فهمته جيداً ولكنها لم تقل شيئاً. ما يزال وجه السيدة تريخو ماثلاً أمامها وحشياً ومبتسماً. ولوسيو يتكلّم ويتكلّم وهو يزداد عصبيةً. بدأت تدرك أن هذه العصبية آتية من شيء أبعد من حديثهما، إنها آتية من شيء آخر. وضعت الفرشاة على الطاولة وعادت لتجلس بجانبه. وضعت رأسها على كتفه ثم أخذت تتمسّح بذراعه بهدوء. همهم لوسيو بضع كلمات لكنها همهمةٌ راضية. اقترب وجهاهما ببطء والتحم فماهما. داعب لوسيو خصر نورا طويلاً، أخذت تبتسم ويداها متقاطعتان على ركبتيها. جذبها إليه بعنف. طوّقها بذراعيه وقلَبها على السرير. حاولت التملّص وهي تضحك. رأت وجه لوسيو فوقها، قريباً جداً بحيث أنها عانت في تبيّن عينيه. قال لها:

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة!

ـ أيها الغبي الكبير!

عبرت يد لوسيو مساحة جسدها وأيقظته. غزاها انطباعٌ رائع بأنها لم تعد تخاف منه. لم يكن الأمر بهذه السهولة، ولكنها لم تعد تخاف. أما بالنسبة إلى الزواج الديني... حاولت أن تقاومه وغطّت وجهَها بيديها، بدَت في غاية الخجل، ولكن المداعبة العميقة حملت إليها الشفاء وملأتها برغبةٍ، وبتسرّعٍ محا كلَّ خجل لديها. لم يكن هذا جيداً، لم يكن هذا جيداً. لا يا لوسيو، لا، ليس هكذا. وأغمضت عينيها وهي تئن.

في الوقت نفسه أعلن خورخي P4R، وبعد أن فكّر بيرسيو طويلاً، أجاب C2R. ردّ خورخي بعنف DIT، فلم يكن من بيرسيو إلا أن ردّ R4C. القطع البيض سدّت عليه D5C، وارتعشت البيادق السود وتردّدت (قال بيرسيو لنفسه: «إن نبتون يتخلّى عني».) ثم حزمت

أمرها من أجل P6C، مرّت لحظة من التوقّف ملأها خورخي بصراخه الحاد، ترك D4C ثم نظر إلى بيرسيو نظرةً ساخرة. وعندما أتى الردّ C4R، ما كان من خورخي إلا أن لعب D5A، وربح الدور رافعاً يديه. ثم قال بفخر:

ـ مسكين يا بيرسيو، لقد قمتَ بمزحة في البداية، والنهاية لم تعرف كيف تخرج منها.

قال د. ريستيللي الذي كان قد شهد اللعبة واقفاً:

ـ جيد، لقد لعبتَ دفاع نيمزوفيتش جيداً.

نظر إليه خورخي من طرف عينه. سُمع صوت الصنج من بعيد فسارع بيرسيو إلى جمع بيادقه.

قال د. ريستيللي:

ـ هذا الطفل خصم قوي جداً. من ناحيتي، من دواعي سروري الكبير، رغم قدراتي المتواضعة، أن ألعب معكَ دوراً يا سيد بيرسيو.

قال خورخي:

ـ احذر بيرسيو. صحيح أنه يخسر دائماً، ولكن لا أحد يعرف...

فتح الباب بسرعة وسيجارته بين شفتيه. البحّار كبير الكرش يضرب أحد السيور بمطرقة خشبية. كان وحيداً، وكانت الأفعى الزرقاء على ساعده تصعد وتنزل بتواتر.

ودون أن يتوقّف عن الطرق (بحق الشيطان، لماذا يطرق سيراً هذا الحيوان؟)، نظر إلى فيليبي الذي أغلق الباب خلفه وأخذ ينظر إليه هو الآخر ويداه في جيبي بنطاله الجينز الأزرق. مكثا بضع لحظات يدرسان كلٌّ منهما الآخر. وسُمع صوت آخر طرقة صماء للمطرقة الخشبية على السير (الضخم يريد أن ينعّم السير، ولا بدّ أنه

يريد أن يتمنطق به ليسند كرشه.) واستراحت الأفعى على الطاولة بعد قفزةٍ أخيرة.

قال فيليبي ودخان سيجارته يخز عينيه، وما كاد ينزع سيجارة الكاميل من فمه حتى عطس. وإن هي إلا لحظة حتى صار يعاني من الرؤية من خلال دموعه. يا للسيجارة اللعينة! متى سيتمكّن من التدخين بشكل جيد دون أن يضطرّ إلى نزع السيجارة من فمه:

ـ *هولا!*

واصل البحّار النظر إليه مبتسماً ابتسامةً خفيفة من خلال شفتيه الغليظتين. بدا وكأنه رأى من المضحك أن يستطيع الدخان إسالة دموع فيليبي. عاد إلى تدوير السير بهدوء، وأخذت يداه الضخمتان تتحركان كعنكبوت مشعر بمهارة ودقة نسويتين تقريباً. قال أخيراً:

ـ *هاسدالا*.

كرّر فيليبي الذي شعر بأن جرأته قد غادرته وبأنه لم يعد يعرف ماذا يقول:

ـ *هولا*.

ثم دنا وتفحّص الأدوات الموجودة على الطاولة الواسعة وسأل:

ـ أنتَ تشتغل دائماً... بهذا؟

قال البحّار وهو يربط السير بسيرٍ آخر أنعم منه:

ـ سا. اجلس هنا إذا كنت ترغب.

تبينّ لفيليبي أن الرجل يستطيع أن يتكلّم لغة إسبانية صحيحة عندما يريد ذلك، فسأل:

ـ هل أنت فنلندي؟

ـ فنلندي؟ لا، ولماذا أكون فنلندياً؟ يوجد من جميع الجنسيات تقريباً هنا، إلا من الجنسية الفنلندية.

الضوء الساطع المنبعث من المصابيح المتدلّية من السقف يضيء الوجهين بقوة.

شعر فيليبي ببعض الضيق وهو جالس على طرف أحد المقاعد. واصل البحّار ربط حزامه بعناية. وبعد أن انتهى جمع مثقباً وكمّاشة، ولم يتوقّف عن النظر إلى فيليبي الذي أحسّ بأن السيجارة تقصر بين أصابعه.

قال البحّار أخيراً:

ـ أنتَ تعرف تماماً أن المجيء إلى هنا ممنوع. لقد أخطأتَ في المجيء.

ـ أوه، وما الضير إذا رغبتُ في أن آتي وأتحدّث قليلاً؟ أنتَ تعرف أن الحياة فوق مملّة.

ـ ممكن، ولكن يجب ألا تأتي إلى هنا. على كل حال بما أنكَ أتيت، فابقَ. لن يعود أورف إلا بعد زمن طويل، ولن يعلم أحدٌ بمجيئك.

قال فيليبي الذي لم يكن يفهم كثيراً ما يقوله الرجل:

ـ هذا أفضل.

وثق بنفسه أكثر قليلاً فدفع المقعد إلى جانب الحاجز ليستند إليه ثم قاطع ساقيه وبلع كمية كبيرة من الدخان. بدأ يتذوّق طعم الأشياء، وجد أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم، فقال:

ـ في الواقع، لقد أتيتُ لكي أطرح بعض الأسئلة عليك (بحق الشيطان، لماذا رفع الآخر الكلفة بينهما وليس هو؟). إن الألغاز التي تقومون بها لا تعجبني.

ـ أوه، لا يوجد أي لغز.

ـ إذاً لماذا تمنعوننا من الوصول إلى المؤخرة؟

ـ أنا لدي أوامر ويجب أن أنفّذها، ثم لماذا تريد أن تذهب إلى سطح السفينة الآخر؟ ليس هناك شيء خاص.

ـ أريد أن أرى.

ـ لن ترى شيئاً أبداً يا صغيري. ابق هنا، بما أنكَ أتيتَ ولا تستطيع أن تذهب بعيداً.

ـ لا أستطيع أن أمضي بعيداً؟ وهذا الباب؟

قال البحار مبتسماً:

ـ إذا فتحتَ هذا الباب فسأكون مضطرّاً إلى أن أشقّ رأسكَ كجوزة الهند. وبما أن لديكَ رأساً جميلاً فإن شقّه كجوزة الهند أمر يزعجني.

إنه يتكلّم ببطء وينتقي كلماته. فهم فيليبي أن كلامه ليست كلمات في الهواء وأن من الأفضل له أن يبقى هادئاً. ولكن في الوقت نفسه أحبّ ابتسامة هذا الرجل وهو يهدّد بشقّ رأسه. أخرج علبة سجائره وأعطى الرجل سيجارة لكن هذا هز رأسه وقال:

ـ هذا تبغ النساء. ستدخّن مني، إنه تبغ البحر وسترى.

غاصت الأفعى في الجيب ثم ظهرت من جديد حاملةً كيساً للتبغ ملمّعاً باللون الأسود مع دفتر ورق سجائر. قال فيليبي لا برأسه، لكن الرجل انتزع ورقة وناوله إياها، ثم انتزع ورقة لنفسه.

ـ سوف أريك، انظر. افعل كما أفعل. انظر جيداً وافعل مثلي. أترى... ضع التبغ هكذا. أخذت العناكب المشعرة تدور بمهارة حول اللفافة، وفجأةً اختفت الورقة والتبغ. مرّر الرجل يده أمام فمه وكأنه يعزف على الهارمونيكا، ثم ظهرت سيجارة كاملة بين أصابعه.

ـ لقد رأيت كم هذا سهل، لا، ليس هكذا، سيسقط كل شيء. خذ دخّن هذه، وسوف ألفّ لنفسي واحدةً أخرى.

وضع فيليبي السيجارة بين شفتيه وأحس باللعاب الذي كان ما يزال رطباً. كاد أن يبصق اللفافة، ولكن كان الرجل ينظر إليه مبتسماً، فهو لم يفارقه بنظره. أخرج من جيبه ولاعة مسودّة. كاد الدخان الكثيف والواخز أن يخنق فيليبي الذي اتخذ هيئة العارف.

قال له البحار:

ـ من الأفضل ألا تبلع الدخان. إنه ثقيل عليكَ قليلاً. ولكن سترى كم هو مناسب للروم.

أخرج زجاجةً وثلاثة أكواب طويلة من القصدير من علبة صفيح كانت تحت الطاولة. ملأت الأفعى الزرقاء ثلاثة الأكواب وناولت واحداً لفيليبي. ثم أتى الرجل وجلس إلى جانب فيليبي على المقعد نفسه ورفع كوبه قائلاً:

ـ here's to you[*]، يا صديقي، لا تشربه دفعةً واحدة.

ـ هممم. إنه لذيد. لا بدّ أنه من روم جزر الأنتيل.

ـ وماذا إذن، وهكذا لقد أعجبكَ رومي وتبغي، ما اسمك؟

ـ تريخو.

ـ ولكن هذا ليس اسماً، إنه اسم شهرة.

ـ اسمي فيليبي.

ـ فيليبي، عظيم جداً، وكم عمرك؟

كذب فيليبي قائلاً وهو يغطّي وجهه بالكوب:

ـ ثماني عشرة سنة. وأنت ما اسمك؟

ـ بوب. نادِني بوب. لدي اسمٌ آخر، ولكنه لا يعجبني.

ـ لا بأس، قله لي، فقد قلتُ لكَ اسمي.

(*) إليك هذا. م.

ـ أوه، وأنتَ أيضاً ستجده بشعاً. تخيّل اسماً مثل رادغليف، لن تجده جميلاً. أنا أفضّل بوب. Here's to you.

ـ بروسيت، هممم... نحن بخير هنا.

ـ نعم، نحن بخير.

ـ هل هناك عمل كثير على متن السفينة؟

ـ يعني... من الأفضل لك ألا تشرب يا صغيري. ارمِ السيجارة أيضاً.

سأل فيليبي غاضباً:

ـ لماذا؟ لا، تماماً في الوقت الذي بدأت أحب ذلك. ولكن قل لي يا بوب... هذا الروم لذيذ حقاً وهذا التبغ أيضاً... لماذا يجب عليّ أن أكفّ عن الشرب؟

انتزع البحار الكوب من يد فيليبي. وضعه على الطاولة ثم قال:

ـ أنتَ حقاً شاب لطيف. من الأفضل لكَ أن تصعد. وإذا أفرطتَ في الشرب فسيعرفون...

ـ ولكن أستطيع أن أشرب كما أريد في البار.

ـ هم. مع عامل البار الذي لديكم يجب ألا تشربوا أشياء قوية جداً... ثم يجب ألا تكون أمك بعيدة عنكَ كثيراً.

بدا وكأنه يتلذّذ برؤية سحنة فيليبي المنزعجة والاحمرار المباغت الذي غزا وجهه. هيا يا صديقي، اذهب، ولنكن صديقَين. بوب وفيليبي صديقان. قال فيليبي بصوت أجش:

ـ حسنٌ. وهذا الباب؟

ـ انسَهُ يا فيليبي، ولا تغضب. متى تستطيع أن تعود؟

ـ ولماذا سأعود؟

ـ لكي تشرب الروم وتدخّن وتتحدّث معي في مقصورتي حيث لا يزعجنا أحد. هنا، يمكن أن يعود أورف بين لحظة وأخرى.

قال فيليبي وهو يغمض عينيه نصف إغماضة:

ـ أين هي مقصورتك؟

قال بوب وهو يشير إلى الباب الممنوع:

ـ هنا. يوجد ممر يؤدي إلى مقصورتي، قرب الفتحة الخلفية.

29

دُق الصنج وسط فصلٍ من رواية لميغيل أنخيل أستورياس. أغلق مدران الكتاب، تمطّى على سريره وهو يتساءل ما إذا كان راغباً في تناول العشاء. النور المحجوب يدعوه إلى متابعة القراءة، لا سيما أنه يحب *رجال الذُّرة*. لقد أبعدته الرواية لبعض الوقت عن كل المستجدّات الراهنة، وأعادت إليه نظام وهدوءَ شقته في بوينس آيرس التي بدأ فيها قراءة الرواية أول أمس. نعم إنها كبيتٍ ينقله المرء معه، ولكنه لا يحبّ أن يلتجئ إلى قصةٍ لكي ينسى أن في متناول يده، هنا، وفي أحد أدراج الصّوانة، مسدّس سميث وويسون ثمانية وثلاثون. المسدس، إنه تجسيد للباقي كلّه: مالكولم وركابها وإخفاقات يومه كلها. توحّدت متعته في أن يُهَدهَد وفي أن يكون له مقصورة مريحة مع متعة الكتاب. يجب أن يحدث حادثٌ غريب تماماً، كأن يسمع عدو حصانٍ في أحد الممرات، أو أن يشمّ رائحة بخور لكي يقفز من سريره. «أنا في حال جيدة جداً للحركة». قال لنفسه هذا وهو يتذكّر وجهَي راؤول ولوبيز وهما عائدان من مهمّتهما المسائية. ربما كان لوسيو محقّاً، فمن الغباء لعب دور التحرّي. ولكن أسباب لوسيو مشبوهة ما دام شيءٌ واحد فقط يعنيه، امرأته. أما الثلاثة الآخرون، وهو منهم، فإنهم أكثر حساسية بهذا اللغز الرخيص وبهذه الأكاذيب الكبرى التي تحيط بهم. والأمر الأكثر إثارةً للحنق هو أنهم كانوا سيُبدون قدرةً أكبر على حل المشكلة لو لم يجدوا أنفسهم على متن السفينة. ملذّات كابو معروفة جداً. ملذّات

أقوى، ذات طعم شمالي من فصيلة الأرز والمرّان. لا بدّ أن راؤول ولوبيز سيقترحان خطةً أخرى للتحرّك، أو ربما هو، إذا سئم كثيراً في البار، ولكن كل ما سيقومون به قد يكون له شكل اللعبة أكثر من كونه مطلباً. كان من الحكمة أكثر لو أنهم قلّدوا بيرسيو وخورخي باللعب بالشطرنج وعدم التفكير إلا بتمضية الوقت. المؤخرة! بوف! لا شيء غير هذه الكلمة، إنها تشبه الشوربة عند الأطفال. المؤخرة، يا للحماقة!

اختار بدلةً غامقة وربطة العنق التي أهدته إياها بيتينا. تذكّر بيتينا مرتين أو ثلاثاً وهو يقرأ *رجال الذُّرة* لأنها لم تكن تحب أسلوب أستورياس الشعري ولا التجانس الاستهلالي ولا النفحة السحرية، ولا يمكن القول إن انفصاله عنها عذّبه كثيراً. بل إن الإقلاع الغامض والإخفاقات على متن السفينة شغلته كثيراً بحيث إنه لم يعد لديه الوقت ليفكّر بالماضي. في الواقع، لا شيء مثل مالكولم وركابها، عاشت المؤخرة، المؤخرة الشوربة. يمكن لبوينس آيرس أن تنتظر، لديه كل الوقت للاهتمام ببيتينا، إذا كان ذلك يهمّه، وإذا قَبِل أن يعدّ انفصاله عن بيتينا مشكلة. ولكن إذا كان هذا مشكلةً، يجب عليه أن يحلّلها كما يطيب له، في السرير، وفي الظلام، ويداه معقودتان خلف رأسه. الضيق الحالي (أستورياس أو العشاء، العشاء، ربطة العنق التي قدّمتها بيتينا، إذن بيتينا، إذن الانزعاج) ينغرس فيه كخاتمة مستبقة. إلا إذا كان عائداً بكل بساطة إلى اهتزاز السفينة أو إلى دخان التبغ الذي يملأ المقصورة. ليست هذه المرةَ الأولى التي يهجر فيها امرأةً، وكانت امرأةٌ قد هجرته هو الآخر (لكي تتزوّج من برازيلي). من السخف أن تختلط مشكلة مؤخّرة السفينة مع مشكلة بيتينا في نفسه. سيطلب من كلوديا رأيها في حالته. لا، بأية دالّة يجعل من كلوديا حكَماً؟ على أية حال، إنه ليس مضطرّاً للتحدّث عن بيتينا مع كلوديا. إنه مجرّد لقاء في رحلة، يتحدّثان، وهذا كل شيء. المؤخّرة وبيتينا، هذا سخيفٌ حقاً، ولكنه

أصبح بالفعل نقطة مؤلمة في جوف معدته. هذا سخيف، وعلى الأخص بالنسبة إلى بيتينا التي لا بدّ أنها الآن مدعوّة إلى الآمباسي. نعم، ولكن سابقاً، كانت ستبكي.

سحب مدران ربطة عنقه بحركةٍ قوية، من المستحيل أن يتمكّن من عقد ربطته بطريقة صحيحة، فلطالما كانت ربطة العنق هذه متمرّدة. علم نفس ربطات العنق. تذكّر أنه قرأ رواية جُنّ فيها الخادم من الغضب وقطّع ربطات عنق سيده كلها بضربات قوية من مقصّه. وامتلأت أرض الغرفة بأشلاء ربطات العنق، لقد كانت مجزرة من ربطات العنق. تناول ربطةً أخرى، لونها رمادي هادئ تقبل أن تُعقَد بشكل صحيح. بالتأكيد كانت ستبكي، كل النساء يبكين لأسباب أقلّ من ذلك. لا بدّ أنها أفرغت أدراج الخزانة كلها وأخذت الصور وشكت لصديقاتها عبر الهاتف. كان ذلك قدرياً، مضبوطاً كنوطة موسيقية. لا بدّ أن كلوديا فعلت مثلها عندما تركت ليوباوم، كلوديا وكل النساء. وكرّر: «كلهنّ، كلهنّ». كما لو أنه يريد أن يُسقِطَ فعلاً مختلفاً بائساً في العادية، أو كما لو أنه يريد أن يضيّع قطرة ماءٍ في البحر. فكّر: «ومع ذلك، كان جبناً». ولكنه لم يعرف ما إذا كان الجبن هو إغراق المسألة أم هجره لبيتينا. مزيد من الدموع أو قليل منها في هذا العالم السفلي... ولكن أن يكون هو السبب... حتى لو لم يكن هناك من أهمية لأي شيء من هذا، وحتى لو كانت بيتينا تمسح بعينيها واجهات شارع سانتا أو تسرّح شعرها عند مارسيل. ليست بيتينا بحدّ ذاتها هي التي تهمّه، ولا المؤخرة الممنوعة أو التيفوس 224. ولكن رغم هذا كله، يشعر بثقل في جوف معدته. ومع ذلك، فقد فتح باب مقصورته مبتسماً، وعندما وصل إلى الممر مرّر يده على شعره مبتسماً أيضاً اكتشف للتو اكتشافاً جميلاً، إنه قاب قوسين من الاكتشاف، يستشرف ما يسعى إليه ويشعر برضا من أشرف على نيل مراده. وعد نفسه بأن يعود إلى الخلف وبأن يكرّس

الساعات الأولى من الليل لإعادة التفكير بكل هذا بصورة أكثر هدوءاً.

ربما لم يكن ذلك بسبب بيتينا، بل بسبب كلوديا التي أفرطت في الحديث عن نفسها، وقالت بصوتها الأجش إنها ما تزال تحبّ ليون ليوباوم. ولكن ماذا يضيره هو إذا كانت ما تزال تحب ليوباوم، أو حتى إذا أمضت الليل كله تبكيه؟

ترك القطيفة يشرح للـ د. ريستيللي لماذا يجب على بوكا جونيور أن يفوز بمباراة نصف النهائي وذهب يرتدي ملابسه استعداداً للعشاء. ابتسم وهو يفكّر بالزينات التي سيراها اليوم على العشاء. ربما أتى أتيليو المسكين مرتدياً قميصاً بنصف كم، وسيتّخذ مسؤول المطعم تلك السحنة نصف الراضية، نصف المصدومة التي يتّخذها الخدم عندما يرون سيدهم يرتكب خطأً. تملّكته رغبةٌ في أن يعود أدراجه، وعاد إلى البار. ما إن استطاع أن يقطع فذلكات القطيفة الرياضية حتى قال وهو مارّ إن وقت ارتداء ملابس العشاء قد حان.

قال راؤول:

ـ ليس مريحاً أن نرتدي ملابسنا في هذه الحرارة. ولكن علينا أن نحترم تقاليد متن السفينة.

سأل القطيفة ساخطاً:

ـ كيف نلبس؟

ـ أقصد أن ترتدي بدلة غير مريحة وربطة عنق. إنها تضحيةٌ نقوم بها على شرف السيدات.

قال راؤول ذلك ثم خرج تاركاً القطيفة غارقاً في أفكاره. لم يكن واثقاً كثيراً من أنه أحسن صنيعاً، فمنذ بعض الوقت وهو يشعر بعدم جدوى كل هذه الأفعال. إذا كان أتيليو يريد أن يأتي إلى قاعة

الطعام لابساً قميصاً مخطّطاً فهذا شأنه. وسيُفهمه مسؤول المطعم أن ذلك غير لائق وأن الشيطان المسكين قد يُمضي لحظةً سيئةً، إلا إذا طردهم جميعاً. «أنا أتصرّف لأسباب محض جمالية وأنوي أن أعلّلها من وجهة النظر الاجتماعية. وعليّ أن أعترف بأن كل ما هو غير ملائم يضايقني. قد يكون قميص هذا الصبي المسكين قادراً على أن يخرّب عليّ طعم الهليون السائغ. تكفيني إنارة قاعة الطعام المزعجة...». وضع يده على قبضة الباب ثم تراجع. كان فيليبي قد توقّف فجأةً في وسط الممر وكاد أن يفقد توازنه. بدا محبَطاً جداً كما لو أنه لا يعرف راؤول الذي قال له:

ـ هيه! إننا لم نرَكَ طوال فترة الظهيرة.

ـ لا، أنا... أنا أحمق. لقد أخطأتُ في الممر. إن مقصورتي من الجهة الأخرى.

قال ذلك ثم استدار، فأنار الضوءُ وجهَه بقوة.

قال له راؤول:

ـ أرى أنكَ تعرّضتَ لضربة شمسٍ قوية. غداً ستصبح أحمر كسرطان النهر.

قال فيليبي بصوتٍ أراده أن يكون متغطرساً، ولكنه لم يكن مقنِعاً جداً:

ـ أوه، لا عليك. في النادي، أنا أمضي كل فترات ما بعد الظهر في المسبح.

ـ ولكن هواء ناديكَ ليس نقياً كهذا. هل أنتَ بخير؟

دنا منه راؤول ونظر إليه نظرةً ودية، ففكّر فيليبي: «لن يكفّ هذا الشخص قريباً عن إزعاجي!» ومع ذلك فإنه شعر بالغبطة لأن راؤول عاد إلى التكلّم معه بهذه اللهجة بعد ذلك الفصل السخيف الذي لعبه معه. ردّ بإيماءة من رأسه وهمّ بالابتعاد لكن راؤول لا يريد أن يذهب بهذه الطريقة فقال له:

ـ بالتأكيد، ليس لديك أي شيء ضد الحروق... تعالَ، سوف أعطيكَ شيئاً ما.

قال فيليبي وهو يسند كتفه إلى جدار الممر:

ـ لا تزعج نفسك. أعتقد أن لدى بيبا سابولان أو أية قذارة أخرى من النوع نفسه.

قال راؤول وهو يتراجع لكي يفتح باب مقصورته:

ـ ومع ذلك، تعال وخذ هذا المرهم، فهو ممتاز. ولديّ أيضاً شيءٌ آخر لك. تفضّل.

لم تكن باولا في المقصورة، لكنها كانت قد تركت المصابيحَ مُنارةً.

يبدو أن فيليبي عَزَم على ألا يتخطّى عتبة الباب. أشار إليه راؤول بأن يقترب وهو يبحث في محفظةٍ للزينة. أدرك فجأةً أنه لا يعرف ماذا يقول له لكي يتغلّب على عداوة هذا الكلب الصغير المهان. فكّر وهو يبحث في درجٍ مليء بالجوارب والمناديل: «أنا لم أسرقه. ولكن يا إلهي كم أساءَ فهم ذلك». انتصب ثم أشار من جديد إلى فيليبي بأن يدخل. خطا الفتى خطوتين إلى الأمام وأدرك راؤول أنه لا يستطيع أن ينصب قامته فقال وهو يقرّب أحد المقاعد:

ـ يبدو لي أنكَ لستَ على ما يرام.

أغلق الباب برفسة من قدمه، تنفّس مرةً أو مرتين ثم أخذ يضحك وهو يسأله:

ـ إذن، من الشمس إلى الشراب؟ وأنا الذي كنتُ أظن أنكَ تعرّضتَ لضربة شمس... ولكن ما هذا التبغ؟ إنكَ تعاقر الخمرة والتبغ الأسود.

قال فيليبي وهو يصارع غثياناً متنامياً:

ـ وماذا بعد؟ أنا لدي الحق في أن أشرب وأن أدخّن، ثم إني لا أفهم ما...

ـ طبعاً، طبعاً. أنا لا ألومك، أنتَ تعرف ذلك، ولكن الشمس مع الخمر مضرّان جداً. أستطيع أن أحكي لك... ولكنه لم يرغب في أن يحكي له، بل فضّل أن ينظر إلى فيليبي الذي شحب لونه قليلاً وراح ينظر إلى النافذة. بقيا لحظةً صامتين، لحظةً بدت لراؤول طويلةً جداً وجيدة جداً، وبدت لفيليبي مليئةً بنقاطٍ حمراء وزرقاء تتراقص أمام عينيه.

قال راؤول أخيراً وهو يضع ماسورة المرهم في يده:

ـ خذ هذا المرهم. لا بدّ أن كتفيك ملتهبتان.

فتح فيليبي قميصه بحركةٍ غريزية ونظر. هدأ الغثيان وحلّت محلَّه بعض الشيء الرغبةُ الخبيثة في أن يصمت وفي ألا يتكلّم عن بوب ولا عن كأس الروم. إليه وحده تعود أهليةٌ... بدا له أن فم راؤول يرتعش قليلاً ونظر إليه مفاجأً. انتصب راؤول مبتسماً وقال:

ـ مع هذا المرهم، تستطيع أن تنام. ثم خذ هذا أيضاً، وعدُ الحرّ دين.

أمسك فيليبي بالغليون بيدٍ غير واثقة، فهو لم يرَ قطّ أجمل منه. أدار راؤول ظهره وأخذ يبحث عن شيءٍ ما في الخزانة، ثم قال له وهو يناوله علبة صارخة الألوان:

ـ تبغ إنكليزي. لم أعد أذكر إن كنتُ قد أحضرتُ معي منظّف غليون احتياطياً، على أية حال يمكنكَ أن تستعير منظّفي عند الحاجة. هل أعجبك؟

قال فيليبي وهو ينظر إلى الغليون باحترام:

ـ نعم، بالتأكيد. ما كان عليكَ أن تعطيني هذا الغليون، إنه رائع.

ـ لهذا السبب بالضبط أعطيتُكَ إياه. ولكي تسامحني.

ـ أنتَ...

ـ اسمع، لا أعرف لماذا تصرّفتُ هكذا. لقد قلتُ لنفسي إنكَ أصغر سناً من أن أزجّكَ في مغامرة قد تكون سيئة العواقب. ولكن

فيما بعد فكّرتُ وأسفتُ. اعذرني يا فيليبي وأرجو أن نصبح أصدقاء، أتريد ذلك؟

عاد الغثيان بطيئاً وسال على جبينه عرق بارد. تمكّن من وضع الغليون وعلبة التبغ في جيبه ثم نهض متثاقلاً. مدّ راؤول ذراعه ليسنده.

همهم الشاب:

ـ أريد أن أذهب إلى الحمام للحظة.

قال راؤول وهو يسارع إلى فتح الباب:

ـ نعم، بالتأكيد.

أغلقه خلفه ثم مشى بضع خطوات في المقصورة. سمع صوت الماء يسيل في المغسلة. عاد إلى الباب ووضع يده على قبضته. فكّر: «صبي مسكين! يكاد أن يسقط». لكنه عض شفتيه، فهو يعرف جيداً أنه يكذب. إذا فتح الباب فقد يراه... ولن يسامحه فيليبي على هذه الإهانة أبداً... إلا إذا «ليس بعد... ليس بعد» وهو، الصبي المسكين، يتقيّأ في المغسلة. لا، من الأفضل تركه وحيداً. وإذا فقد وعيه؟ وإذا سقط؟ ولكنه لن يسقط، مع مرور الزمن يصبح متعِباً هذا الكذبُ وهذا البحث عن ذرائع. «لقد أعجبه الغليون كثيراً» قال لنفسه وهو يدور حول نفسه «ولكنه سيشعر بالخجل لأنه لجأ إلى حمّامي. وكما يحدث دائماً سيصبح الخجل عنيفاً، سوف يخربشني من الأعلى إلى الأسفل، حتى الغليون، ربما الغليون...»».

ظهرت بوينس آيرس كنقطة حمراء، ومن هناك كان ينطلق خطٌّ أزرق يتبع رسمَ الشاطئ بصورة موازية تقريباً. بوسع الركاب، يستطيعون، عندما يدخلون إلى قاعة الطعام، أن يتبعوا على خارطة ماخنتا ستار الخطَّ الذي اجتازته مالكولم حتى هذا اليوم. اعترف عامل البار مبتسماً بأنه هو من رسم هذا الرسم العبقري. فسأله غالو:

ـ ومن الذي أعطاكَ المعلومات؟

ـ القبطان هو الذي يرسلها إليّ. لقد كنتُ رسّاماً في شبابي، وأحبّ أن أعمل بالمنقلة والفرجار في أوقات فراغي.

أشار دون غالو إلى سائقه بأن يُحضر له كرسيّه المتحرّك، ثم نظر بطرف عينه إلى عامل البار وسأله فجأةً:

ـ وهذا التيفوس، إلى أين وصل؟

رفّ عامل البار بأهدابه وسرعان ما ظهَر ظلُّ مسؤول المطعم إلى جانبه ومسحت ابتسامة رئيس الحجّاب الطاولات الواحدة تلو الأخرى.

أجاب مسؤول المطعم:

ـ كل شيء يسير نحو الأفضل يا سيدي. على الأقل أنا لم أتلقَّ أي خبر سيء.

ثم قال لمرؤوسه الذي تظاهر بالتأخّر في قاعة الطعام:

ـ يمكنكَ أن تعود إلى البار. والآن قل لي يا سيدي، ما قولكَ في حساء الخضار كبداية؟ إنه ممتاز.

ظهر السيد تريخو وزوجته في هذه اللحظة، وخلفهما بيبا وهي ترتدي ثوباً ليس مقوّراً كما كانت تشتهي. ثم ظهر راؤول خلفهم وذهب ليجلس إلى طاولة باولا ولوبيز اللذين رفعا رأسيهما في اللحظة نفسها وابتسما ساهمَين. تناول آل تريخو لائحة الطعام بيدٍ شاردة وهم منشغلون جداً بالتعليق على التوعّك المفاجئ الذي ألمّ بفيليبي. شعرت السيدة تريخو بكثيرٍ من الامتنان للسيد كوستا لتجشّمه عناء مرافقة ابنها حتى مقصورته منادياً بيبا التي كانت مارةً بأن تنادي والديها. لقد نام فيليبي بعمق، لكن السيدة تريخو ما تزال قلقة.

قال السيد تريخو:

ـ تعرّض كثيراً للشمس يا ابنتي. فقد أمضى طوال بعد الظهر على سطح السفينة حتى صار أحمر كسرطان النهر. أنتِ لم تريه، لكن حال كتفيه مخيفة. لحسن الحظ أن هذا الشاب أعطاه مرهماً ممتازاً على ما يبدو.

قالت بيبا وعيناها تنظران إلى لائحة الطعام:

ـ لقد نسيتَ أن تقول أن رائحة الويسكي تملأ أنفه. هذا الصغير يفعل ما يحلو له هنا.

ـ الويسكي؟ مستحيل. إنها رائحة البيرة في أحسن الأحوال.

قالت السيدة تريخو:

ـ ومع ذلك عليكَ أن تقول كلمتين لعامل البار بألا يسقيه إلا الليمونادة أو عصير الفواكه. فمازال صغيراً جداً على شرب أي شيء.

قالت بيبا:

ـ إن كنتما تظنّان أنه سيطيعكما فأنتما مخطئان. لقد فات الأوان. كل القسوة لي، أما هو...

ـ أنتِ، لا تبدئي...

ـ أرأيت، ماذا قلتُ لكما؟ لو أني قبلتُ هديةً من أحد الركاب، فماذا كنتما ستقولان؟ أنا أسمعكما من هنا، أما هو فيفعل ما يطيب له. الشيء نفسه دائماً، آه، لماذا لم أولد صبياً...

سألها السيد تريخو:

ـ هدايا؟ ما قصة هذه الهدايا؟

ـ لاشيء.

ـ هيا تكلّمي يا صغيرتي. أكملي كلامكِ، منذ بعض الوقت ياأوزفالدو وأنا أريد أن أكلمك عن فيليبي. تلك الفتاة، التي تلبس البيكيني...

قال السيد تريخو:

ـ البيكيني؟ أوه، تلك الفتاة الصهباء، نعم، تلك الفتاة، حسن..

ـ حسنٌ، لقد أمضت تلك الفتاة فترة بعد الظهر بأكملها وهي تسبّل جفونها للصغير. ربما لم تتنبّه لذلك، أما أنا، أمه، فلديّ غريزة تنبئني بهذه الأمور. لا تصغِ إلى بيبا. أوه، أنتِ صغيرة جداً على فهم هذه الأمور. يا لهؤلاء الأولاد!

قالت بيبا:

ـ كانت تغازل فيليبي؟ لا تضحكيني يا أمي. وهل تظنّين أن هذه المرأة ستضيّع وقتها مع صبي مثل فيليبي؟

فكّرت بيبا: (ليته يستطيع أن يصغي لكلامي فقط، كان سيختنق من الغيظ).

سأل السيد تريخو وقد أبدى اهتماماً مفاجئاً:

ـ وتلك الهدية، ما قصتها؟

قالت بيبا بلامبالاة مدروسة:

ـ غليون وعلبة تبغ، ولستُ أدري ماذا أيضاً. ومن المؤكّد أن ثمنهما غال.

تبادل السيد والسيدة تريخو النظر، ثم ألقى الرجل نظرةً إلى الطاولة رقم 2، وبيبا تراقبهما بنظرةٍ خبيثة.

قالت السيدة تريخو:

ـ هذا السيد لطيفٌ حقاً. عليكَ أن تشكره يا أوزفالدو وأن تقول له بالمناسبة ألا يدلّل الصغير كثيراً. لا بدّ أنه حزن هو الآخر، عندما رأى فيليبي مريضاً.

لم يقل السيد تريخو شيئاً، لكنه فكّر بغريزة الأمهات الشهيرة. احتدّت بيبا وأصرّت على أن يعيد فيليبي الهدايا. فاجأتهم اللغة الفلاحية في ذلك الوقت.

عندما دخلت مجموعة بريسوتي، كادت باولا أن تنفجر ضاحكةً وهي نصف مصمّمة ونصف منزعجة بسبب التحيات الكثيرة لكل الطاولات والنظرات المواربة إلى المرايا والتعليقات المضطربة بصوتٍ خافت. نظرت إلى راؤول بطريقة ذكّرتها ببعض السهرات في مسارح بوينس آيرس أو في بعض صالونات الضاحية حيث كانا يذهبان للتسلية بخبثٍ على حساب شاعرات رائجات أو رجال كما يجب. إنه ينتظر أحد هذه الأحكام الصريحة التي تتميّز بها باولا. لم تقل باولا شيئاً لأنها شعرت بنظرة لوبيز تحطّ عليها وبأنها لم تعد ترغب في أن تلفظ الكلمة الحادّة التي وصلت إلى شفتيها. لم تكن نظرةً حزينةً ولا قلقة، بل كانت نوعاً من التأمل الهادئ والسعيد الذي كان يُعيد باولا إلى نفسها شيئاً فشيئاً، وإلى ما هو أقلّ أهميةً وأقلّ خارجيةً فيها. قالت لنفسها إنها تبقى في النهاية، هي أيضاً، باولا العابثة، باولا المنحرفة أو الخبيثة بكل بساطة. لكن عيني لوبيز استقرّتا على شكلها الأقل تعقيداً، حيث السفسطة والخفة تفقدان سبب وجودهما. الانتقال من لوبيز إلى راؤول، إلى وجه راؤول الذكي والحسّاس، كالانتقال من اليوم إلى البارحة، من إغراء أن تكون صريحةً وحقيقية إلى إغراء السقوط مرةً أخرى في كذبة الشكل البرّاقة. ولكن إذا لم تبادر إلى كسر هذه الرقابة الودّية التي بدأت تتخذها نظرة لوبيز (المسكين بعيدٌ عن الشك في الدور الذي تجعله يلعبه) فإن الرحلة قد تغدو كابوساً لا يتوقّف. لوبيز يعجبها، وتتمنى أن يكون اسمه كارلوس وألا تسووٌها لمسة يده ليدها. لم يكن يهمّها فوق الحد، فهو أرجنتينيٌ ككثيرٍ من أصدقائها متعلّم أكثر من كونه مثقّفاً، ومتحمّسٌ أكثر من كونه عاشقاً. ولديه شيء ما نقيٌ وواضحٌ بحيث أنها تجده مملاً. ولديه نظافةٌ خلُقية تقضي على كل خبث لفظي وعلى كل رغبةٍ جامحة في وصف تفصيلات زينة خطيبة أتيليو بريسوتي وسترة القطيفة الحمراء القرميدية. وهذا لا يعني أن حضور لوبيز يمنع التعليقات العابثة، فهو نفسه في هذه

اللحظة ينظر مبتسماً إلى قلادة دونيا بيبا البلاستيكية، وإلى جهود أتيليو المتوالية في ضبط فمه مع الملعقة. ولكن خلف ابتسامة لوبيز نقاء سريرة يجعل الدعابة مختلفةً تماماً. النكات معه ليست سلاحاً ذا حدّين. نعم، لا شكّ في أنها ستسأم، إلا إذا شنّ راؤول هجوماً معاكساً، الأمر الذي سيعيد التوازن. وباولا تعلم أن راؤول سيُدرك مباشرةً ما يرتسم في الجو وأن هذا سيزعجه. لقد خلّصها سابقاً من تأثيرٍ ضارّ جداً هو تأثير حكيم إلهي، وهو فوق ذلك عاشق ممتاز. لقد استطاع بجرأة وقحة أن ينسف البناء الباطني الهش الذي انطلقت بوساطته باولا إلى الاهتمام بالسماء كشامان. مسكين راؤول، إنه سيشعر بالغيرة، سيشعر بغيرةٍ ليس لها علاقة بالغيرة، سيشعر بحنقٍ لأنه لم يعد سيداً بلا منازع لذكائه ولزمانه، وفي ألا يعيش بعد الآن كل لحظة من الرحلة من التوحّد في المشاعر، وتصادف توافق الهوايات نفسها. حتى لو أن راؤول انجرف في مغامرة فإنه سيجد نفسه إلى جانب باولا وسيطالب بنصيبها من الاهتمام. ثم تتحوّل غيرته إلى خيبة أمل وسينتهي به الأمر إلى أن يهدأ لأنه كان يعرف أن باولا ستعود (ولكن هل ستعود هذه المرة؟) وعلى وجهها قصة حنين وستضع بين يديه هديةً ثقيلةً من السأم لكي يهتمّ من جديد بهذا الهر النازي والخاضع. لقد عادت بعد انفصالها عن روبيو وعن لوشو نيرا وعن الآخرين جميعاً. ثمة تناظر كامل يضبط علاقتها مع راؤول لأنه، هو الآخر، يمرّ بمرحلة الاعترافات، وعاد إليها بعد مغامرات حزينة في الضاحية وعلى الأرصفة، وشفيا جراحاتهما ببلسم الأزمان الماضية، بزمالتهما في الجامعة. بما أن كلاً منهما بحاجةٍ إلى الآخر، فكم كانت القماشة التي صُنعت منها صداقتهما معرّضة لرياح الهروبات المتناوبة! ماذا أتى كارلوس لوبيز ليفعل على هذه الطاولة وعلى هذه السفينة وفي عادتهما الوادعة في أن يذهبا معاً إلى أي مكان؟ بدأت باولا تكرهه بعنف وهو ما يزال ينظر إليها، سعيداً ينظر إليها، كبريء يدخل إلى قفص النمور. ولكنه ليس

بريئاً، وباولا تعرف هذا جيداً، وإن كان كذلك (وهو ليس كذلك) فليتدبّر أمره. النمر راؤول والنمرة باولا «مسكين يا جاميكا جون! هل ستعرف كيف تنجو بنفسكَ في الوقت المناسب؟»

ـ ما به خورخي؟

قالت كلوديا:

ـ بعض الحمى، لا بدّ أنه مكث طويلاً تحت أشعة الشمس في فترة الظهيرة، إلا إذا كان هذا خنّاقاً. أقنعتُه أن يبقى في السرير وأعطيته قرص أسبيرين، وسنرى كيف سيمضي الليل.

قال بيرسيو:

ـ أسبيرين؟ الأسبيرين رهيب. لقد تناولتُه مرةً أو مرتين في حياتي وكدتُ أموت. إنه يخرّب النظام الفكري تماماً.

اقترح مدران شرب القهوة في البار بعد أن تعشّى من غير شهيّة. صعد بيرسيو إلى سطح السفينة لكي ينقطع إلى دراساته الفلكية. وعد بأن يمرّ أولاً ليرى ما إذا كان خورخي نائماً. أنوار البار مريحةٌ أكثر من أنوار المطعم، وقُدّمت فيه قهوة ساخنة. تساءل مدران مرةً أو مرتين إن كانت كلوديا تخفي قلقها على خورخي. يريد أن يعرف ذلك لكي يساعدها، لكن كلوديا تحدّثت عن شيءٍ آخر. وعاد بيرسيو بعد حين ليقول:

ـ لقد استيقظ، ويريد أن تذهبي إليه. ما كان يجدر بكِ أن تعطيه الأسبيرين.

ـ إذن اذهب وادرس الثريا والدب الأصغر، ألا تريد أن تأتي يامدران؟ سيسرّ خورخي برؤيتك.

أجاب مدران الذي شعر بسعادة غامرة لم يشعر بها منذ ساعات طويلة:

ـ بلى، طبعاً.

استقبلهما خورخي وهو جالس على سريره وفي يده دفتر مليء بالرسوم التي وجب على مدران أن يتفحّصها ويعلّق عليها الواحدة تلو الأخرى. عيناه تبرقان، لكن الحمى كانت بسبب الشمس. أراد أن يعرف إن كان مدران متزوجاً، وإن كان لديه أولاد وأين يسكن، وإن كان مدرّساً مثل لوبيز أو مهندساً معمارياً مثل راؤول. قال إنه نام لكنه رأى كابوساً بسبب الدهنيين. نعم، لقد أحسّ بالنعاس وبالظمأ أيضاً. سقته كلوديا ثم غلّفت مصباح السرير بالأوراق وقالت:

ـ سوف نبقى هنا جالسين على المقاعد حتى تنام، ولن نتركَكَ لوحدك.

ـ أوه، أنا لستُ خائفاً، ولكن بعد أن أنام، طبعاً لا أستطيع الدفاع عن نفسي.

قال مدران وهو ينحني لتقبيله:

ـ ليس عليك إلا أن توجّه لكمةً قوية إلى هؤلاء الدهنيين. غداً سنتكلّم في أمورٍ كثيرة، نم الآن.

بعد ثلاث دقائق تمطّى خورخي، تنفّس بعمق ثم استدار نحو الجدار. أطفأت كلوديا المصباح ولم يبق إلا نور مصباح المكتب الضئيل.

قالت كلوديا:

ـ سينام طوال الليل كفرقدٍ. بعد لحظة سيتكلّم في منامه وسيقول كلمات غريبة... بيرسيو يحب كثيراً سماعه وهو يتكلّم في نومه، ويستخلص من ذلك نتائج في منتهى الغرابة.

ـ بيرسيو عرّاف. يجب أن نتوقّع ذلك. ألا تلاحظين تغيّر أصوات أولئك الذين يتكلمون أثناء نومهم؟ حتى تظنّين أنهم ليسوا هم الذين يتكلّمون...

ـ إنهم هم وليسوا هم.

ـ من المحتمل، فعندما كنتُ صغيراً كنتُ أنام في غرفة أخي

الكبير، وكان شخصاً عادياً تماماً، ومملاً إلى أبعد ما تتصوّرين. ماإن يغمض عينيه حتى يأخذ بالكلام: أحياناً يقول أموراً مدهشةً حتى إني كنتُ أسجّلها لأريه إياها في اليوم التالي. لم يصدّقني قط. المسكين، كان الأمر أكبر منه بكثير.

ـ لماذا تخيفه بهذه المرآة الغريبة؟

ـ نعم، هذا صحيح، يجب على الإنسان أن يكون بسيطاً كمكتشف الينابيع أو أن يقف بحزم في القطب المقابل لقبوله. إننا نخشى حقاً ظهورات اللاشعور بقدر ما نخشى أن نفقد هذه الأنا اليومية.

كانت كلوديا تستمع إلى تنفّس خورخي الذي أصبح أكثر هدوءاً وبطئاً. أعاد لها صوتُ مدران هدوءها. أحست بضعفٍ مفاجئ فأسبلت جفنيها بارتياح وبإنهاكٍ أيضاً. هي لا تريد أن تقبل أن تقلقها حمى خورخي فأخفت ذلك بالعادة وربما بالكبرياء أيضاً. لا، ليس لحمّى خورخي أية علاقة بالحجر الذي فُرض على مؤخرة السفينة. بدا لها أن من السخف القلق الآن. كل شيء يسير على ما يرام، حتى رائحة تبغ مدران كانت شكلاً من أشكال هذا النظام، ومن سيرورة الأمور العادية، وكذلك صوته وطريقته في الكلام الهادئة والحزينة بعض الشيء.

قالت كلوديا بعد أن تنفّست بعمق كما لتطرد أواخر الأشباح:

ـ لنكن محسنين مع هذه الأنا المسكينة، فهي عابرة جداً وأكثر هشاشةً ـ إذا ما فكّرنا بها موضوعياً ـ من أن نضعها في القطن. ألا يدهشكَ أنت أن قلبكَ يخفق دقيقةً بعد دقيقة؟ هذا الأمر لا يكفّ عن إدهاشي. أعرف تماماً أن القلب ليس الأنا، ولكن إذا توقّف... من الأفضل ألا نتطرق إلى موضوع المفارقة، فنحن لا نستطيع أن نقول شيئاً مفيداً في هذا الصدد. من الأفضل البقاء في الجهة البسيطة من الحياة والتي هي مدهشة أيضاً.

قال مدران وهو يزفر:

ـ نعم، لنكن منهجيين أكثر. لن نتمكّن من التطرّق إلى المسائل الكبرى قبل أن نتعرّف بعضنا إلى بعض. بصراحة يا كلوديا، سيرة الحياة هي التي تعنيني الآن. هي المرحلة الأولى لصداقةٍ جيدة. لاحظي أني لا أطلب منكِ تفاصيل عن حياتك، ولكني أودّ أن أسمعكِ وأنتِ تتكلّمين عن هواياتك وعن خورخي وعن بوينس آيرس وعن لستُ أدري ماذا...

ـ لا، ليس هذا المساء، فقد أضجرتكَ طوال فترة الظهيرة بتفصيلاتي العاطفية التي لم تكن ضرورية. أنا التي لا أعرف عنكَ شيئاً سوى أنكَ طبيب أسنان وأني أنوي أن أطلب منكَ أن ترى لي إحدى أسنان خورخي التي تؤلمه أحياناً. أريد أن تضحك، فإن أحداً غيرك كان سيضحك من هذين القوسين الفاسدين. هل صحيح أن اسمك غابرييل؟

ـ نعم.

ـ هل كنتَ تحب اسمك دائماً؟ أقصد عندما كنتَ طفلاً.

ـ لا أذكر، لا بد أني كنتُ أعدّ اسم غابرييل قدرياً مثل التيجان على ركبتي. وأنتِ، أين أمضيتِ طفولتكِ؟

ـ في بوينس آيرس، في بيتٍ لبالرمو حيث كانت الضفادع تنقّ مساءً، وحيث كان عمي يشعل الألعاب النارية احتفالاً بعيد الميلاد.

ـ وأنا في لوما دو زامورا. في فيلا ضائعة وسط حديقة كبيرة. قد أبدو سخيفاً إذا قلت إن طفولتي تبدو لي الفترةَ الأكثر عمقاً في حياتي. لقد كنتُ سعيداً جداً، وكنتُ أخاف كثيراً. إنها بداية سيئة في الحياة، وكنتُ أنظر نظرة سيئة إلى البناطيل الطويلة التي بدأت تأتيني. أتريدين نبذة عن حياتي؟ لننتقل إلى المراهقة. إنها تتشابه كثيراً فيما بينها حتى تفقد أهميتها. درست طب الأسنان دون أن أعرف لماذا ـ وهذا شائع جداً في الأرجنتين... خورخي تكلم. لا، كان يتنفّس فقط. ربما كان كلامي يزعجه، فهو غير معتاد على صوتي.

قالت كلوديا:

ـ إن صوتك يعجبه، وقد أسرّ لي بهذا الأمر. إنه لا يحب صوت راؤول كوستا ويسخر من صوت بيرسيو الذي له رنة ببغاء. ولكنه يحب صوتكَ وصوت لوبيز ويقول إن لباولا يدين جميلتين. إنه يهتمّ كثيراً باليدين، ووصفه ليدي بريسوتي يثير الضحك كثيراً. إذن، لقد درستَ طب الأسنان يا صديقي العزيز.

ـ نعم، وخلال ذلك الوقت فقدتُ بيت طفولتي، الذي ما يزال موجوداً ولكني لم أعد إليه أبداً. لديّ نقاط ضعفٍ عاطفية؛ كنتُ أقوم بدورةٍ مسافتها كيلومتران اثنان لئلا أمرّ من تحت الشرفة التي عشتُ سعيداً عليها. لم أهرب من الذكرى بل إني لم أشتغل عليها. وفيما تبقّى كانت لحظات سعادتي مكتومةً كلحظات تعاستي.

ـ نعم، لديك نظرة أحياناً... ليست لدي موهبة النظر المضاعف ولكن لدي أحياناً الحدس الصحيح.

ـ وماذا تحزرين هذه المرة؟

ـ لا شيء خطيراً، يا غابرييل. أنتَ تدور في مكانك بحثاً عن شيءٍ ما لا يظهر. آمل بكل بساطة ألا يكون زر قميص.

ـ ولكنه ليس التاو أيضاً يا عزيزتي كلوديا. إنه شيءٌ متواضع جداً وأناني جداً. إنها السعادة التي لا تؤذي الآخرين كثيراً، وهذا أمر صعب؛ سعادةٌ لا تعطيني انطباعاً بأني مُباعٌ أو مُشترى وتترك لي حريتي. أنتِ ترين أن هذا ليس سهلاً.

ـ نعم، الناس مثلنا يرون السعادة هكذا. الزواج بلا عبودية، مثلاً، أو الحب الحر الذي لا يؤذي الكرامة أو مهنة تسمح لكم بقراءة كريستوف، أو أطفالاً لا يحوّلونكم إلى خدم. إنها طريقة في طرح المشكلة وهي بائسة وخاطئة منذ البداية. يكفي أن تقرأ أية رسالة هامة من الرسائل الدينية... ولكننا قررنا ألا نضيع.

قال مدران:

ـ ربما كان الخطأ يكمن بالضبط في أننا لا نريد أن نضيع. إنها

أفضل طريقة للضياع، حتى ضمن البعد اليومي والاجتماعي. بالنسبة إليّ أنا، فقد اخترتُ أن أعيش وحيداً منذ أن كنتُ فتى صغيراً. لقد ذهبتُ إلى الريف حيث لم أعش حياةً سهلة ولكني لم أنجرف في ذلك التشتّت الذي يترصّد إنسان العاصمة المنفي. وذات يوم عدتُ إلى بوينس آيرس ولم أبرحها بعد ذلك، ما خلا الرحلة المعهودة إلى أوروبا والعطلة في فينيا ديل مار عندما كان البيزو التشيلي ما يزال مهماً. لقد ترك لي أبي ميراثاً أكبر مما كنتُ أتصوّر واستطعتُ أن أقلّص إلى الحد الأدني لعب البنسات والروليت. أصبحتُ هاوياً. لا تسأليني هاويا لماذا، فلن أستطيع أن أعرف بالضبط. لنقل لكرة القدم، للأدب الإيطالي، لكاليدوسكوب، للنساء المنحلّات.

ـ أنتَ تضعهن في آخر القائمة، فهل أنتَ تتبع التسلسل الأبجدي؟ استفد من نوم خورخي واشرح لي ما معنى: «منحلات».

ـ أقصد أن أقول أنه لم يكن لدي قطّ ما يسمّى خطيبة. وأعتقد أني لن أكون زوجاً صالحاً ولديّ اللياقة النسبية في ألا أخوض هذه التجربة. ولكني مقابل ذلك لستُ من تسمّيه النساء المغوي. وأحب النساء اللواتي لا يطرحن مشكلةً إلا مشكلتهنّ بأنفسهنّ، وهذا أمرٌ كافٍ جداً.

ـ ألا تحبّ أن تشعر بالمسؤولية؟

ـ أعتقد أني لا أحب، وربما أحمل فكرةً عالية عن المسؤولية، عالية جداً إلى درجة إني أخافها. خطيبة أو فتاة مغوية... كل هذا يصبح مستقبلاً فجأةً. هل تعتقدين أن المستقبل يغني الحاضر؟ ربما في الزواج أو إذا كان للإنسان حس القربى... هذا غريب. ومع ذلك أنا أحبّ الأطفال كثيراً.

قال ذلك مدران وهو ينظر إلى رأس خورخي الغائص في الوسادة.

ـ لا تعتقد أنك تشكّل استثناءً. بدفع الأمور إلى الأسوأ أنتَ في

طور أن تصبح ذلك المنتَج البشري الذي يسمّونه عازباً وهو غير مجرّدٍ من الكفاءات. قالت لي إحدى صديقاتي الممثلات إن العازبين هم أفضل مشجّعي المسرح، وإنهم محسنون للفن. لا، أنا لا أسخر، ولكنكَ تحسب نفسكَ أجبن مما أنت.

ـ أنا لم أتكلّم عن الجبن قط.

ـ نعم، ولكن رفضك لأية إمكانيةٍ للخطوبة ولأية مسؤولية، ولأي مستقبل... أعتقد أن المستقبل الوحيد الذي يمكنه أن يُغني الحاضر هو المستقبل الذي يولد من حاضر ننظر إليه قبالتنا. طبعاً أنا لا أرى أن على المرء أن يعمل كحمارٍ ثلاثين سنةً من حياته لكي يتمكّن من الحصول على تقاعده ويعيش بهدوء، ولكن يبدو لي بالمقابل أن كل جبن حالي ليس فقط لن يخلّصكَ من مستقبل غير مريح، بل لن يسهم إلا في خلقه على الرغم منك. هذا يبدو لكَ حاداً من فمي، ولكن إذا كنتَ لا تغوي فتاةً لمجرّد الخوف من النتائج، فإن رفضكَ سيخلق نوعاً من المستقبل الأجوف ومن المستقبل الشبح فعالاً إلى درجة أنه يجعلكَ تفقد كل مغامرةٍ جميلة فيما بعد.

ـ أنتِ تفكّرين بي ولا تفكّرين بالفتاة.

ـ طبعاً أنا لا أنوي أن أقنعكَ بأن تصبح كازانوفا. أعتقد أنه يلزم حزمٌ معين من أجل مقاومة إغراء الإغواء. وهكذا سيكون الجبن الأخلاقي منبعاً للفضائل الإيجابية... حقاً هناك ما يثير الضحك.

ـ المشكلة خاطئة، فليس هناك شجاعة ولا جبن، بل قرار مسبق يحذف معظم الفرص. المغوي يسعى إلى الإغواء ثم يغوي. فإذا حذفتِ السعي... لنقل بصراحة: يكفي تجنّب العذراوات، وهناك قليل جداً منهن في الأوساط التي أعاشرها!

ـ ليت هؤلاء الفتيات المسكينات يعرفن الصراعات الميتافيزيقية التي يثرنها بمجرّد براءتهن! حسنٌ حدّثني عن الأخريات.

ـ لا، ليس هكذا. لا أحب طريقتكِ في طلب ذلك مني ولا نبرة صوتك. ولا أحب الأشياء التي قلتُها لكِ ولا الأشياء التي قلتِها لي. من الأفضل أن أعود إلى البار وأشرب الكونياك.

ـ لا، ابق قليلاً. أعرف أني أقول حماقاتٍ أحياناً. ولكن يمكننا أن نتكلّم في أمورٍ أخرى.

ـ اعذريني، إنها ليست حماقات، بل على العكس. إن سوء مزاجي يتأتّى تماماً من أنها ليست حماقات. لقد عاملتِني على أني جبان على الصعيد الأخلاقي، وكنتِ على حق. وبدأتُ أتساءل ما إذا كان الحب والمسؤولية يختلطان في بعض لحظات الحياة ببعض نقاطٍ محدّدة من الطريق... أنا ما زلتُ لا أستبين ذلك بوضوح ولكن منذ بعض الوقت... نعم إن مزاجي سيء، بسبب هذا كله بالضبط. ما كنتُ لأظن أبداً أن قصة عادية جداً في حياتي يمكنها أن تثقل علي ذات يوم وأن تسبّب لي الندم.

هزّ كتفيه وأخرج سجائره ثم أضاف:

ـ سأرويها لكِ يا كلوديا، أظن أن ذلك سيريحني.

وحدّثها عن بيتينا.

30

ذاب غضبها أثناء تناول الطعام وحلّت محلّه السخرية والرغبة في إثارته. لم يكن ذلك لأنها تملك أسباباً محدّدة لكي تستفزّه، لكن ما يزعجها هو أن ترى أنّ بوسعه أن يجرّدها من سلاحها بمجرّد النظر إليها بطريقةٍ معينة. خلال لحظة تهيّأ لها بأن لوبيز بريء وبأن قوته تتأتّى من براءته. ثم سخرت من سذاجته، ومع ذلك لم يكن من الصعب تبينّ أن لدى لوبيز جميع المزايا المطلوبة لكي يطاردها حتى لو لم يُظهر ذلك. ليست باولا فخورةً بالتأثير المباشر الذي مارسته على لوبيز، بل على العكس (يا للشيطان، ففي الليلة السابقة لم يكونا

يعرفان بعضهما بعضاً، وكانا مجهولين وسط بوينس آيرس الواسعة)، إن ما يزعجها هو أن ترى نفسها مقتصرةً بهذه السرعة على مجرّد طريدة تقليدية. فكرت: «وكل هذا بسبب كوني الوحيدة الجاهزة على متن هذه السفينة، والوحيدة المثيرة للاهتمام بعض الشيء. لا شكّ في أنه ما كان ليتنبّهَ إلي لو أننا تعارفنا إلى بعضنا البعض في حفل كوكتيل أو في مسرح». ما يضايقها هو أن تكون مختزَلة بقوة الأشياء، وبظرف تزجية الوقت. لقد ثُبّتت إلى الجدار ككرتونة من أجل السماح للسيد الصياد بأن يمارس عليها مهارته في الرمي. ولكن جاميكا جون لطيفٌ جداً، وليس لديها ما تلومه عليه. تساءلت إن كان يفكّر بالطريقة نفسها. لا بد أنه يجدها لعوباً، أولاً لأنها كذلك، وثانياً لأن لديها طريقة في الشكل وفي التصرف تثير الارتباك بسهولة. وبما أن لوبيز أرجنتينيٌّ جيد فقد ظن بأنه سيسقط في نظرها إن لم يغازلها مغازلة قوية. موقف سخيف ولكن لا بد منه. كضربات العصي تلك التي يجب أن تتبادلها عرائس غينيول. بوسع الاثنين أن يلعبا اللعبة إلى حد الإتقان ولتشأ السماء بأن يكون أرلوكان ماهراً بقدر مهارة كولومبين.

في البار حيث دعاهما راؤول إلى شرب كأس من الشارتروز، تجاوزا أسرة بريسوتي المنزوية، ولكنهما وجدا نفسيهما وجهاً لوجه أمام لوسيو ونورا اللذين لم يتعشيا وأبديا هيئةً مغمومة ومتعبة. جلسا إلى الطاولة نفسها وتكلّما قليلاً في كافة الأمور. غادر كل منهما شخصيته بارتياحٍ إلى وحش الحديث الجماعي المسلّي، وهو دائماً أدنى من أولئكَ الذين يغذّونه لذا أصبح مريحاً وقيّماً. شعر لوسيو بالفرح منذ أن رأى الآخرين يتوافدون لأن نورا تشعر بالاكتئاب منذ أن كتبت رسالةً لأختها. مهما حاولت أن تقول إنها لا تشعر بشيء، فإنه يشعر أنها ساهمة وهذا الأمر يضايقه بقدر ما يضايقه ألا يعرف كيف يتجنّب ذلك. لم يكثر قطّ من الحديث مع نورا، بل كانت هي التي تبادر إلى فتح الحديث دائماً. في الصميم ذوقاهما متباينان، ولكن هذا بين رجل وامرأة...

تلك هي أول مرة تتحدّث فيها باولا إلى نورا. وقد بدأ صراعهما بالابتسام بينما كان الآخرون يطلبون الشراب ويتبادلون السجائر. اعتصم راؤول بصمتٍ لا يخرج منه إلا ليبدي ملاحظةً جيدة بين الفينة والأخرى. راح يراقب رفاق رحلته وهم يتبادلون انطباعاتهم حول خط سير مالكولم. رأى نورا وهي تولد من جديد في الغبطة وفي الثقة. الوحش الاجتماعي يداعبها بألسنته الكثيرة ويخلّصها من الحوار، من هذا المونولوج المقنّع، ويدمجها في عالم صغير لبق وعادي، لامع بجمل روحية صغيرة وبضحكات خفيفة مجنونة لها طعم الشارتروز وفيليب موريس. فكّر راؤول وهو يرى ملامح نورا تستعيد بريقها كله وهي تنتعش: «علاج جمالٍ حقيقي». بدا لوسيو أكثر عناداً، فهو لم يبرح سحنته المنشغلة. أما بالنسبة إلى لوبيز المسكين، آه! هذا اللوبيز المسكين! ها هو شخص يحلم وهو يقظ. لقد بدأ يشفق عليه. فكر: «so soon so soon»، ولكنه لا يعرف أن لوبيز سعيدٌ وأنه يحلم بفيَلَةٍ وردية، وبأكواب زجاجية ضخمة مليئة بالماء الملوّن.

قالت باولا:

ـ وهكذا عاد الفرسان الثلاثة، الذين لم يكونوا أربعة هذه المرة، خائبين من مهمّتهم تحت الأرض. إذا أردتِ يا نورا نستطيع أن نذهب ونقوم بجولة نحن الاثنتين. بل يمكننا أن نأخذ معنا خطيبة بريسوتي، لكي يكتمل ذلك الرقم القَدَري. أنا واثقة من أننا سنصل حتى المراوح.

أجابت نورا وهي تميل إلى أخذ كلام باولا على محمل الجد:

ـ ولكن قد نلتقط التيفوس!

ـ أوه، معي فابوروب. من كان يصدّق أن هؤلاء الفرسان الأشاوس سيعضّون الغبار وكأنهم آخر الجبناء؟

قال راؤول:

ـ يجب ألا نبالغ. فالسفينة ملمّعة جيداً ولا يمكن أن نعض شيئاً الآن.

تساءل ما إذا كانت باولا ستفي بوعدها أم إنها ستتكلّم عن المسدسات. ولكن لا، ستفي بوعدها، good girl «فتاة جيدة». مجنونة تماماً ولكنها شريفة. فوجئت نورا قليلاً فطلبت بعض التفصيلات حول المهمة. ألقى لوبيز نظرةً سريعة على لوسيو وقال:

ـ لم أقل لكَ شيئاً عن هذا لأني لا أرى له داعياً. أنتَ ترى ماتقوله الآنسة لافال عن الزمن المفقود.

قال لوبيز:

ـ أنا لا أصدّق أبداً أننا أضعنا وقتنا. فكل جولة استطلاعية لها داعٍ كما قال بالتأكيد أحد أهم الاستراتيجيين. على الأقل، لقد أثبت لي ذلك أن ماخنتنا ستار شركة مسوّسة.

قال لوسيو:

ـ ربما. ولكن ليس فيما يخصّنا. كل شيء واضح من هذه الناحية.

ـ ظاهرياً نعم.

ـ كيف ظاهرياً، الأمر واضح تماماً. أكيد.

قال راؤول:

ـ لوبيز يحذر بحق الوضوحَ المبالَغ فيه. كما قال الشاعر البنغالي سنتينيكيتان: ما من شيء يجعلك أعمى كالوضوح المبالَغ فيه.

ـ أوه، إنه كلام شعراء.

ـ لذلك أنا أذكره وأنا أملك التواضع الكامل في أن أنسبه إلى شاعر لم يقله أبداً. وبالعودة إلى لوبيز، فإني أشاطره شكوكه، وكذلك مدران. إذا كان هناك من شيء فاسد في المؤخرة فسينتهي الأمر بأن تصاب المقدمة بالعدوى. لنسمّه التيفوس 224 أو شحنة

ماريجوانا. الطريق البحرية طويلة من هنا حتى اليابان، وثمة أسماك قرش كثيرة تحت السفينة.

قالت باولا:

ـ بررر! إنكَ تخيفني! انظر إلى نورا المسكينة، إنها ترتعد!

قالت نورا وهي تلقي نظرةً مفاجأةً إلى لوسيو:

ـ لا أدري إن كنتَ تمزح، ولكن سبقَ أن قلتَ لي...

ـ ماذا تريدين أن أقول لكِ؟ أن دراكولا يختبئ تحت الدرج؟ الجميع يبالغون هنا لتمضية الوقت، وهذا ممتع جداً، ولكن يجب ألا تجعلينا نصدّق أنكِ جادة في كلامك.

وقال لوبيز:

ـ من ناحيتي أنا، كلامي جديٌّ تماماً، وأنوي ألا أبقى مكتوف اليدين.

صفّقت باولا بسخرية وقالت:

ـ جاميكا جون، الفارس التائه! أنا لا أنتظر منكَ أقلّ من ذلك، لكن مثل هذه الفروسية...

قال لوبيز بهدوء:

ـ لا تكوني حمقاء، وأعطني سيجارة، إذ لم يعد لدي سجائر.

أصدر راؤول صفرة إعجاب. حسنٌ يا بني. المنازلة تعد بأن تكون هامة. الآن يحاول لوسيو أن يستعيد ما خسره، ونورا، الحمل الوديع والبريء، تحرمه من متعة تصديق تفسيراته. فبالنسبة إلى لوسيو، الأمور بسيطة جداً: تيفوس، القبطان مريض والمؤخرة محجورة، إذن يجب أخذ الحذر. فكر راؤول: «لابد من أن يُمضي أنصارُ السلام حياتهم في الحرب. وسيضطرّ هذا اللوسيو المسكين إلى شراء رشاش عند أول توقّف». بدت باولا أكثر تسامحاً، إذ أخذت تصغي إلى التفسيرات بانتباه يعرفه راؤول جيداً.

ـ أخيراً، ها هو شخص لديه حسٌّ سليم. لم ألتقِ حتى الآن إلا

بالمتآمرين، آخر طراز من الموهيتان ومن مفجّري الديناميت في سان بطرسبرغ. كم هو شيء مريح أن تلتقي برجل قدماه على الأرض، رجلٍ لا يسمح لنفسه بالانسياق خلف الديماغوجيين!

لم يكن لوسيو واثقاً من أن هذا الكلام إطراء له فأعاد الشرح.

قال له راؤول محتدّاً:

ـ هيا، هيا. إذا كان الأشخاص يحملون التيفوس قبل الإقلاع فسيكونون قوادين أَشِرين.

لم تعتد نورا على سماع كلمات بهذه الحرية فرفّت بجفنيها. عانت باولا من عدم تمكّنها من الضحك، لكنها وقفت في صف لوسيو من جديد وأكّدت أن الوباء لا بد أنه ظهر فجأةً بعد الإقلاع، وحين لم يعرف القباطنة المساكين ماذا يفعلون، توقّفوا ليلة كاملة أمام كويلمس التي لم تسهم مفرزاتها المعروفة جيداً في تنقية هواء مؤخرة السفينة.

قال راؤول:

ـ هذا هو، إنه إنتاج ضخم في التكنيكولور.

لوسيو يستمع إلى باولا بابتسامة ساخرة فلم تمتّعه كثيراً، ونورا تحاول أن تفهم بعد أن استعصى عليها الفهم. يئست من السبب فدسّت نظرها في فنجان الشاي وتركته فيه لبعض الوقت.

قال لوسيو:

ـ أخيراً، إن لعبة الآراء الحرة هي إحدى فوائد الديمقراطية، وسنرى ما سيحصل معنا.

قالت باولا:

ـ للأسف لن يحصل شيء لكم. سوف تُحرَمون من لعبتكم، وستعانون معاناة رهيبة من الملل خلال ما بقي من الرحلة عندما لا يعود سطح السفينة الخلفي ممنوعاً. بمناسبة سطح السفينة سأذهب لأرى النجوم.

ونهضت دون أن تنظر إلى أحد معينّ. في داخلها لقد أخذت هذه اللعبة السهلة جداً تُتعبها، كما إنها غضبت كثيراً لأن لوسيو لم يُعطها الجواب: مع أم ضد. هي تعرف أنه لن يجد الآن الطريقة لكي يتبعها، وعلى أية حال سيبقى في البار طويلاً. لطالما عرفت هذه الأمور بغريزتها ولم تخطئ في ذلك أبداً. وتعرف أيضاً أن أموراً أخرى ستحدث. ومن جديد انتابتها رغبةٌ في الضحك. بالتأكيد كان راؤول يعرف ما يحدث، وإنه لأمر ممتع أن يكون راؤول على تفاهم معها.

قالت باولا وهي تنظر إليه:

ـ ألن تأتي؟

ـ لا شكراً، النجوم، كل هذا البريق...

فكرت: «الآن سينهض الآخر ويقول...».

قال لوسيو وهو ينهض:

ـ أنا أيضاً سأذهب إلى سطح السفينة. هل تأتي يا نورا؟

ـ لا، أنا أفضّل أن أقرأ قليلاً في مقصورتي، إلى اللقاء.

بقي راؤول وحيداً مع لوبيز. قاطع هذا ذراعيه بالطريقة التي كان يتّخذها جلادو ألف ليلة وليلة. أتى عامل البار ليرفع الكؤوس والفناجين في حين أن راؤول يتوقّع في أية لحظة أن يسمع صفير السيف.

كان بيرسيو يقف ساكناً في أقصى طرف مقدّمة السفينة حين سمعهم قادمين تسبقهم نتفٌ من الجمل التي كانت تذروها الرياح الفاترة. رفع ذراعه وأشار إلى السماء قائلاً بحماسة:

ـ انظرا إلى هذا الصفاء. إنها لم تعد سماء شاكاريتا، يمكنكما أن تصدّقاني. فهناك يوجد دائماً بخار نتن، يوجد ستار زيتي ومثير للاشمئزاز بين عينيّ وهذا الصفاء. أتريانه؟ أتريانه؟ إنه الإله الأعلى الذي يمتدّ فوق العالم، الإله ذو العيون التي لا تعدّ ولا تُحصى.

قالت باولا:

ـ نعم، ربما كان مضنياً مع مرور الوقت، ككل ما هو فخم وعظيم. التنوّع الحقيقي لا يوجد إلا في الأشياء الصغيرة، ألا ترى ذلك؟

قال بيرسيو بتهذيب:

ـ آه، إن الشياطين هي التي تتكلّم بداخلك. التنوّع هو وعد الجحيم الحقيقي.

تمتم لوسيو وهما يبتعدان:

ـ لا بدّ أن هذا الشخص معتوه.

جلست باولا على لفّةٍ من الحبال وطلبت سيجارة، ولزمهما وقتٌ طويل لإشعالها. قال لوسيو بعد ذلك:

ـ الطقس حار! الأمر المضحك أن الجو حار هنا أكثر مما هو في البار.

نزع سترته، فظهر خياله واضحاً بقيمصه الأبيض وسط السواد. لم يكن من أحد في هذه الناحية من سطح السفينة، وأخذ النسيم يصفر على الكابلات الممدودة. طفقت باولا تدخّن بصمتٍ وهي تنظر إلى الأفق الخفي. عندما سحبت الدخان كبّرت جمرةُ سيجارتها لطخةَ شعرها الأحمر وسط الظلام. فكّر لوسيو برأس نورا. يا لها من غبية! بالفعل يا لها من غبية! وبعد ذلك، من الأفضل لها أن تعرف مباشرةً بماذا تكتفي، الرجل حرٌّ، ولا ضير في أن يقوم بجولةٍ على سطح السفينة مع امرأةٍ أخرى. يا لهذه الأعراف البورجوازية اللعينة! تربية الأخوات الطيبات، أوه! يسوع ـ مريم، أم الله وتفاهات أخرى! الحب والحرية شيئان منفصلان، وإذا كانت تظن أنها ستبقيه مخيطاً إلى تنّورتها كما في الفترة الأخيرة، فقط لأنها لا تريد أن تمنحه نفسها، فهي مخطئة... بدا له أن باولا تنظر إليه على الرغم أنه من المستحيل أن يرى عينيها. وبدا له أن راؤول الشجاع غير مكترث بأن تتنزّه صديقته مع شخصٍ آخر، لا بل على العكس، فقد كان ينظر إليها

بعينين مسرورتين وكأنه كان يعرف نزواتها جيداً. لم يلتقِ لوسيو بحياته بأناس غريبي الأطوار كهؤلاء الذين يلتقيهم على متن السفينة. وهذه الطريقة لنورا في أن تصغي إلى باولا فاغرةً فاها. من حسن الحظ أن باولا، عندما كانوا مشغولين بمسألة مؤخرة السفينة...

قال:

ـ أنا سعيد بأنكِ من رأيي.

من الجميل جداً أن يصبح المرء مهماً جداً، ومع ذلك يجب ألا يترك الرحلة البحرية تذهب هباءً. أضاف قائلا إنه هو أيضاً يعرف كيف يثير الاحترام كأي شخص آخر. قال ذلك وهو يتّكئ على كلمة الاحترام، ولكنه كان يفكّر بالرحلة التي سيقومون بها.

ـ اسمها رحلة بحرية، أليس كذلك؟

ـ هيا، لا تسخري مني.

ـ أنا لا أسخر. هذه الكلمات اللبقة تفاجئني دائماً. انظر، انظر إلى هذا النيزك.

ـ تمنّي أمنيةً بسرعة.

تمنّت باولا أمنيةً وفي ظرف ثانية انفطرت السماء، هناك في الشمال، شقّ ناعم ولامع لا بدّ أنه أذهل بيرسيو الصاحي. فكّرت باولا: «حسنٌ يا صديقي، لقد آن أوان إنهاء هذه المسرحية».

قالت:

ـ لا تعاملني بكثيرٍ من الجدية. لم أكن صادقةً عندما وقفتُ في صفّكَ منذ قليل، فقد قمتُ بذلك من باب الروح الرياضية. لا أحبّ أن أرى أحداً في حالة دونية. أنا أسارع إلى نجدة الأكثر ضعفاً والأكثر حماقة.

ـ آه!

ـ لقد سخرتُ من راؤول ومن الآخرين لأني أستمتع كثيراً برؤيتهم متنكّرين في بوفالو بيل. ولكن من الممكن تماماً أن يكونوا على حق.

قال لوسيو حانقاً:

ـ هكذا إذن، لقد كنتُ ممتنّاً لكِ لوقوفكِ إلى جانبي، أما وأنكِ لم تفعلي ذلك إلا لأنكِ وجدتِني أحمق...

ـ أوه، لا تأخذ الأمور هكذا حرفياً. إنكَ تدافع عن مبادئ النظام والتراتبية القائمة، الأمر الذي يتطلّب من الشجاعة أحياناً أكثر مما يفترضه مخترقو التقاليد. ولكن يبدو هذا موقفاً ثقيلاً عند شخصٍ أكثر شباباً. لستُ أدري لماذا يجب تمثيل الشبان وهم يحملون حجراً في كل يدٍ من أيديهم. لا بدّ أن هذا أحد اختراعات الشيوخ، تلك ذريعة لجعلهم يطردون المهذّبين جميعاً.

ـ المهذّبين؟

ـ نعم، هكذا. زوجتكَ رائعة، وبراءتها تعجبني. لا تقل هذا لها، فالنساء لا يغفرن هذا النوع من المجاملات.

ـ لا تظنّي أنها بريئةٌ إلى هذا الحد، بل إنها... كلمة مثل وجلة، ولكنها ليست كذلك.

ـ منزوية؟

ـ تماماً، بسبب التربية التي تلقّتها في البيت، وفي سكنها مع الأخوات الطيبات. أتوقّع أنكِ لستِ كاثوليكية.

ـ أوه، بلى. أنا كاثوليكية ومتحمّسة أيضاً، عماد، مناولة أولى، تراجع، تأكيد. لستُ بعد المرأة الخائنة ولا السامرية، ولكن إذا وهبني الله عمراً...

قال لوسيو الذي لم يعد يفهم شيئاً من كلامها:

ـ كنتُ أقول لنفسي أنا أيضاً. طبعاً، أنا لدي أفكار واسعة عن هذه الأمور. هذا لا يعني أني ملحد، ولكني لستُ مؤمناً تماماً. لقد قرأتُ كثيراً من الكتب حول هذا الموضوع، وأعتقد أن الكنيسة لعنةٌ على البشرية. هل تتصوّرين أن في عصر الأقمار الصناعية هناك بابا في روما؟

ـ إنه ليس صناعياً على الأقل، وهذا مكسب.

ـ أقصد... إني أتناقش دائماً مع نورا في هذه المواضيع ودائما أقنعها. لقد قبلت بعض الأشياء.

كفّ عن الكلام بعد أن تولّد لديه انطباعٌ بأن باولا تقرأ أفكاره. في النهاية، ربما من الأفضل أن يقول لها، فلا أحد يعرف، مع فتاة ليبرالية.

أضاف:

ـ إذا وعدتِني بألا تقولي لأحد فسوف أسرّ أليكِ بأمر.

قالت وقد فاجأها تأكّدها:

ـ أعرف. لا توجد شهادة زواج.

ـ من قال لكِ هذا؟ لا أحد...

ـ أنت نفسك. الشبان الاشتراكيون يبدؤون بإقناع الفتيات الكاثوليكيات، ولكن هن اللاتي يفزن في النهاية. اطمئن، سأكون كتومة. ونصيحتي: تزوّج من هذه الفتاة.

ـ نعم، بالطبع، ولكني أيضاً أكبر من أن أُعطى نصائح.

قالت بصوتٍ مستفزّ:

ـ كبير! أنت صبي لطيف، لا أكثر من ذلك.

دنا منها لوسيو وهو مزهو ومنزعج في آنٍ معاً. بما أنها

تساعده على الخروج من ضائقته، وبما أنها تتحدّاه فسوف يعلّمها أن تكون مثقّفة.

قالت:

ـ الظلام حالك لدرجة أن المرء لا يعرف أحياناً أين يضع يديه. أنصحكَ بأن تبقيهما في جيبيك.

قال وهو يمسك بها من خصرها:

ـ لا تتحامقي! دفّئيني، فأنا بردان.

ـ آه، إنه أسلوب بيتر شيني، أهكذا حصلتَ على زوجتك؟

قال لوسيو وهو يحاول تقبيلها:

ـ لا، ليس هكذا، ولكن هكذا وهكذا. هيا لا تكوني شريرة، ألا تفهمي أني...

دفعته بعنف وقفزت على قدميها. ثم قالت وهي تتّجه نحو الدرج:

ـ مسكينة نورا. الصغيرة المسكينة، إني أرثي لحالها بحق.

تبعها لوسيو مهتاجاً. لمح دون غالو الذي كان ماراً من هناك، براقاً غريباً تحت نور النجوم، شكل متعدّد وموحّد ـ سائق وكرسي وهو ـ يتخذ اقتراحات مقلقة. تنهّدت باولا وقالت:

ـ أعرف ما بقي عليّ أن أفعله. سأكون شاهدتك، وسأقدم لك خدمة القهوة. لقد رأيتُ منها أشياء لا بأس بها في بازار قسم الشرطة.

سألها لوسيو بعد أن تخلّى عن رفع الكلفة:

ـ هل غضبتم مني، لنكن أصدقاء، أتريدون ذلك؟

ـ هذا يعني أن أسكت، أليس كذلك؟

ـ سيان عندي تماماً، وربما كان ذلك أقل بالنسبة لراؤول.

- راؤول؟ حاول وسترَ. إذا كنتُ لن أقول شيئاً لنورا فذلك من أجلها هي وليس لأنكَ أخفتَني. هيا خذ بليدينكَ وصداقاتي إلى جان جوريس.



إذا كان رائعاً أن يغدو محتوى دواةِ العالمَ بوصفه إرادةً وتمثيلاً، أو أن يولدَ حفيفٌ خُليمة جلدية على مصرانٍ جاف ومتوتّر في الفضاء أولَ حركة متسلّلة، فإنه ليس أقل روعةً أن يتمكّن من التأمل، وحبرٌ سري وظفرٌ دقيق يوقظ جلد الليل المتوتر، من أن يغزو ببطءٍ المادةَ الظليلةَ التي تحيط بفمه المتعطّش وأن يثقبها. في هذه الساعة من الليل على مقدمة سفينة، تنزلق الأحداس على سطح الوعي الصفيق؛ إنها تسعى إلى التجسّد، ولهذه الغاية يزوغ الكلام الذي سيصوغها في الوعي عديم الأشرعة. إنها تظهر على شكل نتف جُملٍ وعلى شكل نهايات وجُملٍ تتعاقب بلا نظام وسط دوّامة تتضخّم يغذّيها الأمل والفرح والرعب. مقدّمة أو بالأحرى مرفوعة من الإشعاعات العاطفية التي تنطلق من الجلد والأحشاء أكثر من انطلاقها من هوائيات الروح، فإن الأحداس بآخرةٍ فضائية، بآخرةٍ تبدأ ظَفركَ أو تنهيه (الكلمة الظفر أو الشيء الظفر) تبدأ صراعاً بلا هوادة ضد القنوات المستقيمة والقوالب الفينيليتية للوعي الهائج والمندهش، إنها تبحث عن الطريق المباشر، انفجار، صرخة إنذار أو انتحار بالغاز، تلاحق مَن يلاحقها، تهاجم بيرسيو الذي كان يستند إلى الدرابزين بكلتا يديه، بيرسيو التائه بين النجوم وفي الصداع والخمر الأحمر. إنه ثملٌ من النور، من النهار، من الوجوه الشبيهة بوجهه، ومن الحوارات المعلوكة مسبقاً، يشبه سومرياً صغيراً، غرّاً في مواجهة صفاء الليل والنجوم ورأسه الأصلع يلتصق بالقبة السماوية التي في كل لحظة تبدأ وتنتهي في فكره. أخذ بيرسيو يصارع ريحاً واقفةً لا يلمحها حتى الأنيمومتر الهائل الذي

ينتصب فوق العبّارة. يفتح فمه ليستقبلها ويتنفّسها وسرعان ما لا يعود يدري ما إذا كانت رئتاه هما اللتان تولّدان هاته الريح التي تسري في جسده كشلعة غزلان. يرفع خياله الهزيل في هدأة مقدّمة السفينة، التي يحوّلها شخير النائمين في مقصوراتهم إلى عالَمٍ سيميري، وكأنه يضحّي بنفسه. سمع رنين الغيتار الخفيف في كابلات السفينة، وظفر الفضاء العملاق استخلص منه صوتاً أولاً وقد خنقه مباشرةً الصوتُ الغليظ للأمواج والريح. بحر ملعون من فرط الرتابة والفقر، بقرة جيلاتينية واسعة وخضراء تضغط بلا يأسٍ المقدمة التي تغتصبها، إنه صراع أبدي بين القضيب الحديدي والفرج اللزج الذي يرتعش عند كل انبثاقٍ للزبد. وغيتار الفضاء الذي يحلّق في هذه اللحظة تماماً فوق هذا السفاد العبثي والسوقي يُرخي على بيرسيو نداءه المستفزّ. وبيرسيو يعرف، وهو غير واثقٍ مما يعتقد أنه يسمعه وعيناه مغمضتان، أن المفردات المهموسة وذات الفخامة غير المؤكَّدة للكلمات الكبيرة المحمَّلة كالنسور بفرائسها، ستعطي في النهاية الردَّ المناسب لما في أعماق أعماقه، لما يعتمل في أعماق صدره وفهمه، ستعطي الرد على رنين الأوتار الذي لا يُطاق. جَسور كذبابة على مساحات لا يمكن قياسها، وتذهب شفتاه وروحه لتتلمّس فمَ الليل، وظفر الفضاء، ويدا صانع الموزاييك الشاحبتان تضعان القطع الزرقاء والذهبية والخضراء والجُعلي على التخوم الدقيقة جداً لهذا الرسم الموسيقي الذي يتشكّل. فجأةً، كلمة، اسمٌ مستدير وثقيل، ولكن القطعة لا تلصق دائماً في الهاون؛ عند ذلك طأطأ بيرسيو رأسه وكفّ عن الفهم، إنه لم يعد يفهم أنه لا يفهم. لكن حميته هي كالموسيقا التي ترفرف في هواء الذاكرة، فتح شفتيه من جديد، أغمض عينيه وتجرّأ على لفظ كلمة، ثم أخرى، ثم ثالثة وهو يسندها بنفثة لا تأتي من رئتيه. بروقٌ هاربة أعمت بيرسيو وتغلّبت على هذه الشجاعة المتقطّعة، ومقارباتٌ مفاجئة يُبعده قلقه عنها كما لو أنه يُراد ضغط رأسه في سلةٍ مليئة بأم أربع وأربعين. أصرّ بيرسيو، وهو معلّق بالدرابزين كما لو أن

جسمه نفسه كان على شفا فرح مرعب أو على شفا رعبٍ بهيج (لأن شيئاً مما يخضع للأفعال المنعكسة الشرطية لم يبق في تلك اللحظة)، على إحياء واستقبال أنصاف الرؤى التي تتساقط عليه مشوّهةً، مبعثرةً، مندفعة. العادي، الماضي الفاسد والتافه، والمستقبل المستَشعَر والمتوهَّم يتجمّعان في بودينغ واحد مشحم وكريه الرائحة يسحق لسانه ويترك طَعماً مراً على لثّته. أراد أن يفتح ذراعيه بحركةٍ كئيبة وأن يبعثرَ بحركةٍ واحدة وبصرخةٍ واحدة هذا الحشدَ من الأحزان الذي يتدافع جسداً لجسد بداخله في مصارعة إغريقية رومانية. هو يعرف أنه في وقتٍ معين سوف تفرّ زفرةٌ عادية وستسحق هذا الغزو واصفةً إياه بالمستحيل، ويقول الموظف الصغير في العطلة: «تأخر الوقت، هناك ضوء في المقصورة والبار مفتوح»، وربما سيضيف أفظع التنازلات: «إن غداً لناظره قريب». وينغرس قضيب الدرابزين في أصابعه. «على المتن»، هذه الكلمة تعاوده بلا توقّف، كل شيء متنٌ، ويستطيع أن يكفّ عن كونه متناً في أية لحظة ـ بيرسيو على المتن والسفينة على المتن، على المتن الحاضر، على المتن المتن: عدم التنازل، البقاء أكثر، تقديم النفس من أجل الأخذ، تدمير الوعيٍ لكي يكون في آنٍ واحد الطريدة والصياد، اللقاء الذي سيفني كلّ قوةٍ معارضة، الضوء الذي يضيء بنفسه، والغيتار الذي هو الأذن التي تصغي لنفسها. ويطأطئ رأسه لأنه يحسّ أن قواه قد غادرته، ويحسّ أن الحظ العاثر يمتدّ كبقعة زيت تصل إلى أطراف سترته الجديدة، وتبدو معركة النعم واللا الصاخبة تهدأ، والصرخات التي كانت تفتّت صدغيه هاهي تبتعد، المعركة مستمرة ولكن في جو متجمّد، مأخوذةً في كتلةٍ من الكريستال، وفرسان أوتشيللو يجمّدون ضربةَ رمحهم القاتل للبشر، وثلج رواية روسية يرتعش في ضاغط الورق ذي النتف المدلاّة. الموسيقا تتجمّد في الأعلى، وعلامةٌ حادة ومدعومة تتحمّل شيئاً فشيئاً بالمعنى، وتتخلّى لعلامةٍ أخرى، تميل نحو اللحن وتضيع شيئاً فشيئاً في جملة أكثر فأكثر غنًى. ينفلش الغيتار كشعرٍ على وسادة،

وتمدّ النجوم كلها براثنها نحو رأس بيرسيو الذي يذوب في تعذيبٍ مرير. لأن بيرسيو منغلقٌ على الليل وعلى السفينة وعلى نفسه، ولأنه استعداد يائس هو انتظار وأملٌ صرف، فإنه يشعر وكأنه ينزل أو أن الليل يصعد إليه ويتمطّى بداخله، اختلافٌ يفتحه أخيراً كحبة توت كبيرة ويقدّم له ثمرته الخاصة، ودمه الأخير الذي يمتزج بالبحر وبالسماء وبوديان الزمان والمكان. هو الذي يغنّي معتقداً أنه يسمع غناء الغيتار، إنه هو مَن أخذ يرى إلى أبعد من عينيه، إلى ما وراء الحاجز، وما وراء الأنيمومتر، وإلى ما وراء ظل العبّارة البنفسجي. وفي آنٍ واحد الانتباه الأقصى والأكثر تفاؤلاً و- دون أن يثير ذلك استغرابه - الساعة الجدارية في البار تشير إلى الثالثة والعشرين وتسع وأربعين دقيقة، وأيضاً - ودون أن يثير ذلك أسفه - القطار السريع 8730 الذي يدخل إلى محطة فيلا أزيدو، والقطار السريع 4121 الذي ينطلق من فونتيلا. كفاه انعكاسٌ صغير لذاكرته، معبّرٌ عن رغبةٍ لا إرادية في إيضاح اللغز النهاري، لكي تطير الغرابة التي وصل إليها وعاشها كشظايا مرآةٍ داستها قائمةُ فيل، ولكي تختفي ضاغطة الورق المغطّاة بالثلج، ولكي تتلاطم أمواج البحر ولا يبقى أخيراً إلا جسر المؤخرة والرغبة النهارية ورؤية سطح السفينة الخلفي مسمّرة في داخل بيرسيو الذي ينظر أمامه بخط مستقيم وهو يجفّف دمعةً حرّاقة تتدحرج على خدّه. رأى سطح السفينة الخلفي ولا شيء غير سطح السفينة الخلفي؛ لم يعد هناك من قطارات ولا جادات ريو براكو، ولا ظل حصان فلاح هنغاري، ولا شيء من هذا كله، كلّ شيء تحلّل في هذه الدمعة التي تحرق خدّه، والتي تسقط على يده اليسرى وتنزلق خفيةً إلى البحر. لم يبقَ في ذاكرته التي هزّتها ضرباتٌ هائجة إلا ثلاث صورٍ أو أربعة من المجموعة التي تشكّلت: قطاران وظل حصان. إنه يرى سطح السفينة الخلفي ويبكي الرؤية المنصرمة أيضاً، يدخل في تأمّل عصيّ على الخيال مُنح إليه أخيراً، وبكى كما نبكي، بلا دموع، عندما نصحو من حلم لا نتذكّر منه إلا بضعة خيوطٍ بين الأصابع، بضعة خيوط من الذهب أو الفضة

أو الدم أو الضباب، خيوط ناجية من نسيان متفجّر هو ليس نسياناً بل عودة إلى النهاري، إلى الهُنا والآن حيث نتشبّث لكي نحاول أن نبقى على قيد الحياة. ذاك الشيء الذي هو سطح السفينة الخلفي. إنها لعبة ظلال ومصابيح حمراء. سطح السفينة الخلفي، ذاك الشيء، هناك. لا شيء يذكر فيه حضوراً: لا الرافعات ولا أطراف المؤخرة ولا منصّة الصارية ولا رجال الطاقم ولا الأعلام الصحية الصغيرة ولا نوارس تطير فوق حبل الصارية. ولكن سطح السفينة الخلفي، ذاك الشيء الذي يواصل بيرسيو النظر إليه، أقفاص العلامات الوحشية في الجهة اليسرى، قفص الحيوانات المفترسة، الأسد واللبوة اللذان يدوران ببطء في الحلبة المحاطة بسلكٍ حديدي شائك والبدر الذي يعكس نوره على جلد بطنيهما الفوسفوريين. يزأران بحذر، رابطَي الجأش وممتعضين من دوار البحر، وغير عابئين بالثرثرات الهستيرية لقرود بورنيو التي تهرش مؤخراتها وتنظر إلى أظافرها. بين هذه الحيوانات ما هو حر على سطح السفينة، طيور مالك الحزين، والنفاريش والمناجذ والقنافذ والنموس والمراميط والببغاوات. محتوى الأقفاص والحلبات يتبيّن شيئاً فشيئا، والفوضى والارتباك يأخذان أشكالاً مطّاطة وقاسية في آنٍ واحد، شبيهة بتلك الأشكال التي تمنح الأناقة والصلابة لموسيقي بيكاسو الذي ينتمي إلى أبولينير. أنوار خضراء وزرقاء تنسرب إلى هذا السواد، هذا البنفسجي، هذا الليلي، ودوائر صفراء تنفصل عن المناطق السوداء (جذع الموسيقي أو ربما رأسه)، ولكن استحضار هذا التشابه إن هو إلا مجرد ذكريات، أي موضوع خطأ لأن خيالاً هارباً يظهر على إحدى الحواف وربما كان فانت، خيالاً ذا أجنحة واسعة، علامة تجمّع القدر، أو ربما توكولكا ذو منقار الصقر وأذني الحمار، إلا إذا كان، هذه الليلة، في الجهة الخلفية، القباطنة ورؤساء العمال ينظّمون حفلاً تنكّرياً، أو أن حمى التيفوس 224 جعلت القبطان سميث يهذي وهو ممدّد على سرير صغير مبلّل بحمض الفينيك يردّد مزامير باللغة الإنكليزية مطعّمة بلهجة

نيوكاسل. فكرة سيرك محتَمل تشق طريقها في نفس بيرسيو. سيرك فيه آكل النمل والمهرجون والبط، يرقصون على سطح السفينة تحت خيمة من النجوم، وهذا الظهور المفاجئ لا يمكن أن يُعزى إلا إلى نقص رؤيته للجسر الخلفي. وعندما فتح عينيه أكثر، عينيه المثبّتين على البحر الذي تشقّه مقدّمة السفينة وتفصله، صعدت ألوان المشهد فجأةً وأحرقت أجفانه. غطّى وجهه بيديه وهو يصرخ، فما أتيح له أن يراه يتكوّم في فوضى على ركبتيه ويرغمه على أن ينحني وهو يئن سعيداً سعادةً يائسة.

31

توجّه أولاً إلى البار، يريد أن يشرب كأساً مترعاً من الويسكي، فقد كان واثقاً من أن ذلك سيجعله أفضل، ولكن ما إن وصل إلى الممر حتى استشعر الليل، في الأعلى، تحت السماء، فأراد أن يرى البحر ويعيد بعض النظام إلى أفكاره. الساعة تجاوزت منتصف الليل عندما أتى ليستند إلى الدرابزين وهو في منتهى السعادة لكونه وحيداً على سطح السفينة. لم يستطيع أن يرى بيرسيو وقد حجبه أحدُ أنابيب الهواء. رن جرس ضعيف في البعيد، على سطح السفينة أو على العبارة. رفع مدران رأسه: النور الذي ينبثق من جسد الزجاج نفسه ولّد لديه انطباعاً غير محبّب، كالعادة. ولكنه، في الوقت الحاضر، لا يستطيع التفكير إلا بالحديث الذي أجراه مع كلوديا والذي انتهى بطريقة هادئة إلى أقصى الحدود، متجمّعة، كما لو أنه هو وكلوديا ناما قرب خورخي. لم يناما ولكن ربما كان لكل ما قاله أحدهما للآخر الأثر الإيجابي عليهما. أو ربما لا، فالأحاديث الشخصية لا يمكنها أن تحلّ شيئاً، فبالنسبة إليه على الأقل لم يكن الماضي ليتّضح كما فعل. ولكن الحاضر غدا أكثر حلاوةً وأكثر امتلاءً كجزيرة للزمن محاطة بالليل، وباقتراب الفجر،

خطأ بقايا أمس وأول أمس وهذا الصباح وهذا المساء، ولكنها جزيرة فيها كلوديا وخورخي إلى جانبه. إنه معتادٌ على عدم خصي فكرته فتساءل ما إذا كانت مفردة الجزيرة هذه لا تخبّئ عاطفةً وما إذا كانت أفكاره، كمرّاتٍ كثيرة سابقة، لا تعكس ألوان الحنان ورغبةً في الحماية. فكلوديا ما تزال امرأةً جميلة، والكلام المُسهب معها يفترض اقتراباً أولياً ودقيقاً من الحب. لم تزعجه فكرة أن تكون كلوديا ما تزال تحب ليون ليوباوم؛ كما لو أن بوسعه الآن أن يلِج إلى حقيقةٍ أخرى عند كلوديا.

ما كانا يعرفان بعضهما بعضاً حقاً إلا قبل ساعات قليلة. ولا يتذكّر مدران في حياته مناسبةً قامت فيها علاقة بين شخصين بهذه البساطة، كما لو أنه نوع من الضرورة. تبسّم عندما تذكّر اللحظةَ بالضبط (إنه واثقٌ من شعوره الصحيح) التي غادرا فيها درجةَ العلاقات العادية ونزلا، كأنهما يضعان يداً بيد، إلى مستوى مختلف حيث غدت الكلمات مفعمةً بالحنان أو بالقسوة، بالمديح أو باللوم. لقد حدث ذلك في اللحظة نفسها التي قال: «أم خورخي، الشبل»، ففهمت تماماً أن ذلك كما لو أن مدران وضع في يديها المفتوحتين رغيف خبزٍ ساخن أو زهرة. لصداقتهما الأسس الأكثر قوة، أسس الاختلافات والمنازعات. فهذا المساء قالت له كلوديا كلمات قاسية جداً، بل إنها رفضت حقه في أن يفعل بحياته ما قرّر أن يفعله، ولكن بأي ارتباكٍ عظيم أضافت: «من أنا لألومكَ على حياة عادية في حين أن حياتي...». وصمتا، ونظرا إلى خورخي النائم ووجهه متّجهٌ نحوهما، بدا وسيماً جداً تحت نور المصباح الضئيل.

فاجأ خيالُ بيرسيو أفكارَه ولكنه استقبله بسرور، فقال بيرسيو وهو مستند إلى الدرابزين بجانبه:

ـ رحلة من أهم الرحلات. لقد تدارست قائمة أسماء المسافرين فاستخلصتُ منها نتائج مدهشة.

ـ أتمنى أن أعرفها يا عزيزي بيرسيو.

ـ إنها لم تتّضح بعد، ولكن النتيجة الرئيسية تكمن (كلمة جميلة جداً، تقال بصورة عابرة، مطّاطة جداً) في أننا نحن جميعاً تحت تأثير كوكب عطارد. نعم، لقد برز إلى ناظري أن اللون الرمادي هو لون هذه القائمة. توحّد الشكل المثقّف لهذا اللون حيث عنف اللون الأبيض وانعدام اللون الأسود يذوبان في لون رمادي متلألئ، هذا إذا اكتفيتُ بأحد أثمن التباينات اللونية.

ـ إذا قُدّر لي أن أفهمكَ، أنتَ تقصد أن تقول أن لا أحد بيننا غريب، شخص خارج المألوف.

ـ تقريباً نعم.

ـ ولكن يا بيرسيو، ما هذه السفينة إلا شريحة من الحياة. والغريب لا يُصادَف إلا بنسبة مئوية ضئيلة، اللهم إلا في الإبداعات الأدبية، وهذا بالضبط ما يجعل الأدب أدباً. لقد عبرتُ المحيط مرتين، ما عدا رحلات عديدةٍ أخرى، ولم ألتقِ بأناس غير عاديين. آه، بلى، لقد تناولتُ الغداء ذات مرة في القطار الذاهب إلى خونين مقابل لويس أنخيل فيربو وكان قد صار عجوزاً وسميناً ولكنه كان ما يزال لطيفاً.

ـ لويس أنخيل فيربو، برج الحمل نموذجي مع المريخ ككوكب رئيسي. لونه هو الأحمر ومعدنه هو الحديد بالتأكيد. قد يقترب منه أتيليو بريسوتي قليلاً وكذلك الآنسة لافال التي هي ذات طبيعة شيطانية بصورة خاصة، ولكن النوتات السائدة هي وحيدة الأوتار... هذا لا يعني أني أتذمّر من ذلك، سيكون الأمر لا يُطاق إذا كانت الأغلبية من زحل أو بلوتون.

قال مدران:

ـ أخشى أن تنظر إلى الرحلة من زاوية روائية، فكل الذين يُبحرون لأول مرة يعتقدون أنهم سيلتقون أناساً مختلفين، وأن عملية تغيّر في الهيئة ستتم على متن السفينة. أنا أقل تفاؤلاً وأعتقد

مثلك أن ليس بيننا من بطل ولا معذّب كبير ولا حالية مؤسية، ولكنها مسألة مستوى.

ـ آه، المستويات! إنها مسألة هامة بالتأكيد. لم أنظر بعد إلى قائمة أسماء المسافرين إلا من زاوية مطلقة، ولكن يجب أن أدرسها من وجهات نظرٍ مختلفة، ربما كنتَ على حق.

ـ ربما، خذ مثلاً اليوم، فقد جرت أحداث صغيرة قد يكون لها نتائج كبيرة. احذر الحركات التراجيدية والبرونونسيامنتوس الكبيرة، ما هذا إلا أدب، صدّقني.

فكّر بفعل كلوديا البسيط حين أسندت يدها إلى ذراع المقعد وأخذت تحرّك أصابعها بين وقتٍ وآخر. المشكلات الكبرى، والقفزات في المطلق كنموذج كارامازوف وستافروغين، أليس هذا اختراع من أجل الجمهور؟

كذلك هناك نماذج جوليان سوريل في العادية، والتفاهة اليومية، والقفزة الأخيرة أسطورية مثل قفزة أي بطل أسطوري. ربما كان بيرسيو يحاول أن يقول له في تلك اللحظة أشياء تفرّ منه. أمسك به من يده ومشيا بضع خطوات فوق سطح السفينة الذي كانت تنيره النجوم.

سأل مدران بصوتٍ حيادي:

ـ أنتَ أيضاً كنتَ تفكّر بمؤخرة السفينة، أليس كذلك؟

ردّ بيرسيو بصوت أكثر حيادية:

ـ فهمت، إنه هرج ومرج فوق التصور.

ـ آه، لقد فهمتَ ذلك.

ـ نعم، أحياناً. أفهمه ثم لا أعود أفهمه، كل شيء مختلط تماماً... أما بالنسبة إلى التفكير فيه، فإني أفكر فيه باستمرار.

ـ لا بدّ أنكَ مندهش من أننا لا نفعل شيئاً. لا تجبني، فأنا أعرف ذلك. وأنا أيضاً مفاجأ، ولكن هذا يعود إلى «الصغر» الذي كنا

نتحدّث عنه. لقد قمنا بعدة محاولات، ولقد فشلت فشلاً ذريعاً، وهانحن؛ هنا تتدخّل قصة الكائنات ذات المستوى الصغير. كومة من اللاشيئيات، سيجارة نشعلها، ويد تستند إلى ذراع المقعد، وسخرية نتلقّاها كقفّاز يصفعنا على وجوهنا... كل هذه الأمور الصغيرة لها أهمية يا بيرسيو، ولكنكَ تعيش وأنفكَ في النجوم ولا ترى إلا الكوني من الأمور.

قال بيرسيو متأثّراً بعض الشيء:

ـ نستطيع أن نرى النجوم وأن نرى أطراف الأهداب في آنٍ واحد. لماذا كنتُ سأقول إن قائمة أسماء المسافرين مهمة جداً؟ بسبب عطارد، تماماً بسبب اللون الرمادي، وبسبب الخمول العام تقريباً. إن كان ذلك لا يهمني فسأبقى عند كرافت أصحّح نسخ روايات همنغواي حيث تحدث أمور على مستوى كبير.

قال مدران:

ـ لا تظن أني أسعى إلى تبرير تصرفنا. ولكني لا أعتقد أننا نستطيع استيضاح الأمر إن لم نلح. اللّهُم إلا إذا وقعنا بالتحديد في أمرٍ مشهود. وقد يؤدّي هذا إلى لا شيء وبأن ينتهي نهاية من نوع: «تمخّض الجبل فولد فأراً». وهنا يتدخّل يا بيرسيو الخوف من المُضحك. هذا ما نخشاه، وهنا يكمن (وسأردّ إليكَ كلمتك الجميلة) الفارق بين البطل وشخصٍ عادي مثلي. المُضحك هو دائماً شعور على مستوى صغير. إننا لا نطيق فكرة أنهم يضحكون منا. لذا هناك، من ناحيةٍ، المؤخرة، ومن ناحيةٍ أخرى نحن.

ـ نعم، أعتقد أني والسيد بورينيو الوحيدان اللذان لا يخافان من المضحك. ذلك ليس لأننا بطلان. ولكن الآخرين... آه، اللون الرمادي، يا له من لون دقيق. إنه لا يُغسَل.

حوارٌ سخيف. تساءل مدران إن كان أحدٌ ما يزال موجوداً في البار. إنه يشعر بحاجةٍ إلى شرب شيءٍ ما. بدا بيرسيو مستعداً للحاق

به ولكن باب البار كان مغلقاً فافترقا وهما كئيبان. بينما مدران يفتح باب مقصورته فكّر من جديد باللون الرمادي. لقد قصر حديثه مع بيرسيو لأنه كان يشعر بحاجة إلى أن يكون وحيداً من جديد. يد كلوديا على ذراع المقعد... ولكن هذا الانزعاج الخفيف في أسفل معدته، وتلك الوعكة التي سُمّيت في البداية بيتينا، ولكنها لم تعد بيتينا، لا كلوديا ولا إخفاق مهمته، حتى لو كان الأمر هذا كله في آنٍ واحد وشيئاً أخر أكثر، شيئاً كان عصيّاً عليه أن يكتشفه، فإن هذه الوعكة كانت هنا، في داخله جداً بحيث لا يمكنه الإمساك بها أو تحديدها.

في ذلك المساء نفسه أخذ د. ريستيللي الكلام لكي يُري راؤولَ ولوبيزَ المخطَّطَ الصغير الذي وضعه مع دون غالو خلال فترة الظهيرة. لقد وجدا أن العلاقات بين الركاب ليست كما يجب، فهناك بعض الأشخاص الذين لم يتسنَّ لهم أن يلتقوا لقاءً فعلياً، وهناك آخرون ينزعون إلى الانعزال. باختصار، بعدما رآه هو ودون غالو، فكّرا بأن سهرةً ترفيهية صغيرة كفيلةٌ بكسر هذا الجليد. فإذا ما أراد كلٌّ من راؤول ولوبيز أن يقدّما إسهامهما، ومعهما كل شخص يمتلك مواهب اجتماعية، لا ريب في أن السهرة ستلاقي نجاحاً كبيراً. وحينئذ ستُستأنف الرحلة في جو بعيد عن التشنّج ومليء بالمحبة، الأمر الذي ينسجم مع الطبع الأرجنتيني، حيث يكون المرء متحفّظاً في البداية، ولكنه ما يلبث أن يصبح منطلقاً جداً ومنفتحاً جداً بمجرد أن يُمنَح الثقة.

قال لوبيز وقد أخذته المفاجأة:

ـ حسنٌ، حقاً، أنا أجيد اللعب ببعض ألعاب الورق.

صاح د. ريستيللي:

ـ عظيم، عظيم! يا زميلي العزيز، هذه الأمور، وإن بدت تافهة، لها أهمية قصوى من الناحية الاجتماعية. لقد ترأستُ ما يكفي من

المجالس الأدبية والترفيهية بحيث أني توصّلت إلى قناعة بأن لاعبي الخفة هم الأفضل استقبالاً. ومن ناحيةٍ أخرى سوف أنبّهكَ إلى أن هذه السهرة، إذ تهدف إلى تقريبٍ فني وروحي، فإنها ستخلق متعةً للعقول كان سيمحوها، بحق، خبر الوباء. وأنا أقصد هنا السيدات اللواتي هنّ أكثر حساسية منا نحو هذه المسائل. وأنتَ يا سيد كوستا؟ ماذا ستقترح علي؟

ـ ليست لديّ أية فكرة. ولكن إذا تركتَ لي وقتاً لمناقشة الأمر مع باولا فأنا واثق من أننا سنجد شيئاً ما.

قال د. ريستيللي:

ـ عظيم، عظيم! أنا واثق من أن كل شيء سيسير على ما يرام.

لم يكن لوبيز كثير الثقة بذلك، وعندما اختلى براؤول من جديد (بدأ عامل البار في إطفاء الأنوار، فقد آن أوان النوم)، قرّر أن يتكلّم فقال:

ـ ما قولكَ في أن نقوم بجولة صغيرة ثانية إلى المناطق السفلى، رغم أن باولا قد تسخر منا مرةً أخرى؟

سأل راؤول مفاجأً:

ـ في هذه الساعة؟

ـ أوه، ليس لديّ انطباع بأن الوقت له أهمية كبيرة في الأسفل. لن يكون من شهود علينا، وقد نجد الممر. يجب أن نسلك من جديد الطريق الذي سلكتَه بعد الظهر مع الفتى تريخو. لا أعرف بالضبط من أين يجب أن أنزل، ولكن إذا كنتَ تعباً يمكنكَ ببساطة أن تدلّني على الباب وسأذهب بمفردي.

نظر إليه راؤول. إذن هذا اللوبيز، كم يتلقّى الضربات بصورة سيئة. باولا ستسعد كثيراً إن سمعته يتحدّث هكذا. قال له:

ـ سأرافقك بسرور عارم. أنا لست نعساناً، وقد تكون المغامرة ممتعة.

باب الممر ما يزال مفتوحاً بصورة ليس لها تفسير، فنزلا دون أن يصادفا أحداً.

قال راؤول:

ـ هنا وجدتُ الأسلحة. وهنا كان يوجد دهنيّان أحدهما ضخم الجثة. هه، ما يزال النور مُضاءً. لا بدّ أن ذلك محرسٌ رغم أن له شكل مخزن خلفي لمصبغة. هيا بنا.

لم يرياه عندما دخلا لأنه كان مقرفصاً خلف كدسة من الأكياس الفارغة. نهض ببطء وبين ذراعيه هر أسود. نظر إليهما دون أن يبدو مفاجأً، بل كل ما أبداه هو بعض تبرّمٍ لأنهما أزعجاه في مثل تلك الساعة.

قال راؤول وهو يسدّد إصبعه نحو البحار:

ـ انظر! اسمه أورف، وهو بصورة عامة أخرس.

ثم أضاف بحركةٍ ودودة من يده:

ـ هاسدالا.

أجاب أورف:

ـ هاسدالا. إني ألفت انتباهكما إلى أن المجيء إلى هنا ممنوع.

قال لوبيز وهو يحاول أن يعرف جنسية هذا الشخص من اسمه:

ـ هه، إنه ليس أخرس إلى هذا الحد.

قال راؤول وهو يجلس على أحد المقاعد مُخرِجاً غليونه:

ـ لقد سبق أن قلتَ لنا ذلك بعد الظهر. كيف حال القبطان سميث؟

أجاب أورف وهو يُنزِل الهر على طول ساقه:

ـ لا أعرف. من الأفضل أن تذهبا.

ولكن لم يبدُ عليه الاقتناع، وانتهى به الأمر أن جلس على كرسي عال من دون مسند. جلس لوبيز على طرف الطاولة وأخذ

يدرس الخرائط الجدارية بالتفصيل. اكتشف وجودَ باب في صدر المقصورة، وتساءل إن كان بوسعه أن يصل إليه بقفزة واحدة قبل أن يتمكّن أورف من الالتفات. قدّم راؤول التبغ لأورف فقبل. كان يدخّن في غليون خشبي قديم نُقشت عليه صورة حورية ولكن دون الوقوع في خطأ تمثيلها بالتفصيل.

سأله راؤول:

ـ منذ زمن طويل وأنتَ تعمل بحاراً؟ أقصد على متن مالكولم.

ـ منذ سنتين. أنا من بين أحدث البحارة.

نهض لكي يُشعل غليونه من عود الثقاب الذي قدّمه له راؤول. في لحظة نزول لوبيز عن الطاولة متجهاً إلى الباب، رفع أورف كرسيَّه وتقدّم خطوة. نهض راؤول بدوره لأن أورف التقط الكرسي بقدمه وليست هذه طريقة عادية في التقاط الكرسي. ولكن قبل أن يُتاح للوبيز أن يرى الحركةَ المهدِّدة أنزل البحارُ الكرسي وزرعه أمام الباب وجلس عليها. كل هذا جرى بحركة واحدة مستمرة وكأنها حركة باليه. نظر لوبيز إلى الباب، وضع يديه في جيبيه ثم التفت نحو راؤول الذي قال وهو يهزّ كتفيه:

ـ orders are orders «الأوامر هي الأوامر». أعتقد أن صديقنا أورف شخص ممتاز، ولكن الصداقة عنده تنتهي حيث تبدأ الأبواب، أليس كذلك؟

قال أورف بنبرة متذمّرة:

ـ أنتما تلحّان، تلحّان... لا يمكنكما أن تمرّا. من الأفضل لكما أن...

وسحب من غليونه سحبةَ العارف ثم قال:

ـ تبغٌ ممتاز يا سيدي، هل اشتريتَه من الأرجنتين؟

ـ اشتريتُه من بيونس آيرس، جادة فلوريدا. لقد كلّفني دم قلبي،

ولكني أعتقد أن دخان التبغ يجب أن يدغدغ منخري زيوس دغدغةً لطيفة. فبم ستنصحنا يا أورف؟

أجاب أورف وهو مكفهرّ الوجه:

ـ بلا شيء.

قال راؤول:

ـ بلى! أرجوك. لأننا كنا ننوي أن نزوركَ باستمرار، أنتَ وصديقك ذو الأفعى الزرقاء.

ـ بمناسبة الحديث عن بوب... لماذا تصرّون على المجيء إلى هنا؟ ليس مجيئكم هو ما يزعجني، بل على العكس، ولكن إذا حدث أمرٌ...

ـ لن يحدث شيء، للأسف. زيارات وزيارات، وأنتَ دائماً مع كرسيّكَ أمام الباب. في النهاية، سيكون بوسعنا أن ندخّن معاً، وسيكون بوسعكَ أن تحدّثنا عن كاركن وعن الهولندي الطائر. حسنٌ ماذا ستقول لنا.

أخذ لوبيز يصغي بذهولٍ إلى حوارهما وهو مُحبَط من إخفاق محاولته. نظر إلى راؤول الذي بدا مستمتعاً وهو لا يُبدي أية علامة من علامات فقدان الصبر. عاد على مضضٍ إلى الجلوس على حافة الطاولة. ربما كان يفكّر بمناسبةٍ أخرى للوصول إلى الباب. بدا أورف على أتمّ الاستعداد لمتابعة الثرثرة، ولكنه كان مستفزاً.

ـ أنتما مسافران، ولن تفهما. الأمر سيان عندي أن أُريكما... ولكننا نتعرّض للخطر أنا وبوب... وبسبب خطأ بوب قد يحدث...

قال راؤول وهو يشجّعه بنظره:

ـ ماذا؟

فكّر لوبيز: «إنه كابوس. فهو لا يُنهي أيةَ جملةٍ من جمله، ويتكلّم كخرقةٍ تنسّل».

ـ بوصفكَ راشداً، عليكَ أنتَ أن تراقبه لأن...

ـ أراقب ماذا؟

أجاب أورف:

ـ الفتى الصغير الذي أتى معك.

كفّ راؤول عن الإيقاع على كرسيّه، وقال:

ـ لم أفهم، ماذا حدث؟

اتّخذ أورف مجدّداً هيئةً كئيبةً ونظر إلى الباب الموجود في صدر القاعة كأنما يخشى أن يسمعه أحد، وقال:

ـ لا شيء. لا شيء. أقول لكَ فقط أن تقول له... ثم أضاف بنبرةٍ حانقة: يجب ألا يأتي أحدٌ إلى هنا. والآن يجب أن أذهب للنوم. لقد تأخر الوقت.

ـ لماذا لا يمكننا أن نمرّ من هذا الباب؟ أهو يؤدي إلى مؤخرة السفينة؟

ـ لا، إنه يؤدي... المهم، إلى مكان أبعد. فخلفه يوجد مقصورة ولا يمكن الدخول.

قال راؤول وهو يضع غليونه في جيبه:

ـ هيا بنا. هذا يكفي لهذا المساء. إلى اللقاء قريباً يا أورف.

ـ من الأفضل لكما ألا تعودا. الأمر سيان عندي ولكن...

ما إن وصلا إلى الممر حتى تساءل لوبيز بصوتٍ عالٍ عن معنى هذه الجمل المفكّكة. قال راؤول بنفاد صبر:

ـ بدأتُ أفهم بعض الأمور. هذا السُكر الذي تعرّض له، إني أستغرب أن يكون عامل البار قد أعطاه كل هذه الكمية من الكحول. ورائحة التبغ تلك... إنه تبغ أحد الدهنيين التافهين.

قال لوبيز:

ـ لقد أراد ذلك الصبي أن يفعل مثلنا، أن يظهر ويتباهى بأنه أول من اكتشف اللغز.

ـ نعم، ولكنه يتعرّض إلى المخاطر أكثر منا.

ـ أتظن ذلك؟ صحيح أنه طفل ولكن ليس إلى هذا الحد.

لم يُجب راؤول. وعندما وصل لوبيز إلى أعلى الدرج التفتَ إلى صديقه فصدمته هيئته. فقال:

ـ قل لي، ماذا ننتظر لكي نفعل الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله مع هؤلاء الأشخاص؟

سأله راؤول بهيئة ذاهلة:

ـ ماذا؟

ـ أن ندمّرهم بقبضاتنا. منذ لحظة كنتُ سأصل إلى ذلك الباب.

ـ ربما، ولكن أورف ليس قزماً وأنا لا أتصور أني أستطيع أن أثبّت كتفيه على الأرض بينما تقوم أنتَ بفتح الباب. وفي النهاية ليس لدينا أي حق في استخدام هذه الطرق.

ـ نعم، هذا هو السأم. إلى اللقاء غداً يا صديقي.

قال راؤول وهو لا يعرف ماذا يقول:

ـ إلى الغد.

بعد قليل، توقّف لوبيز في الممر لكي يتأمّل منظومة القضبان الفولاذية والمسنّنات. فكر أن راؤول مستغرق الآن في سرد قصة إخفاقهما على باولا. تخيّل تماماً سحنة باولا الساخرة: «آه، كان لوبيز معك؟ طبعاً...». ثم يتلو ذلك تفكيرٌ لاذع حول غباء الجميع. وفي الوقت نفسه يرى من جديد وجه راؤول على الدرج، وجهاً يُقرأ فيه الخوف وانشغال البال والهم الذي لا علاقة له بتاتاً بالمؤخرة ولا بالدهنيّين. فكر: «في النهاية، هذا لا يفاجئني أبداً». ولكن... يجب ألا يتوهّم كثيراً. ومع ذلك إن ما تحقّق منه للتو يتفق مع ما

قالته له باولا. لم يصدّقها. فهذه الأمور لا تصدّق إن لم تكن معيشةً كثيراً. فكّر: «ليتني أستطيع أن أصدّق ذلك». شعر بسعادة مفاجئة، فاقد الصبر وسعيداً ومليئاً بالأمل بصورة حمقاء. ثم قال لنفسه وهو ينظر إلى نفسه في المرآة: «سوف أبقى على هذه الحماقة».

ولكن باولا لم تسخر منهما. بل كانت مستقرةً بارتياحٍ في سريرها تقرأ رواية لبونتامبيللي عندما رأت راؤول داخلاً. أبدت كثيراً من صفاء المزاج فأتى راؤول، بعد أن سكب كأساً من الويسكي، وجلس قربها على طرف السرير وامتدح سمرتها.

قالت باولا:

ـ بعد ثلاثة أيام سأصبح إلهة اسكندينافية حقيقية. أنا مسرورة لأنكَ هنا، وأنا بحاجة إلى أن أكلّمكَ في الأدب، فنحن لم نتكلّم في الأدب منذ أن أتينا إلى هنا. هذه ليست حياة.

قال بذهول:

ـ هيا تحدّثي. هل لديكِ نظرية جديدة؟

ـ لا، نفاد صبرٍ جديد. شيءٌ ما كئيبٌ يحدث معي يا عزيزي راؤول: كلما كان الكتاب الذي أقرأه جيداً كلما أثار اشمئزازي. أقصد أن أقول إن تميّزه الأدبي يثير اشمئزازي. وبمعنى آخر، إن الأدب يثير اشمئزازي.

ـ ما عليكِ إلا أن تكفّي عن المطالعة، فالأمر في منتهى السهولة.

ـ لا، فأحياناً أجد هنا أو هناك كتاباً ليس من عيون الأدب ولا يثير اشمئزازي. بدأتُ أعرف لماذا تخلّى الكاتب عن كل تأثير، وعن كل جمالٍ شكلي، وذلك دون أن يسقط في الصحافية أو في البحث وحيد الموضوع. أعتقد أنه من الواجب إيجاد أسلوب جديد نستطيع أن نواصل تسميته أدباً إذا أحببتَ، ولكن من الأصح أن نسمّية اسماً آخر. ولا يمكن لهذا الأسلوب الجديد إلا أن يتأتّى من رؤية جديدة للعالم. ولكن إذا ما حدث ذلك ذات يوم فكم سنجد هذه الروايات التي

نُعجب بها اليوم تافهة؟ هذه الروايات المليئة بسخافات، بفصولٍ وبفصول فرعية وبمداخل ومخارج محسوبة جيداً...

ـ أنتِ شاعرة. وتعريف الشاعر أنه عدو الأدب. ولكننا، نحن الكائنات الأرضية المسكينة، ما نزال معجبين بفصل لهنري جيمس أو لكارلوس أونيتي اللذين، ولحسن حظنا، ليس فيهما من الشعراء شيء. في الحقيقة، إن مأخذكِ على الروايات هو أنها تقودكِ من أنفك، أو أنها تحدث تأثيراً على القارئ ينطلق من الخارج نحو الداخل، بعكس الشعر. ولكن لماذا لا يزعجكِ الجانب المصطنع عند بيكاسو أو عند ألبان بيرغ؟

ـ ذلك لأني لا أدرك. لو كنتُ رساماً أو موسيقياً لربما تولّد عندي رد الفعل العنيف نفسه. ولكن ليس هذا فقط، إن ما يؤسفني هو الفقر في الوسائل الأدبية وتكراراها إلى ما لا نهاية. قد تقول لي ليس هناك من تقدم في الفنون، حسنٌ إن هذا ليؤسفني. عندما تقارن الموضوع نفسه معالجاً عند كاتب قديم وكاتب حديث، فستكتشف أن ليس هناك من فارق، على الأقل من الناحية البيانية. كل ما نستطيع أن نقوله أننا في أيامنا هذه أكثر انحرافاً وأفضل اطّلاعاً، وأن لدينا تشكيلة أوسع بكثير؛ ولكن العكاكيز هي نفسها، النساء يشحبن أو يحمرّين (الأمر الذي لا يحدث في الواقع أبداً، فأنا أصبح خضراء قليلاً، وأنتَ أحمر قانٍ.) والناس يتحرّكون ويفكرون ويجيبون حسب نوعٍ من المنظومة العالمية يمكن أن تطبّق على رواية هندوسية كما على بيست سيللر أمريكية شمالية. هل فهمتَ قليلاً ما أقصده الآن؟ إني أتكلّم عن الأشكال الخارجية، ولكن هذا التكرار يُظهِر جيداً العقم المتأصّل، ولعبة التنويع على الموضوع الفقير نفسه، كتلك الغسالة هيايندميث على موضوع لفيبر سمعناه ذات مساء بإلهامٍ جنائزي.

شعرت بالارتياح فتمطّت فوق سريرها ووضعت يدها على ركبة راؤول وقالت:

ـ أنتَ مربدّ الوجه، هيا احكِ لماما باولا.

ـ أوه، أنا على ما يرام، أما صديقي لوبيز الذي أسأتِ معاملتَه فسحنته أشأم من سحنتي.

ـ إنكم تستحقّون ذلك أنتَ ومدران وهو. أنتم تتصرّفون كفاقدي العقل، أما لوسيو فهو العاقل الوحيد. أعتقد أني لستُ بحاجةٍ لكي أفسر لك أن...

ـ بالتأكيد، ولكن لا بد أن لوبيز ظن أنكِ تقبلين أنصار النظام والفوضى. لقد أثّر ذلك فيه أيما تأثير. أنتِ تفهمين، أنتِ نموذجه البدئي، وولكايريه، فيرياه، لذلك سقط من علٍ.

ـ وهكذا فإن جاميكا جون سيمضي خافض الرأس يا قرصاني العزيز، وسيكون غطاؤه منكّساً... أنت تعلم أن جاميكا جون يعجبني كثيراً. لا تستغرب أن أسيء معاملته، فأنا بحاجة إلى...

قال راؤول وهو ينهي كأس الويسكي:

ـ آه، لا تعودي إلى تطلّباتك... لقد رأيتكِ تضيّعين كثيراً من المايونيز في حياتك لأنكِ أضفتِ الملح أو الليمون في اللحظة السيئة. ومن ناحية أخرى لا يهمني رأيكِ في لوبيز ولا فيما تأملين أن تكتشفي فيه.

ـ سيدي غاضب؟

ـ لا، ولكنكِ أكثر تعقّلاً عندما تتكلمين عن الأدب من كلامك عن العواطف، وهذا أمر طبيعي جداً عند النساء. أعرف أنكِ ستقولين لي إن هذا يبرهن على أني لا أعرفهن. إني سأرحمكِ من التعليق.

ـ لن أجعلك تقوله، ولكن، في الصميم أنتَ على حق. أعطني جرعةً من هذه القذارة.

ـ لا، سيكون لسانكِ أبيض صباح الغد. الويسكي يضرّكِ في مثل هذه الساعة، ثم إنه يكلّف كثيراً ولم يعد لديّ إلا أربع زجاجات.

ـ أعطني قليلاً منه يا أيها البخيل.

ـ اجلبيه بنفسك.

ـ أنا عارية.

ـ وماذا بعد؟

نظرت إليه ثم ابتسمت وسألت وهي تُخرج قدمها من السرير:

ـ وماذا بعد؟

ثم نهضت بقفزةٍ واحدة، رمت الملاءة على رأسه وذهبت إلى الرف حيث صُفَّت الزجاجات.

قال وهو يُخرج رأسه من طرف الملاءة:

ـ إليتاكِ جميلتان، فماذا عن الأمام؟

قالت بصوتٍ يثير سخطه:

ـ الأمام يهمكَ أقل.

سكبت كأساً كبيراً، ذهبت إلى الحمام لكي تضيف ماءً، ثم عادت إلى المقصورة متمهّلة. نظر راؤول إلى عينيها ثم أخفض نظرته إلى نهديها ثم إلى بطنها. كان يعرف ما سيحدث وكان مستعداً له. هزّته الصفعة من رأسه حتى قدميه، وفي الوقت نفسه تقريباً سمع نشيج باولا وصوت كأسين يتدحرجان على السجادة دون أن ينكسرا.

قال:

ـ سيكون الهواء غير صالح للتنفس. كان أولى بكِ أن تشربي كأس الويسكي. لدي ماء سيلتز لأضعه لكِ.

مال عليها وهي منبطحة على السرير تبكي. داعب كتفها ثم لوَح الكتف الذي لم يكن مرتسماً بوضوح ثم نزلت أصابعه على طول ظهرها، إلى داخل الخط الناعم وتوقفت عند انتفاخ العجز. أغمض عينيه لكي يرى بشكلٍ أفضل الصورةَ التي يريد أن يراها...

«... من يحبك يا نورا؟» وتأملت توقيعه ثم طوت الرسالة بسرعة وكتبت العنوان وختمت الظرف. كان لوسيو جالساً على السرير يطالع أخر عدد من الريدرز دايجست. قال أخيراً:

ـ الوقت متأخر جداً. ألن تنامي؟

لم تجبه نورا. نهضت وتناولت قميص النوم والمبذل ثم أغلقت باب الحمام على نفسها. أخذ ماء المرشاش يسيل بقوة. حاول لوسيو الاهتمام بمشكلات طيار الميلووكي الذي صار من معتنقي إحدى الحركات اللاتعميدية قبل إحدى جولات القصف. سرعان ما تخلى عن ذلك، وقرر أن ينام، ولكنه كان مضطرّاً لانتظار دوره لكي يغسل أسنانه إلا إذا... صرّف بأسنانه وذهب يهزّ قبضة باب الحمام بقوة، لا جدوى. سألها بصوت أراده أكثر طبيعية ممكنة:

ـ ألا تستطيعين أن تفتحي؟

ـ لا، لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأني خارجة حالاً.

ـ أقول لكِ افتحي.

لم تجبه نورا. لبس منامته ثم علّق ثيابه ورتّب الخف والحذاء. أخيراً عادت نورا محمرة الوجنتين والمنشفة ملفوفة كشريط حول رأسها. لاحظ لوسيو أنها لبست قميص النوم في الحمام. جلست أمام طاولة الزينة وأخذت تجفّف شعرها بتمشيطه بالفرشاة، بحركات طويلة لا تنتهي.

قال لوسيو بصوتٍ ثابت:

ـ حقاً أريد أن أعرف ما يحصل لكِ. هل غضبتِ لأني قمتُ بجولة مع تلك الفتاة؟ كان بوسعكِ أن تأتي لو شئتِ.

من الأعلى إلى الأسفل، من الأعلى إلى الأسفل، أخذ شعر نورا يلمع. قال أخيراً:

ـ أثقتكِ بي قليلة إلى هذه الحد؟ أم أنكِ ظننتِ أنني سأغازلها؟ لهذا السبب أنتِ غاضبة، أليس كذلك؟ ليس لديكِ سبب آخر للغضب على ما أعتقد. ولكن تكلّمي، قولي أي شيء. أأزعجكِ أن أتنزّه مع تلك الفتاة؟

وضعت الفرشاة على طاولة الزينة. بدت في منتهى التعب حتى ليظن من يراها أنها لم تعد قادرة على الكلام. أضاف مغيّراً من نبرة صوته وكأنه وجد مخرجاً:

ـ ربما أنتِ تعبة بكل بساطة. أنتِ لستِ غاضبة مني، أليس كذلك؟ لقد رأيتِ أني عدتُ مباشرة. وفي النهاية، ما في ذلك من ضير.

قالت بصوتٍ خافت:

ـ سوف ينتهي بكَ الأمر أن تقنعني بالعكس. إني أمنعكَ بطريقة...

ـ لأني أريد أن أفهمكِ أني مع تلك الفتاة...

ـ دع تلكَ الفتاة بسلام.

ـ إذاً لماذا أنتِ غاضبة؟

أجابت نورا بسرعة:

ـ لأنكَ كذبتَ علي، ولأنكَ تفوّهتَ هذا المساء بأشياء أثارت اشمئزازي.

ألقى لوسيو سيجارته ودنا منها. بدا وجهُه في مرآة طاولة الزينة مثيراً الضحك، الممثل الذي يلعب دور الرجل الفاضل، الساخط والمُهان. قال:

ـ أنا؟ وماذا قلتُ لكِ؟ أنتِ أيضاً ستصدّقين كل هذه الحماقات؟ تريدين أن تفسدي الرحلة إذن؟

ـ أنا لا أريد شيئاً، ولكنكَ آلمتَني عندما لم تقل لي شيئاً مما حدث بعد الظهر.

ـ بكل بساطة لقد نسيت. رأيتُ من الغباء لعب دور القاسي من أجل شيء في منتهى الوضوح. إنهم يريدون أن يُفشلوا الرحلة. أنا أقول لكِ إنهم يريدون أن يُفسدوا كل شيء بحماقاتهم السخيفة.

ـ كان بوسعكَ أن تتحاشى هذه الكلمات البذيئة.

ـ اعذريني، فقد نسيتُ أن سيدتي لا تطيق سماع مثل هذا الكلام.

ـ ما لا أطيقه هو السوقية والكذب.

ـ أنا كذبتُ عليكِ؟

ـ لم تُطلعني على ما جرى، وهذا يؤدي إلى النتيجة نفسها. إلا إذا كنتُ فتاة أصغر من أن تُطلعني على مثل هذه الأمور والحركات.

ـ ولكن يا عزيزتي لأن هذه الأشياء لا أهمية لها. لقد تصرّفوا جميعاً بإيعاز من لوبيز، وجرّوني إلى قضية لا تهمّني على الإطلاق، وقد قلتُ لهم ذلك بوضوح.

ـ أنا لا أجد الأمر بهذا الوضوحِ. من يتكلّم بوضوح هو هم وأنا خائفة. وأنتَ أيضاً خائف ولكنكَ تخفي ذلك.

ـ أنا أخاف؟ إذا كنتِ تتحدّثين عن التيفوس...

ـ هم لا يصدّقون التيفوس، ومع ذلك فهم قلقون. ولكنهم لا يخفون ذلك مثلك. إنهم يلعبون أوراقهم من فوق الطاولة، هم على الأقل، ويحاولون أن يفعلوا شيئاً ما.

تنهّد لوسيو بارتياح. عندما يُنظر إلى الأشياء من هذا العلو فإنها تفقد وزنها وجاذبيتها، وتغيب في العموميات. وضع يده على كتف نورا ومال لكي يقبّلها على شعرها وهو يقول:

ـ يا لكِ من غبية، يا لكِ من جميلة وغبية. وأنا الذي أفعل مابوسعي لئلا أقلقك.

ـ ليس من أجل ذلك لم تقل لي.

ـ بلى، من أجل ذلك.

قالت وهي تنهض لتذهب إلى سريرها:

ـ لا، ذلك لأنكَ كنتَ خجِلاً. والآن أيضاً، ما تزال خجِلاً. وفي البار لم تكن تعرف أين تدسّ نفسك، فقد كنتَ في منتهى الخجل.

اتّخذت الأمور مساراً سيئاً. ندم لوسيو على مداعبته وعلى قبلته. أدارت له نورا ظهرها بثبات، وبدا جسدها تحت الملاءة سوراً معادياً، مليئاً بالنتوءات والحواف والمهاوي التي تؤدي إلى غابة من الشعر المبلّل على الوسادة. كان جسدها سوراً بينه وبينها، سوراً صامتاً وجامداً.

عندما عاد من الحمام وجدها وقد أطفأت المصباح ولكنها لم تغيّر من وضعيتها.

اقترب وأسند ركبته على حافة السرير وأبعد الملاءة. انتصبت بسرعة وقالت:

ـ لا أريد. اذهب إلى سريرك، ودعني أنَمْ.

قال وهو يمسك بها من كتفها:

ـ أوه، أرجوكِ.

ـ قلتُ لكَ دعني. أريد أن أنَمْ.

ـ سأترككِ تنامين ولكن وأنا بجانبك.

ـ لا، أنا حرّانة، أريد أن أبقى وحيدة، وحيدة.

قال لوسيو بصوتٍ كأنه موجّه إلى الأطفال:

ـ أأنتِ غاضبة إلى هذا الحد؟ أإلى هذا الحد غاضبة هذه الفتاة الصغيرة الحمقاء؟

قالت وهي تغمض عينيها كأنما لكي تمحوه وقالت:

ـ نعم. دعني أنَمْ.

نهض وهو يقول:

ـ أنتِ تشعرين بالغيرة، هذا كل ما في الأمر. أنتِ هائجة لأني ذهبت في نزهة على سطح السفينة مع باولا. أنتِ من كذبتِ عليّ طوال الوقت.

لم تجبه. وربما لم تسمعه.

و

ـ لا، أنا لا أصدّق أن خطّة هجومي أوضح من رقم يحوي ثمانية وخمسين عدداً أو من هؤلاء الأغرار الذي يقودون السفينة إلى حتفها. وتتعقّد بكاليدوسكوب محتوم من الكلمات، من كلمات كبيرة كالصواري، مزينة بأحرف كبيرة وكأنها مجموعة أشرعة هائجة، سامسارا، على سبيل المثال. أقول سامسارا وجميع أصابع قدمي تأخذ بالارتعاش. سامسارا الصلب يغوص تحتي. سامسارا أدخنة وأبخرة تحل محل العناصر. سامسارا، عمل من أعمال الوهم الكبير. ابنة ماهاميا وحفيدتها...

وهكذا تقفز، كلاباً منتصبة وجائعة، بأحرفها الكبيرة والعالية كأعمدة منتفخة تيجانها التاريخية بفخر. كيف سأخاطب الصغير؟ كيف سأخاطب أمه؟ كيف سأخاطب كل هؤلاء الناس ذوي الصمت الأرجنتيني؟ كيف أقول لهم؟ كيف أحدّثهم عن خطة الهجوم التي تأخذ وجوهها وتنتثر كماسةٍ تنحلّ في معركة باردة من ندف الثلج؟ إنها تُدير ظهرها إليّ وتولّي هاربة، وإذا اتخذتُ جانب الكتابة إليها ـ لأني أفكّر أحياناً بفضائل مخطوط مُسهَب وعويص، ملخَّص من فترات اعتدال التأمل ـ إنها سترفض حديثي بالإهمال نفسه الذي يدفعها نحو النثر، نحو الحبكة، نحو الظاهر، نحو الصحافة بأشكالها المختلفة. مونولوج! الملاذ الوحيد للروح الغارقة في المتعدّد. يا لها من حياة كلب!

(بيرسيو يدور بفرح فيّاض تحت النجوم)، ومع ذلك، لا يمكن

قطع عملية هضم طبق من السمك والتحدّث معهم عن الديالكتيك والأنتروبولوجيا وكون أنديكوبلوستيس وعن الكتاب المشع، وعن التأليه اليائس الذي يقدِّم إليّ في الأعلى كتاباته التصويرية الحارقة. بما أنني، أنا نفسي، لست إلا صرصاراً نصف مسحوق يجري على ثلاثة قوائمه من لوح خشبي إلى آخر، ويفني نفسه على نثرة من اللوح الخشبي كان قد اقتلعها مسمارٌ من حذاء بريسوتي...

ومع ذلك، فقد بدأت أفهم ـ ذلك شيء يشبه الخوف كثيراً ـ وبدأتُ أرى ـ ذلك أقل من طعم المسحوق ـ بدأتُ أبدأ، أجري إلى الخلف، ألتفت! الالتفات! نعم، هناك تخبئ الأجوبة حياتها اليرقية، وليلتها الأولى. كم من مرة، في سيارة ليوباوم، بينما كنا نفسد نهاية أسبوع في سهول البامبا، انتابني الشعور الذي كان يجب عليّ أن أخيطه في كيس وأن ألقيه من الناحية الأخرى من المنحدر، على مستوى بوليفار وبيرغامينو، قرب كاسباس ومرسيدس، في أحد تلك الأماكن حيث يوجد بومات عالية على أسلاك الاختتام والأحصنة المسكينة التي تبحث عن عشبةٍ دفَنَها الخريف. بدلاً من أن أقبل الكاراميل الذي أصرّ خورخي على وضعه في جيبي، وبدلاً من أن أكون سعيداً بقرب جلال كلوديا البسيط والمكتوم، كان من الواجب عليّ أن أنقطع إلى سهول البامبا، كما هي الحال هنا، على هذا البحر المجهول والعاصف، كان من الواجب علي أن أتمدّد على ظهري لكي تغطيني ملاءة السماء المشتعلة حتى عنقي، فتغربلني عصارات السماء والأرض بإيقاعها، مهرّج مغطّى بالطحين هو حقيقة الخيمة الممدودة على جلاجلها، جيفة بقرة تفسد الهواء على دائرة نصف قطرها ثلاثمائة فرسخ، تفسد بالحقيقة، تفسد فقط المصابين بالطاعون الذين يسدّون أنوفهم بحركة فاضلة ويركضون ليختبئوا في البلايموث أو في ذكريات تسجيلاتهم للسير توماس بيكهام. يا أيها الأذكياء السخفاء! يا أصدقائي المساكين!

(الليل ينصدع لمدة ثانية عند مرور نيزك، ولمدة ثانية أيضاً، تتزيّن المالكولم بالأشرعة وبمنصات الصواري، بالأجهزة القديمة،

إنها ترتعش كما لو أن رياحاً غريبةً تهاجمها موارَبةً بقرونها، وبيرسيو المتّجه نحو الأفق، نسي الرادار والاتصالات اللاسلكية وغاص في نصف رؤية للقوارب الشراعية والفرقاطات، للسفن الشراعية التركية والزوارق الإغريقية ـ الرومانية، من البولاكرات الفينيسية والهوركات الهولندية والصنادل التونسية والهاليوتات التوسكانية) ـ لماذا هذا التجمّع المتشابك الذي لا أستطيع أن أميّز فيه الحقيقة من الذكرى، من أسماء الحضور؟ رعب من تصدية الكلام ومن الجناس الأحمق. ولكن مع اللغة اليومية، لا يصل المرء إلا إلى طاولة مليئة بالمأكولات، إلا إلى لقاء مع الشامبو أو ماكينة الحلاقة، إلا إلى اجترار مقال حذر، إلا إلى برنامج حركة وتفكير تحوّلها ورقة الصنفرة هذه المحترقة من فوق رأسي إلى أقل من رماد. كان من الواجب عليّ أن أبقى ساعات طويلةً مختبئاً بين أعشاب البامبا أصيخ السمع إلى جري القنفذ أو إنتاش الجولق. كلمات من الفولكلور، ناعمة وغبية، مقدمة هشّة لكل سر، كما يداعبون لساني بأرجلهم الكاوتشوكية، يدفعون على نمط صريمة الجدي العميق، ويدخلونني شيئاً فشيئاً إلى «الليلة الحقيقة»، بعيداً جداً عن هنا وقريباً جداً منه، ملغية المسافة بين البامبا والبحر الجنوبي. إن بلادي الأرجنتين القابعة هناك، خلف هذه الستارة الفوسفورية، شوارع شاكاريتا المُطفأة ودوران الحافلات المسمومة بالملصقات والألوان، كل شيء يربطني إليها لأن كل شيء فيها يجرحني، توباس، أمارو كوني، مضحك، يعلك كلمات تبدو على مسامعي بلا طائل، مستوحاة من بعض خُطَب د. ريستيللي، أستاذ التعليم الثانوي. ولكن، وبما أني مصلوب في البامبا، مستلقٍ أمام صمت ملايين القطط النكية التي كانت تنظر إليّ، بلا عواطف، وهي تشرب من الجدول الحليبي، ربما كنتُ سأدخل إلى ما كانت تخبّئه عليّ قراءاتي، ربما كنتُ سأفهم دفعة واحدة المعنى الثاني والثالث لجميع مؤشرات الخطوط الحديدية ولجميع أدلّة الهواتف. من المعرفة إلى الفهم أو من الفهم إلى المعرفة، الطريق ليست أكيدة. إني أستشعرها

بتردّد بمساعدة مفردات خارج نطاق الزمن، ووسائط بالية وكلمات باطلة، موضوع استغراب رؤسائي وهدف صبيان المصاعد. لاأهمية لذلك، بيرسيو يتابع، بيرسيو هو هذه الذرّة الآسفة إلى جانب الطريق، إنه تمرّد الذرّة الذي يسبق القنبلة الهيدروجينية، إنه مقدمة الفطر التي تدلّل بسطاء الحاليات. لقد رأيتُ الأراضي الأمريكية في الساعات التي كانت مستعدّة فيها للبوح بأسرارها الأخيرة، تسلقت على قدميّ هضاب أوسبالاتا، نمت وعلى وجهي منشفة مبللة وأنا أجتاز شمال البامبا بالقطار، ألقيتُ بنفسي من إحدى العربات إلى بامبا الجحيم لكي أحسّ ببرودة الأرض ليلاً. أعرف روائح شارع باراغواي، وأعرف شوارع مندوزا حيث بوصلة الخمر ترتعش عن الأربع نقاط الرئيسية رغم صهاريج البيتون المسلّح والقطط الميتة التي تلقى فيها. كان يجب عليّ أن أعلك الكوكا في كل رحلة، ومفاقمة الآمال الوحيدة التي ترسلها العادة إلى أعماق الأحلام، وأن أشعر بأن اليد الثالثة تنمو في جسدي، تلك اليد التي ستتمكّن من الإمساك بالزمن وقلبه، لأن هذه اليد الثالثة يجب أن تكون في مكانٍ ما، فتلج أحياناً، متفجّرةً، في محفل الشعر، في ضربة ريشة، في انتحار، في قداسة، ولكن الهيبة والسمعة تكاثرانها بسرعة وتستبدلانها بأسباب رائية، إن عمل قاطع الحجارة المجذوم هذا الذي نسمّيه التفسير والتعقّل. آه، إني أشعر باليد الثالثة تنفتح وتنغلق في جيبٍ غير مرئي، بها أريد أن أداعبك، أيها الليل الجميل، أريد أن اسلخ ببطءٍ الأرقامَ والتواريخَ التي ستخبّئ الشمس في النهاية، هذه الشمس التي كانت مريضة، ذات مرة، في مصر، إلى درجة فقدان رؤيتها، ووجب علينا أن ننتظر حتى يأتي إله ويعيده إليها... ولكن كيف أفسّر أشياء كهذه لرفاقي، ولي أنا، في حين أني في كل لحظة أرى نفسي في مرآة ساخرة تدعوني للعودة إلى مقصورتي حيث ينتظرني كأس ماء بارد ووسادة جيدة، سهل فسيح أبيض ستجري فيه أحلامي؟ كيف أتصوّر اليد الثالثة إلا متحدةً مع الشعر، وخيانة الكلمات هذه التي تترصّد، قوادة الجمال وهذا

الاتّساق في الأصوات، وفي القوافي الفرحة، لكل هذه العهر المرتبط بالكرتون والمعلّق عليه في معاهد الأسلوبية؟ لا، لا أريد شعراً مفهوماً على متن السفينة، ولا فودو ولا طقوساً ترسيمية. وأنا نائم بين الفصة، كان بوسعي أن أدخل ضمن هذا النظام، وأن أتعلّم أشكاله، لأنها ليست كلمات، بل إيقاعات صرفة، رسوم على الراحة الحسّاسة لليد الثالثة، نماذج بدئية مبهرة، أجسام بلا وزن حيث ما يزال لها جاذبية وحيث ما يزال برعم النعمة يهتز بهدوء. أحسّ أن شيئاً ما يقترب ولكن أنا من يتراجع، لم أتصالح مع ظلي. إذا وجدتُ الطريقة التي سأتحدّث بها عن هذا كله مع كلوديا أو مع الشبان السعداء الذين يسعون إلى ألعابٍ ثقيلة النتائج، ربما غدت الكلمات مشاعل هادية، وربما هنا، وليس في السهل الذي أخللتُ فيه بواجبي حين رفضتُ معانقته على ملء أرضه، وربما هنا ستمرّر اليد الثالثة الساعات الأولى من الأبدية. ولكننا مثلهم، كائنات فظة، نحن ميتافيزيقيون قبل أن نكون ماديين، نحن نفرّ من الأسئلة لئلا تمزّق كلّاباتها بناطيلنا، هكذا اختُرعت كرة القدم، وهكذا يصبح المرء راديكالياً، أو ملازماً أو مصحّح مذاكرات عند كرافت، خيانة لا توصف! ربما كان مدران هو الوحيد الذي يعرف ذلك: نحن كائنات فظة، والسعادة والتعاسة فِديتنا. سعادة المرموظ مخلّلة في دهنه، التعاسة الخفية لراؤول كوستا الذي يصرّ في منامته السوداء إوزة من الرماد. وحتى عندما ترغمنا ولادتنا على طرح أسئلة وعلى مراقبة الإجابات، يبدو وكأن شيئاً ما محبطاً جداً موجود في خميرة الخبز الأرجنتيني، في لون بطاقات الخطوط الحديدية، أو في كميات الكالسيوم العالقة في مياه مدننا، تهوي بنا كيائسين في المأساة الكلية، مسمَّمين بميتافيزيقيات بلا ذيل ولا رأس، وبمشكلات غير موجودة، بفرضيات خفيّة تمدّ بمرح ستارة من الدخان أمام الثقب المركزي، والتمثال البلارأس، وأمام المظهر، والانتماء المريح، والشهيات الفظة، والقافية الصرفة مع اللانهاية حيث يقيم أيضاً العلم والضمير. لماذا لا نلقي أولاً من النافذة الوزن المحترم لتاريخٍ

ماضٍ ورفض التذكارات؟ لماذا لا يزن المرء أولاً قلبَه على ميزان من الدموع والصيام؟ أوه، يا أرجنتين! لماذا هذا الخوف من الخوف؟ ولماذا هذا الفراغ من أجل إخفاء الفراغ؟ ولماذا تفضيل آراء الموتى على الأحياء؟ ما هذا الخيط السخيف الذي يتحدّث عن أشجار الغار التي امتلكناها؟ هل نحن، نحن، من امتلك أشجار الغار هذه؟ هل يمكن أن نكون قذرين إلى هذا الحد؟

ـ لا، أنا لا أصدّق أن خطّة هجومي أوضح من رقم يحوي ثمانية وخمسين رقماً أو من بين هؤلاء الأغرار الذي يقودون السفينة إلى حتفها. وتتعقّد بكاليدوسكوب محتوم من الكلمات، من كلمات كبيرة كالصواري...

اليوم الثاني

32

لحسن الحظ أنها جلبت معها مجلات من باب الحيطة. فكُتُبُ المكتبة مكتوبة بلغات غريبة، والكتابان أو الثلاثة المكتوبة باللغة الإسبانية تتكلّم عن الحرب أو المسألة اليهودية أو أمور فلسفية لا تفهمها. بينما دونيا بيبا تمشّط شعرها، أخذت نيللي تتلذّذ بالنظر إلى صور الكوكتيل التي قدّمتها عدة شخصيات أرجنتينية مختلفة. يعجبها أسلوب جاكوت إيشانيز، فهي تُحسِن التحدّث إلى قارئاتها بكثيرٍ من البساطة، تماماً كما لو أنها واحدة منهن، ودون أن تزهو بأنها تعاشر بوينس آيرس كلها. بيد أنها تُفهِم الآخرين بأنها تنتمي (لماذا تصرّ أمها على تسريح شعرها على شكل كعيكة كمدبّرة المنزل؟) إلى عالمٍ مختلف كل شيءٍ فيه وردي ومقفّز ومعطّر. أسرّت لبعض قارئاتها: «تقديم المجموعات لا يدَعُ لي لحظةً واحدة الآن. وبمناسبة معرض الأقمشة عند غات وشافيث، قدّمت لوسي شليفر، وهي شابة رائعة وذكية جداً، محاضرةً عن تطور الأزياء النسائية. وقد دعت السفارة الفرنسية جمهوراً مختاراً إلى الآفيار لتقدّم له الأزياء الباريسية. وكما يقول أحد مصمّمي أزيائنا: كريستيان ديور يبتكر وما علينا إلا أن نقلّده. ولقد أُهدِيَت المدعوات جميعاً عطراً فرنسياً، وخرجن طائراتٍ فرحاً، يضغطن الزجاجات إلى قلوبهن...».

قالت دونيا بيبا:

ـ حسنٌ، أنا جاهزة. وأنتِ أيضاً يا دونيا روزيتا؟ أعتقد أن الطقس جميل اليوم.

قالت دونيا روزيتا بوجهٍ حزين:

ـ نعم، ولكن ها قد بدأت السفينة بالاهتزاز. هل ستأتين يابنيّتي؟

أغلقت نيللي المجلة ولكن ليس قبل أن تقرأ أن جاكوت إيشانيز زارت معرض الزهور المقام في الحديقة المئوية، وأنها التقت فيه بجولي بولريش دوسا وبالتي لا تكلّ السيدة أوداوندو. تساءلت نيللي لماذا السيدة أوداوندو لا تكلّ، مع العلم أن الحديقة المئوية تقع على بعد خطوات من حيث تسكن صديقتها كوكا شيمنتو. كان بوسعها أن تطلب إلى أتيليو أن يأخذهن إلى هناك لرؤية ذلك المعرض. ماذا دها هذه السفينة لتهتزّ بهذه الطريقة؟ لا بدّ أن أمها ودونيا روزيتا ستصابان بدوار البحر، وهي أيضاً... من غير المقبول أن يستيقظن في مثل هذه الساعة المبكّرة ليتناولن الفطور. في رحلةٍ ترفيهية لا يجدر تقديم وجبة الفطور قبل الساعة التاسعة والنصف، كما يفعل الناس الشيك. عندما ظهر أتيليو ممتلئاً نشاطاً وقد حلق ذقنه للتو سألته عما إذا كان بالإمكان أن يبقين في أسرّتهن حتى الساعة التاسعة والنصف، وأن يرنّن الجرس ليأتيهن الطعام.

قال القطيفةُ وهو غير واثق:

ـ طبعاً، هنا تستطيعين أن تفعلي ما يحلو لكِ. أنا شخصياً أحبّ أن استيقظ باكراً لكي أرى الشمس وهي تشرق. أنا جائع جداً الآن. قولي لي، هل رأيتِ الطقس؟ البحر مائج، ولن أقول لكِ أكثر. ما لم أَرَه حتى الآن مثلاً هو مجموعات الدلافين، لكنها ستأتي. صباح الخير يا سيدتي، كيف الحال؟ وكيف حال الصبي؟

قالت السيدة تريخو وهي لا تدري إن كانت كلمة «صبي» مناسبة:

ـ إنه ما يزال نائماً. المسكين أمضى ليلةً مضطربة، بحسب ما قاله لي زوجي.

قال القطيفةُ بخبث:

ـ لقد مكث طويلاً تحت الشمس، مع أني حذّرته: اسمعني ياصاحبي، أنا لديّ خبرة، وأعرف ما أقوله لك، لا تتغابَ منذ اليوم الأول... ولكن لم يكن بوسعي أن أجرّه إلى الظل بالقوة. لا بدّ أن يتعلّم في النهاية. خذي أنا مثلاً، عندما كنتُ...

قاطعت دونيا روزيتا مباشرةً الذكرى الطويلة عن الحياة العسكرية معلنةً أن من الواجب الذهاب فوراً إلى البار لأن اهتزاز السفينة واضح تماماً في الممر. كان ذلك كافياً للسيدة تريخو بأن تشعر أنها جائعة. سوف تتناول فنجاناً من القهوة السوداء، فقد قال لها الدكتور فينياس إن هذا ما يلزمها بالضبط عندما يكون البحر هائجاً. ومن ناحيتها ترى دونيا بيبا أن عدة سندويشات مدهونة بالزبدة لا بأس بها بعد القهوة بالحليب، بشرط ألا تتناول المربّى لأنه يحوي سكراً والسكّر يكثّف الدم، ولا أسوأ من ذلك مع دوار البحر. أما دون غالو فكان يلتهم قطعةً من لحم الخنزير مقليةً مع بيضتين. بدأ الركاب يتوافدون على البار. دخلت بيبا متمهّلة بعد أن تباطأت عند آخر درجة وألقت نظرة دائرية على الحضور. ودخل بعدها بيرسيو مرتدياً قميصاً أزرق وبنطالاً بيج واسعاً عليه. أخذ البار يمتلئ شيئاً فشيئاً بالثرثرات وروائح العطور. مرّر مدران رأسه، وهو يدخّن سيجارته الثانية، من الباب ليرى إن كانت كلوديا قد وصلت. شعر بالقلق فنزل ثانيةً ليطرق باب مقصورتها.

قال:

ـ أنا جدّ آسف، ولكني خفتُ أن يكون خورخي ما يزال مريضاً، وأن تكوني بحاجة إلى شيء ما.

بدت كلوديا في ثوبها الأحمر أكثر شباباً. مدّ يده إليها دون أن يعرف أيٌّ منهما سبب هذا السلام الرسمي. قالت:

ـ شكراً على مجيئك. خورخي بصحة أفضل بكثير. لقد نام جيداً. وهذا الصباح سألني إن كنتَ قد مكثتَ طويلاً قربه ليلةَ أمس...

قال خورخي وهو يخاطبه بعفوية بالغة:

ـ ها أنتَ ذا أخيراً. لقد وعدتَني مساء أمس أن تروي لي إحدى مغامرات دافي كروكيت، فلا تنسَ ذلك.

ضغط مدران على يده فبدا له أنه ما يزال محموماً بعض الشيء. ووعده بأن يحكي له فيما بعد قصصاً عن القنّاصين تحبس الأنفاس. ثم أضاف:

ـ أما الآن يا عزيزي فسأتناول فطوري. يجب أن ترتدي أمكَ ملابسها أيضاً. سنلتقي على سطح السفينة. الطقس رائع.

قال خورخي:

ـ طيب. كم ثرثرتما مساء أمس!

ـ هل كنتَ تسمعنا؟

ـ نعم بالتأكيد. ولكني حلمتُ بالنجم أيضاً. هل تعلم أني أنا وبيرسيو نملك نجماً.

قالت كلوديا لمدران عند الباب:

ـ هذا يشبه قليلاً سانت إكزوبيري، ولكنه لذيذ وفيه يُجرون اكتشافات مثيرة.

فكّر مدران وهو عائد إلى البار بأن الليل قد بدّل وجه كلوديا أيَّما تبديل. فقد تمنّت له ليلةً سعيدة بهيئة متعَبة ويائسة كما لو أن كل ما قاله لها قد جرحها. والكلمات القليلة التي قالتها بخصوص مكاشفات مدران ـ جارحةٌ تقريباً وقالتها على مضض ـ أسهمت في ازدياد مرارة تعبيرها وفي تعميق التعب المفاجئ الذي ظهر فجأةً على وجهها والذي لم يكن تعباً جسمياً فقط. لقد عاملته بلا شفقة ولكن من غير لؤم عندما ردّت له صراحةً بصراحة. وهذا الصباح اكتشف كلوديا النهارية، أم الشبل. فكّر معترفاً: «إنها ليست من تلك النساء اللائي يجررن الكآبة خلفهنّ. ولا أنا. وبالمقابل إن هذا اللوبيز المسكين...». قال له لوبيز إنه بخير ولكنه لم ينم كثيراً. وأضاف:

ـ هل ستذهب لتقصّ شعرك؟ إذن لنذهب معاً، فنستطيع أن نتحدّث خلال هذا الوقت. أنا أؤمن بصالونات الحلاقة، فهي مؤسسة يجب الحفاظ عليها.

قال مدران متندّراً:

ـ للأسف، لا يوجد بائع متجول هنا!

ـ نعم، للأسف. انظر إلى ريستيللي، كم هو أنيق.

كان د. ريستيللي قد لبس تحت قميصه الرياضي فولاراً أحمر منقّطاً بنقاط بيضاء. لقد أسهمت الخلوات العديدة التي أمضاها مع دون غالو، من أجل وضع اللمسات الأخيرة على البرنامج الترفيهي بوساطة قلم رصاص استعاراه من البار، في تدعيم أواصر الصداقة بينهما.

روى لوبيز لمدران قصة رحلتهم في الليلة السابقة، وأضاف:

ـ وها هي النتائج: إن مزاجي معكّر، ولديّ رغبة في تهشيم وجوه جميع الدهنيين.

ـ أتساءل عما إذا كنا لا نضيع وقتنا سدى. ولكني أعتقد أن ذلك يشبه درجاً مضاعفاً: أنا غاضب من إضاعة وقتنا في محاولات عبثية، ولكن في الوقت نفسه، أرى أن بقاءنا هكذا مكتوفي الأيدي أمر في منتهى السوء. يجب أن نعترف أن أنصار الوضع الراهن قد انتصروا علينا حتى الآن.

ـ ولكن هل أنتَ ترى أنهم على حق؟

ـ لا، أنا أحلّل الموقف، هذا كل ما في الأمر. أنا شخصياً أفضّل متابعة البحث عن ممر ولكني لا أرى مدخلاً لذلك إلا العنف. لا أريد أن أتحمّل مسؤولية إفساد الرحلة الجميلة لهؤلاء المساكين، لا سيما وأنهم يبدون مستمتعين كثيراً.

قال لوبيز مغتاظاً:

ـ ما دمنا ننظر إلى الأمر على أنه مشكلة... لا عليك، لقد استيقظتُ معكّر المزاج وصفراويتي تبحث عن مخرج. والآن لماذا استيقظتُ معكّر المزاج؟ هذا لغز. إنها إحدى نزوات الكبد.

ولكن هذا ليس بسبب الكبد، إلا إذا كان للكبد شَعرٌ أحمر. ومع ذلك فقد نام سعيداً، مقتنعاً أن الأمور ستسير سيراً حسناً. لكنه قال وهو ينظر بكآبة إلى فنجانه الفارغ: «ومع ذلك أنا حزين». ثم أضاف دون أن يتنبّه إلى ما يقول:

ـ هل لوسيو متزوّج منذ زمن طويل؟

أمعن مدران النظر إليه وقال بتردّد:

ـ لا أريد أن أكذب عليك، وبالمقابل لا أريد أن يعرف أحدٌ ما سأقوله. إنهما يبدوان عريسين ولكنهما لم يدخلا بعد إلى مكتبٍ صغير تفوح منه رائحة الحبر والجلد القديم. لقد اعترف لي لوسيو بذلك في بوينس آيرس، فقد كنا نلتقي أحياناً في مقصف الجامعة.

ـ في الواقع، هذا لا يهمني كثيراً. لا تخف، فسوف أحفظ هذا السر عن تلك النساء السمينات، ولكني لن أفاجأ إذا ما قامت حاسة الشم الحسّاسة لديهن... انظر، ها هي واحدة منهن يبدو أنها ليست على ما يرام.

أمسك القطيفة أمه من ذراعها وجرّها بحركة خرقاء إلى الممر. وقال:

ـ ستستنشقين الهواء مباشرة. ضعي يا نيللي كرسياً في إحدى الزوايا في منأى من الريح. لماذا أكلتِ كل هذه الكمية من المربّى. لقد حذّرتك!

أومأ دون غالو وريستيللي إلى لوبيز ومدران أن ينضمّا إليهما. وقال دون غالو بلهجة متآمرة وهو يشعل سيجارَهُ ذا الرائحة الكريهة:

ـ هل تريدان أن نتكلّم قليلاً عن سهرتنا؟ يجب أن نستمتع بين وقت وآخر.

قال لوبيز:

ـ حسنٌ، وبعدها نذهب إلى الحلاق. يا لهذا الصباح الجميل!

33

تسير الأمور دائماً في الوجهة غير المتوقَّعة. لقد جعلته صفعة باولا يسترخي وساعدته على النوم. ولكن ما إن استيقظ حتى تخيّل من جديد فيليبي نازلاً إلى ذلك النايبلاند المهترئ ذي الأنوار البنفسجية. فيليبي الذي ذهب بمفرده لكي يتثبَّت من استقلاليته ومن جرأته، ذلك الصبي القذر لم يسرق تلك السكرة التي تبعتها ضربة الشمس. أخذ يتخيّله (وهو ينظر إلى باولا التي أخذت تتحرّك في سريرها) داخلاً إلى مقصورة أورف والغوريلا الأخرى الموشومة مبدياً الطيبة وقابلاً كأس الروم، معتبراً نفسه ديك المجموعة ومتحدّثاً بكل تأكيد بالسوء عن بقية الركاب. فكر راؤول: «ضربة، ضربة مسدّدة جيداً». ثم ابتسم لأنه لو كان وجّه ضربة قوية لفيليبي... لن تكون النهاية كلمات بل صوراً جعلته يتنفّس بسرعة. فتحت باولا عينها ونظرت إليه وقالت:

ـ هيه!

ـ هيه. (*)Look, love, what envious streaks Do lace the severing clouds in yonder east...

ـ الطقس جميل، أليس كذلك؟

ـ (**)Night candles are burn out and jocund day...

ـ تعالَ وقبّلني.

(*) انظري يا حبي، باللخطوط الغيورة التي تكلّل الغيوم القاتمة في الشفق الشرقي!. م.

(**) شموع الليل قد انطفأت، ولاح نهار ملتبس الملامح. م.

ـ لا مجال.

ـ تعال، ولا تكن حقوداً.

ـ حقود كلمة كبيرة يا عزيزتي. الحقد يجب أن تستحقّيه. لقد انتابني أمس انطباعٌ بأنكِ مجنونة تماماً، ولكن هذا لا يعود إلى الأمس فقط، هذا صحيح؟

قفزت باولا من السرير وفوجئ راؤول بأنها ترتدي منامة. قفزت إلى سريره ودعكت شعره وداعبت عينيه وقبّلت أذنه ودغدغته. ضحكا كطفلين. أمسك بها من خصرها ودغدغها. تدحرجا على السجادة وسط المقصورة. نهضت دفعة واحدة ودارت ثم صرخت:

ـ أنتَ لستَ غاضباً! أنتَ لستَ غاضباً! (أخذت تضحك وهي ترقص)، ولكن كم كنتَ قذراً عندما تركتَني أستيقظ هكذا...

ـ تركتكِ! لقد أردتِ ذلك. إذا كنتِ قد تنزّهتِ عارية فذلك لأنك تحبّين التعرّي، ولأنكِ تعرفين أني لن أقول ذلك لجاميكا جون.

جلست على الأرض ووضعت يديها على ركبتيها وسألت:

ـ لماذا جاميكا جون يا راؤول؟ لماذا هو وليس أحداً آخر؟

قال كاظماً غيظه:

ـ أولاً لأنه يعجبكِ، وثانياً لأنه مجنون بكِ. أنا لا أقول شيئاً جديداً، أليس كذلك؟

ـ لا، لا شيء جديد، بالفعل. على أية حال يجب أن نتكلم في ذلك.

ـ أبداً. ستبحثين عن شخصٍ آخر تعترفين له. ولكني سأهبكِ غفراني مباشرةً، ومن كل قلبي.

ـ نعم، يجب أن تسمعني أولاً. إذا لم تستمع إليّ فماذا سيحلّ بي؟

ـ لوبيز موجود في المقصورة رقم 1 في الممر اليساري. وسيكون سعيداً بالاستماع إليكِ.

نظرت إليه مفكرةً. تنهّدت ثم نهض الاثنان في وقت واحد وتسابقا إلى الحمام. كسبت باولا فعاد ليستلقي على سريره ويدخّن سيجارة. ضربة كبيرة... هناك كثيرون يستحقّون هذه الضربة الكبيرة.

نحو الساعة العاشرة والنصف، بدأ الركاب يصلون إلى سطح السفينة. أفقٌ غبي تماماً أخذ يحيط بمالكولم. تعب القطيفة من ترقّب الأحداث الغريبة في أربع الجهات التي أعلن عنها بيرسيو وخورخي. لم يظهر حتى حوتٌ بائس. فما بالك بالدلافين...

ولكن من ينظر؟ من يرى هذا كله؟ حتماً ليس بيرسيو لأن هذا كان يحلق ذقنه في مقصورته. صحيح أن المنظر متاحٌ لأول قادم، يكفي أن يتجشّم عناء الصعود إلى سطح السفينة ويتقدّم بلامبالاة إلى مقدمة السفينة، نحو صورةٍ تتجمّد شيئاً فشيئاً (أناس على كراسيهم الطويلة، وأناسٌ يرتفقون الدرابزين، وأناس يفترشون الأرض أو يجلسون على حافة المسبح). ومع ذلك، على سبيل المثال، من اللوح الأول إلى مستوى قدميه، يستطيع المتأمّل (هو غير بيرسيو لأن هذا منشغل في مقصورته بدهن وجهه بكريم يخفّف حرارة الحلاقة) يستطيع أن ينزّه بصره، ببطءٍ أو بسرعة، ويتمهّل على حزّ من القطران الأسود أو البني، وأن يصعد على طول مدخنة تهوية، أو يتسلّق قاعدة الصارية المغطّاة بطلاء أبيض سميك، إلا إذا فضّل أن يعانق بنظره مجموعَ المنظر ويلتقط صورةً خاطفة للحركات التي يوقفها على الطائر، قبل أن يُدير ظهره إلى المشهد ويدسّ يده في جيبه حيث تفتر سجائر الشسترفيلد.

عندما يُنظَر إلى الصواري من علٍ (وجهة نظر صحيحة وممكنة) فإنها تبدو ملغاةً أو تتحوّل إلى قرصين تافهَين، تماماً مثل برج جيوتو عندما تنظر إليه سنونوةٌ معلّقةٌ في عليائها فيبدو مربّعاً هزيلاً فهي، إذ تفقد ارتفاعَها وحجمها، تفقد كلَّ هيبة. وعندما يُنظر إلى رجلٍ في الشارع من الطابق الخامس فإنه يبدو كبيضة مشعرة

ترفرف في الهواء فوق وسادة طويلة رمادية أو زرقاء يسنده استرفاغٌ سرعان ما تفسّره ساقان نشيطتان وظهرٌ مفاجئ يخربط قواعد الهندسة البحتة. المنظر من علٍ هو أكثر المناظر قلة فاعلية. ترى الملائكة العالم على طريقة سيزان: كُرات ومخاريط وأسطوانات. عندئذ يطيب للمشاهد فجأةً أن يدنو من المكان الذي تتأمل فيه باولا لافال الأمواج. الاقتراب، غذاء المعرفة ومرآة القبّرات... (ولكن هذا كله بيرسيو هو من يفكّر فيه أو كارلوس لوبيز. من يعلّق هذه التشابهات ويبحث، كمصوّرٍ حريص، عن الزاوية المناسبة؟) وعندما يصل إلى جانب باولا، لصقها، وسطها، يكتشف كوناً ملوَّناً بألوان قوس قزح يتحرّك ويتبدّل في كل لحظة. وشعرها الذي يلعب به الهواء كما تلعب هرة بكبة حرير حمراء؛ كل شعرةٍ شوكةُ قتاد حادة، سلك كهربائي يعبره السائل الذي يحرّك المالكولم وكلٌّ آلات العالم، والأفعال والناس وحركة المجرات. والإيقاع الكوني غير المرئي محتوى في أول شعرةٍ لباولا. لا يستطيع المشاهد أن يحوّل بصره عن تلك الشعرة. وما تبقّى من حولها خلفية سديمية كذلك الكلوز ـ آب فوق عين سيمون سينيوريه حيث ما يحيط بها له قوام حساء السميد قبل أن يتخذ شكل عاشقٍ أو مطعمٍ في الدائرة السابعة.

في وقتٍ واحد صارت السفينة مثل الغيتار ـ لو أن بيرسيو موجودٌ لما قَبِل المقارنة بل سيقول: إنها غيتار، بدون «مثل». كل شيء متحجّرٌ في شيئيته، وما الباقي إلا مفتعل ـ لا يقبل بيرسيو أن يكون غيتاره موضوع تشبيه، من هنا ربما نستطيع أن نستنتج أن غابرييل مدران أو كارلوس لوبيز، بالأحرى هو كارلوس لوبيز، الذي هو الضحية أو المحرِّض على هذه الرؤى المُثارة والمتلقّاة تحت السماء الزرقاء. ولكن لنعد إلى غيتارنا، فهذه السفينة تشبه الغيتار من علٍ: ففتحة الغيتار هي دائرة الصارية الكبرى، والأوتار هي الحبال المتينة التي تهتزّ أو ترتعش، ويد عازف الغيتار الموضوعة على الأوتار هي السيدة تريخو الممدّدة على كرسيها

الطويل، واليد الأخرى هي البحر الثائر من الجهة اليسرى وهو يضرب بطن الغيتار كما يفعل الغجر عندما ينتظرون أو يضربون بإيقاع مقطعاً من أغنية، البحر كما شعر به بيكاسو عندما رسم الرجل ذا الغيتار التي أهداها لأبولينير. هذا لم يعد كارلوس لوبيز من يفكّر فيه، بل هو كارلوس لوبيز الواقف إلى جانب باولا وعيناه تائهتان في شعرها، الذي يشعر أن آلةً موسيقية تعزف في شعرها، بؤرة من القوى، تشابكٌ هائل من ملايين الشعرات، كل واحدة منها وتر آلة موسيقية سرية، وتر هارْب كالهارْب ـ المرأة لجيروم بلوخ، جد غيتار بيكاسو وواهب الموسيقا نفسها التي تملأ فم كارلوس لوبيز بطعم الفريز والكلمات.

قال فيليبي وهو ينظر إلى نفسه في المرآة:

ـ أمه قحبة! إن لي وجهاً خشبياً.

تنهّد بارتياح عندما تبينّ له أن والده لم يعد في المقصورة. أدار رأسه بحذر: لا بأس. بعد حمّام جيد وغطس في المسبح، لن يظهر هذا. الشمس الرائعة تدخل من النافذة. قال وهو يتمطّى: «سأمضي كلَّ نهاري في المسبح». بدا له وكأن خرقة تقبع مكان لسانه. ثم أضاف وهو يشعر بالرضا الذكوري لكونه أدّى أمراً ما قاسياً، ولأنه خرق المبادئ: «أي فظّ هذا البوب! لديه روم...». تذكّر راؤول فجأة فبحث عن الغليون وعلبة التبغ. تُرى مَن الذي جلَبَه إلى هذه المقصورة؟ ومن وضعه في سريره؟ تذكّر مقصورة راؤول والحمّام... وراؤول، من ناحية أخرى، يسمع كل ما قاله. أغمض عينيه خجلاً. ربما كان راؤول هو الذي حمله إلى هنا. ولكن ماذا قال المسنّون وبيبا عندما رأوه في هذه الحال؟ بعض الأمور أخذت تعود إلى ذاكرته شيئاً فشيئاً: يدٌ مرَّرت المرهم على كتفيه، وكلماتٌ كانت تأتي من البعيد، وأبوه الذي عنّفه. طظ! إنه جائع الآن. لا بدّ أن الآخرين قد تناولوا فطورهم منذ زمن طويل. لا بدّ أن الوقت قد تأخر، لا إنها التاسعة والنصف. ولكن أين ذهب الغليون؟

مشى بضع خطوات ليرى إن كان يستطيع أن يمشي مشياً مستقيماً. شعر أنه على أحسن حال. وجد الغليون وعلبة التبغ في درج الصِّوانة، بين المناديل. غليون جميل، من الطراز الإنكليزي. وضعه بين شفتيه وذهب لينظر إلى نفسه في المرآة. ولكنه منظر مضحك: غليون وصدر عارٍ. لم يكن راغباً في التدخين، إذ ما يزال في فمه طعم الروم وتبغ بوب. لقد كان حديثه مع بوب رائعاً، يا له من شخص غير معقول.

وقف تحت المرشاش وأسال الماء البارد والماء الساخن على التوالي. أخذت المالكولم تترنّح فأحسّ بغبطة في أن يحافظ على توازنه دون أن يتمسّك بالقبضات المطلية بالكروم. صوبن جسمه بعناية وهو ينظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة التي تغطّي جهةً كاملة من الحمام. قالت له مومسُ الماخور: «جسمك رائع يا ولد!» فانتفخ صدره زهواً. صحيح أن جسمه جميل، ظهره على شكل مثلث مثل أبطال الملاكمة وفتيان هوليوود الأوائل، وساقاه طويلتان ونحيلتان ولكنهما لا تجيدان تسجيل هدف في ملعب كرة القدم. أغلق المرشاش ثم نظر إلى نفسه من جديد. جسمه يلمع وشعره ملتصق بجبينه. اتخذ هيئة اللامبالي وعرض مقطع ثلاثة أرباع، ثم مقطعاً جانبياً، ثم مقطع الظهر. عضلات بطنه ومعدته بارزة تماماً، وقد قال له أوردونييث إن تلك علامة بطل كمال الأجسام. صلّب عضلاته إلى أقصى ما يستطيع ثم رفع ذراعيه كما يفعل تشارلز أطلس. ستكون فكرة جميلة أن ألتقط صورةً في هذه الوضعية. ولكن من سيلتقط له الصورة في هذه الهيئة؟ ومع ذلك، فقد رأى صوراً... ولطالما تساءل عمّن يكون قد التقطها. صورة واحدة فقط يمكن أن يُرى فيها ما يحدث. وضع يديه بقوة على بطنه. سخيف. إنه لا يستطيع حتى التفكير في هذه الأمور. لفّ جسمه بمنشفة وأخذ يسرّح شعره وهو يصفر. ولكن شَعره ضعيف لأنه غسل رأسه، لم يستطع أن يصنع غرة من الأمام. أمضى وقتاً لا بأس به حتى استطاع أن يصل إلى نتيجة مقبولة. خلع المنشفة ثم أخذ يقوم بانثناءات بين وقتٍ وآخر ليرى

إن كانت الغرة قادرة على الصمود. فجأة سمع صوت بيبا عندما قالت وهي تتراجع:

ـ قليل الحياء. ألا تخجل من التنزّه عارياً والباب مفتوح؟

ـ أوه، لن تموتي إذا رأيتِ مؤخرتي قليلاً، فنحن أخَوان.

ـ سأقول لأبي. فأنتَ تعرف أني لم أبلغ الثامنة من عمري بعد.

وضع مبذل الحمّام وعاد إلى المقصورة. أخذ يملأ الغليون وهو ينظر ساخراً إلى بيبا التي جلست على حافة السرير.

قالت من طرف شفتيها:

ـ تبدو أفضل.

ـ لم يكن أمراً خطيراً، لقد بقيت طويلاً تحت الشمس.

ـ الشمس ليس لها رائحة.

ـ كفى! لا تزعجيني! اذهبي وانظري إن كنتُ موجوداً في الخارج.

سعل وهو يسحب أول نفَس من الغليون. فنظرت إليه بيبا ساخرة وقالت:

ـ إنه يظن نفسه قادراً على التدخين مثل الرجال! من أعطاكَ هذا الغليون؟

ـ أنتِ تعرفين تماماً، يا غبية.

ـ زوج الحمراء، إيه؟ أنتَ محظوظ. لا تغازل المرأة فقط، بل إن زوجها يقدّم لكَ هدايا.

ـ لا يهمّني ما تفكّرين به.

لم تغادره بنظرها وهي تقول:

ـ أمر مضحك جداً. لقد غضبت أمي من باولا غضباً شديداً. هل تعرف ماذا قالت؟ يجب أن تقسم لي أنكَ لن تغضب.

ـ لن أقسم.

ـ إذن لن أقول لك. لقد قالت «... تلك المرأة تزعج ابني الصغير». أنا دافعتُ عنكَ، ولكن بالطبع لم يصغوا إلى كلامي. سترى أن الأمر سيثير المتاعب.

احمرّ فيليبي غضباً، سعل من جديد فوضع الغليون. كانت أخته تداعب طرف ملاءة السرير.

قال:

ـ لقد سئمتُ. ولكن ماذا يظنّونني؟ لقد سئمتُ كلمة «صغير». ذات يومٍ سأجعلهم جميعاً... (سارعت بيبا إلى وضع إصبعين في أذنيّها). وأنتِ أيتها الماكرة القذرة، أنتِ أول من نقل لهم أني... إذن لا أستطيع أن أتكلّم مع النساء الآن؟ ولكن بفضل ماذا أنتِ هنا، آه؟ من دفع لكِ أجر هذه الرحلة؟ هيا اغربي عن وجهي وإلا صفعتك.

ـ لو كنتُ مكانكَ لأخذتُ حذري أكثر وأنا أغازل باولا. لقد قالت أمي...

استدارت عن الباب. لم يتحرك فيليبي، ويداه في جيبي مبذل الحمام، بدا كمرشّح يصطنع رباطة الجأش رغم الخسارة.

قالت قبل أن تغلق الباب:

ـ تخيّل أن تعرف باولا أننا نناديك فيما بيننا بـ«الصغير».

أجاب مدران:

ـ قص الشعر عملية ميتافيزيقية. ألم يهتم علم الاجتماع والتحليل النفسي بالحلاق وبزبائنه؟ ولا سيما بالناحية الطقسية من المسألة، هذا الطقس الذي نضحّي من أجله طوال حياتنا؟

قال لوبيز:

ـ كان صالون الحلاقة يترك لدي انطباعاً معيناً خلال طفولتي كما كانت تفعل الكنيسة. فكان يبدو لي غامضاً ذاك الكرسي الخاص

الذي يجلبه لي الحلاق، ثم تلك اليد التي تضغط على رأسي كجوزة الهند وتديره إلى اليسار وإلى اليمين. نعم، أنتَ على حق، إنه طقس.

ارتفقا الدرابزين، بحثا بعينيهما عن شيء ما في الأفق، ثم أضاف مدران:

ـ كل شيء يسعى إلى إعطاء الصالون صفة المعبد. أولاً إن الجنسين منفصلان فيه. وصالون الحلاقة مثل محلات البلياردو* والمباول العامة، نوع من الأسدية التي نجد فيها بعض الحرية. إننا ندخل هناك في عالم مختلفٍ جداً عن عالم الشارع أو البيت أو الحافلة العامة. لقد فقدنا سابقاً فترات ما بعد الطعام في صالات التدخين والبارات ولكننا ما نزال ننقذ بعض الزوايا.

ـ والرائحة! تلك الرائحة المعروفة في العالم بأسره!

ـ لا بد أن هذه الأسدية قد خُلقت لكي يتمكّن الرجل المزهو جداً بفحولته من أن ينقطع فيها إلى إثارية يصفها بأنها أنثوية ويتخلّى عنها ساخطاً في ظروفٍ أخرى: التدليكات والمراهم ودقة المقطع والمرايا والبودرة والفُرشَيات الناعمة... إذا ما عددتَ هذه الأشياء خارج سياقها، أليست تنتمي إلى المجال الأنثوي؟

ـ بكل تأكيد، الأمر الذي يُثبت أننا، حتى ونحن بمفردنا، لسنا متحرّرين من النساء، والحمد لله. هيا بنا نستمتع برؤية الحوريات في المسبح. ما رأيك أن نغطس غطسةً نحن أيضاً؟

ـ اذهب أنتَ يا صديقي، إذا أحببت، أما أنا فأريد أن أبقى قليلاً هنا في الشمس.

نفّذ أتيليو وخطيبته غطسة ممتازة وأخذا يصرخان داخل الماء الذي ألفياه بارداً جداً. دنا خورخي من مدران وقال مكشّراً بأن كلوديا ما تزال تمنعه من السباحة.

ـ ستسبح بعد الظهر. لقد كنتَ مريضاً مساء أمس، والماء بارد جداً، كما سمعت.

قال خورخي الذي يحبّ الدقة في بعض الحالات:

ـ بارد فقط. إن أمي تمضي حياتها في تحميمي عندما لا أكون راغباً في الاستحمام و... و...

ـ والعكس صحيح.

ـ بالضبط. وأنت يا بيرسيو ـ القمر، ألا تسبح؟

قال بيرسيو وهو يضغط يد مدران بقوة:

ـ أوه، لا. أنا بيتوتي. ثم إني كنتُ ذات مرة في أحد النوادي فابتلعتُ كثيراً من الماء المكلْوَر فبقيتُ فاقداً صوتي لمدة أربعين ساعة تماماً.

قال خورخي الذي لم يقتنع أبداً بهذا الكلام:

ـ لا بد أنكَ تمزح. هل رأيتَ الدهني فوق يا مدران؟

ـ لا، على العبارة؟ لا يوجد أحد.

ـ أنا أقول لكَ إني رأيتُ أحدهم عندما صعدتُ على سطح السفينة منذ قليل. كان هناك، بين تلك النافذتين. لا بد أنه كان يحرّك الدفّة.

قالت كلوديا:

ـ عندما أتى خورخي ليقول لي كان الوقت قد فات ولم يعد يوجد أحد. إني أتساءل كيف يديرون هذه السفينة.

قال مدران:

ـ من غير الضروري أن يكونوا قرب النوافذ. من المؤكد أن العبّارة واسعة جداً، لا بد أنهم يجلسون في طرفها أو أمام طاولة اللعب (نما لديه انطباعٌ بأن أحداً لم يكن يصغي إليه) على أية حال أنتِ محظوظ أكثر مني.

قال بيرسيو:

ـ في الليلة الأولى، بقي القبطان في الأعلى حتى وقتٍ متأخر جداً.

ـ كيف عرفتَ أنه القبطان يا بيرسيو ـ القمر؟

ـ هذا أمر يُحَسّ. لقد كانت له هالة. قل لي، كيف كان الدهني الذي رأيتَه؟

ـ قصيراً يرتدي بزةً بيضاء وقبعة كالآخرين جميعاً، ويداه لهما شعر أسود ككل الآخرين.

ـ لن تقول إنكَ رأيتَ من هنا شَعرَ يديه؟

قال خورخي معترفاً:

ـ لا. ولكن من شكله، لا بد أن له شعراً على يديه.

قال وهو ينظر إلى كلوديا:

ـ أمر غريب، غريب جداً. إني أتساءل ما إن كان قد رأى القبطان حقاً أم أنها كانت عينٌ داخلية... هذا كما لو أنه يتكلّم في حلمه أو يسحب ورقة. مفعّل، هذه هي الكلمة المناسبة، واقية صواعق.

أضاف ساهماً:

ـ نعم إني أتساءل...

قال خورخي:

ـ طيب قل إذن، رأيتُه..

قالت كلوديا:

ـ لا يقولون: طيب قل إذن.

ـ طيب، وماذا بعد؟

فقالت ضاحكةً:

ـ ولا يُقال: طيب ماذا؟

لم يكن مدران راغباً في الضحك، فوضعهم على السفينة عاد يوتّره.

قال مدران بعد أن ابتعد بيرسيو وخورخي:

ـ لقد سئمتُ بالفعل. ماذا يعني أن نُعزَل في منطقة ضيقة؟ إذا ما هطل المطر أو برد الطقس كثيراً في مضيق ماجلان فهل سنُسجن في مقصوراتنا أو في البار؟ يا إلهي، إن هذه السفينة تُشبه سفينة نقل قطعان الأغنام أو سفينة عبيد أكثر من كونها شيئاً آخر.

قالت كلوديا وهي تنحني فوق الدرابزين:

ـ صحيح. ولكن الشمس جميلة حتى لو قال بيرسيو إنها سوداء، وأنا لا أرغب في أن أحمل هموماً.

قال بصوت خافت:

ـ نعم، الأمر صحيح بالنسبة لأمور كثيرة في حياتنا. لقد تولّد لدي انطباعٌ منذ مساء أمس، بأن ما يحدث لي من الخارج إلى الداخل لا يختلف كثيراً عما أنا عليه، من الداخل إلى الخارج. إني لا أعبّر جيداً، هذا مثل...

ـ هذا مثلكَ ومثلي، أليس كذلك؟

ـ نعم، ومثل الآخرين أيضاً. يجب أن أطرح الفكرة بصورة أكثر وضوحاً، ولكني أفقد أثرها بمجرّد أن أبدأ... كل شيء غامض، وتافه أيضاً. منذ قليل كنتُ على أحسن حال. ولكن ما إن قال خورخي إنه رأى دهنياً على العبارة حتى انهار كل شيء. أية علاقة بين الدهني و...؟ ولكنها مسألة بلاغية يا كلوديا. أنا أرى العلاقة جيداً وهي أنها غير موجودة، لأن كل شيء هو وحده ونفسه.

قالت وهي تمسك بذراعه وتجذبه إليها بصورة غير محسوسة:

ـ يا غابرييل المسكين. منذ مساء أمس وأنتَ معكّر الدم. نحن لم نبحر على متن هذه السفينة لكي نحمل الهموم.

قال وهو يغمض عينيه نصف إغماضة لكي يحسّ جيداً بضغطة كلوديا الناعمة على ذراعه:

ـ لا، طبعاً، ليس من أجل ذلك.

سأل راؤول:

ـ جانتزن؟

أجاب لوبيز:

ـ لا، أولمبيك.

وانفجرا ضاحكين.

اللقاء بلوبيز في الممر اليميني بينما كانت مقصورته في الجهة الأخرى أمرٌ يسرّ راؤول. المسكين يقوم بجولته ويخاطر بدورةٍ ليرى إن كان يحدث أحد تلك اللقاءات «بالمصادفة»... أوه، إنها دورية غرامية. في الحقيقة، هذا الشاب يستحق شورت سباحة أكثر أناقةً من هذا.

ـ انتظر لحظة، الدوامة الذرّية ستلحق بي، ولكنها، طبعاً، لا تجد أحمر شفاهها.

قال لوبيز بلامبالاة:

ـ عظيم.

استندا إلى الحاجز وواصلا ثرثرتهما. ظهر لوسيو بلباس الحمام، هو الآخر، وتابع طريقه بعد أن حيّاهما.

ـ كيف حال شجاعتك؟ أما تزال مستعدّاً للقيام بمهمة أخرى؟

ـ لم أعد قوياً منذ إخفاق البارحة. ومع ذلك يجب المضي قدماً، إلا إذا سبقنا تريخو الصغير...

قال راؤول وهو ينظر إليه:

ـ هذا يثير استغرابي. إذا عاد من كل رحلةٍ سكراناً كما كان بالأمس... تلزم روح مطفأة جيداً لكي تهبط إلى جهنم. هذا ما تعلّمه الأساطير الجيدة.

قال لوبيز:

ـ الصبي المسكين. لا بد أنه كان يريد أن ينتقم.

ـ ينتقم؟

ـ لقد تركناه يسقط أمس، ولا أظن أن هذا راق له. أنا أعرفه بعض الشيء، لا تنسَ أنه طالب عندي في الثانوية. لا أظن أن طبعه سهل. إنهم يحاولون جميعاً، في هذه السن، أن يصبحوا رجالاً، وهم على حق، ولكن الوسائل التي يستخدمونها والفرص التي ينتهزونها هي التي تخونهم.

قال راؤول لنفسه وهو يهز رأسه بهيئة متفهّمة: «لماذا يحدّثني عنه بحقّ الشيطان؟ فلديكَ حاسة شم قوية، وبالإضافة إلى ذلك، أنتَ شخص شيك». انحنى باحترام أمام باولا التي فتحت باب المقصورة ونظرت إلى لوبيز الذي لم يشعر بارتياح وهي تراه بهذا المايوه. وكانت قد لبست هذه المرة مايوهاً أسود محتشماً، بعكس بيكيني الأمس.

قالت بانطلاق:

ـ صباح الخير يا لوبيز. هل ستسبح، أنتَ أيضاً يا راؤول؟ ولكننا لن نصمد كلنا في المسبح.

قال راؤول وهو يحث الخطى:

ـ حسنٌ، سنموت أبطالاً. صبيان بوكا يبلعطون الآن. لم يعد ينقص إلا دون غالو وكرسيه وسائقه.

رأوا فيليبي ينزل الدرج اليساري تتبعه بيبا التي تجلس بأناقة على الواقي لكي تتمكّن من مراقبة المسبح وسطح السفينة. حيوا فيليبي ملوّحين بأيديهم فردّ السلام بخجل. تُرى ما فكرتهم عن وعكته المفاجئة؟ ولكن باولا وراؤول استقبلاه ضاحكين وارتميا في الماء مع لوسيو ولوبيز وهو، عند ذلك استعاد ثقته بنفسه فأخذ يمزح ويلعب معهم. لقد محت مياه المسبح الآثار الأخيرة للوعكة.

قال له راؤول:

ـ تبدو أفضل.

ـ نعم، لقد انتهى الأمر تماماً.

ـ انتبه إلى الشمس اليوم، فستكون قوية. وكتفاك في حالة سيئة.

ـ أوه، لا عليك.

ـ هل أفادك المرهم؟

ـ نعم، أعتقد أنه أفادني. أوه، أية قصة حدثت مساء أمس... اعذرني، فقد كانت حالي سيئة في مقصورتك...

قال راؤول:

ـ لا أهمية لذلك أبداً. يمكن لهذا أن يحدث مع أي شخص. لقد حدث مرةً أن تقيّأتُ على سجادة عمتي ماغدا، ليتولّاها الله بحفظه.

ابتسم فيليبي دون أن يفهم كثيراً. لقد سُرّ فيليبي لأنه وراؤول أصبحا صديقين من جديد، فهو الوحيد الذي يستطيع التحدّث معه على متن السفينة... للأسف أن باولا تعيش معه وليس مع مدران أو لوبيز. كان بودّه أن يواصل حديثه مع راؤول، لكنه رأى ساقَي باولا متدلّيين على حافة المسبح فتحرّق شوقاً ليذهب ويجلس بجانبها ويسألها عن رأيها في الوعكة التي ألمّت به ليلةَ أمس. ولكنه قال بخرق:

ـ لقد جرّبتُ غليونك هذا الصباح. إنه رائع، والتبغ...

ـ أتمنى أن يكون أفضل مما دخّنتَه بعد ظهر أمس.

ـ بعد ظهر أمس؟ أم أنتَ تقصد...

ودنا راؤول من فيليبي المحصور عند الجدار المصنوع من ألواح خشبية وأضاف:

ـ لماذا ذهبتَ إلى هناك بمفردك؟ طبعاً تستطيع أن تذهب إلى حيث تشاء ولكني أخشى أن يكون ذلك المكان غير آمن.

ـ ما الذي يمكن أن يحصل لي؟

ـ على الأرجح لا شيء. بمن التقيتَ هناك؟

ـ بأحد الأشخاص.

سأله راؤول سؤال العارف:

ـ بمن؟ بالرجل الأقصر؟

ـ نعم، بالرجل القصير.

تقدّم لوسيو منهما متلطّياً ثم رشّهما بالماء. قام راؤول بحركةٍ لم يفهمها فيليبي ثم انقلب إلى الخلف وسبح حتى نهاية المسبح. ظهر أتيليو ونيللي إلى جانبه بحيوية. امتدح نيللي التي كانت معجبةً به بحياء، ثم اشتركت مع أتيليو بمهمة تعليمه على الطفو. نظر فيليبي إليه لحظةً، أجاب بطرف شفتيه على سؤال طرحه لوسيو، ثم تسلّق جدار المسبح قرب باولا التي كانت مديرةً إليه ظهرها وهي ممدّدة تحت أشعة الشمس، مغمضة العينين.

ـ احزري من أنا؟

ـ بحسب صوتكَ أنتَ صبي وسيم جداً. ولكني آمل ألا يكون اسمكَ ألكسندر. الشمس رائعة اليوم.

سألها التلميذ تريخو الذي كان يحصد الأصفار في مادة التاريخ القديم:

ـ ألكسندر؟

ـ نعم، ألكسندر، اسكندر، أليكسندر، كما تريد. آه، فيليبي، فيليب! نعم ما قلتَ أنتَ والد ألكسندر.

أتى راؤول ليسمع هذا الحديث. أمر مضحك. لكي يكتمل المشهد يجب أن يأتي أحد الخدم ويحمل لنا طبقاً من الفواكه...

استفاد فيليبي من هذا الكرم غير المفهوم ليسوّي غرّته بمشط بلاستيكي أخرجه من جيب المايوه. ثم تمطّى واستلقى نصف استلقاءة في الشمس التي لم تكن قد قويت بعد.

سألته باولا وهي تغمض عينيها من جديد:

ـ إذن، هل انتهت تلك السكرة؟

قال ممتعضاً:

ـ أية سكرة؟ لقد كانت ضربة شمس. لا أعرف لماذا يعتقد الجميع هنا أني ابتلعتُ زجاجة ويسكي. ذات مرة في حفل نهاية السنة الثانية... وسمعت باولا وصفاً لعدة شبّان تدحرجوا تحت الطاولة، أما فيليبي فقد عاد إلى بيته سليماً في الساعة الثالثة صباحاً رغم أنه شرب كأسين من السنزانو وعدة أقداح من النبيذ الأحمر وخمر ما بعد القهوة.

ـ أية مقاومة! ولكن لماذا تأذّيتَ هذه المرة؟

ـ ولكني قلتُ لكِ إنه ليس بسبب الخمرة، بل لأني تعرّضتُ طويلاً للشمس. أنتِ أيضاً ضربتكِ الشمس. على كل حال هذا يليق بكِ تماماً، فكتفاكِ رائعتان.

ـ حقاً؟

ـ نعم، جميلتان جداً، لا بد أنكِ سمعت هذا الكلام عدة مرات اليوم.

فكرت باولا وهي ما تزال مغمضة العينين: «صبي مسكين! صبي مسكين!» لكنها لم تكن تقصد فيليبي. بل كانت تفكر بالثمن الذي على رجلٍ أن يدفعه مقابل حلم، رجل سيموت من جديد في فينيسيا، وقد واصل حياته بعد الموت، a sadder but not a wiser[*] man... فكّرت أنه، حتى طفل صغير مثل خورخي، سيجد أشياء

(*) بصورة أكثر حزناً ولكن ليس أكثر حكمة. م.

كثيرة مسلية بل وهامة ليقولها لها. ولكن لا، تمشيط الشعر من جديد، ثم قول ملاحظة «جريئة» ثم لا شيء بعد ذلك. لهذا فهم يشبهون التماثيل، إنهم تماثيل في الواقع، تماثيل من الداخل ومن الخارج. إنها تخمّن ما يجب أن يفكّر به لوبيز، المنزوي، بهيئته العابسة والمكشِّرة. لقد آن الأوان لتوقيع الهدنة مع جاميكا جون. لا بد أن المسكين يظن أن فيليبي يغازلها وأنها تصغي باستمتاع إلى المغازلات (إنها بالأحرى لصقات وليست مغازلات) تلك التي يقولها تريخو الصغير. تساءلت: «ماذا سيحدث لو أني ضممته في سريري؟ إن سرطان الماء سيحمرّ ولن يدري أين يحشر نفسه... بل سيعرف، ولكن قبل وبعد، أي الأكثر أهمية... الصغير المسكين، يجب أن أعلّمه كل شيء... أمر غريب. صغير القمح الصغير يسمّى فيليب أيضاً. هذا مضحك جداً، يجب أن أقول لجاميكا جون منذ أن تعبره الرغبة في أن يدقّ عنقي».

جاميكا جون سيفحص أشعار ربلتي ساقيه. بوسعه أن يتكلم مع باولا دون أن يرفع صوته الآن وآل بريسوتي يخرجون من الماء. ران صمتٌ خفيف لا يعكّره إلا ضحكات خورخي البعيدة. ولكنه سيطلب سيجارة من مدران ويدخّنها وعيناه مثبّتتان على الماء حيث تجتهد غيمةٌ في ألا تفقد شكل إجاصة وليم. لقد تذكّر للتو الحلم الذي حلمه عند الصباح. لا بدّ أنه أثّر على مزاجه. بين الفينة والأخرى، توافيه أحلامٌ من هذا القبيل. في الليلة الماضية عُينّ أحد أصحابه وزيراً، وكان كل شيء على مايرام. فقد كان صديقه رائعاً ومع ذلك فإن شعوراً غامضاً بالتعاسة انتاب لوبيز، كما لو أن الناس جميعاً يستطيعون أن يصبحوا وزراء إلا هو. وفي مرات أخرى كان يحلم أن هذا الصديق نفسه تزوّج زواجاً فخماً يعد بيخوت فخمة وبقطار الشرق السريع وبسوبر كونستالاسيون. وفي كل مرة يكون الاستيقاظ عسيراً حتى يعيد الحمام بعض النظام إلى الواقع. قال:

«ومع ذلك ليست لدي عقد الدونية. ولكن لماذا كلما أنام لا أشعر إلا بأني تعيس بائس؟» حاول أن يتساءل بشرف. أليس راضياً عن حياته؟ عمله وبيته (الذي لم يكن بيته، ولكن أليس حلاً جيداً أن يتخذ إقامته عند أخته؟) وأصدقاؤه الآن ألا يكفونه؟ فكّر من جديد: «السأم هو أن عقولنا حُشيت بفكرة أن الحقيقة تكمن في الأحلام. ربما كان العكس تماماً هو الصحيح وأنا أقوم بتعذيب نفسي من أجل حماقات. مع هذه الشمس وهذه الرحلة، لا بد أن يكون المرء غبياً حتى يعكّر دمه».

أصبح راؤول وحيداً في الماء الآن، وأخذ ينظر إلى باولا وفيليبي. وهكذا كان الغليون رائعاً، وكذلك التبغ... ولكنه كذب عليه حول الرحلة إلى الجحيم. الأمر سيان عنده، على أية حال، إن ذلك بمثابة مديح قدّمه له فيليبي. كان بوسعه أن يقول الحقيقة لشخصٍ آخر، وماذا كان سيحصل له في النهاية؟ ولكنه كان يكذب عليه لأنه يشعر شعوراً غامضاً بالقوة التي تقرّب بينهما (كانت قوية بحيث أنه انقذف إلى الخلف كقوس جيد). لقد كذب عليه، ودون أن يدري، قدّم له زهرةً مع الكذب.

نهض فيليبي وتمطّى بتلذّذ. ارتسم صدره ورأسه على خلفية السماء الزرقاء بعمق. استند راؤول إلى الجدار الخشبي وتلقى الجرح في صميم جبينه. كفّ عن رؤية باولا ولوبيز، وسمع نفسه يفكر بصوتٍ عالٍ في أعمق أعماقه ومع أصداء كهفية، أخذ يسمع صراخ أفكاره التي ولدت على كلام كريشنادازا، كما لو أن كلمات الشاعر تنتمي إليه ومن حقه، وكل كلمات الحب تنتمي إليه هو وإلى كريشنادازا وإلى الشاعر الغنائي وإلى الرجل الموثق إلى سريرٍ من الأزهار والذي سيمَ أعذب وأبطأ أنواع التعذيب. «أيها الحبيب، ليس لدي إلا رغبة»، سمع هذا الغناء: «أن أكون الأجراس الصغيرة التي

تطوق كعبيكِ لكي أتبعكِ إلى كل مكان ولا أتركك... لماذا أغني أغنية حب إذا لم أنتظر عند قدميكِ؟ أنتِ صورة عيني، وأنا أراكِ في كل مكان. إذا تأملتُ الجمال أصبح قادراً على محبة العالم». يقول كريشنادازا: «انظر، انظر». وتبدو السماء سوداء حول التمثال.

34

قالت دونيا روزيتا:

ـ يا له من رجل مسكين! انظرن إليه، إنه مغروس كدرويش لا يكلّم أحداً. لطالما قلتُ لزوجي إن على الحكومة أن تتخذ إجراءات. ليس لمجرّد أنه سائق، عليه أن يُمضي سحابة يومه في إحدى الزوايا.

قالت نيللي:

ـ يبدو لطيفاً. وكم هو طويل وقوي، هل لاحظتَ ذلك يا أتيليو؟

قال أتيليو:

ـ ليس إلى هذا الحد، فعندما أساعده على رفع الكرسي، أرفع مثله. صحيح أنه ضخم ولكن هذا مجرد شحم. له هيئة ملاكم، ومع ذلك فإن لوس يستطيع بطحه خلال لحظة واحدة. هل تعتقدين أن اليهودي الصغير سيتغلّب على استيفانو؟

ـ اليهودي الصغير رائع، إن الله سينصره.

ـ في المرة الأخيرة فاز في آخر لحظة. لدي انطباع بأنه لا يملك كثيراً من الحنكة، ولكنه يجيد اللعب بساقيه تماماً، كأنه إيرول فلين في فيلم الملاكمة الذي رأيناه معاً.

ـ نعم، لقد رأيناه في سينما ماجيستيك. ولكني لا أحب أفلام الملاكمة. وجوه الملاكمين مغطاة بالدماء باستمرار، ويمضون وقتهم في التضارب، إنها أفلام خالية من الحب.

ـ أوه، الحب! إذا لم ترَ النساء رجلاً مملّس الشعر يُمضي وقتَه في توزيع القبلات لا يفرحن. ولكن الحياة شيء آخر، صدّقيني، الواقع...

ـ أنتَ تقول هذا لأنكَ تفضّل أفلام الغانغستر، ولكن عندما ترى إستير ويليامز، فأنتَ لا تغضب، أتعتقد أني لم أرك؟

ابتسم القطيفة بتواضع وقال إن إستير ويليامز رائعة الجمال. وفي تلك اللحظة خرجت دونيا روزيتا من ذهولها الذي سبّبه عسر الهضم واهتزاز السفينة وقالت بصوتٍ عالٍ إن ممثلي هذه الأيام لا يعادلون ممثلي زمانها.

قالت دونيا بيبا:

ـ صحيح، عندما أتذكر نورما تيلميدج وليليان غيش، لقد كنَّ نساء حقيقيات. تذكّري مارلين ديتريش، لم يكن فيلمها مناسباً، ومع ذلك كانت لها تعابير رائعة. كان فيلماً بالألوان، وهو كان كاهناً هرب من العرب، فصعدت لتراه على السطح مع حجاب أبيض... أذكر أن القصة انتهت نهاية سيئة... القدر...

قالت دونيا روزيتا:

ـ أعرف، إنه فيلم «ذهب مع الريح». كم كان فيلماً حزيناً! لقد تذكرته الآن.

ردّت دونيا بيبا:

ـ لا، لم يكن «ذهب مع الريح». كان اسم الخوري جو، وقد جرت الأحداث معظمها في الصحراء، وكان هناك من تلك الألوان...

قالت نيللي:

ـ لا يا أمي، كان فيلم جو مع تشارلز بوير. وقد رآه أتيليو أيضاً، وكنا مع نيلا، أتتذكر يا أتيليو؟

لم يكن أتيليو يتذكر شيئاً. أمسك بقبضات الكراسي الطويلة

ونقلها بمحتواها إلى الظل. ضحكت النسوة، وأطلقن بعض الصرخات، لكنهن كن في غاية السرور لأن هذا الموقع يمكّنهن من رؤية المسبح.

قالت دونيا روزيتا:

- إن تلك الفتاة ما تزال مع ذلك الصبي. يا لها من مومس.

قالت نيللي التي كانت قد تحدّثت مراراً مع باولا، والتي انبهرت بكلمات راؤول الجميلة وبذكائه:

- أنتِ تبالغين يا أمي. أنتِ لا تريدين أن تفهمي الشباب الحديث. تذكّري تلك المرة، عندما ذهبنا لمشاهدة فيلم لجيمس دين. اعلم يا أتيليو أنها كانت تريد أن تغادر الفيلم وهي تقول إنهم أوباش، أتدركين ذلك؟

قال القطيفة الذي كان قد استفاض في الحديث عن ذلك في المقهى:

- ويجب ألا تبالغي، أنتِ الأخرى، فأولئك الرجال لم يكونوا ملائكة. إن ذلك بسبب التربية التي يتلقّونها، ماذا تحسبين إذن؟

قالت دونيا بيبا:

- لو كنتُ أم الصبي لوبّخته. لا بد أن هذه الفتاة تُسمعه كلاماً لا يناسب سنه. هذا إن لم يكن غير ذلك...

هزّت النسوة الثلاث رؤوسهنّ ثم أرسلن نظرة مليئة بالمعاني..

أضافت دونيا بيبا:

- العار هو ما حدث مساء أمس. ما معنى أن تتنزّه في الظلام مع رجل متزوّج؟ وزوجته المسكينة بقيت مكتوفة اليدين. لم تفعل شيئاً، ذلك الملاك الطيب. لقد رأيتُها. يجب أن نقول الحق: إن شبان اليوم بلا أخلاق. هل لا حظتن ما يحدث في الحافلة؟ تَمُتنَ عند أقدامهم، ولا أحد منهم مستعد للتخلي عن مكانه. وهُم يواصلون قراءة المجلات التي لا تتحدّث إلا عن جرائم صوفيا لورين.

قالت دونيا روزيتا:

ـ أوه، يا سيدتي المسكينة، كنتُ أقص عليكِ... في حيّنا، لئلا نذهب بعيداً... انظرن إليها. تلك العاهرة، ولكن ليس مع الشاب مساء أمس فحسب، بل مع المدرّس. ومع ذلك له هيئة شخص جاد، هيئة شاب كما يجب.

قال أتيليو مندفعاً اندفاعةَ رجل واحد لإغاثة المظلوم:

ـ لا علاقة لذلك. لوبيز شخص رائع. يمكن أن نتحدّث معه عن أي شيء، وفوق ذلك، فهو ليس مغروراً. يجب الاستفادة من الفرصة، لا سيما إذا كانت هي التي تسعى إليه.

قال نيللي التي كانت معجبةً براؤول ولا تفهم تصرّفه:

ـ وماذا عن الزوج؟ لا بد أنه سيعرف بما يحصل، أمس شخص واليوم شخص آخر...

قالت دونيا روزيتا:

ـ انظرن، انظرن، ماذا قلتُ لكنّ... ما إن ذهب الصبي حتى علّقت المدرس. أنا لا أفهم كيف يتسامح الزوج في أمرٍ كهذا.

قالت نيللي وقد أعوزتها الحجة:

ـ إنه الشباب الحديث. هذا شبيه بما يحدث في جميع الروايات.

وصلت السيدة تريخو لابسةً رداءً من الأخلاق وسترةً قطنية. حيّتهن وذهبت لتجلس على الكرسي الطويل قرب دونيا روزيتا. لحسن الحظ أن هذا الصبي كان قد غادر لافال، وإلا... تمهّلت دونيا روزيتا في إيصال الحديث إلى الموضوع الساخن، فقد نوقش موضوع اهتزاز السفينة لبعض الوقت، ثم موضوع الفطور ثم التيفوس ـ الرهيب إذا لم يعالَج في حينه ـ ثم موضوع الوعكة العابرة، ثم موضوع الشاب اللطيف تريخو الذي يشبه أباه كثيراً لا سيما عندما يحرّك رأسه بطريقةٍ معيّنة. شعر أتيليو بالسأم فاقترح على نيللي أن يقوما بجولة لكي ينشّطا الدورة الدموية بعد الحمّام.

تناولت النسوة إبر الحياكة وقارنّ كبب الصوف وأغطية الأسرّة. بعد وقت قصير أجمعن على عدّ باولا مفسدة على متن السفينة وعلى وجوب عدم السماح بالقيام بأمورٍ كهذه لا سيما خلال رحلة تبدو طويلة.

أثار ظهور نورا المفاجئ بعض الاهتمام المعّدل بالاهتمام المسيحي. شعرن جميعاً باستعدادهن لرفع معنوياتها. عيناها المحاطتان بالسواد تشهدان على مقدار ألمها. وهذا مفهوم، تلك المسكينة: عندما ترى زوجها، وهي التي ما تزال حديثة الزواج، زوجها يتنزّه ليلاً مع امرأة ليقوما الله أعلم بماذا. من المؤسف أن نورا لم تكن مستعدة لمثل هذه المكاشفات... استجمعت تلك النسوة مهارتَهن الديالكتيكية كلها حتى استطعن أن يجذبنها شيئاً فشيئاً إلى الحديث. تحدّثن أولاً عن نوعية الزبدة على متن السفينة، ثم عن التوضّع الموفّق للمقصورات ثم عن مهارة البحارة في تركيب المسبح، ثم سمحن لأنفسهن بالحديث قليلاً عن وسامة الشاب كوستا، وعن الهيئة الحذرية بعض الشيء للوبيز كما بدا هذا الصباح، وعن شباب زوج نورا. تُرى لماذا لم تذهب لتسبح معه؟ ربما تشعر ببعض الألم في قلبها. ولا هؤلاء النسوة يرغبن في السباحة، على الرغم أنه في سنّهن...

قالت نورا:

ـ نعم، أنا لم أرغب كثيراً في السباحة اليوم، ليس لأني متوعّكة، بل لأني لم أنم كثيراً...

احمرّت بقوة لأنها رأت دونيا روزيتا تنظر إلى دونيا بيبا التي نظرت بدورها إلى السيدة تريخو. إنهن يفهمن جيداً، فقد كنّ شابات، هن أيضاً، ولكن هذا لا يمنع أن يبدو لوسيو لبقاً ويأتي ليبحث عن زوجته الشابة ويتنزّها تحت الشمس إذا لم تكن راغبةً في السباحة. آهٍ من هؤلاء الشبان! تراهم متطلّبين جداً في بعض الأمور لا سيما في بداية الزواج، وبعد ذلك، تراهم يفضّلون الخروج بمفردهم أو

مع أصدقائهم لكي يقصّوا على بعضهم البعض القصص الشبقة في حين أن الزوجة المسكينة تبقى في البيت لتحيك الصوف. ترى دونيا روزيتا أن امرأةً متزوجة حديثاً لا يجدر بها أن تسمح لزوجها بأن يتركها وحيدة، إنها بذلك تعوّده عادات سيئة، وبعد ذلك يذهب إلى المقهى ليلعب الورق مع أصحابه، ثم إلى السينما ثم يعود متأخراً من عمله، ثم لا أحد يعلم ماذا يفعلون.

قالت نورا بصوتٍ ضعيف:

ـ أنا ولوسيو مستقلان جداً... كلٌّ منا يملك الحق في أن يعيش كما يحلو له.

قالت دونيا بيبا وهي مصرّة على موقفها:

ـ نعم، ذلك هو شباب هذه الأيام. كل من ناحيته، وبعد ذلك نكتشف أن... أنا لا أقول ذلك من أجلكما يا ابنتي، أنتِ تعرفين ذلك، أنتما لطيفان جداً، ولكن لديّ خبرتي، وأعرف ما معنى تربية فتاة، لقد عانيتُ كثيراً مع نيللي، لو قلتُ لكِ... ولكن لماذا أذهب بعيداً؟ هنا بالتحديد، إذا لم تتنبّها، أنتِ والسيد كوستا، فإني لن أستغرب أن... لن أكون نمّامة...

قالت السيدة تريخو بحيوية:

ـ هذا ليس نميمة يا دونيا بيبا. أنا أفهم تماماً ما تقصدينه وأنا متّفقة معكِ. فأنا أيضاً يجب أن أراقب ابني.

أخيراً فهمت نورا أنهن يتحدثن عن باولا فقالت:

ـ وأنا أيضاً لا يعجبني كثيراً وضعُ هذه الفتاة. صحيح أنها لا تعنيني مباشرةً، ولكن يجب الاعتراف بأنها محرّضة جداً.

قالت دونيا روزيتا:

ـ هذا بالضبط ما كنا نتحدّث عنه عندما أتيتِ. إنها عاهرة حقاً.

ـ لا، أعتقد أنكن تبالغن.

قالت السيدة تريخو:

ـ أبداً. وأنا لن أسمح أبداً لهذه الفتاة بأن تجري وراء ابني. وهو البراءة عينها، وهو ابن السابعة عشرة. ولكن ليس هذا هو المهم... ذلك أنها لا تكتفي بمغازلة واحدة.

قالت دونيا بيبا:

ـ لو اكتفت بالمدرّس فهذا سهل، رغم أن هذا ليس بالأمر الجيد. عندما تتزوّج المرأة أمام الله، لا يجدر بها أن تنظر إلى رجلٍ آخر. ولكن السيد لوبيز يبدو حسن التربية. ربما كان يكتفي بالثرثرة معها.

قالت دونيا روزيتا:

ـ إنها مصّاصة دماء. ربما كان زوجها لطيفاً جداً، ولكن لو رآني زوجي إنزو أتكلّم مع رجلٍ آخر فسيكون أمراً في منتهى السوء، مع أنه ليس قاسياً. الزواج هو الزواج، هذا ما أقوله دائماً.

خفضت نورا عينيها وقالت:

ـ أعرف ما تقصدن... أنها حاولت أن... مع لوسيو. ولكن، لا أنا ولا هو، نأخذ الأمر على محمل الجد.

قالت دونيا بيبا التي نما لديها انطباع بأن السمكة بدأت تفرّ من بين أصابعها:

ـ بالتأكيد يا ابنتي، ولكن يجب أن تحترسي. شيء جميل أن تقولي إنكِ لا تأخذين ذلك على محمل الجد، ولكن المرأة هي المرأة دائماً، والرجل هو الرجل دائماً.

قالت نورا:

ـ يجب ألا تبالغي. من ناحية لوسيو ليس لدي أي قلق، أما فيما يخصّ تلك الفتاة...

قالت دونيا روزيتا:

ـ قحبة. أن تصعد إلى سطح السفينة في منتصف الليل مع رجل في حين أن زوجته تبقى، واعذريني على هذا التعبير، كرجل طائر الكركي.

قالت السيدة تريخو:

ـ لا تبالغي يا دونيا روزيتا. إن هذه الفتاة تأخذ الأمور بفلسفة، وهي المعنية الأولى.

قالت نورا وهي تحسّ بأن يداً أخذت تعصر رقبتها:

ـ وكيف تردن أن آخذها إذن؟ هذا لن يتكرّر. هذا كل ما أستطيع أن أقوله.

ردّت السيدة تريخو:

ـ عظيم جداً. أما أنا، فلن أسمح لها أن تتابع مضايقة صغيري. لقد قلتُ لزوجي بماذا أفكر، وإن كرّرت فعلتها فسأُسمِعها كلاماً قاسياً. الصغير يعتقد أنه مضطر للإمساك بساقها لأن السيد كوستا قد اهتمّ به مساء أمس عندما مرض. بل إنه قدّم له هدية. لقد أغضبنا ذلك كثيراً، ولكن انظرن من أتى!

قال دون غالو وهو يصرف سائقه بحركةٍ من يده تمنحه هيئة ساحر:

ـ إنها شمس حارقة. أية حرارة، أيتها السيدات العزيزات! لقد أتيتُ القائكنّ وقائمتي كاملة لكي تعطينني نصائحكن الأخيرة...

35

قالت باولا:

ـ إيه، أيها المدرس، كم أنتً مقلّ في الكلام اليوم.

جلس لوبيز بجانبها على حافة المسبح، وقال:

ـ أعطني سيجارة، فقد نسيت سجائري في المقصورة.

ـ بكل سرور، سينتهي بي الأمر بأن أرسل هذه الولاعة اللعينة إلى قاع المحيط. حسنٌ، وكيف بدأنا نهارنا اليوم؟

قال وهو ما يزال يفكر بأحلامه:

ـ يعني. وأنتِ؟

ـ بينغ بونغ.

ـ بينغ بونغ؟

ـ نعم، سألتكَ كيف حالكَ فأجبتَني، ثم سألتني عن حالي، وأنا أجيبك: جيدة جداً يا جاميكا جون. جيدة جداً رغم كل شيء. البينغ بونغات الاجتماعية، في منتهى الغباء دائماً، إنها تشبه تماماً الإعادات في الحفلات الموسيقية وبطاقات الأماني ومليونين أو ثلاثة ملايين شيء من هذا القبيل. وكما يقول سبينوزا: هي الفازلين الذي يشحّم مسنّنات آلة العالم.

ـ الأمر الوحيد الذي أعجبني في حديثك هو أنكِ ناديتِني باسمي الحقيقي.

ـ باسمكَ الحقيقي؟ ذلك لأن لوبيز اسم فظيع. وكذلك لافال ولكن ليس بالطريقة نفسها... نعم، لقد كان البطل خلف الباب وأخذ ثقلاً كبيراً من الرصاص من الصندوق. مع ذلك إنها ذكرى مجيدة.

ـ إذا ما مضينا في هذا الطريق، يا عزيزتي، فإن لوبيز أيضاً مستبدّ مجيد.

ـ عندما يقال لي عزيزتي، كما فعلتَ للتو، تنتابني رغبة بالتقيؤ.

قال بصوتٍ خافت:

ـ عزيزتي.

ـ هذا أفضل. ولكن اسمح لي بأن أذكركَ، يا سيد، بأن امرأة تحترم نفسها...

ـ هذا يكفي، أرجوك. كفى تمثيلاً. إما أن نتكلّم بصراحة أو أذهب. لماذا يجب علينا أن نتبادل الضربات منذ أمس؟ لقد استيقظتُ اليوم وأنا مصمّم على ألا أراكِ بعد الآن مطلقاً أو على أن أقول لكِ في وجهك إن تصرّفكِ... وانفجر ضاحكاً. يناسبني أن أكلّمكِ عن تصرّفك. اذهبي والبسي ثيابكِ، وأنا سأنتظركِ في البار. فهنا لا يمكننا الحديث.

سألته كفتاةٍ صغيرة:

ـ هل ستؤنّبني؟

ـ نعم، هيا البسي.

ـ أنتَ غاضب جداً، جداً جداً من باولا الصغيرة المسكينة؟

أخذ يضحك من جديد، وتبادلا نظرتين وكأنهما يريان بعضهما بعضاً لأولَ مرة، فتنهّدت بعمق. منذ زمن طويل لم تشعر برغبةٍ في الطاعة، بدا لها ذلك غريباً وجديداً ولطيفاً تقريباً. أخذ لوبيز ينتظر فقالت:

ـ موافقة. سألبس ثيابي يا أستاذ. كلما بدوتَ متسلّطاً فسأناديكَ ياأستاذ. ولكن يمكننا تماماً البقاء هنا، فقد خرج الشاب لوسيو من الماء ولم يعد من أحد يسمعنا. وإذا كان لديك أفكار هامة تقولها لي... فلماذا نحرم أنفسنا من الشمس الدافئة؟

لماذا أطيعه بحق الشيطان؟

قال لوبيز بصوته الخافت نفسه:

ـ البار ذريعة. ثمة أمور لا يمكن قولها يا باولا. عندما لمستُ يدكِ أمس... بم أتكلّم؟

ـ ولكنكَ تتكلّم جيداً جداً، وأحب أن أسمعك وأنتَ تقول هذه

الأمور. أحبكَ عندما تكون عابساً، ولكني أحبّك أيضاً عندما تضحك. لا تغضب مني يا جاميكا جون.

قال وهو ينظر إلى شفتيها:

ـ لقد كرهتُكِ مساء أمس. أنا مَدين لكِ بكوابيس فظيعة، وبفمٍ متيبّس وبصباحٍ ضائع تقريباً.

ـ لقد تصرّفتَ كأحمق مساء أمس. أنا لستُ مسؤولة عن المزاج السيئ لسيدي.

ـ هل كان من الضروري أن تصعدي على سطح السفينة مع لوسيو؟

ـ ولم لا، هو أو غيره؟

ـ كنتُ أود أن تفضّلي عليه شخصاً آخر.

قالت وهي تسحق سيجارتها:

ـ لوسيو شخص لطيف. في النهاية، ما كنتُ أريده هو أن أرى النجوم، ولقد رأيتها، وهو أيضاً.

لم يقل لوبيز شيئاً لكنه نظر إليها بطريقةٍ جعلتها تخفض عينيها. كانت تتساءل (ولكن ذلك إحساس أكثر مما هو فكرة) كيف ستجعله يدفع ثمن هذه النظرة عندما سمعا صراخ خورخي ثم بيرسيو. التفتا فرأيا خورخي يقفز على سطح السفينة وهو يشير إلى العبارة ويصرخ:

ـ دهني! دهني! لقد قلت لكم يوجد دهني.

دنا مدران وراؤول اللذان كانا يتحدّثان تحت السرادق راكضينَ. وقف لوبيز ونظر. رغم الشمس الساطعة استطاع أن يرى الضابط الذي أتى وحدّثهم في الليلة السابقة. وضع يديه كمكبّر صوتٍ وصرخ بحيث أن الضابط اضطرّ للنظر باتجاهه. وجّه إليه لوبيز حركةً آمرة بأن ينزل إلى سطح السفينة. تابع الضابط النظر

إليهم دون أن يتحرك. أعاد لوبيز الحركة بعنفٍ أكبر حتى ظُن أنه يحرّك رايات. واختفى الضابط.

سألته باولا وهي تنهض هي الأخرى::

ـ ماذا دهاك يا جاميكا جون؟ لماذا ناديته؟

قال بجفاء:

ـ ناديتُه، لأني رغبتُ في مناداته.

وتوجّه صوب مدران وراؤول اللذين وافقاه بالحركة. بدا ثائراً لدرجة أن راؤول نظر إليه ساخراً ثم سأله:

ـ هل تعتقد أنه سينزل؟

ـ لا أعرف، ولكني سأقول مسبقاً: إذا لم يأتِ خلال عشر دقائق فسألقي هذه المطرقة على الزجاج.

قال مدران:

ـ عظيم، هذا أقلّ ما يمكن القيام به.

ولكن الضابط ظهر بعد بضع دقائق ووجهه متحفّز وكأنه قد راجع عدة مرات الأجوبة التي سيقولها في حال وُجّهت إليه أسئلة عدوانية. نزل على الدرج اليميني، ثم اعتذر وهو يمر من أمام باولا التي وجّهت إليه تحية ساخرة. في تلك اللحظة فقط أدرك لوبيز بأنه عارٍ تقريباً، ودون أن يدري لماذا، تضاعف غضبه.

قال الضابط محيّياً الثلاثة بانحناءة من رأسه:

ـ طاب نهاركم أيها السادة.

كلوديا وبيرسيو يشهدان المشهد من بعيد دون أن يتدخلا. وكان لوسيو ونورا قد اختفيا. وواصلت العجائز ضحكاتهن وأحاديثهن مع دون غالو وأتيليو في طرف سطح السفينة.

قال لوبيز:

ـ صباح الخير. إذا لم تخنّي ذاكرتي، كنتَ قد قلتَ لنا أمس بأن الطبيب سيزورنا، وها هو لم يأتِ.

قال الضابط وهو ينظر إلى كمّيه بإمعان وكأنه يريد أن ينسل خيطاً:

ـ أنا آسف أيها السادة. أتمنى أن تكونوا بصحة جيدة.

ـ لا يتعلّق الأمر بصحتنا. ولكن لماذا لم يأتِ الطبيب؟

ـ أفترض أن يكون قد انشغل كثيراً بمرضانا. هل لاحظتم أي عَرَض منذر؟

ردّ راؤول بلامبالاة:

ـ نعم. الجو العام تفوح منه رائحة الوباء، وكأننا في رواية وجودية. وعليكم أن تَفوا بوعودكم.

ـ سيأتي الطبيب، يمكنكم أن تثقوا بذلك. أنا آسف أن أقول لكم ولكن لأسباب صحية ستفهمونها بسهولة، يجب أن يكون أقل تماس ممكن بيننا... على الأقل في الأيام الأولى.

قال مدران:

ـ آه، التيفوس. ولكن إذا قرّر أحدنا أن يخترق العدوى، أنا مثلاً، فلماذا لا أستطيع أن أذهب إلى المؤخرة وأرى الطبيب؟

ـ لأنه يجب عليكَ أن تعود.

قال لوبيز وهو يلعن مدران وراؤول لأنهما منعا غضبه من أن يستطير:

ـ ها قد عاد للكلام نفسه. اسمع، لقد سئمت، سئمتُ حقاً. هذه الرحلة لا تعجبني، وأنتَ لا تعجبني. نعم أنتَ وبقية الدهنيين، بدءاً من قبطانك سميث. والآن اسمعني: من الممكن أن يكون لديكم متاعب

في المؤخرة مع التيفوس أو الجرذان، لا أريد أن أعرف، ولكن أحذّرك بأنه إذا ظل المرور ممنوعاً علينا طويلاً فإني مستعدّ للقيام بأي عمل. وعندما أقول بأي عمل، أتمنى أن تفهم الكلمة حرفياً.

أخذت شفتاه ترتعشان من شدة الغضب، فأشفق عليه راؤول قليلاً، ولكن كان مدران على أتمّ الاتفاق معه ورأى الضابط ذلك تماماً. تراجع خطوة ثم انحنى بطيبة باردة وقال:

- لا أريد أن أتخذ تهديداتك بالحسبان شخصياً يا سيدي، ولكني سأبلغ رؤسائي. بالنسبة إليّ، أنا آسف جداً أن...

قال مدران وهو يقف بين الضابط ولوبيز الذي أخذ يجمع قبضته:

- لا نعرف ماذا نفعل بأسفك. من الأفضل أن تغادر الآن وتبلغ رؤساءكَ في أسرع وقت ممكن.

أمعن الضابط النظر إلى مدران، ولاحظ راؤول أن لونه قد شحب قليلاً. حيّاهم تحية مقتضبة ثم استدار. لم تتزحزح باولا من مكانها قيد أنملة لتدعه يمر، ثم انضمّت إلى الشبان الثلاثة وقالت:

- عصيان على متن السفينة! عظيم جداً يا لوبيز. نحن متفقون معك تماماً. الجنون معدٍ أكثر من التيفوس 224.

نظر إليها لوبيز وكأنه يستيقظ من كابوس. دنت كلوديا من مدران، لمست ذراعه لمسةً خفيفة وقالت:

- لقد أفرحتَ ابني. انظر إلى محياه الفرح.

قال راؤول:

- سوف أبدّل ملابسي.

قالت باولا مبتسمة:

- أنا مطيعة جداً يا جاميكا جون. سنلتقي في البار.

صعدا الدرج معاً، يبدو الغبش في الممر للوبيز ليلاً حقيقياً، ليلاً

جميلاً بلا كوابيس، ليلاً عينّ فيه أحدهم محافظاً وهو لا يستحق ذلك. شعر بأنه مُتعَبٌ ومغتبط في آنٍ معاً. فكر: «كان من الأفضل لي لو أني هشمت وجهه». ولكن بدا الأمر سيان عنده الآن.

عندما عاد إلى البار كانت باولا قد طلبت كأسين من البيرة ودخّنت نصف سيجارة. قال:

ـ أمر غريب! هذه أول مرة تجهَز فيها امرأةٌ قبلي.

ـ ذلك لأنك لا بدّ أنك فكرتَ فكرة رومانية في الحمام، بحسب نظرتك.

ـ ربما. لا أذكر. أعتقد أني بقيتُ طويلاً تحت الماء، على أية حال، كان بارداً وجيداً، وأشعر أني أفضل الآن.

قطع السيد تريخو قراءة كتاب لكي يحييهما تحية باردة بعض الشيء، الأمر الذي كان جيداً، بحسب رأي باولا، بالنظر على الحرارة الموجودة. ولكونهما جالسينَ على مقعد في الزاوية الأبعد عن الباب، لم يريا إلا السيد تريخو ورجل البار الذي كان مشغولاً بمزج الجن مع الفرموث. عندما أشعل لوبيز سيجارته من سيجارة باولا مُدنِياً وجهه من وجهها تولّاه شيءٌ ما يشبه السعادة وامتزج بالدخان وباهتزاز السفينة الخفيف. ولكن في صميم هذه السعادة شعر بوخزة فتراجع منزعجاً.

كانت باولا تنتظر ساكنةً خفيفةً، لكن الانتظار طال فسألته أخيراً:

ـ أما تزال راغباً في قتل الدهني؟

ـ لا أعبأ كثيراً بالدهني.

ـ أعرف تماماً أنكَ لا تعبأ به، كان الدهني سيدفع من أجلي. فأنا مَن كنتَ ستقتل، بالمعنى المجازي طبعاً.

نظر إلى كأس بيرته ثم قال:

ـ إن كنتُ قد فهمتُ جيداً، تدخلين إلى المقصورة بالمايوه،

وتخلعينه كما لو أن لا شيء يحدث، وتقفين تحت الدوش، وهو يدخل... يخلع ثيابه أيضاً و... هكذا دواليك.

قالت بنبرة عتاب مضحك:

ـ جاميكا جون، manners, my dear.

ـ أنا لا أفهم. أنا لا أفهم شيئاً أبداً. لا على هذه السفينة ولا عليك ولا عليّ أنا. إن ما يحدث في غاية الإضحاك.

ـ يا عزيزي، في بوينس آيرس، في الحقيقة لا يُعرَف ما يحدث في بعض البيوت. كثير من الفتيات اللاتي كنتَ معجباً بهن يخلعن ملابسهن ربما برفقة أشخاص مفاجئين. ألا ترى أنكَ تملك عقلية عانس أحياناً؟

ـ لا تتحامقي.

ـ ومع ذلك، كلامي صحيح يا جاميكا جون. إنكَ تفكّر الآن تماماً كما ستفكر تلك العجائز المسترخيات تحت الخيمة إذا عرفن أن راؤول ليس زوجي وأن لا علاقة لأحدنا بالآخر.

قال لوبيز وقد اعتراه الغضب مجدَّداً:

ـ أنا لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق أن كوستا... ولكن ماذا يحدث إذن؟

ـ شغّل عقلكَ قليلاً، كما تقول الروايات البوليسية.

ـ باولا، قد أكون متحرراً، متفهماً، وأكثر ولكن كوستا وأنتِ...

ـ ولم لا؟ ما دامت الأجساد لا تُعدي الأرواح. لأن هذا هو ما يشغلك، الأرواح. الأرواح التي تُعدي الأجساد بدورها، وبنتيجة ذلك أحد الأجساد ينام مع الآخر.

ـ إذن، أنتِ لا تنامين مع كوستا؟

ـ لا يا سيدي المدرس، أنا لا أنام مع المدرس. طبعاً أنتَ تفكر:

«لا أصدّقها». آه يا جاميكا جون، كم أنتَ متعِب! وكم أرغب في أن أشتمكَ الآن بكلمة جاهزة على رأس لساني. مع العلم أنكَ تقبل الموقف نفسه في رواية... يرى راؤول أني أميل إلى رؤية العالم من وجهة نظر أدبية. أليس من الأفضل أن تفعل مثلي؟ لماذا أنتَ إسباني إلى هذا الحد؟ لماذا أنتَ لوبيز جداً؟ لماذا تدع موروثاتك تتلاعب بك؟ أنا أقرأ الآن أفكارك كإحدى غجريات ريتيرو. أنتَ تتوقّع في هذه اللحظة فرضية أن يكون راؤول... أخيراً لنقل إن قَدَراً طبيعياً يحرمه من أن يقدّر عندي ما يمكن أن يصنع سعادة رجالٍ آخرين. أنتَ مخطئ، ليس الأمر هكذا أبداً.

قال ببعض الارتباك:

ـ لم أفكر قط بأمر كهذا. ولكن اعترفي أنكِ، أنتِ أيضاً تجدين من الغريب أن...

ـ لا، لأني صديقة راؤول منذ أكثر من عشر سنوات، وتلك عادة قديمة لم تبدُ لي غريبة قط.

طلب لوبيز كأسين آخرين من البيرة. لفت رجل البار نظرهما إلى أن ساعة الفطور قد اقتربت وإلى أن البيرة قد تفقدهما الشهية إلى الطعام، ومع ذلك فقد طلبا كأساً واحداً. وضع لوبيز يده بهدوء على يد باولا وتبادلا النظر. ثم قال:

ـ أعترف بأنه ليس لدي أي حق في أن أمارس الرقابة عليك. ولكن هل تسمحين برفع الكلفة فيما بيننا؟

ـ بكل تأكيد. كنتُ سأفعل ذلك. الأمر الذي قد لا يعجبكَ، لأنكَ اليوم...

ـ عزيزتي، عزيزتي الغالية...

نظرت إليه لحظةً بتردّد ثم قالت:

ـ من السهل جداً الانتقال من الشك إلى الحنان، إنها حركة

قدرية تقريباً، وغالباً ما لاحظتُها. ولكن عقارب الساعة تدور في الاتجاه المعاكس يا جاميكا جون، والآن ستصبح شكوكَكَ أقوى من السابق لأنكَ تشعر بنفسكَ أقرب إليّ. أنتَ مخطئ في اختلاق الأوهام، يا جاميكا جون، فأنا أكثر بعداً عنك. بعيدةٌ إلى درجة أن ذلك يثير اشمئزازي.

ـ لا، أنتِ لستِ بعيدةً عني.

ـ الأمور الفيزيائية خادعة، يا عزيزي جاميكا جون! منذ بعض الوقت، نعم يجب أن أقول ذلك...إن لحظات صراحتي وشرفي نادرة جداً. لماذا تتخذ هيئة المصدوم هذه؟ هل ستدّعي بأنكَ عرفتني خلال يومين أكثر مما عرفتُ نفسي خلال خمس وعشرين سنة كاملة؟ منذ قليل، فهمتُ بأنكَ شخص لذيذ وأشرف مما كنتُ أظن.

ـ كيف أشرف؟

ـ لنقل أكثر صراحةً. اعترف بأنكَ حتى الآن قد استسلمتَ إلى التمثيلية التقليدية: نصعد على متن السفينة، ندرس الموقف، نختار المرشحات... كما في الروايات، حتى لو أن ذلك أضحك راؤول. هذا بالضبط ما فعلتَه. ولو كان على متن السفينة خمس أو ست باولات (كلوديا غير محسوبة، فهي ليست لك، ولا تتخذْ هيئة الذكر المهان) لما كان لي الآن شرف شرب كأس من البيرة المثلجة مع السيد المدرس.

ـ كل ما تقولينه هنا يا باولا يسمى القدر. أنتِ أيضاً كان يمكنكِ أن تلتقي بكثير من الشبان على هذه السفينة، وكان دوري سيقتصر على النظر إليكِ من بعيد.

ـ يا جاميكا جون، في كل مرة تُلفَظ أمامي كلمة قدر تراودني رغبة في أن أسعى إلى معجون أسناني وفرشاتي. هل لاحظتَ أن اسم جاميكا جون لا يليق كثيراً عندما أرفع الكلفة بيننا؟ الكلمات الغريبة تتطلب معاملة أكثر رسمية. وإذا ناديتُكَ كارلوس فإنني

أتذكر كلب العمة كارمن... شارل، لا، فهو مبروَز كثيراً. أنتَ قرصاني المفضّل. لا، لن أذهب.

قال لوبيز ببعض الاستغراب:

ـ ولكني لم أقل شيئاً.

ـ عيناكَ يا عزيزي. إني أرى فيهما الممر السفلي والباب رقم واحد. أعترف بأني حفظتُ جيداً رقم مقصورتك.

ـ أرجوكِ يا باولا.

ـ أعطني سيجارةً أخرى. ولا تظن أن أمورك متقدمة جداً لأني اعترفتُ بأنكَ أشرف مما كنتُ أظن. أعتقد أنكَ رجل طيب جداً، وتشهد علي السماء بأني لم أقل هذه الكلمة إلى كثيرين قبلك. لدي رجال بصورة عامة يحملون أفكاراً مسوخية. إنهم ضروريون ولكنهم بائسون كالفوط الصحية أو كمعكرونة فالد.

كانت تكشّر وهي تتكلّم كما لتعطي أهميةً لما تقوله.

قال بصوتٍ أجش:

ـ أعتقد أنكِ مخطئة. أنا لستُ رجلاً طيباً كما قلتِ، ولكني لم أعتد على أن أعدّ النساءِ تمضيةَ وقت.

ـ ولكني تمضية وقت يا جاميكا جون.

ـ لا.

ـ بلى. صدّقني. إن عينيكَ تقولان لكَ ذلك لكن تربيتكَ المسيحية تريد أن تخدعك. على أية حال، ما من شخص أخطأ معي، وتلك ميزة.

ـ لماذا هذه المرارة؟

ـ ولماذا هذه الدعوة؟

صرخ غاضباً:

ـ ولكني لا أدعوكِ إلى شيء أبداً.

ـ بلى، بلى، بلى.

قال برقّة:

ـ أتمنّى أن أشدّكِ من شعرك، وأن أرسلكِ إلى الشيطان.

ـ أنتَ طيب جداً. في الواقع، نحن الاثنين فظيعان.

أخذ يضحك، فالأمر كان أقوى منه. ثم قال:

ـ أحبّ أن أسمعكِ وأنتِ تتكلّمين. وأحب أن تكوني بهذه الجرأة. نعم، أنتِ جريئة، تحاولين دائماً أن تُفهمي خطأً، وهذا منتهى الجرأة. بدءاً من راؤول. لا، لن أعود إلى قول الكلام نفسه، أنا أصدّقك. لقد قلتُ لكِ ذلك سابقاً، وها أنا أعيده. أنا لم أفهم شيئاً إلا إذا...

ثم حدّثها عن هيئة راؤول عندما عادوا من مهمتهم في الليلة السابقة. أخذت تصغي إليه وهي متكئة على مسند المقعد دون أن تتكلم، وعيناها تنظران بإمعان إلى رماد السيجارة الذي كان يكبر بين أصابعه. الخيار سهلٌ، الثقة به أو الصمت. في الواقع الأمر سيان عند راؤول. ولكن الأمر يتعلّق بها وليس براؤول: الثقة بجاميكا جون أو الصمت. قرّرت أن تثق به. لا تستطيع فعل شيء. لقد كان صباح المكاشفات.

36

سرى خبر المشادّة بين لوبيز والضابط سريان النار في الهشيم بين تلك النسوة. من يصدّق، لوبيز الشاب المهذّب وحسَن التربية! من المؤكد أن جواً مضحكاً قد ساد على متن السفينة، ونيللي التي عادت بصحبة خطيبها من نزهة جميلة في ظل لفّة من الحبال، ظنت أن من

واجبها أن تلمّح إلى أن الرجال يُمضون أوقاتهم في إفساد كل شيء. حاول أتيليو أن يدافع عن لوبيز برجولة لكنه جوبِهَ بالسخط، واستفادت نورا من الهياج العام ونزلت راكضةً إلى مقصورتها حيث كان لوسيو يحاول بمشقة أن يهتم بالمغامرات المكثّفة لأحد المبشّرين في أندونيسيا. لم يرفع رأسه عندما دخلت واقتربت من مقعده وانتظرت. أخيراً أغلق المجلة باستسلام فقالت:

ـ لقد حدثت مشاجرة عنيفة بين السيد لوبيز وأحد الضباط، هناك في الأعلى، على سطح السفينة.

ـ وماذا يهمني هذا؟

ـ لقد هدّده السيد لوبيز بإلقاء حجارة على الزجاج إذا لم يفتحوا سطح السفينة الخلفي.

ـ سيكون من الصعب عليه أن يجد حجارة على متن السفينة.

ـ قال إنه سيلقي مطرقة.

ـ سيعدّونه مجنوناً وسيحجرون عليه. ثم ماذا تريدينني أن أفعل؟

ـ لاشيء، ولا أنا أيضاً.

أخذت تسرّح شعرها، وتنظر بين وقتٍ وآخر إلى لوسيو في المرآة. ألقى هذا المجلة على السرير، ثم قال:

ـ لقد سئمت. ترى ما الذي جعلني أربح جائزة التومبولا اللعينة تلك؟ في حين أن هناك أشخاصاً يربحون سيارة شيفروليه أو فيللا في مار ديل آغو.

ـ نعم، هناك جو مضحك.

ـ ولديكِ أسباب جيدة لتقولين ذلك.

ـ أقصد سطح السفينة الخلفي وكل هذه الأمور.

ـ وأنا أفكّر بأشياء أكثر من ذلك بكثير.

ـ من الأفضل عدم العودة إلى فوق.

ـ حسنٌ، أنا موافق تماماً. إن هذا سخيف إلى درجة أن من الأفضل عدم التحدّث عنه.

ـ لا أعرف إن كان سخيفاً، ولكن من الأفضل عدم التحدث عنه بالفعل.

ـ لن نتحدّث عنه ولكنه سخيف تماماً.

ـ إذا أحببت.

ـ إذا كان هناك من شيء لا أطيقه فهو انعدام الثقة بين الزوج والزوجة.

ـ أنتَ تعرف تماماً أننا لسنا زوجاً وزوجة.

ـ وأنتِ تعرفين تمام المعرفة أني أرغب في أن نكون متزوّجين. أقول ذلك من أجل سكينة البورجوازية الصغيرة، لأنه بالنسبة إليّ أنا نحن متزوّجان سابقاً. ولا تستطيعين أن تقولي عكس ذلك.

ـ لا تكن فظاً يا لوسيو.

قبِل معظم الركاب أن يشاركوا في السهرة التي نظّمها دون غالو ود. ريستيللي. وكما قال هذا الأخير يجب محو آثار القلق الذي يحجب بشكل صحيح الشمس الرائعة والكبرياء الراسخ على الشواطئ الباتاغونية. جُرح د. ريستيللي بعمق من تصرف لوبيز الذي نقله إليه دون غالو والنسوة فسعى للبحث عنه. ولكن لوبيز كان غارقاً في الحديث مع باولا في البار. اضطر ريستيللي إلى كبح جماح غضبه وإلى شرب كأس أنديان تونيك على الكونتوار بانتظار أن تسنح الفرصة للتدخل في حوار أجبره غيرَ مرةٍ على أن يشيح بوجهه

ويتّخذ هيئة الغائب. وغيرَ مرة وجَّه إليه السيد تريخو غمزات متواطئة لكن د. ريستيللي كان يقدّر زميله أكثر من أن يُبدي أنه فهم. عندما ظهر راؤول كوستا بعد أن استحمّ ولبس قميصاً عليه رسوم شتاينبرغ ثم ذهب ليجلس مع لوبيز وباولا بهيئة أكثر طبيعية في العالم، ظن ريستيللي أن الحديثَ صار مسموحاً له فتنحنح واقترب منهم بدوره. طلب من لوبيز بهيئة متعبة وغاضبة بألا يلقي المطرقة على زجاج العبارة، ولكن لوبيز الذي بدا حتى الآن مسروراً جداً ومسالماً، اكفهرّ وجهه وقال إن إنذاره الأخير جدّي جداً وإنه غير مستعد للسماح لهم بأن يسخروا من الركاب زمناً أطول من ذلك. بما أن راؤول وباولا اعتصما بصمتٍ لا تشوبه إلا نفثات من الشسترفيلد، أتى د. ريستيللي على ذكر أسباب جمالية، فقبل لوبيز مباشرة أن يعدّ السهرة كنوعٍ من الهدنة المقدّسة التي تنتهي في الساعة العاشرة من صباح الغد. ردّ د. ريستيللي بأن لوبيز، رغم غضبه، فقد تصرّف بوصفه جنتلمان ـ وهو كذلك ـ وبعد أن قبل كأساً آخر من الإنديان تونيك، ذهب ليبحث عن دون غالو الذي كان يجمع مساعدات خيرية على سطح السفينة.

هزّ لوبيز رأسه ككلبٍ مبلّل ثم ضحك من كل قلبه وقال:

ـ مسكين ذلك القط الأسود. إنه رجل طيب. لو رأيتموه عند توزيع الجوائز وهو يصعد المنصة ليلقي كلمة. صوته يخرج من حذائه، ويدوّر عينيه، وبينما الأولاد يتلوّون من الضحك أو ينامون، فإن أبطال الثورة والرجال العظام بربطات عنقهم البيضاء يمرّون كتماثيل من الشمع على مسافة هائلة من الأرجنتين عام 1950. هل تعرفان ماذا قال لي أحد طلابي في أحد الأيام؟ قال: «ولكن ياأستاذ، إذا كان العالم بهذا النبل وبهذه الشجاعة فلماذا نرى كل هؤلاء القذرين اليوم؟»

ـ إني أنكر الاشمئزاز المحدّد تماماً الذي كانت توجيه وأنا

شاب صغير الخطاباتُ الوطنية والراية النبيلة والوطن الذي لا يفنى والغار السرمدي، الحرس يموت ولا يستسلم... نعم، إني أخلط الكلام ولكن لا بأس. هل يمكن لهذه المفردات أن تقوم مقام اللجام والعِمامة لبعض الناس؟ بعد مستوى عقلي معين، المضحك، التناقض بين هذه الكلمات ومن يلفظونها يقتل كل وهم.

قالت باولا:

ـ نعم، ولكن عندما يكون الإنسان شاباً يحتاج إلى الإيمان. أذكر أنه عندما كان يقول لنا أحد المدرّسين الذين نحترمهم مثل هذه الكلمات الجميلة كنتُ أعد نفسي بعمل مبرّز، بالشهادة، بالتضحية بنفسي في سبيل الوطن. الوطن رائع يا عزيزي راؤول. إنه غير موجود لكنه رائع.

قال لوبيز:

ـ بل هو موجود ولكنه غير رائع.

قال راؤول:

ـ هو غير موجود، نحن نوجده، إنكما تغوصان في فينومينولوجيا تبسيطية.

لم تكن باولا موافقة تماماً. اتخذ الحوار منحى رفيعاً وتقنياً تطلّب من لوبيز صمتَ إعجاب. وبينما هو يصغي إليهما شعر من جديد بنقص ذلك الشيء الذي لا يستطيع أن يسمّيه، حتى لو أنه كان يسميه استحالةَ تواصلٍ أو فرديةً بكل بساطة. رغم أن راؤول وباولا منفصلان بحيواتٍ مختلفة وبتباينات في الآراء، فهما مترابطان كقطبات شبكة. إنهما يلتقيان دائماً في التلميحات وفي ذكريات الأحداث المَعيشة معاً، وهو كان على الحياد، يشهد بحزن، وفي الوقت نفسه سعيدٌ، سعيدٌ بالنظر إلى أنف باولا، وبسماع ضحكة باولا، إلى هذا الاتحاد الممهور بوقتٍ طويل وبمكان طويل، اتحاد شبيه بذلك الاتحاد الذي يحدث عندما يُقطع الإصبع ويمتزج الدم

ويتحد اثنان إلى الأبد... هو أيضاً، سيدخل الآن في زمان باولا ومكانها، وعليه أن يتمثّل ببالغ الصبر الأمورَ التي لا تقدَّر والتي تعرفها باولا مسبقاً كما لو أنها تشكّل جزءاً منه، ما تفضّله باولا وما تكرهه، الدلالة الصحيحة لحركة، لثوب أو للون، نسق أفكارها أو ببساطة الفوضى العامة في آرائها وفي مشاعرها، في حنينها وفي آمالها. فكّر وهو يزمّ شفتيه: «ولكنها ستكون لي، وهذا سيغيّر كل شيء. ستولَد من جديد؛ ما يعرفه عنها هو ما يمكنها أن تقدّمه للجميع، أما أنا...». ولكنه تأخّر كثيراً، ولا شيء سيمنع باولا من تبادل نظرة ذكاء مع راؤول في أية مناسبة، وستكون هذه النظرة ككونشرتو لفاغنر، كسهرة في مار ديل بلاتا، فصلاً من فوكنر، زيارة للعمة ماتيلد، إضراباً جامعياً، شيئاً حصل مع دون كارلوس لوبيز، شيئاً حصل بينما كان كارلوس لوبيز يملي درساً في الشعبة ب أو يتنزّه في جادة فلوريدا أو يمارس الحب مع روزاليا. ومع ذلك ستكون باولا، بصورة شبيهة ومثل باولا، تلك التي ستنام بين ذراعيه وتجعله سعيداً. إذن إن الغيرة من الماضي التي كانت قد ظهرت له عند شخصيات بروست أو بيرانديللو مزيجاً من الاتفاق والعجز، يمكنها تماماً أن تصبح واقعاً. يداه ستعرفان كل جزء من جسد باولا وستنجح الحياة في أن تخدعه مع هذا الوهم الضعيف من الحاضر الذي تعطيه الساعات أو الأيام أو الأشهر التي تمر. حتى يعود راؤول أو شخصٌ آخر، حتى تظهر أمٌّ أو أخ أو ببساطة علامة في كتاب أو ملاحظة في مذكرة، وحتى، وهذا أسوأ، تقوم باولا من جديد بحركة إلى الأمام، محمّلة بالمعنى وغير مفهومة، أو تغامر بتلميحٍ إلى الماضي وهي مارة في شارع، وهي تنظر إلى لوحة أو إلى وجه. إذا أصبح، يوماً، عاشقاً حقاً لباولا، لأنه الآن ليس عاشقاً لها. فكر: «أنا لستُ عاشقاً لها الآن. بل أريد ببساطة أن أنام معها وأن أعيش معها وأن أكون معها». إذن سيُريه الزمن وجهَه الحقيقي الأعمى، سيطالب بالفضاء الذي لا يمكن عبوره، والذي لا تملؤه الأيادي ولا الكلمات، حيث من العبث رمي المطرقة على الزجاج لأنه

لن يبلغ هدفه، وحيث كل خطوة يوقفها جدارٌ من الهواء. راؤول وباولا جالسان إلى الطاولة نفسها، وهما معاً على الجهة الأخرى من المرآة؛ عندما يمتزج صوته بصوتيهما، بين وقتٍ وآخر، بدا وكأن عنصراً غريباً يدخل في الكرة التامة حيث صوتاهما يرقصان بخفة، متعانقين، يتشابكان وينفصلان دوراً بعد دور. أن يستطيع أن يكون راؤول دون أن يكون هو نفسه، أن يركض تائهاً، ويائساً بحيث أن الجدار الخفي ينفجر ويدعه يدخل ويأخذ كل ماضي باولا في حملٍ واحد ويضعه إلى جانبها، لصقها، وإلى الأبد، ويمتلكها وهي عذراء، وهي مراهقة، ويلعب معها أيام الحياة الأولى، ويقارب شبابها، والحاضر، والهواء بلا مرايا تحيط بهما، ويدخل معها إلى البار، ويجلس معها إلى هذه الطاولة، ويستقبل راؤول بصفته صديقاً مشتركاً، ويتحدّث بما يتحدثان، وينظر إلى ما ينظران، ويحسّ بالفضاء الآخر بجانبه، وبالمستقبل الذي لا يمكن تصوره، ولكن البقية كلها تنتمي إليهما، وألا يكون الهواء الذي يحيط بهما هذه الفقاعة المقزّحة والمؤقتة التي ترفرف في العدم، ترفرف في ماضٍ كانت باولا تنتمي فيه إلى عالمٍ آخر، ترفرف في صباح لم يكن فيه للحياة المشتركة أية قوة لتجذبَ باولا إليه، وتجعلها ملكه، حقاً وإلى الأبد.

قالت باولا وهي تضع يداً على كتف لوبيز:

ـ نعم، لقد كان مثيراً للإعجاب. آه! جاميكا جون يستيقظ، جسد نجمي يسافر في أصقاع بعيدة.

سأل لوبيز بمشقة:

ـ عم تتحدّثان؟

ـ عن جيسكينغ. راؤول تعب إلى درجة أنه مات. غالباً ما سنسمعه. لقد كنتُ أحب كثيراً طريقته في عزف رافيل.

ـ نعم، وأنا أيضاً ذهبتُ لسماعه عدة مرات (ولكن هذا لا يشبهه، هذا لا يشبهه، كل من ناحيته، المرآة).

غضب. هز رأسه وطلب سيجارة من باولا. فانحشرت به، لم تنحشر كثيراً على أية حال، لأن السيد تريخو كان ينظر إليهما فابتسمت له.

ـ كم كنتَ بعيداً، بعيداً. هل أنتَ حزين؟ هل تشعر بالسأم؟

قال لوبيز:

ـ لا تتحامقي. ألا ترين أنكِ حمقاء جداً؟

37

قالت كلوديا وهي تنظر إلى خورخي الذي جرى لملاقاة بيرسيو:

ـ لا أعرف، ليس محموماً، ولكن ثمة شيءٌ لا يعجبني. عندما لا يطلب أن يتناول تحليةً فهذا يعني أنه ليس على ما يُرام.

هزّ مدران كتفيه بغضب وقال:

ـ يجب أن يراه الطبيب من كل بد، ولكن إذا بقينا هكذا، لا نفعل شيئاً... لا، هذا حقاً غير مقبول، لوبيز على حق تماماً، ويجب أن ننتهي من هذه القصة بطريقةٍ أو بأخرى.

فكّر وهو يفهم هيئة كلوديا نصف المرتابة، ونصف المحبَطة: «إني أتساءل لماذا نملك هذه الأسلحة في المقصورة، بحق الشيطان».

قالت كلوديا بعد فترة من الصمت:

ـ بكل تأكيد لن تصلوا إلى شيء. إذ لا يمكن فتح بابٍ من الحديد برفسات الأرجل. ولكن لا تهتم بخورخي، لا بد أن هذا من عقابيل وعكته بالأمس. هيا لنأخذ الكراسي الطويلة ولنجد مكاناً في الظل.

انتقلا إلى مكان على مسافة معقولة من السيدة تريخو، ليس بعيداً جداً عنها لئلا يجرحا إحساسَها، وبعيداً بما يكفي لئلا

تسمعهما. كان الهواء بارداً عند الساعة الرابعة بعد الظهر. وبين وقتٍ وآخر كانت تهبّ نسمةٌ وتصفر على الحبال، وتطيّر شعر خورخي الذي أخذ يلعب لعبة الطائر مع بيرسيو الصبور. شعرت كلوديا من وراء حديثهما بأن مدران ما يزال يجترّ فكرته الثابتة وبأنه يفكر بالضابط وبالطبيب. ابتسمت فرحاً بهذه الإصرار الرجولي، ثم قالت:

ـ الغريب هو أن أحداً لا يتكلم عن رحلتنا عبر المحيط الهادي. كما لاحظتُ أن لا أحد يقوم بأي تلميح إلى اليابان. ولا حتى إلى مضيق ماجلان أو التوقفات الممكنة.

أجاب مدران بابتسامة محت سوء مزاجه الذي ظهر في البداية:

ـ هذا مستقبل بعيد جداً. بعيد جداً بالنسبة إلى بعضنا، وغير محتمل بالنسبة إليكِ وإليّ.

ـ لا شيء يمنعنا من الإيمان بأننا سنصل إلى غايتنا.

ـ لا شيء. ولكن هذا كالموت. لا شيء يجعلنا نفترض أننا سنموت، ومع ذلك...

ـ أنا أكره الكنايات.

فيليبي والقطيفة يتدرّبان على التمرينات الرياضية التي سيقدّمانها كفقرة في السهرة. لم يكن من أحد على جسر القيادة. دفنت السيدة تريخو الإبرتين في كبة الصوف. غلّفت الصوف المَحيك وبعد انحناءة جميلة من رأسها غابت لتزيد من عدد الغائبين. ترك مدران نظره يتأرجح في الفضاء ثم علّقه على منقار أحد الطيور وقال:

ـ اليابان أو غير اليابان، لن آسف أبداً لأني أبحرتُ على متن هذه المالكولم، إني مدين لها بأني عرفتكِ وبأني رأيتُ هذا الطائر الذي يحوم فوقنا وبهذه الأمواج الصابونية وأيضاً ببعض اللحظات السيئة، الأكثر ضرورة من أن أقبلها في بوينس آيرس.

ـ وأنتَ مدين لها أيضاً بدون غالو والسيدة تريخو، إذا لم أذكر غيرهما.

ـ أنا جاد في كلامي يا كلوديا. أنا لستُ سعيداً هنا، وهذا أمر مستغرّب لأني لم أتوقّع أن أكون كذلك. كان كل شيء كفيلاً أن يجعل من هذه الرحلة فاصلاً ضرورياً بين نهاية كتاب واللحظة التي نقطع فيها صفحات كتاب آخر. No man's land حيث نداوي جراحنا وحيث نتزوّد بماءات الكربون وبالشحوم وبالاحتياطات الأخلاقية من أجل غوص جديد في الروزنامة. ولكن العكس تماماً هو ما يحدث معي. فالـ No man's land هي بوينس آيرس خلال هذه الأسابيع الأخيرة.

ـ قد يكون كلُّ مكانٍ جيداً من أجل تجهيز الأمور. ليتني أستطيع أن أشعر بالشيء نفسه الذي تشعر به، بكل ما قلتَه لي أمس وبكل ما يمكنه أن يحصل لك... فالحياة التي سأمضيها أنا هنا أو هناك لا تقلقني كثيراً. إنها نوع من السبات الشتوي، حياة على أطراف الأصابع ما أنا فيها إلا ظل خورخي، واليد الممدودة إليه عندما يمدّ يده ليلاً عندما يكون خائفاً.

ـ نعم، ولكن هذا كثير.

ـ ربما يكون ذلك إذا ما نُظر إليه من الخارج، أو إذا ما عُدّ من باب التفاني الأمومي. السأم هو أني شيء آخر، وليس أم خورخي فقط. لقد سبق أن قلتُ لكَ أن زواجي كان خطأً، ولكن الخطأ أيضاً أن أبقى طويلاً مستلقية تحت شمس الشاطئ. وأن أقوم بحماقات بذريعة الجمال أو السعادة، هذا ليس عذراً... ما يعتدّ به هو النتائج. على أية حال، لقد كان ماضيَّ مليئاً بأشياء جميلة وما يعزّيني هو أني ضحّيتُ بها مقابل أشياء أخرى جميلة وضرورية أيضاً. إذا ما خيرتَني بين لوحة لبراك وأخرى لبيكاسو فإني سأختار براك (إذا كانت هي اللوحة التي أفكر بها في هذه اللحظة)، ولكن أي أسف سأشعر به على أني لم أعلق لوحة لبيكاسو في غرفتي...

أخذت تضحك بلا فرح، فمدّ مدران يده وطوّق يدها ثم قال:

ـ لا شيء يمنعكِ من أن تكوني أكثر من أم خورخي. لماذا تفقد النساء وحدهنّ انطلاقتهن؟ لماذا يذهبن؟ إنهن لا يجرين إذاً إلا إذا قدناهن من أيديهن؟ ونحن الذين نظن أنهن هن اللواتي يريننا طريقنا! ومع ذلك لا تبدين وكأنكِ مؤمنة، ككثيرٍ من النساء الأخريات، بأن الأمومة هي واجبكِ الوحيد. أنا واثق من أن بوسعكِ أن تنجحي في كل ما تقرّرين فعله، وأنكِ قادرة على إرضاء رغباتكِ جميعاً.

ـ أوه، رغباتي! أحب ألا يكون لدي رغبات، وأن أنتهي منها، ربما في حين أنه...

ـ هل استمراركِ في حب ليون يستطيع أن يكفيكِ لتخسري حياتك؟

ـ لا أعرف إن كنتُ أحبه. أفكر أحياناً بأني لم أحبه قط. لم يكن تحرّري بالأمر السهل. مثلكَ مع بيتينا، مثلاً، وأعتقد أني أعرف أنكَ لم تكن تحبها.

ـ وهو، ألم يحاول العودة إليكِ؟ هل ترككِ تذهبين هكذا؟

قالت كلوديا بلا تأنيب ضمير:

ـ أوه، إنه يذهب إلى ثلاثة مؤتمرات حول طب الأعصاب في السنة. وكان له صديقة في مونتيفيديو قبل أن ينتهي الطلاق. قال لي ذلك لكي يحرّرني، لا بد أنه اشتبه بشعور الذنب عندي.

نظرا بذهول إلى فيليبي وهو يصعد الدرج اليساري ليلتقي براؤول عند بداية الممر. نزلت بيبا من مكانها العالي وأتت لتتمدّد على الكرسي الطويل الذي تركته أمها. ابتسما لها فابتسمت لهما. تلك الصغيرة المسكينة وحيدة دائماً.

قال لها مدران:

ـ نحن بخير هنا.

قالت بيبا:

ـ أوه، نعم. لم أعتد على تحمّل الشمس، ولكني أحب كثيراً أن أسمرّ.

خطر لمدران أن يسألها لماذا لا تسبح لكنه امتنع بحذر وفكر منزعجاً من قطع الحديث هكذا: «ربما كدتُ أن أقترف خطأً فادحاً». حدّثت كلوديا بيبا عن حَلَقٍ وجده خورخي في غرفة الطعام. أشعل سيجارةً وغاص في كرسيه الطويل. شعور بالذنب، كلمات، كلمات. شعور بالذنب، كما لو أن امرأة مثل كلوديا بوسعها... نظر إليها مواجهةً فرآها تبتسم. بعد أن شعرت بيبا بالثقة أدنت كرسيها الطويل؛ أخيراً صار بوسعها أن تتكلم مع أشخاص كبار. فكر مدران: «لا، لا يمكن أن يكون شعوراً بالذنب. المذنب الحقيقي هو من يفقد امرأةً ككلوديا. من الممكن ألا يكون عاشقاً لها، فلماذا أحكم عليه من وجهة نظري؟ أعتقد حقاً أني معجبٌ بكلوديا، فكلما وثقت بي وحدّثتني عن ضعفها، كلما ألفيتُها قويةً ورائعة. ولا أظن أن هذا بسبب الهواء البحري...». يكفيه أن يتذكر النساء اللواتي عرفهن معرفةً حميمة. الضعيفات والقويات، اللواتي يذهبن إلى الأمام أو اللواتي يتبعن آثار الآخرين، لكي يعرف ما إذا مد يده لكلوديا فإنها هي من ستقوده. ولكن الطريق التي سيسلكانها ليست واضحة المعالم بعد، والأمور تصطفق في الداخل وفي الخارج كالبحر والشمس، وكالنسيم والحبال. انبهار سري وصرخة لقاء ويقين مضطرب. كما لو أن شيئاً ما رهيباً وجميلاً جداً سيتبع ذلك، شيئاً ما نهائياً، قفزةً هائلة أو قراراً لا رجعةَ عنه. ومع ذلك، ثمة مسافة شاسعة بين هذا العماء الذي يشبه الموسيقا وطعم سيجارته اليومي. قاس مدران ذلك الفارق، فكان المسافةَ المرعبة التي ما يزال عليه أن يجتازها.

أمر القطيفة:

ـ امسكني جيداً بقبضتك. ألا ترى أيها التعس، أنكَ إذا انزلقتَ ثمة قد يتهشّم وجهك.

جلس راؤول على الدرج يرقب تدريب القطيفة وفيليبي. قال لنفسه مبدياً إعجابه بالطريقة التي يرفع بها القطيفة فيليبي ويجعله يرسم نصف دائرة: «لقد أصبحا صديقين حميمين». أعجبته قوة أتيليو ومهارته، هذا الأتيليو المسكين الذي كان سروال سباحته البائس يفسد التشكيل. لم يكن نظره يتجاوز القامة والساعدين المليئين بالنمش وبالشعر الأحمر. أبى أن ينظر إلى فيليبي الذي يزمّ شفتيه (يبدو أنه خائفٌ بعض الشيء) وهو يقوم بحركة الشجرة اليمينية على ذراعي القطيفة. صرخ هذا «هوب!» كما كان يسمع بهلوانات السيرك يصرخون، ووجد فيليبي نفسه واقفاً على قدميه متعجّباً تماماً من قوة رفيقه.

قال القطيفة وهو يتنفّس بعمق:

ـ ثمة شيء، لا تتصلّب هكذا، فكلما تركتَ جسمكَ رخواً كلما نجحت حركتك. والآن سنقوم بحركة الهرم، ستقفز عندما أقول لكَ: هوب، أأنتَ مستعد؟ هوب، ولكن، لا يا صغيري، ألا ترى أنكَ بذلك قد تفتل معصميك؟ لقد قلتُ لكَ ذلك مراراً. لو كان اليهودي الصغير هنا لعرفتَ كيف يكون التدريب.

قال فيليبي محبطاً:

ـ ماذا تريد؟ لا يمكن للإنسان أن يتعلّم كل شيء دفعةً واحدة.

ـ لا بأس، لا بأس، أنا لم أقل شيئاً، ولكنكَ مصمّم على تقسية جسمك. أنا من سيقوم بتمرين القوة وعليكَ أنتَ أن تقفز، لا تخلط. انتبه، لا تضع قدمكَ قريباً جداً من رقبتي فجلدي يتسلّخ.

نفّذا الهرم وخسرا مقصّهما الأسترالي المضاعف، ولكنهما استدركا بسلسلة من قفزات السرطان التي صفّق لها راؤول بحرارة وهو يشعر بالملل. ابتسم القطيفة بتواضع، وشعر فيليبي بأنهما تدرّبا كفاية.

قال القطيفة:

ـ معك حق يا صغيري، إذا أفرطنا في التدريب فستؤلمنا عضلاتنا فيما بعد. هل نشرب كأساً من البيرة؟

ـ لا، ليس الآن، سوف أستحم أولاً لأني أحسّ بأن جسمي متّسخ.

ـ هذا مفيد، فالتعرّق يقتل الجراثيم، وأنا سأتناول كأساً من بيرة الكرونبورغ.

قال راؤول لنفسه متعلّقاً بأول فكرة عاودته، لئلا ترسخ في ذهنه فكرة أن فيليبي قد رفض دعوة القطيفة من أجله:

ـ غريب! كأس البيرة بالنسبة إليهما هو دائماً كرونبرورغ.

مر القطيفة بجانب راؤول تاركاً صوتاً مسموعاً: «عفواً أيها الشاب». وناشراً طيفاً من رائحة البصل. بقي راؤول جالساً على الدرجة حتى مرّ به فيليبي وعلى كتفيه منشفة ذات شرّابات حمراء وخضراء، فقال له:

ـ لديكَ كلّ مواصفات البطل. ستحقّق نجاحاً هذا المساء.

ـ أوه، لا عليك. ما أزال أحسّ أني لستُ على ما يرام. وما يزال رأسي يدور، ولكن القطيفة هو من سيقوم بالحركات الصعبة. يالهذه الحرارة.

ـ سينعشكَ الحمام.

ـ نعم، لا شيء مثله. وأنتَ ماذا ستفعل هذا المساء؟

ـ الحق يقال أني لا أعرف بعد. يجب أن أكلّم باولا في ذلك. على أية حال سنرتجل أي شيء في اللحظة الأخيرة، سيفوتنا ذلك ولكن الشباب لن يلاحظوا شيئاً. أنتَ مبلّل تماماً.

ـ لا بد من ذلك مع كل هذه التمرينات. حقاً لا تعرف ماذا ستفعل؟

نهض راؤول وصعدا الدرج معاً. كان يجب على فيليبي أن يصعد الدرج الآخر لكي يذهب مباشرةً إلى مقصورته. في النهاية الشيء نفسه، فسيسلك المعبر الصغير الذي يصل بين الممرّين. ولكن الأمر الأكثر منطقيةً هو أن يكون قد سلك الدرج اليساري. وبما أنه سلك الدرج الآخر، من المفترض أن يكون لديه حديث مع راؤول. ليس ذلك مؤكداً، طبعاً، ولكنه محتمل. ولم يكن غاضباً رغم أنه كان يتحاشى النظر إلى راؤول مباشرة. كان راؤول الذي يمشي خلفه يرى الشرّابات ذات الألوان الفاقعة تتدلى حتى خصره. فكر برياح قوية ستجعله يرفرف كغطاء سائق عربة. كما رأى قدمَي فيليبي العاريتين تتركان أثراً على اللينوليوم.

عندما وصل فيليبي إلى الممر المعترض استند بيده إلى الحاجز. كان قد اتخذ هذه الوضعية مرةً عندما كان لا يعرف ماذا يقول ولا الطريقة التي سيتكلّم بها. لكنه قال:

ـ حسنٌ، أنا سأستحم، وأنت، ماذا ستفعل؟

ـ سأتمدّد قليلاً، إذا لم تشخر باولا كثيراً.

ـ لا تقل لي إنها تشخر، وهي شابة!

احمرّ مباشرةً عندما أدرك أن ذِكر باولا كان يربكه أمام راؤول، وأن راؤول لا بد يسخر منه. فأن يبدو مستغرباً أن امرأة يمكنها أن تشخر، هذا يعني أن ليس لديه أية فكرة عن امرأة نائمة، عن امرأة في السرير. لكن راؤول نظر إليه نظرةً جادّة تماماً وقال:

ـ طبعاً تشخر. ليس دائماً، ولكن أحياناً أثناء القيلولة. ولا يمكنني أن أقرأ عندما يشخر أحدهم بجانبي.

ـ هذا صحيح. إذا أردتَ التحدّث فتعالَ إلى مقصورتي. حمّامي يستغرق دقيقة، ولا يوجد أحد، فأبي يقرأ كتاباً في البار.

قال راؤول الذي كان قد تعلّم هذا التعبير في تشيلي، وهو يذكّره بأيام من السعادة قضاها في الجبال:

ـ سوف تعطيني بعض التبغ لغليوني، فقد تركتُ تبغي في مقصورتي.

كانت مقصورته على بعد خطوتين من مكانهما، لكن فيليبي قَبلِ الطلب كتبرير ضروري، الحركة التي تصدّق على وضعٍ وتسمح بالمضي إلى الأمام بهدوء تام.

قال فيليبي:

ـ الخادم شخص بارع. هل رأيتَه يدخل مرةً إلى مقصورتك أو يخرج منها؟ أنا، لم أره قط، وعندما نخرج ونعود نجد الغرفة مرتبةً تماماً... انتظر، سأعطيكَ التبغ.

رمى المنشفة على السرير، ثم أدار المروحة. بينما كان يبحث عن التبغ، قال إن الأجهزة الكهربائية في المقصورات ممتازة، وإن الحمام رائع، وكذلك المصابيح، وإن كل شيء محسوب بدقة. أخيراً وجد التبغ وناوله لراؤول لكن هذا لم يأخذه.

سأل فيليبي ويده ممدودة:

ـ ماذا هناك؟

قال راؤول دون أن يتناول التبغ:

ـ لاشيء، كنتُ أنظر إليك.

ـ أنا، وماذا إذن؟

ـ لا بد أنكَ قد أثرتَ انتباه كثير من الفتيات بجسمكَ هذا.

قال فيليبي دون أن يعرف ماذا يفعل بالتبغ:

ـ لا عليك.

أمسك به راؤول وفي الوقت نفسه جذبه نحوه. أفلت فيليبي بحركةٍ سريعة لكنه لم يبتعد. كان وجهه خائباً أكثر منه خائفاً. وعندما دنا راؤول خطوةً نحوه لم يتحرّك وأخفض عينيه. وضع يده على كتفه ثم تركها تنزل ببطء على طول ذراعه، وقال:

ـ أنتَ مبلّل. استحمّ بسرعة.

ـ نعم بالتأكيد، سأستغرق دقيقة.

ـ اترك الباب مفتوحاً، فهكذا نستطيع الحديث.

ـ ولكن... هذا سيان عندي، ولكن إذا عاد أبي...

ـ ماذا تريده أن يقول؟

ـ لا أعرف.

ـ إذا كنتَ لا تعرف فهذا يعني أن لا فرق لديك.

ـ ليس من أجل ذلك، ولكن...

ـ هل تخجل؟

ـ أنا؟ ومم سأخجل؟

ـ هذا ما كنتُ أقوله لنفسي. إذا كنتَ خائفاً مما قد يقوله بابا نقفل الباب بالمفتاح.

لم يكن فيليبي يعرف ماذا يقول. ذهب ليغلق الباب بهيئة متردّدة. وراؤول ينتظر عند باب الحمام وهو يملأ غليونه بهدوء. نظر فيليبي إلى السرير وإلى الخزانة وكأنه يبحث عن شيءٍ ما، عن ذريعة ليكسب الوقت. أخرج من الصِّوانة خفاً وسروالاً داخلياً ووضعهما على السرير، ثم تناولهما وذهب ليضعهما على طاولة في الحمام. أشعل راؤول غليونه وأخذ ينظر إليه. فتح فيليبي المرشاش وتحقّق من حرارة الماء. وبحركة خاطفة، أمام نظر راؤول، خلع سرواله الداخلي وقفز تحت المرشاش كما لو أنه يبحث عن ستارة الماء الواقية. أخذ يصوبن جسمه بحيوية وهو يصفر دون أن ينظر إلى راؤول. أخذ الماء يقطع صفيره إذ كان يدخل إلى فمه أحياناً ويجعل نفَسه لاهثاً قليلاً.

قال راؤول:

ـ جسمكَ جميل حقاً. كثير من الصبيان في سنك، لا يُعرَف ما هم، أما أنتَ... مع أني رأيتُ صبياناً كثيرين في سنك...

سأله فيليبي وهو لا يستطيع أن يفكّر بأمرٍ آخر:

ـ في السبورتينغ؟

ما يزال في مواجهة راؤول، يمنعه الخجل من الاستدارة. أخذت أذناه تطنّان طنيناً مصمّاً، لا بدّ أن هذا بسبب الماء الذي يضرب رأسه مباشرةً ويدخل عينيه، أو هو شيء آخر أعمق، قبرٌ يسلبه من كل إرادةٍ وكلَّ تحكّم في صوته. واصل صوبنة جسمه آلياً لكن الماء كان يُذهب الزبد كلّه. لو أن بيبا تعلم ذلك... وفي الخلفية، على مسافة لا نهائية، ارتسم خيال ألفييري. قال لنفسه: كان من الممكن تماماً أن يكون ألفييري هنا، مستغرقاً في التدخين والنظر كما ينظر الرقباء إلى الجنود المستجدّين عراةً، أو كما نظر إليه ذلك الطبيب في شارع شاركاس الذي جعله يمشي مغمَض العينين ومرفوع اليدين. قال لنفسه إن ألفييري (ولكن لا، لم يكن ألفييري) ربما كان يسخر من انزعاجه ومن خَرَقه فجعله ذلك هائجاً لكونه بهذا الغباء. أوقف المرشاش وأخذ يصوبن بهياجٍ، وأخذت تلال من الزبد الأبيض تتجمّع على بطنه وتحت إبطيه وعلى رقبته. صار الأمر سيان عنده الآن أن ينظر إليه راؤول، ففي النهاية هما رجلان... ولكنه يكذب على نفسه ويتحاشى بعض الحركات وهو يصوبن. كان يقف بأكثر استقامة ممكنة، ومن الأمام دائماً، ويغسل، أكثر ما يغسل، صدره وذراعيه ورقبته وأذنيه. وضع قدمه على حافة المرشاش ثم انحنى قليلاً ليصوبن ربلتيه وعقبيه. نما لديه انطباعٌ بأنه تحت المرشاش منذ زمن طويل. لم يشعر بأي لذة ولكن كلّفه إيقاف الماء والخروج من الحوض وتنشيف جسمه. عندما خرج أخيراً وشعره يقطر ماء، ناوله راؤول منشفة من أطراف أصابعه لئلا يمشي في بقع الماء الممزوج بالصابون. سأله:

ـ هل تشعر بتحسّن الآن؟

ـ نعم، بالتأكيد، إن الحمّام رائعٌ بعد التمرينات.

ـ وخاصةً بعد تمرينات معينة. لم تفهمني عندما قلتُ لكَ منذ قليل إن جسمكَ جميل، إنما أردتُ أن أسألكَ إذا كنتَ تريد أن تقول لكَ النساءُ ذلك.

قال فيليبي بانزعاج بادٍ:

ـ حسن، إن هذا يسرّ دائماً.

ـ هل سَبَقَ أن نمتَ مع كثير من النساء، أم مع واحدة فقط؟

سأله فيليبي وهو يلبس سرواله الداخلي:

ـ وأنت؟

ـ أجبني، لا تخجل.

ـ ما أزال صغيراً جداً، ولستُ أدري لماذا سأخجل.

ـ معك حق. هكذا أنتَ لم تنم مع أحد؟

ـ لقد ذهبتُ مرةً إلى الماخور... بالطبع الأمر مختلف تماماً.

ـ آه، ذهبتَ إلى الماخور؟ وهل سمحوا لكَ بالدخول؟

ـ طبعاً، لقد كنتُ مع أوردونييث وهو صديق لي من الصف الثاني ويحمل تصريحاً. لقد ذهبنا إلى هناك مرتين.

ـ وهل أعجبكَ ذلك؟

ـ بالتأكيد.

أطفأ نور الحمام ومر من أمام راؤول فلم يتحرّك. ثم سمعه يفتح الدرج. وعندما عاد إلى المقصورة وجد فيليبي ما يزال عاري الصدر لكنه كان قد لبس بنطالاً أبيض.

قال له راؤول وهو يجلس على أحد المقاعد:

ـ إذا كنتَ لا تريد الحديث عن النساء فما عليكَ إلا أن تقول لي ذلك. ولكني أظن أن هذه الأمور تهمّك في مثل هذه السن.

ـ ومن قال لكَ إني غير مهتمّ بهن؟ أنتَ شخص غريب، تذكّرني بشخص أعرفه.

ـ يحدّثكَ عن النساء أيضاً؟

ـ أحياناً. ولكنه غريب... هناك أشخاص غريبو الأطوار أحياناً، أليس كذلك؟ أنا لا أقصد أنكَ...

ـ لا عليكَ مني. أنا أفهم أني قد أبدو لكَ غريب الأطوار أحياناً. إذن ذلك الشخص الذي تعرفه... حدّثني عنه، ما يزال بوسعنا أن ندخّن غليوناً إذا أردت.

قال فيليبي بصوتٍ أكثر ثقة بكثير بعد أن لبس ثيابه:

ـ بالتأكيد.

ارتدى قميصاً أزرق فوق بنطاله وأخرج غليونه من جيبه. جلس على المقعد الآخر وانتظر أن يناوله راؤول التبغ. نما لديه انطباعٌ بأنه نجا من شيء ما، وأن كل ما كان سيقع سيكون مختلفاً جداً. أدرك أنه ما يزال متشنّجاً حتى الآن، وكأنه مختبئ، وأنه كان يتوقّع أن يقوم راؤول بحركات لم يقم بها من قبل، وأن يقول كلمات لم يقلها من قبل. انتابته رغبةٌ في الضحك. ملأ غليونه بخَرَقٍ واستهلك عودَي ثقاب لإشعاله. أخذ يتحدّث عن ألفييري وعن علاقته مع زوجة المحامي. راح ينتقي ذكرياته؛ ففي النهاية، إن راؤول يتحدّث عن النساء، وليس هناك من مبرر لأن يحدّثه عن فيانا وعن فريليش. لقد أمضى أوقاتاً جميلة مع ألفييري وأوردونييث، وأضاف:

ـ ولكن بالتأكيد يلزم مالٌ كثير من أجل هذه الأمور. فالنساء يرغبن في أن يؤخذن إلى المرقص، مع أجرة السيارة، وفوق هذا كله، ربما يجب استئجار غرفة في الفندق...

ـ لو كنتُ أعرفكَ في بوينس آيرس لسهّلتُ عليكَ الأمور. وسترى بعد أن نعود.

ـ بكل تأكيد، لا بد أن لديكَ غرفةً للمواعيد.

ـ نعم، وسأتركها لكَ عندما تحتاج إليها.

قال فيليبي مستغرباً:

ـ حقاً؟ سيكون ذلك رائعاً. هكذا يمكن أن أحصل على نساء دون مالٍ كثير. (احمرّ وسعل.) أقصد، نستطيع أن نتقاسم التكاليف أحياناً، فليس من العدل أن تتكلّف...

نهض راؤول واقترب منه. داعب شعره المبلل واللزج تقريباً، فأرجع الصبي رأسه إلى الخلف وقال:

ـ سوف تفسد تسريحتي، وإذا أتي أبي...

ـ أظن أنكَ أقفلتَ الباب.

ـ نعم، ومع ذلك، دعني.

التهب خدّاه. حاول أن ينهض لكن راؤول أسند يده على كتفه وأخذ يداعب شعره، ثم سأله:

ـ ما فكرتكَ عني؟ قل الحقيقة، فالأمر سيان عندي.

أبعده فيليبي فجأةً ثم انتصب على قدميه. أسبل راؤول ذراعيه وكأنه مستعد لتلقّي ضرباته. فكّر أخيراً: «إذا ضربني فسأنال منه». لكن فيليبي تراجع خطوةً أو خطوتين وهو يهزّ رأسه أسفاً، ثم قال بصوتٍ ضعيف:

ـ دعني! كلكم متشابهون.

سأله راؤول مبتسماً قليلاً:

ـ كلنا؟

ـ نعم، كلكم، ألفييري يشبهك، أنتم جميعاً متشابهون.

ابتسم راؤول من جديد، هزّ رأسه ثم اتّجه نحو الباب. وهناك قال:

ـ أنتَ عصبي جداً يا صغيري. ما الضير في أن يكون بين الأصدقاء حركات محبة؟ ما الفرق بين إعطاء اليد ومداعبة الشعر.

ـ أنتَ تعرف تماماً أن هناك فرقاً.

ـ لا يا فيليبي، أنتَ لا تثق بي لأنكَ تجدني شخصاً غريب الأطوار، وأنا أريد أن أكون صديقك. أنتَ لا تثق بي. لقد كذبتَ علي. أنتَ تتصرّف كامرأة، إذا أردتَ أن أقول لكَ الحقيقة.

قال فيليبي مقترباً قليلاً منه:

ـ هكذا إذاً. أنتَ تحمّلني المسؤولية الآن. أنا كذبتُ عليك؟

ـ نعم، لقد أشفقتُ عليكَ قليلاً. كذبتَ عليَّ كثيراً. هذا لا يمكن تعلّمه في يوم، وأنتَ ما تزال صغيراً. أنا أيضاً عدتُ إلى الأسفل، ورأيتُ أحد الدهنيين. لماذا قلتَ لي إنكَ تكلّمتَ مع أقصر الرجلين؟

قام فيليبي بحركةٍ تنزع كلَّ أهميةٍ من السؤال. فقال راؤول بصوتٍ خافت:

ـ أستطيع أن أقبل أشياء كثيرة منك. أنا أستطيع أن أفهم أنكَ لا تحبني، أو أن فكرةَ أن نكون أصدقاء ليست مقبولة لديك، أو أن يفسّر الآخرون بصورة سيئة أن... ولكن لا تكذب علي يا فيليبي، حتى من أجل حماقة كهذه.

قال فيليبي وصوت راؤول كان يجذبه رغماً عنه، وعيناه أيضاً تنتظران شيئاً آخر:

ـ ولكن لم يكن من ضيرٍ في ذلك. كل ما في الأمر أني غضبتُ لأنكَ لم تصحبني أمس، وأردتُ... أقصد لقد ذهبتُ إلى هناك بوسائلي الخاصة، وما قمتُ به في الأسفل يخصّني وحدي. لهذا السبب فقط لم أقل لكَ الحقيقة.

أدار له ظهره فجأةً واقترب من النافذة. تدلّت يده التي تحمل الغليون، رخوةً في نهاية ذراعه. مرّر الأخرى من خلال شعره وقوّس كتفيه قليلاً. خشي للحظةٍ أن يكون راؤول قد لامه على شيء

لايستطيع تحديده، كأن يكون مثلاً قد غازل باولا أو شيئاً آخر من هذا القبيل... لم يكن يريد أن ينظر إليه لأن عينيه كانتا تؤلمانه وتمنحانه الرغبة في البكاء، في أن ينبطح على السرير ويبكي، وفي أن يشعر بأنه طفل أعزل أمام هذا الرجل الذي يريه عينين عاريتين جداً. شعر به يدنو منه ببطءٍ وهو مدير له ظهره. إنه يعرف أن ذراعيه ستطوّقانه وستضغطانه بكل قوتهما، وأن تعبه سيتحوّل شيئاً فشيئاً إلى خوف، ووراء الخوف كان يقبع إغراء الانتظار ومعرفة هذا الاحتضان الذي سيتخلّى فيه راؤول عن فوقيته كلها، حيث لن يصبح راؤول إلا صوتاً متوسّلاً وعينين رقيقتين كعيني كلب، وحيث سيغلب فيليبي راؤول، سيكون مغلوباً رغم احتضانه. سرعان ما فهم أن الأدوار تغيّرت، وأنه هو من يستطيع فرض القانون الآن. استدار كتلةً واحدة في اللحظة التي كانت يدا راؤول تسعيان نحوه وانفجر ضاحكاً في وجهه ضحكةً هستيرية مليئة بالدموع، كان يضحك بدموع كبيرة حادة ومتقطّعة وامتلأ وجهُه بالتكشيرات الساخرة والدموع. لامس راؤول خدّيه مرة أخرى وانتظر أن يصفعه فيليبي. رأى صوته يرتفع وانتظر بلا حراك. غطّى الصبي وجهه بكلتا يديه وهرب صوب الباب. كان ذلك متوقّعاً. فتحه ومكث ينتظر. مر راؤول من أمامه دون أن ينظر إليه ودوى صوت اصطفاق الباب خلفه كطلقة بندقية.

ز

ربما تكون الراحة ضرورية هنا أيضاً، وربما يُسبل عازف الغيتار الأزرق ذراعَه فيصمت الفم الجنسي وينفغر، يتهاوى على نفسه كما ينفغر ويتهاوى بصورة مرعبة قفازٌ متروكٌ على سرير. في هذه الساعة من التزهّد ومن التعب (لأن الراحةَ تلطيفٌ للهزيمة، والحلمَ قناعٌ لعَدَم يتغلغل في كل سُمٍّ من مسام الحياة.)، والصورة المؤنسنة التي رسَمها بيكاسو باحتقار على هذه اللوحة التي انتمت

لأبولينير، تصور أكثر من أي وقت مضى الملهاة في نقطة ذوبانها، عندما يتجمّد كل شيء قبل أن ينفجر في اتفاقٍ سيحرّر التوتّر الذي لا يُطاق. ولكننا نفكر بمفردات ثابتة موضوعة هنا أمامنا: الغيتار والموسيقي والسفينة التي تتجه نحو الجنوب والرجال والنساء الذين يذهبون ويعودون كفئران بيضاء في قفصها. أي وجهٍ آخر للحبكة غير متوقَّع يستطيع أن يولّد حدساً غامضاً أخيراً يتجاوز ما يحدث وما لا يحدث، والذي قد يقع في نقطةٍ حيث اليد الثالثة التي ما يكاد يراها بيرسيو في لحظةٍ من التواصل النجمي، تمسك بالغيتار لمتعتها الخاصة وتسجّل في فضاء قاسٍ كالرخام موسيقا لآذانٍ أخرى. ليس من السهل فهم اللاغيتار كما ليس من السهل فهم اللامادة، ولكن اللامادة هي ضحية الجرائد، وتقارير المجالس، واللايورانيوم واللاسيليس يبرقان في الليل.

ليس من السهل تصوّر لاقراءة ولاكائن ولانملة، اليد الثالثة تُسقِط الغِمامة والتصنيفات، إنها تنتزع الكتب عن الرفوف، وتكتشف سبب وجود الصورة في المرآة، وخيٍّ متناظر وشيطاني. هذا اللاأنا واللاأنتَ موجودان هنا، وماذا سيحدث إذاً لنا ولوجودنا المُرضي حيث القلق لم يكن يمر عبر ميتافيزيقا ألمانية أو فرنسية، الآن حيث ظل اللانجمة يتوضّع على جلدنا المشعر، والآن حيث نشعر في الاحتضان الغرامي بالدُّوار وباللاحب، وليس لأن هذا المعكوس للكون هو نفيُه (لماذا يجب أن يكون اللاكون هو نفي الكون؟) ولكنه بالأحرى الحقيقة التي تُرينا إياها اليد الثالثة، الحقيقة التي تنتظر الإنسان لكي يعرف الفرح.

سواءً أكان بيرسيو مرمياً في جوف البامبا مخيطاً في كيس كبير، أو واقفاً أمام النجوم، فإنه يرى اقتراب الاكتمال عديم الشكل، هو في هذه اللحظة يشبه المهرّج الذي يرفع وجهاً مغطّى بالطحين نحو ثقب الخيمة، نقطة التماس مع السماء. ولكن لا المهرج ولا بيرسيو يعرفان ما هي حبة البَرَد الصفراء هذه التي تتطاير أمام عينيه المفتوحتين أكثر من اتساعهما. ولأنه لا يعرف ذلك أُتيحَ له أن

يحسّ الأشياء بحميةٍ أكبر. الخوذة اللامعة في الليل الجنوبي تدور ببطء مع صلبانها وفرجاراتها وصوتُ السهل يدخل أذنيه شيئاً فشيئاً، وكذلك هسيس العشب الذي ينمو، والتلوّي الخائف للأفعى التي تخرج من الندى، والتقافز الخفيف للأرنب الذي أصابه القمرُ بالحمى. سمع طقطقة سهل البامبا القوية، ولمس بحدقتيه الرطبتين أرضاً جديدةً بالكاد تتعرّف إلى الإنسان وتدفعه بكل قوةٍ خيولها المتوحشة، وبأعاصيرها وبمسافاتها. أخذت حواسّه تنفصل عنه شيئاً فشيئاً لترفعه وتسكبه على السهل الأسود. الآن لم يعد يرى، ولا يسمع ولا يشم، ولا يلمس، لقد ذهب، هو الآن في مكانٍ آخر، انقطعت حباله كلّها وانتصب كشجرةٍ وعانق الجمع بألمٍ واحد وواسع ما هو إلا العماء الذي ينحلّ، والزجاج الذائب الذي يقسو ويتّخذ شكلاً، والليل البدئي في الزمن الأمريكي. ما الذي يهمّه من استعراض الظلال في الوقت الحاضر؟ والخلق المخرَّب ثم المجدَّد من حوله؟ ومن موكب إجهاضات الأرض المخيف؟ ومن التابيرات والخيول المصوّفة؟ ومن النمور ذات الأنياب الطويلة كالقرون وغارات الحجارة والوحول؟ حدّ دائم، شاهد لامبالٍ على ثورة الأجساد والإيونات، عين موضوعة كالكوندور ذي الأجنحة الجبلية على الجري المجنون للآلاف المؤلَّفة للمجرّات والالتواءات، مشاهد للوحوش والطوفانات، للمشاهد الرعوية والحرائق الهائلة، ثم شيئاً فشيئاً للمغما؟ أو للقشرة الأرضية وللإنزياحات غير المحدّدة للقارات ـ الحيتان، والجزر ـ العنبر والكوارث الجنوبية الحجرية، ومخاضات الآنديس التي لا تُطاق والتي تمزّق أرضاً مهتزّة، لا يمكن لبيرسيو أن يأخذ نفساً لثانيةٍ واحدةً ولا أن يتساءل ما إذا كان هذا الإحساس على اليد اليسرى هو العصر الجليدي مع كل فرقعاته أم هو حلزون يتنزّه باحثاً عن قليلٍ من الدفء في الليل.

إذا كان من الصعب التخلي فربما سيتخلّى عن هذا الارتشاح للكوارث الذي يغطّسه في كثافةٍ لا تُحتَمل وهو يرفض بعناد أن يغمض عينيه أو أن يفتحهما، وأن ينهض ويعود إلى جانب الطريق،

وبحركةٍ واحدة يعيد اختراع جسَدِه والطريق وهذه الليلة من عام ألفٍ وتسعمائة وكذا، والنجدة التي ستأتي مع مناراتٍ واستغرابات ونثار البارود. صرّف بأسنانه (ولكن ربما ولدت سلسلة جبال، خليط من الغضار والبازلت) ويستسلم للدُّوار وللشلال الذي يتصبّب من جسده الغائص والمطروح. كل خلقٍ إخفاق. الصخور تطير في الفضاء. حيوانات لا أسماء لها تتدحرج على الأرض وقوائمها في الهواء. أشجار الصنوبر العملاقة تتطاير شظايا. فرح الفوضى يسحقه ويحفّزه وسط العواءات والتحولات. ومن كل هذا لم يبق إلا بيتٌ هزيل في البامبا، وصاحب كاباريه ساخر، غوشو مسكين تلاحقه الشرطة، جنرال صغير في السلطة؟ عملية شيطانية حيث أعدادٌ هائلة لا تتمكّن إعطاء إلا بطولة كرة قدم، وانتحار شاعر، وقصة حب مريرة في زوايا الشوارع تحت أغصان صريمة الجدي. ليلة السبت، ملخص المجد، أليست هذه هي أمريكا الجنوبية؟ هل نكرّر أنفسنا في كل حركة من كل يوم من العماء الذي لا حلّ له؟ وهل نبحث عن أنفسنا في حاضرٍ مؤجَّل إلى ما لانهاية؟ غائص تحت السأم؟ وفي عبادات الجثث؟ وفي النوم المجرد من الأحلام والكوابيس التي تلي قدرياً التهام اليقطين والشوريزو بكميات كبيرة؟ هل نبحث عن وجود قدر؟ هل نريد سيادة الهنود الحمر وسباقات السيارات في آنٍ معاً؟ وجهنا إلى النجوم، مهجورين في سهل كتيم وغبي، فهل نحن نعدّ سراً تخلياً عن الزمن التاريخي؟ إننا نتباهى بثياب ليست لنا وبخطابات فارغة تغطي يدي رئيس الدولة عندما يسلّم، ومن بين عدة وقائع غير مستكشفة، سوف نختار شبحاً معادياً، سوف نختار اللامادة واللاعقل واللاأرجنتينوية لأننا نرفض بعناد أن نتقبّل كما يجب قدرا في الزمان، وأن نشارك في مباراة فيها غالبون وفيها مغلوبون. أكثر من المثنويين، وأكثر من محبي الأعياد المغتبطين، نحن نمثّل على الأرض الجانبَ الطيفي من المستقبل، واليرقة الساخرة اللاطية إلى جانب الطريق، لازمن الجسد والروح، والسهولة الرخيصة، و«لا تتدخل في مشاكل الآخرين إلا

لتستفيد منها». قدر رفض القدر. ألا نهدأ؟ ألا نبصق على كل كلمة تشخر؟ على كل مقالة فلسفية وعلى كل بطولة صاخبة؟ وعلى اللامادة الحيوية المرفوعة إلى مصاف النابتون ذي الخطّاف؟ ومسابقات الشعر؟ وشعارات ورايات الجمعيات والدوائر الفنية والرياضية لكل حي من أحياء بوينس آيرس وروساريو وتوكومان؟

38

سرّت فكرة هذه السهرة الفنية مدران كثيراً، وهو المراقب الساخر. وافته فكرةُ أن يقيل قليلاً وهو ينزل الدرج بعد أن رافق كلوديا وخورخي، وأحبّها كثيراً. استلقى وهو مُتعَب على كرسيه الطويل ثم تناول سيجارةً ببطء. أخذ يؤخّر قصداً اللحظةَ التي سيكف فيها عن الاهتمام بكل ما يحيط به لكي يتلذّذ بالانقطاع إلى التفكير بكلوديا، وإلى إعادة تشكيل صوتها بدقة ويديها وطريقتها البسيطة بل الضرورية في أن تصمت أو تتكلم. لم يكن من أحد فوق سطح السفينة ولا فوق المعبر. أغمض عينيه وتساءل عما سيحدث. انتهت المهلة، وعندما آلت الفقرة الأخيرة من السهرة إلى التصفيق ثم إلى التمنيات بليلةٍ سعيدة، كانت الساعات الجدارية قد بدأت الدخول في اليوم الثالث. فكّر: «إنما تكون العودة دائماً إلى الرموز عينها وليس إلى الرموز الأدق». في اليوم الثالث، سيكون كل شيء مستهلَكاً. إما أن تنفتح المؤخرة من تلقاء نفسها، أو ينفّذ لوبيز وعيده مدعوماً منه ومن راؤول. سيُستفزّ فريق السلام وسيجتمع تحت جناح دون غالو. ولكن بعد ذلك سيكون المستقبل غامضاً، وستفترق السبل إلى سبيلين أو ثلاثة. فكر برضا لا يعرف سببه: «سنرى». بيد أن كل شيء تبدّى في يوم مضحك، ولامأساوي بحيث أن رضاه بدأ ينفد. فضّل العودة إلى كلوديا وأن يعيد بناء وجهها الذي بدا له مغطّى بالقلق عندما تركها عند باب مقصورتها. ولكنها لم تقل شيئاً وتصرّف وكأنه لم يلاحظ شيئاً. ومع ذلك فقد كان يفضّل لو بقي

معها، يسهران معاً حتى ينام خورخي، ويتكلمان بصوتٍ خافت عن أي شيء. غزاه من جديد شعورٌ بالفراغ، بالفوضى، وضرورةُ أن ينظّم ـ لا يعرف ماذا ـ، وأن يعيد تركيب لوحة تركيبية أجزاؤها كلّها مشتّتة على الطاولة. تشبيه فاسدٌ آخر، أن يعدّ الحياة كلوحة تركيبية، وكل يوم لطخة صغيرة خضراء، وقليل من الأحمر، وشكوك رمادية، وكل هذا سيء الترتيب وعديم الشكل، والأيام مختلطة، وجزء من الماضي مغروس كشوكة في المستقبل، والحاضر، ربما كان متحرّراً مما سبق ومما سيأتي، ولكنه معوز بسبب تقسيم إرادي جداً وبرفضٍ قاطع للشبح وللمشاريع. وبما أن الحاضر لا يمكنه إلا أن يكون هذا، ولكنه الآن فقط، في حين أن جزءاً كبيراً من هذا «الآن» ضائع نهائياً، فقد بدأ يقول لنفسه ـ دون كثيرٍ من القناعة ـ بأن معظم أخطائه عائد بلا شك إلى فكرة خاطئة عن الحرية، وإلى رغبة أنانية في أن يتصرّف من تلقاء نفسه بكل لحظةٍ من لحظات النهار كلما كان وحيداً، دون أن يهتم بالماضي ولا بالمستقبل. عندما نظر من هذه الزاوية إلى الطريق الذي عبره حتى الآن، تبينّ له أنه إخفاق كامل. فكّر بارتباك: «إخفاق في ماذا؟» فهو لم يفكّر قطّ بحياته بمفردات الانتصار، ولهذا، ومنطقياً، فإن مفهوم الإخفاق سيفقد معناه. أخذ يكرّر كلمة «منطقياً» وينطّطها على لسانه. «منطقياً»، ولكن ماذا عن كلوديا؟ ماذا عن مالكولم؟ «منطقياً»، وماذا عن هذا الفراغ في المعدة؟ وعن الاستيقاظات المفزوعة؟ وماذا عن أن شيئاً ما سيحدث وسيأخذه على حين غرة وعليه أن يتأهّب له؟ «يا للشيطان! فإنه ليس من السهل أن يرمي الإنسان عاداته من فوق متن السفينة: إن شكوكي تشبه كثيراً الإجهاد. هذا كتلك المرة التي حسبتُ فيها أني سأصبح مجنوناً، وكانت هذه بداية تعفّن الدم...».لا، لم يكن هذا سهلاً، ويبدو أن كلوديا تفهمه، فهي لم توجّه إليه أي لوم بخصوص بيتينا، وهذا أمر غريب، فقد كان يفكّر بأن كلوديا كانت ستلومه على ما كانت تمثّله بيتينا في حياته. دون أي حق على ما يبدو، وعلى الأخص ليس بوصفها بديلة لبيتينا. إن مجرّد فكرة

الاستبدال هي فكرة شاتمة عندما يتعلّق الأمر بكلوديا. من أجل هذا بالضبط كان بوسعها أن تقول له إنه حقير، كان بوسعها أن تقول له ذلك بسكينة وهي تنظر إليه بهاتين العينين اللتين يلمع فيهما شكّها كحقّ مستحقّ تماماً، حق الشريك، لوم من يستحق اللوم، الأكثر مرارة بكثير، والأكثر عدلاً وعمقاً بكثير من لوم العادل أو القدّيس. ولكن لماذا وجب أن تكون كلوديا هي من يَفتح عليه أبواب الزمن، وهي من يطرده تحت الزمن الذي بدأ يجلده وتضطرّه لتدخين سيجارة بعد سيجارة؟ أخذ يعض شفتيه ويتمنّى أن تتركّب هذه اللوحة بسرعة، بطريقةٍ أو بأخرى، وأن تركّب بسرعة هاتان اليدان، الغريرتان في هذه اللعبة، صورة جانبية لامرأة، وقطاً رابضاً في زاوية النار وخلفيةً لأشجارٍ قديمةٍ للحكاية. وأن يكون هذا أقوى من شمس الساعة الرابعة بعد الظهر، ومن الأفق الأزرق الداكن الذي كان يلمحه من بين أهدابه نصف المطبقة، هذا الأفق الذي كان يصعد وينزل تمشّياً مع إيقاع مالكولم، سفينة ماخنتنا ستار المختلطة. وفجأة كان شارع أليفانيدا وشوارعه التي أتى عليها الخريف، ويداه غائصتان في جيبي سترته الغابادرين، يمشي سريعاً هارباً من تهديدٍ ما. والآن، هناك رواق يشبه بعض الشيء رواق لول رومارينو ولكنه أضيق منه. وصل مدران إلى ساحة ـ بسرعة، بسرعة ليس هناك من دقيقة تضيعها ـ وصعد درجاً كدرج فندق سان ميشيل في باريس حيث عاش بضعة أسابيع مع ليونور... (كان قد نسي كنيتها). كانت الغرفة كبيرة، مغطّاة بأقمشة لا بدّ أنها تغطي نتوءات الجدران أو النوافذ التي تطل على باحات صغيرة سوداء قذرة. أغلق الباب فشعر بارتياح كبير. خلع الغابادرين ثم القفازين ووضعهما بعناية على الطاولة المصنوعة من البامبو. إنه يعرف أن الخطر لم يذهب وأن الباب لا يقدّم له إلا نصف حماية؛ كان ذلك تأجيلاً يتيح له أن يبحث عن ملاذٍ أكثر أمناً. ولكنه لم يكن يريد أن يفكّر؛ فالتهديد غير مؤكّد؛ إنه يرفرف فوقه، ويعود كدخان. مشى بضع خطوات حتى وسط الغرفة، عندها رأى السرير مختبئاً خلف حاجز وردي. هيكل بائس

بالكاد يقف متهالكاً، سرير حديدي، مدعوك، حوض إبريق ماء فخاري. نعم، لقد كانت غرفة فندق سان ميشيل، ومع ذلك لم تكن هي، بل بالأحرى غرفة هذا الفندق في ريو. لا يعرف مدران لماذا لا يريد أن يقترب من السرير المدعوك. بقي هناك، جامداً، ينتظر، ويداه في جيبي سترته. من المحتَّم تقريباً، ومن الضروري تقريباً، أن تخرج بيتينا من خلف إحدى الخيام الصغيرة وتدنو منه. كانت تبدو منزلقةً على سجادة وسخة. توقّفت على بعد أقل من متر منه وشيئاً فشيئاً رفعت رأسها المغطى كلّياً بشعرها الأشقر. تبدّد انطباع التهديد، وتحوّل إلى شيء آخر أسوأ بكثير، لكنه لم يكن يعرف بعد ما هو. رفعت بيتينا شيئاً فشيئاً وجهها غير المرئي تحت شعرها فانزلق الشعر وتحرّك وأظهر رأس أنفها، ثم الفم للحظةٍ ثم بريق عينيها أحياناً. أراد مدران أن يتراجع لكنه كان يرفرف في هواء لزج ويُخرج بعناء شديد كل عبّة هواء من صدره، ومن جسمه. سمع بيتينا تتكلّم لكن صوتها بدا حاداً ومتواصلاً كببغاء يردّد بلا كلل سلسلة من المقاطع والصفير. عندما هزّت رأسها وأرجعت شعرها إلى الخلف، كان وجهها قريباً جداً من وجهه بحيث أنه إذا ما حناه قليلاً غاصت شفتاه في دموعها. وجنتاها وذقنها تبرق من الدموع، وفمها نصف المفتوح كان يخرج منه ذلك الخطاب غير المفهوم. محا وجهُ بيتينا الغرفة فجأةً، والستارة والجسم الذي كان تحته، واليدين اللتين رآهما في البداية يلتصقان بالفخذين، ولم يبق إلا هذا الوجه المرفرف في دخان الغرفة، هذا الوجه الغائص في الدموع، هذا الوجه ذو العينين الجاحظتين اللتين كانتا تسألان مدران. وكل هدب، كل شعرة من أهدابها كانت معزولة عن الأخرى، يراها كلاً على حدة. كان وجه بيتينا عالماً لا ينتهي، جامداً ومتشنّجاً في آنٍ واحد، أمام عينيه اللتين لا تستطيعان الابتعاد عنه. وما يزال صوتها يخرج من فمها كشريط ثخين، مادة لزجة معناها واضح جداً رغم أنه لم يكن يسمع شيئاً، واضحاً جداً ونهائياً، ومطلقاً كوحي. أخيراً تجسّد التهديد، نهاية كل شيء، والحضور

المطلق للرعب في هذا المكان بالذات، وفي هذه اللحظة بالذات. رأى مدران، لاهثاً، وجهَ بيتينا يدنو من وجهه. تعرّف إلى الملامح التي كان قد تعلّم فكّ رموزها، منحنى الذقن، وهروب الأهداب والتغضن اللذيذ بين الأنف والفم الذي تنتهي شفتاه بزغب ناعم. ولكن في الوقت نفسه كان يعلم أنه يرى شيئاً آخر، أن هذا الوجه هو مقلوب بيتينا، قناع ألم لاإنساني؛ كان ملخِّص عذابات العالم كلها يلغي سوقيةَ وجهٍ كانَ قد قبّله عدة مرات على الشفتين. ولكن هذا غير صحيح، فهو يعرف أن وجه بيتينا الحقيقي هو الذي يراه الآن، بيتينا متوحّشة، بيتينا التي تحلّلت أمامها المرأةُ التي كانت عشيقته كما يشعر بأنه يتحلّل الآن وهو يحاول أن يصل متقهقراً إلى الباب دون أن يعرف كيف يتخلّص من هذا الوجه المرفرف على مستوى عينيه. لم يكن ذلك خوفاً، بل كان رعباً، بدا وكأنه يشعر بأوج التعذيب ولكن دون ألمٍ فيزيائي، جوهر التعذيب دون انفتال الأعصاب واللحم. إنه يرى الآن الناحية الأخرى من الأشياء، يرى نفسه لأول مرة كما هو، وجه بيتينا يقدّم له مرآةً تتقطّر دمعاً، ووجهاً متشنجاً هو الهشاشة عينها، ونظرةً بلا قاعٍ هي النزوة والخفة في آنٍ معاً. لكنه لم يكن يعرف هذا كلَّه لأن الرعب يمحو كل معرفة، كان ذلك مادة الانتقال نفسها نحو الجهة الأخرى غير المُدرَكة حتى الآن. وعندما استيقظ صارخاً وأتى المحيط الأزرق ليملأ عينيه ورأى الدرج وراؤول كوستا جالساً في أعلاه، عندها فقط فهم. غطّى وجهه بيديه وكأنه خائفٌ من أن يرى أحدٌ سواه ما رآه للتو على قناع بيتينا: لا بد أنه سيحصل على جواب، وأن اللوحة التركيبية بدأت تتركّب. راح يلهث كما في حلمه، نظر إلى يديه والكرسي الطويل الذي يجلس عليه وألواح سطح السفينة الخشبية وقضبان الدرابزين. بدأ ينظر مستغرباً، غريباً عن كل ما يحيط به، غريباً عن نفسه. وعندما أصبح قادراً على التفكير (للأسف فإن كل شيء فيه يصرخ بأن التفكير ضربٌ جديد من التزوير) علم أنه لم يرَ بيتينا في الحلم، بل رأى نفسه، وهنا مكمن رعبه. ولكن الآن، تحت

الشمس والريح المالحة، انسحب الرعب لصالح النسيان، ولصالح سهولة أن يكون من هذه الناحية من الأشياء، والانطباع الوحيد الذي بقي لديه هو أن كل عناصر حياته وجسده وماضيه وحاضره خاطئة، والخطأ هنا، في متناول يده، ينتظره ليأخذه من ذراعه ويصحبه إلى البار، إلى اليوم التالي، إلى حب كلوديا، إلى وجه بيتينا المبتسم والمتمرّد، الحاضر دوماً في بوينس آيرس الأبدية. اليوم الذي يراه خاطئٌ لأنه هو من كان يراه؛ والخارج خاطئٌ لأن الداخل كذلك، لأنه اختُرع قطعةً قطعة على طول الحياة. لقد رأى للتو وجهَ الهشاشة الحقيقي، ولكن لحسن الحظ ـ آه، لحسن الحظ ـ لم يكن ذلك إلا كابوساً. عاد إلى العقل، وعادت الآلة مجدَّداً إلى التفكير، وعادت أذرع التوصيل والمكابس إلى الحركة بعد أن زُيّتت. أصبحت تتلقى قوة الفعل وتعطيه وتعدّ النتائج المرضية. خلص غابريل مدران إلى القول وهو يبحث عن سجائره، عن هذه الأسطوانات المليئة بالتبغ المنُقذ، والعشرون منها بخمسة بيزوسات: «يا له من حلم مرعب!»

ولما بات راوُول غير قادر على أن يبقى وقتاً أطول في الشمس، عاد إلى مقصورته حيث كانت باولا نائمةً على ظهرها. سكب بعض الويسكي وتهاوى على أحد المقاعد محاولاً إحداث أقل ما يمكن من الضجيج. فتحت عينيها وابتسمت له وقالت:

ـ كنتُ أحلم بكَ، ولكنكَ كنتَ أطول قامةً وترتدي بزّةً لا تناسبك.

نهضت وطوت الوسادة لتتكئ عليها. تذكّر راوُول بالتوابيت الإتروسكية، ربما لأن باولا كانت تنظر إليه بابتسامة ما تزال تعود إلى الحلم.

قالت باولا:

ـ كانت هيئتكَ أفضل. كنتَ تبدو وكأنكَ تماماً على وشك أن تنجب قصيدة. أنا أعرف ما أقول، فقد تعرّفتُ إلى شعراء كانت تنتابهم هذه السحنة قبل الآلام الأولى.

تنهّد راؤول مغتاظاً ومغتبطاً، ثم قال:

ـ يا لها من رحلة تافهة! لدي انطباعٌ بأننا جميعاً نتقدّم تلمّساً، بما في ذلك السفينة. ما عداكِ أنتِ، في الواقع، إني أجزم أن هذه الرحلة ناجحة تماماً في نظركِ، أنتِ وقرصانك البرونزي.

قالت وهي تتمطّى:

ـ الأمر يتعلّق. إذا تمكنتُ من نسيان نفسي، فهذا يعني أن الرحلة ناجحة. ولكنكَ ما تزال هنا، بجانبي، أنتَ الشاهد. يجب أن تلقي بنفسكَ من أعلى السفينة حتى تسير الأمور جيداً.

ـ أنا لستُ مزعجاً. ما عليكِ إلا أن تُصدري الإشارة المتفق عليها: قاطعي إصبعين واضربي بكعبكِ الأيسر، وأختفي، بما في ذلك من المقصورة إن لزم الأمر، ولكني لا أظن، فالمقصورات غزيرة هنا.

ـ يا للسمعة السيئة! من يسمعك يعتقد أنه يلزمني أقل من ثمان وأربعين ساعة لأنام مع رجل.

ـ إنها مهلة مناسبة. لدينا الوقت للقيام بامتحانات الضمير وتنظيف الأسنان.

ـ أنتَ حاقد. قصصي تجعلكَ بارداً، ومع ذلك فأنتَ بارد.

ـ أبداً، على الإطلاق. لا تخلطي بين الحسد والغيرة. وأنا لدي غيرة فقط.

قالت وهي ترتمي إلى الخلف:

ـ احكِ لي لماذا تحسدني.

وحكى لها. وكلّفه ذلك الكلام، رغم أنه حرص على أن يغلّف بعنايةٍ كلَّ كلمةٍ بالسخرية وتجنّب أن يثير الشفقة على قدرها.

قالت باولا:

ـ إنه يافع جداً، أتفهم، إنه ما يزال صبياً.

ـ وعندما لا يكونون يافعين جداً، يكونون كباراً جداً. ولكني لاأبحث عن تفسير. لقد تصرّفتُ كغبي. فقدتُ رباطة جأشي وكأنها كانت المرة الأولى. وسيكون الأمر كذلك دائماً. سأتخيّل ما سيحدث قبل حدوثه. وستكون النتائج سهلة التوقّع.

ـ ولكنه تصرّف سيء. لا تتخيّل وسوف تنجح...

قال دون أن يفكّر بأن كلامه قد يُضحك باولا:

ـ ولكن ضعي نفسكِ في مكاني. أنا أعزل هنا، ولا أملك أي سلاح كنتُ أملكه في بوينس آيرس. وفي الوقت نفسه أنا أقرب إليه، أقرب إليه بشكل رهيب من هناك. إني ألتقيه في كل مكان وأنا أعلم أن السفينة هي أفضل مكان في العالم ل... إنه عذاب تانتال عبر الممرات والحمامات والتمرينات البهلوانية.

ـ أنتَ لستَ مُفسِداً كبيراً. لقد فكرتُ بذلك دائماً، وأنا أستمتع بامتلاكي البرهان على ذلك.

ـ دعيك من هذا الحديث.

ـ ولكن هذا صحيح. أعتقد أنكَ تستحق ذلك الآن أكثر بقليل من ذي قبل، وأنكَ ربما ستكون محظوظاً.

ـ كنتُ أفضّل ألا أستحق ذلك و...

ـ وماذا؟ لن أخوض في التفاصيل، ولكني أفترض أن الأمر لن يكون سهلاً. لو كان الأمر بهذه السهولة لكان عدد السجناء أقل، وكذلك عدد الذين يوجدون مقتولين في حقول الذرة.

ـ أوه، ما تتخيّله النساء غير معقول!

ـ هذا ليس خيالاً يا عزيزي راؤول، وبما أنني لا أعتقد أنكَ ساديّ، على أية حال ليس بالقدر الذي يجعل منكَ خطراً على عامة الناس، فإني لا أرى أنكَ «ستعتدي عليه» كما ستقول الصحف

بفضيلة عندما تعلم بالأمر. بل، بالمقابل، أتخيّلكَ وأنتَ تقوم بإغواء بطيء مستخدماً المعاملة الحسنة قبل الوصول إلى السيئة. ولكن هذه المرة قد يقال إن الهواء البحري جعلكَ أكثر تأجّجاً.

ـ أنا لا أرغب حتى في سماع ترّهاتك.

قالت باولا وهي تضع إصبعها على فمها:

ـ على أية حال، على أية حال، ثمة شيء يلعب لصالحك، وآمل ألا تكون مغفّلاً إلى درجة ألا تلاحظ ذلك. أولاً يبدو أن الرحلة طويلة وأنتَ بلا منافس هنا، أقصد ليست هناك امرأة تجعله يرغب في أن يلعبِ دور الديك. ومع ذلك، أنا مخطئة، والآن تذكرت، في أن أجعله يتكلّم معي كرجل.

ـ وما نفع ذلك؟

ـ أنا أقول لكَ إن كثيراً من الأمور تلعب لصالحك. هل أنا بحاجة لشرح كلامي؟

ـ نعم، إن كان هذا لا يزعجكِ كثيراً.

ـ كان بوسعكَ أن تدركَ ذلك بنفسك، أيها الأحمق. الأمر بسيط جداً. انظر جيداً وسوف ترى. سترى أنه لا يستطيع أن يرى نفسه لأنه لا يعرف.

ـ إنه أجمل من أن أستطيع أن أراه حقاً. لا أعرف ماذا أرى عندما أنظر إليه. رعب، فراغ، شعاع من عسل، وكل ما يخطر ببالك.

ـ طبعاً، في هذه الظروف... حسنٌ، ما كان يجب أن تراه في الصبي تريخو هو أنه مليء بالشكوك وبُعد اليقين، وأنه يرتعش ويتردّد، وأنه في الواقع... ألا تشعر بأن هناك هالة حوله؟ وإن ما يجعله ثميناً ورائعاً (أنا أيضاً أجده رائعاً، مع فارق أن شعوري هو شعور جدة) هو أنه على وشك السقوط. إنه لا يستطيع أن يستأنف ماهو عليه، في هذه الدقيقة من حياته. لقد تصرّفتَ كأبله، ولكن أيضاً... أعني ليس جيداً أن أكون أنا من...

ـ حقاً يا باولا، أتظنين؟

ـ إنه ديونيزوس مراهقاً، أيها الغبي. ليس لديه أي صمود. يهاجم لأنه مليء بالخوف ومليء بالرغبة، يشعر بأن الحب يرفرف فوقه، وهو لا يعرف ما إذا كان رجلاً أم امرأة، أم الاثنين معاً، أم أكثر من ذلك بكثير. لا شيء ثابت بعد لديه. يعرف أن الساعة قد أزفت ولكن دون أن يعرف ساعة ماذا، فيلبس قمصاناً فظيعة ويأتي ليقول لي إني جميلة وينظر إلى ساقيّ ورعبٌ مجنون يتملّكه... وأنتَ لا ترى شيئاً من هذا كله، وتمشي كمُسَرنَم يحمل بين يديه صينية من كعكة الناطف. أعطني سيجارة، أعتقد أنّي سأستحمّ بعدها.

نظر إليها راؤول وهي تدخّن، وبادلها الابتسام بين وقتٍ وآخر. لا شيء مما قالته له قد فاجأه، لكنه أخذ يشعر به الآن موضوعياً، لقد اقتُرح عليه هذا من مراقب ثانٍ فكر من غير مرارة: «مثقّف مسكين من هو بحاجة إلى دلائل». بدأ الويسكي يفقد طعمه المر الذي كان في البداية. ثم قال:

ـ وأنتِ؟ احكِي لي. أريد أن أعرف. لنوقف هذا التعهّر الأخوي. الحمام هنا، قريب. تكلمي، فالأب المحترم كوستا كله آذان.

قال مسؤول المطعم:

ـ لقد سررنا أيما سرور من الفكرة الجيدة التي اقترحها السيد الدكتور والسيد المريض. خذوا قبعة، إلا إذا كنتم لا تريدون وضع قناع.

اختارت السيدة تريخو قبعة قرمزية فهنّأها مسؤول المطعم على حسن اختيارها. ورأت بيبا أن الأقل إضحاكاً ما يزال التاج الكرتوني الفضي اللون والمزين بقطع من القش الحمراء. أخذ مسؤول المطعم يتنقّل من طاولة إلى أخرى موزّعاً القطع المكمّلة للاحتفال، ومنتقدا الانخفاض التدريجي، والطبيعي جداً، في درجات

الحرارة ومسجّلاً طلبات القهوة والمنقوعات. لقد تقرّر أن يجري الاحتفال في البار. هو أصغر من قاعة الطعام، ولكنه أكثر تجهيزاً لمثل هذا النوع من النشاطات. (ذكر مسؤول المطعم مثلاً الأسفار السابقة.) في وقت توزيع القهوة غادر السيد تريخو طاولته ليكمل الثلاثي المنظّم. الجميع ينتظر إشارتهم من أجل المرور في البار، لكن الدكتور ريستيللي يعرف بأن رجل البار ومسؤول المطعم يعلّقان أواخر أشرطة الزينة من أجل خلق الأجواء المناسبة لإشاعة الفرح.

قال دون غالو:

ـ صحيح، صحيح، إشاعة الفرح، صحيح جداً. ما دمنا ما نزال ضمن الحدود المناسبة، نستطيع أن نقيم معرضاً بين الفينة والأخرى. عظيم جداً! أما بالنسبة إلى هؤلاء الديوك الفتية الذين يريدون أن يتصنّعوا الخبث، فإننا سنعرف كيف نخفض قوقأتهم ونمنعهم من تعكير صفو الرحلة. لقد روّضتُ من هم أشرس منهم. ذات مرة، كان مدير إحدى الشركات...

انطلق تصفيق رقيق وأعلن مسؤول المطعم أن السادة المسافرين بوسعهم أن يدخلوا إلى قاعة الاحتفال.

قال القطيفة وقد بهرته المصابيح الفينيسية والبالونات الملونة:

ـ أوه! كأنها لونابارك أثناء الكرنفال!

وقالت نيللي شاكية:

ـ يا إلهي! أنتَ تخيفني بقناعكَ يا أتيليو. ألم تستطع أن تأخذ شيئاً آخر غير الغوريللا؟

ـ اذهبي واختاري كرسياً جيداً وآخر لي، سأذهب لأعرف متى ستكون فقرتنا. وأخوكِ الصغير يا آنستي؟

قالت بيبا:

ـ يجب أن يكون هنا.

ـ لكنه لم يأتِ ليأكل. لم يره أحد.

ـ لا، قال إن رأسه يؤلمه، إنه يسعى دوماً لإثارة الاهتمام.

قال القطيفة:

ـ شقيقة، كاذب. كل ما في الأمر أنه حصل له تشنّج من التدريب.

قالت بيبا باحتقار:

ـ لستُ أدري. بما أن أمي تفعل كل ما يريد، فإنها بالتأكيد نزوة لديه لكي نتكلّم عنه.

لا، لم تكن نزوة ولا شقيقة. لم يغادر فيليبي مقصورته، بل فاجأه الليل غائصاً في مقعده. دخل والده ليستحمّ ويبدّل ملابسه (وهو يصفر لأنه ربح في لعبة الورق)، ثم أتت بيبا لتأخذ نوطات البيانو التي لم تجدها في حقيبتها. ذهب فيليبي ليستلقي على سريره ويدخن سيجارة دون رغبة كبيرة. رأى الليل يخيم عبر زرقة النافذة. كل شيء يشبه السقوط ـ أفكاره التي كانت تتهاوى، ومذاق السيجارة الذي أخذ يزداد حدّةً، والسفينة التي بدت تزداد غوصاً في الماء مع كل حركةٍ من حركاتها. انتقل من دفعةٍ أولى من الشتائم حتى فقدت الكلمات معانيها، إلى وعكةٍ شديدة تنتابها نفحاتٌ من الكبرياء لا تفسير لها جعلته يقفز من سريره ويذهب لينظر إلى نفسه في المرآة. عند ذلك فكر بأن يرتدي قميصه ذا المربعات الصفراء والحمراء ويصعد إلى سطح السفينة مبدياً سحنةً مستفِزّة أو لا مبالية. ولكن سرعان ما عاد إلى التأمل المهين لتصرّفه، ليديه الموضوعتين برخاوة على السرير واللتين عجزتا عن تهشيم وجه راؤول. لم يتساءل مرةً واحدة إن كانت لديه الرغبة في تهشيم وجهه. فضّل العودة إلى الشتائم، أو الانسياق إلى أحلام اليقظة حيث تنتهي التفسيرات التي تصل حدّ البكاء إلى رغبة غامضة تضطرّه إلى أن يتمطّى، إلى أن يشعل سيجارة أخرى، ثم إلى أن يمشي خطوتين في المقصورة وهو يتساءل لماذا هو باقٍ هنا، منغلقاً، بدلاً من أن

ينضمّ إلى الآخرين الذين لا بد أنهم يتناولون عشاءهم الآن. وأمه التي ستعود وتمطره بالأسئلة. ارتمى على سريره مجدّداً وقبل على مضض أنه خرج من المشهد محتفظاً بشرفه. قال لنفسه وهو يستعيد شيئاً فشيئاً الكلمات اللازمة للتفكير: «لا بد أنه يائس». راؤول يائساً، أمرٌ يصعب تخيّله. ومع ذلك فقد خرج من المقصورة أبيض كالغسيل، كما لو أنه ذاهب إلى الإعدام. كرّر فيليبي بارتياح: «أبيض كالغسيل!» ولا بد أن يعضّ يديه من شدة الغضب... ولكن أن يعضّ راؤول يديه غضباً أمر يصعب تخيّله أيضاً، فكلما اجتهد فيليبي في أن يُخضِع راؤول إلى أسوأ الهلوسات الأخلاقية، سرعان ما يرى هيئته الهادئة، والساخرة بعض الشيء، والحركة التي قام به نحوه وهو يمدّ يده ليناوله الغليون أو ليداعب شعره. ربما كان في هذه اللحظة مستغرقاً في الحديث بهدوء كالمعمدان.

قال فيليبي منتقماً: «ليس هادئاً إلى هذا الحد. من المؤكد أن هذه هي المرة الأولى التي يُهمل فيها هكذا». وهذا سيعلّمه أن يقدّم اقتراحات لرجلٍ هو في الحقيقة لوطي قذر. ورغم أنه أخطأ في حقه، مع ذلك فقد ظن أنه الصديق الوحيد الذي يمكن اتخاذه هنا، في هذه الرحلة اللعينة دون أية امرأة يمضي وقته معها أو أي صبي في سنه يستطيع أن يتسلّى معه على سطح السفينة. في النهاية، ربما كان من الأفضل له ألا يخرج من مقصورته. منذ بعض الوقت وصورة باولا تنغرس في داخله كمفاجأة مضافة إلى المفاجأة الأخرى (ولكن الأخرى لم تكن مفاجأة حقيقية.) بحق الشيطان ماذا تفعل باولا مع راؤول؟ تبدّت له فرضيتان أو ثلاث، كلها فجّة وغير مُرضية. ثم عاد إلى همه الرئيسي (صعّد بداخله نفحات من الرضا وأثارت لديه لحظات من الانتصار نَفَخَت صدرَه هواءً ودخاناً ـ دخان السيجارة وليس دخان الغليون، فقد كان هذا جاثماً في زاوية قرب الباب). لماذا سعى إليه راؤول منذ المساء الأول بدلاً من أن يذهب ويتظارف عند شخص آخر؟ مهما اعترف بأنه الصبي الوحيد الوسيم على متن السفينة، وأن الخيار محدود جداً، وأنه يجب أن

يقع عليه في النهاية بصورة قدرية، ومع ذلك فقد منَحَه اختيار راؤول له القوةَ في أن يلقي الغليون إلى الجدار وأن يتنفّس بعمق وعيناه نصف مغمضتين، كما ليتذوّق ميزةً خاصة جداً. ولكنه سيدفّعه الثمن، وليكن راؤول متأكداً من ذلك، سيدفّعه الثمن حتى آخر قرش، وحتى يعلّمه بألا يخطئ بعد الآن أبداً. فكر وهو ينتصب: «اللعنة! مع أني لم أقدّم له سُلفاً، أنا لستُ فيانا ولا فريليش، اللعنة!» سوف يريه كيف يكون الرجل الحقيقي. كان بوسع راؤول أن يفرض عليه بتصرّفه الغريب كرجل غني وحمراءه الجميلة التي ما هي هنا إلا من باب الديكور. لم يسمح له إلا بإسدائه بعض النصائح. سمح له ببعض التصرفات بحرية لكنه تمادى على حسابه. سمع صوتاً خلف الباب فانتفض. كم هو عصبي! نظر مواربةً إلى بيبا التي راحت تتنفّس من أنفها بصوت مسموع.

قالت ناصحة:

ـ إذا واصلتَ التدخين بهذا الشكل فسأقول لأمي وستخبّئ سجائرك.

ـ سوف أطمسكِ في الخراء حتى رقبتك.

ـ ألم تسمع صنج العشاء؟ لقد أجبرني السيد على ترك العشاء والمجيء لمناداتك، وقال أبي أن تأتي فوراً.

تمهّل فيليبي في الرد:

ـ قولي له إن رأسي يؤلمني، سأصعد فيما بعد إلى الاحتفال.

ـ رأسك يؤلمك؟ يمكنكَ أن تختلق شيئاً آخر.

ـ ماذا تقصدين؟ قولي إن معدته تؤلمه.

انصفق الباب، جلس على حافة السرير وبدأ يرتدي ثيابه. لبس قميصاً أزرق وبنطالاً رمادياً. وعندما أشعل مصباح السقف رأى الغليون ملقى على الأرض فتناوله. لم يمسّه سوء. من الأفضل أن

يعيده إلى باولا مع علبة التبغ... وعندما سيدخل إلى غرفة الطعام سيمر من أمامهما ويحييهما. وماذا إذا أخذ الغليون ووضعه على الطاولة دون أن يقول شيئاً؟ لا، سيكون ذلك من الغباء، إنه عصبي جداً. من الأفضل أن يحمله في جيبه، وعندما يرى راؤول وحيداً على سطح السفينة سيقترب منه ويقول له بجفاء: «هذا لك». أو شيئاً من هذا القبيل. عندها سينظر إليه راؤول تلك النظرة التي يعرفها وحده ويبتسم له ببطء. ولكن ربما لن يبتسم له، وربما أمسكه من ذراعه وعندئذ... مشط شعره ببطء وهو ينظر إلى نفسه من الزوايا كلّها. لن يذهب للعشاء، وسيجعله يحمرّ خجلاً وهو يمر من أمام طاولته. فكر بغضب شديد: «ليتني لا أحمرّ خجلاً». لكنه لا يستطيع فعل شيء. من الأفضل القيام بجولة على سطح السفينة أو شرب كأس من البيرة في البار. خطر بباله فجأة الدرج الصغير للممر السري، وبوب.

أُجلست دونيا روزيتا ودونيا بيبا في الصف الأول ثم أتت السيدة تريخو للانضمام إليهما بهيئة بالغة الأهمية تبرّرها المسابقة الاستثنائية التي تحملها ابنتُها إلى هذه السهرة. جلس خورخي المترسّم جداً خلفها، بين بيرسيو وأمه. لم يبدُ على راؤول الذي يتبعهم مظهر الاهتمام بالجلوس فذهب ليرتفق الكونتوار. وُضع كرسي دون غالو في مكان مرموق، ثم سارع السائق إلى الانسحاب إلى الصف الأخير حيث يجلس مدران أيضاً وهو يدخّن سيجارةً بعد أخرى والاستياء باد على محيّاه. طالب القطيفة برفيقه مرةً ثانية، وبعد أن أعطى قناعه لدونيا روزيتا قال إنه سيذهب ليرى ماذا حلّ بالصغير. وخلف قناع تاهيتيٍّ أخذت باولا تقلّد للوبيز صوت السيدة تريخو.

أمر مسؤول المطعم رجلَ البار فأطفئت الأنوار وأشعل عاكسان موجّهان كيفما اتفق إلى بيانو محشور بين الكونتوار والحاجز الأمامي. ذهب المسؤول بحركة استعراضية ليفتح البيانو ذا الذيل، فنهض د. ريستيللي مخفوراً بالتصفيق وذهب بجرأة

ليجلس تحت الأنوار الكاشفة وهو يغمز بأجفانه كالحبل. ليس هو الشخص الأكثر تميّزاً لافتتاح هذا الاحتفال، فهو محبّب بقدر ما هو عفوي، لأن المبادرة كلها تعود إلى صديقه ومواطنه دون غالو بورينيو الحاضر في القاعة.

قال دون غالو مغطّياً بصوته الأجش التصفيقَ الناعم:

ـ هيا، هيا، أكمل. أنتَ ترى جيداً أني لستُ في حالٍ تمكّنني من قيادة الاحتفال. إذاً كفى همساً وإلى الموسيقا.

في خلال الصمت الذي تلا، كانت عودة القطيفة هي الأكثر إثارةً للملاحظة والأكثر صخباً مما كان يتمنى. اندسّ في مكانه مُحدثاً ظلاً عملاقاً على السقف وعلى الجدار الأمامي، ثم قال لنيللي بصوتٍ خافت إن رفيقه في الألعاب البهلوانية غير موجود. أعادت إليه دونيا روزيتا القناع وهي تشير إليه بالصمت، لكن القطيفة بدا منشغل البال فواصل الحركة وزحزحة كرسيّه. رغم أن راؤول لم يسمع ما قاله لكنه خمّن ما حدث. امتثل لآلية قديمة ونظر إلى باولا التي نزعت قناعها ومسحت القاعة بنظرها. وعندما التقت عيناها بعينيه رفعت أهدابها مستفهمة فأجاب بهزّةٍ من كتفيه. ابتسمت باولا قبل أن تعيد وضع القناع وتلتفت إلى لوبيز، وكانت هذه الابتسامة بالنسبة إلى راؤول ترخيصاً، خاتماً ممهوراً في أسفل ورقة، إشارة بدء سباق. ولكنه كان سيغادر البار حتى لو أن باولا لم تبتسم له.

قالت باولا:

ـ يا إلهي كم يتكلّم هؤلاء الناس! كم يتكلمون! هل تؤمن حقاً أن في البدء كانت الكلمة، يا جاميكا جون؟

ـ أحبّك. أمرٌ رائع أن أقول لكِ إني أحبكِ، وأن أستطيع قولها هنا دون أن يسمعنا أحد، من قناعٍ إلى قناع ومن قرصان إلى امرأة تاهيتية.

ـ ربما كنتُ امرأةً تاهيتية، أما أنتَ فلكَ هيئة نصف روكامبول، نصف نائب إقليمي، لا تناسبك أبداً. كان عليكَ أن تأخذ قناع بريسوتي، ولكن يبقى الأفضل ألا تكون قد وضعتَ قناعاً، وأن تبقى جاميكا جون.

امتدح د. ريستيللي المواهب الموسيقية التي تمتلكها الآنسة تريخو التي ستعزف مقطوعة لكليمانتي وأخرى لتشيرني، وهما مؤلفان مشهوران. نظر لوبيز إلى باولا التي لا بد أنها تعض إصبعها. فكرت: «مؤلفان مشهوران! ستكون هذه السهرة مضحكة!» رأت راؤول يخرج. ولوبيز الذي تابع نظرتَها، نظر إليها نظرةً نصف ـ ساخرة، نصف ـ مستفهمة فتظاهرت بتجاهلها. فكرت: «حظاً سعيداً، يا عزيزي راؤول. آمل أن يتهشّم وجهكَ يا عزيزي راؤول. آه، أنا دائماً أناً، لا أتغيّر من هذه الناحية، ناحية لافال التي تقبع في دمي. في الحقيقة لن أسامحه أبداً على كونه أفضل أصدقائي، صديقي الكامل، نعم، صديقي الكامل. ويذهب إلى هناك، في ممر فارغ، مرتعشاً ومرتعداً، وسيزيد عدد الذين يرتعشون بلذة وهم مهزومون سلفاً... لن أسامحه أبداً على ذلك، وهو يعرف هذا، وفي اليوم الذي سيجد شخصاً يريد أن يتبعه (ولكنه لن يجده، فباولا العزيزة تحرص على ألا يجده)، في ذلك اليوم سيلتصق بي نهائياً. وداعاً أيتها الحفلات الموسيقية، وأيتها السندويشات في الساعة الرابعة صباحاً، ويا أيتها النزهات في سان تلمو، وداعاً يا راؤول، يا عزيزي راؤول. حظاً سعيداً، حقاً إني أتمنى أن يحالفك الحظ هذه المرة».

خرجت أصواتٌ غامضة ومتنوعة من البيانو. وضع لوبيز منديلاً أبيض في يد باولا. ظن أنها ستبكي من الضحك، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك. رفعت المنديل بسرعة إلى خدّيها فلامس كتفها. ابتسمت له دون أن تردّ إليه المنديل. وعندما علا التصفيق فتحته بسرعة وتنخّعت فيه.

قال لوبيز:

ـ قذرة! ما لهذا أعطيتكِ إياه.

ـ لا عليك. إنه من قماش خشن جداً، جرّح أنفي.

قال خورخي:

ـ أنا أعزف أفضل من هذه الفتاة. وبيرسيو يشهد.

قال بيرسيو:

ـ أنا لا أعرف شيئاً في الموسيقا، ما عدا الباسو دوبلي، والباقي سيان عندي.

ـ حسنٌ قولي أنتِ يا ماما، ألست أعزف أفضل منها؟ وبجميع أصابعي، ودون أن أترك نصفها في الهواء؟

تنهّدت كلوديا بارتياح، فقد انتهت المجزرة. مرّرت يدها على جبين ابنها وسألته:

ـ أحقاً تشعر أنكَ بخير؟

قال خورخي وهو ينتظر فقرته بفارغ الصبر:

ـ بكل تأكيد يا أمي. انظر إلى تلك التي تأتي، يا بيرسيو.

بإشارة لطيفة وآمرة في آنٍ معاً، ذهبت نيللي وانحشرت بين ذيل البيانو والحاجز الأمامي. فاجأتها العواكس على وجهها. قالت دونيا بيبا بصوتٍ عالٍ لكي يسمعها الجميع: «المسكينة، إنها متأثّرة جداً». رفّت أجفانها عدة مرات ثم وضعت ذراعها المطوي على عينيها. ركض مسؤول المطعم وأبعد العواكس عدة أمتار. صفّق الجميع تحيةً للفنانة.

قالت نيللي وهي ترفع يديها وكأنها ستعزف على الصنجات وقالت:

ـ سألقي عليكم قصيدة، استشهاد دونيا بلانكا:

من القصور إلى الأسوار، سجينة منذ عشر سنوات

تبكي الملكة الشابة وتشكو عذابها المديد.

قال خورخي:

ـ وأنا أيضاً أحفظ هذه القصيدة. أتذكرين أني ألقيتها في المقهى، ذات مساء؟

ـ يقال، بيريز، ذات مساء، في عزلته، وبلا صخب

ادخلي. الملك يريد، ستموتين يا سيدتي

ـ يا يسوع، ألا أستطيع أن أعترف بذنوبي على الأقل؟

هاتوا راهباً حليق الشعر يرسلني...

قالت دونيا بيبا إلى دونيا روزيتا:

ـ ابنتي نيللي فنانة في روحها. فمنذ صغرها كانت تقول: هكذا تفتفتفعل العرائس الصغيرة، وهذا ما لم تفعله أية فتاة في سنها.

قالت دونيا روزيتا وهي تتنهّد:

ـ هذا ليس مثل أتيليو. فهو لم يكن يحب إلا شيئاً واحداً هو أن يسحق الصراصير في المطبخ، أو يلعب بالكرة في الباحة. كسر لي أصص الجيرانيوم. آه يا عزيزتي، من الصعب على المرأة أن تحافظ على بيتها نظيفاً عندما يكون لديها صبيان.

كان مسؤول المطعم ورجل البار يشهدان الاحتفال مرتفقين على الكونتوار، متنبّهين إلى أدنى طلب من طلبات الفنانين أو المشاهدين. أدرك مدران الذي كان غافياً في نهاية الصالة، أن عقب آخر سيجارة قد انطفأ بين شفتيه فانتزعه بحرص. فرح لأنه لم يجلس بقرب كلوديا، ولأنه يستطيع أن ينظر إليها على راحته من حيث يجلس. فكر: «كم هي جميلة!» شعر بفتور، وبقلق خفيف وكأنه على عتبة لا يستطيع اجتيازها، والفتور والقلق يتولّدان من كونه لا يستطيع اجتيازها، ولكن وضعه هكذا مريح جداً. متعثراً، غاضباً،

أوراقه مختلطة، وجيوبه مفتوقة وقميصه بلا أزرار، تهزّه رياحٌ تقتلع نتف أوقاته ووجهه وحياته الميتة. فتح من جديد وواسعاً البابَ الذي لا يمكن تجاوزه من أجل العبور إلى حيث يستطيع أن يجيب عن شيء ما، سيولد شيء منه أخيراً، وسيكون ذلك عمله وعلة وجوده، ما دام قد هجر آراءً كثيرة كان قد ظنها مقبولة، بل ضرورية، ولكنه كان ما يزال بعيداً عنها.

39

تذكّر في منتصف الممر أن الغليون ما يزال في يده فازداد غضباً. ثم فكّر أنه لو جلب التبغ معه أيضاً لكان بوسعه أن يقدّمه لبوب ويُريه كيف يكون التدخين حسب الأصول. ما من أحد في الممرات، ولا في الردهة السفلية التي كان المصباح الغازي البنفسجي ينيرها هذه المرة أقل من المرات السابقة. ليت الحظ يحالفه ويسمح له بوب بالمرور إلى سطح السفينة الخلفي... جعله الأمل في الانتقام يركض، وساعده على مقاومة الخوف. «هذا غير معقول! إن الأصغر سناً هو الأكثر جرأة، فقد اكتشف بمفرده الممر إلى سطح السفينة الخلفي...». ستصبح بيبا كرأس جرذ غائص في البول عندما ترى الجميع وهم يهنّئون أخاها. ولكن لن يكون هذا شيئاً يذكر مقابل ردة فعل راؤول. «كيف يا راؤول، ألا تعرف؟ بلى، لقد امتلك فيليبي الجرأة في أن يلقي بنفسه في فك الذئب...». بدا الممر أضيق من الليلة الماضية. وعندما وصل إلى بُعد مترين من الأبواب التفت. صحيح إن الممر أضيق. إنه يختنق. ربما وجد الارتياح في فتح الباب اليميني. أعمته تقريباً أنوار المصابيح العارية. لم يجد أحداً في الغرفة التي تعيث فيها الفوضى كالعادة، كانت مليئة بقطع السيور والقماش وبالأدوات على الطاولة الكبيرة. ارتسم الباب الأمامي ضمن هذه الفوضى العارمة وكأنه ينتظره.

أعاد إغلاق الباب الأول ثم تقدّم على رؤوس أصابع قدميه. وعندما اقترب من الطاولة الواسعة توقّف. فكر: «الحرارة هنا مرعبة!» سمع أصوات آلات تعمل بأقصى قوتها، وأتته أصواتٌ من كل الجهات فانضافت إلى الحرارة والنور المبهر. دنا من الباب. أدار قبضته ببطء. سمع أحدَهم يمشي في الممر فالتصق بالجدار لكي يغطّيه الباب إذا ما فُتح. فكّر بقلق: «ليس هذا وقع خطى». إنه صوتٌ وحسب. انحنى قبل أن يفتح الباب، كما رآهم يفعلون في الروايات البوليسية، لئلا يُصاب برصاصة في رأسه. رأى في البداية ممراً ضيقاً ومظلماً، وبعد أن اعتادت عيناه على الظلمة رأى الدرجات الأولى لأحد الأدراج. تذكّر فجأةً كلام بوب: أي أنه إذا ما... إذا ما عاد بسرعة إلى البار واستدعى مدران أو لوبيز فربما استطاعا، كاثنين، أن يتسلّلا إلى سطح السفينة الخلفي بلا مخاطر. ولكن ليس هناك من خطر، فبوب لم يهدّده إلا من باب التخويف. ما الخطر الذي يمكن أن يكمن في المؤخرة؟ التيفوس لا يعتدّ به، ثم إنه لا يلتقط أي مرض، حتى النكاف.

أغلق الباب خلفه وتقدّم. أخذ يتنفّس بصعوبةٍ هواءً ثقيلاً تفوح منه رائحة القطران والشحم الزنخ. رأى باباً إلى اليسار وواصل طريقه إلى الدرج، لكن ظله ظهر أمامه وارتسم لحظةً على الأرض. تجمّد ورفع ذراعه فوق رأسه في حركة دفاعية. عندما قرّر أن يلتفت رأى بوب ينظر إليه وهو واقف على عتبة الباب المفتوح على اتساعه. خرج ضوء مائل إلى الخضرة من مقصورته. قال الرجل:

ـ هاسدالا، أيها الصغير!

قال فيليبي وهو يتراجع قليلاً:

ـ هولا.

أخرج الغليون من جيبه ورفعه إلى الضوء. لم يجد كلمات يقولها، وأخذ الغليون يرتعش بين أصابعه. لكنه أضاف:

ـ كما ترى، تذكرتُ أنكَ... رغبتُ في أن آتي وأدردش معك قليلاً، فـ...

ـ Sa، ادخل أيها الصغير، ادخل.

عندما أتى دور مدران، رمى سيجارته وجلس إلى البيانو والنعاس بادٍ على وجهه. أخذ يغني قطعاً من الباغوالا والسامبا مردّداً لنفسه وهو يقلّد بخجل أتاهوالبا يوبانكي. صفقوا له طويلاً ورجوه أن يغني ألحاناً أخرى. حين خلَفه بيرسيو استُقبل باحترام حذر يثيره ثاقبو الرؤية. قدّمه د. ريستيللي على أنه مستكشف الأسرار البعيدة. أخذ يقرأ خطوط اليد مقدماً للمتطوعين المجموعة الكاملة من الأمور العادية المعروفة، وأخذ يضيف بين وقتٍ وآخر جملةً تعرفها صاحبة العلاقة وحدها فيتركها مذهولة. أنهى جولته عند البار حيث تبادل مستقبله مع كأس من التونيك. أخذ د. ريستيللي يتخيّر كلماته ليقدّم مفاجأة السهرة، حاد الذكاء، الصغير خورخي ليوباوم الذي فاقت موهبتُه سنيَّ عمره. هذا الطفل مثال ساطع للشباب الأرجنتيني، سوف يدهش المشاهدين بإلقاء مونولوج ألّفه بنفسه وسمّاه: «*قصة أخطبوط*».

قال الصبي صادقاً وهو يتقدم وسط التصفيق المتنامي:

ـ أنا كتبتُه لكن بيرسيو ساعدني قليلاً.

حيّا الحضور تحيةً مقتضبة فبدا للحظةٍ شبيهاً بالوصف الذي أعطاه له د. ريستيللي.

أضاف:

ـ *قصة الأخطبوط*، من تأليف بيرسيو وخورخي ليوباوم.

مد يده ليستند إلى البيانو فسارع القطيفة والتقطه من ذراعه قبيل أن يسقط أرضاً.

كأس ماء ومناديل ملوّحة ونصائح، وثلاثة كراسٍ صُفّت بسرعة لتمديد الصبي الذي أغمي عليه، وأزرار قاومت فجأةً ولا تريد أن تستسلم. نظر مدران إلى كلوديا المنحنية على ابنها، ثم مشى نحو الكونتوار.

ـ اتصلوا بالطبيب فوراً.

بدا مسؤول المطعم وكأنه لم يسمع وهو منشغل بتبليل فوطة بالماء. أمسك به مدران من ذراعه وقال:

ـ قلتُ فوراً.

ناول مسؤول المطعم الفوطة لرجل البار وسارع إلى الهاتف. دقّ رقماً من عددين ثم قال بضع كلمات وكرّرهما بصوتٍ خافت. كان مدران ينتظر دون أن يغادره بنظره.

أغلق مسؤول المطعم الخط. هز رأسه إيجاباً، ثم قال:

ـ سيأتي حالاً، يا سيدي. ومن الأفضل وضع الطفل في السرير.

تساءل مدران من أين سيأتي الطبيب، ومن أين أتى الضابط ذو الشعر الأشيب. عندما سمع نقنقة النساء خلفه، ثارت ثائرته. فتح طريقه بين الجمع حتى وصل إلى كلوديا التي كانت تقف ممسكة يد خورخي بين يديها.

قال وهو يجثو بجانبها:

ـ آه، كانت الأمور تبدو وكأنها تسير نحو الأفضل.

ابتسم له خورخي. بدا مرتبكاً وهو ينظر إلى الوجوه التي تحوم من فوقه وكأنها غيوم. لم يرَ حقاً إلا كلوديا وبيرسيو وربما مدران الذي مرّر بلا تمهيد يداً تحت رقبته والأخرى تحت ساقيه وحمله. ابتعدت النسوة. اقترب القطيفة ليساعد مدران لكنه كان قد خرج. تبعته كلوديا بصمتٍ وهي تحمل سترة خورخي وقناعه. نظر الآخرون بعضهم إلى بعض وهم لا يعرفون ماذا يفعلون. من المؤكد

أن الأمر ليس خطراً، فهو مجرّد إغماء بسبب الحرارة الشديدة. لكن أحداً منهم لم يعد راغباً في متابعة التسلية.

قال دون غالو وهو يتنقّل من جهة إلى أخرى بضربات من مقود عربته:

ـ هيا، مزيداً من الحيوية. يجب ألا تنهاروا بسبب حادث بلا أهمية.

وقال د. ريستيللي:

ـ سترون أن الطفل سيتعافى خلال عشر دقائق.

أخذ القطيفة ينشد:

ـ ma que, ma que. ذاك الصبي الذي اختفى تماماً عندما حان وقت فقرته، والآن هذا الذي مرض. آه، لقد صعدتُ جيداً. هذه السفينة هي الموت.

اقترح السيد تريخو:

ـ لنجلس على الأقل ولنتناول كأساً. يجب ألا نفكّر دائماً بالأسوأ، لا سيما ونحن على متن سفينة... أقصد أننا لن نكسب شيئاً من تضخيم الأمور. لقد تعرّض ابني لوعكة بالأمس، ولاحظوا، لا أنا ولا أمه قلقنا عليه. لقد أكّدوا لنا أنهم اتّخذوا الاحتياطات الضرورية كافة لكي نكون بأتمّ الهدوء.

أعلمت السيدة تريخو زوجها بأن فيليبي ليس في المقصورة بعد أن أخبرتْها بيبا بذلك. عندما سمع القطيفة ذلك ضرب جبينه بقبضته وقال إنه يعرف ذلك، وإنه يتساءل ترى أين ذهب ذلك الصبي.

قال السيد تريخو:

ـ إلى سطح السفينة بالتأكيد. إنها نزوة مراهق.

دمدم القطيفة:

- Ma que، نزوة... أتدركون أننا وضعنا على سطح السفينة فقرة جميلة، نحن الاثنين؟

تنهّدت باولا ثم نظرت بطرف عينها إلى لوبيز الذي شهد بغضبٍ إغماء خورخي. ثم قال وهو يستعيد هدوءه:

- من الممكن أن تجدي باب مقصورتك مغلقاً.

- لستُ أدري إن كان يجب علي أن أفرح لذلك أم أن أكسر الباب رفساً. إنها مقصورتي، في النهاية.

- وماذا ستفعلين إذا كانت مغلقة؟

- لا أعرف. سأمضي الليل على سطح السفينة. لا أهمية لذلك.

- هيا تعالي.

- لا، سأبقى قليلاً.

- أرجوكِ.

- لا، الباب مفتوح حتماً، ولا بد أن راؤول مستغرق في الشخير. أنتَ لا تعرف كيف تُخرجه التظاهرات الفنية والثقافية عن طوره.

- راؤول، راؤول. أنتِ تموتين من الرغبة في أن تخلعي ملابسكِ أمامه.

- بل قربه. هناك فارق يا جاميكا جون.

كرّر لوبيز:

- تعالي.

لكن باولا نظرت إليه بعينين ترفضان أمره صراحة. فكّرت أن راؤول يستحقّ تماماً أن تنتظر من أجله قليلاً، أن تنتظر على الأقل حتى تعرف إن كان قد سحب الورقة المناسبة. الأمر تافهٌ تماماً وقاسٍ بالنسبة إلى جاميكا جون وبالنسبة إليها. إنه بعكس ماتشتهي تماماً. ولهذا بالضبط فعلت ذلك، لكي تدفع ديناً غامضاً دون غرض محدّد، ذلك نوعٌ من الغفران، أملاً في العودة إلى الخلف

واستعادة الزمن الأول، إلى الفترة التي لم تكن قد أصبحت فيها هذه المرأة المحاطة بالرغبة وبالحنان الذي ترفضه. كانت ترفض من أجل راؤول، ومن أجل جاميكا جون أيضاً، لكي تتمكّن من أن تعطيه ذات يوم جواباً لا يكون إخفاقاً مسبّقاً. ما تزال تظن أنها بحركات خرقاء يمكن فتح أبواب ليس بوسع كل ألوان الخبث والذكاء أن تفتحها. والأسوأ من هذا أنها مضطرةٌ إلى أن تطلب منه منديلها من جديد وسوف يرفض إعطاءها إياه، وسيغضب ويحقد ثم سيذهب لينام وحيداً وفي فمه مرارة التبغ الذي دخّنه على مضض.

قال بوب:

ـ من حسن الحظ أني عرفتك. لحظة واحدة وكنتُ سأضربك. ومع ذلك فقد حذّرتك، أليس كذلك؟

شعر فيليبي بالضيق. التفت إلى أحد المقاعد وجلس عليه. قال أخيراً:

ـ كنتُ أبحث عنك. لم أجدكَ في الغرفة الأخرى، بل وجدتُ الباب مفتوحاً فـ...

ـ لا تعتذر أيها الفتى. لا بأس عليك. Here's to you.

قال فيليبي وهو يشرب الروم كرجل:

ـ prosit، مقصورتك ليست سيئة. كنتُ أظن أن البحارة ينامون في مهاجع.

ـ أحياناً يأتي أورف إلى هنا عندما يضجر من الشخصين الذي ينامان في غرفته. تبغك جيد. ربما كان خفيف قليلاً، ولكنه أفضل من القذارة التي كنتَ تدخّنها أمس. سنحشو غليوناً، ما رأيك؟

قال الفتى دون حماسة:

ـ لا بأس.

أخذ ينظر إلى المقصورة ذات الجدران القذرة والمزينة بصور

رجال ونساء وتقويم عليه صورة ثلاثة عصافير تطير عالياً، وشريط مذهّب. وهناك فراشان ملقيان أرضاً في إحدى الزوايا، أحدهما فوق الآخر، وطاولة حديدية. بدت الطبقات المتعاقبة من الطلاء الذي التصق على الأقدام وكأنها ما تزال طرية تتقطّر. وداخل إحدى الخزائن المفتوحة بدت ساعة جدارية معلقة بمسمار، وقمصان مدعوكة، وسوط قصير وعريض. وقوارير مليئة وأخرى فارغة وكؤوس قذرة وعلبة دبابيس. حشا فيليبي غليونه بيد غير واثقة، فقد كان الروم ثقيلاً جداً، وها هو بوب يملأ له كأساً آخر. قرّر ألا ينظر إلى يدي بوب اللتين بدتا كعنكبوتين ضخمين أشعرين، ولكن الأفعى المرسومة على ذراعه تعجبه كثيراً. سأله إذا كان الوشم مؤلماً. لا، أبداً، إنما يجب أن يكون المرء صبوراً، كما إن الأمر يتعلّق بالمنطقة من الجسم التي يُراد وشمها. إنه يعرف بحّاراً من بريم كانت لديه الشجاعة في أن... أخذ فيليبي يصغي إليه مستغرباً وهو يتساءل إن كانت هذه المقصورة مهوّاة، فرائحة الروم والدخان أخذت تثقل الهواء شيئاً فشيئاً، وأخذ يرى بوب عبر ستارة من نسيج شفّاف. شرح له بوب بتحبّب أن أفضل طريقة للوشم هي ما يقوم به اليابانيون. والمرأة الموجودة على كتفه اليسرى وشمها له كيرو، أحد أصدقائه، ويعمل أيضاً في تهريب الأفيون. خلع قميصه بتمهّل وأرى فيليبي المرأة والسهمين والغيتار، والنسر الذي يبسط جناحيه الكبيرين ويملأ صدره تقريباً. فيما يخص النسر كان مضطراً لأن يسكر فجلد الصدر رقيق جداً في بعض الأماكن وكانت الإبر مؤلمة جداً. وهل جلد فيليبي حسّاس؟ نعم، بعض الشيء، ككل الناس. لا، ليس ككل الناس، فالأمر يختلف بحسب الأعراق والمهن. إن هذا التبغ الإنكليزي جيد بالفعل، ويجب مواصلة الشرب والتدخين، بلى! حتى لو لم يكن يرغب كثيراً في ذلك، فالأمر كذلك دائماً في البداية، قد تأتي لحظة يشعر فيها الإنسان بالغثيان ولكن يكفي أن يتبع لكي يتجاوز الأمر. والروم جيد أيضاً، روم أبيض، خفيف جداً ومعطّر. كأس ثالث سيشربانه وهما يشاهدان صور الرحلة. كان أورف هو

الذي التقط معظم الصور على متن السفينة، ولكن كان هناك أيضاً كثيرٌ من الصور التي التقطتها نساءٌ التقاهنّ في المرافئ، فالنساء تحب التقاط الصور، بل كان بعضهن... ولكن في البداية سيرفعان كأسي صداقتهما. Sa! روم لذيذ خفيف ومعطر ويتناسب تماماً مع هذا التبغ الإنكليزي. كان الطقس حاراً جداً، هذا صحيح، فهما قريبان من غرفة الآلات. ما عليه إلا أن يفعل مثله ويخلع قميصه، فهما يستطيعان أن يكونا مرتاحين هنا، أليسا صديقين! لا، لا ينفع فتح الباب، فالدخان لا يخرج من المقصورة، ثم إن وجده أحدهم... وضعهم مناسب جداً هكذا للشرب والتدخين. يجب ألايقلق، فما يزال الوقت مبكراً، إلا إذا قلقت أمه عليه... عليه ألا يغضب، فما هي إلا دعابة، لأنه يعلم أن فيليبي يفعل ما يشاء على متن السفينة. الدخان؟ نعم، يوجد بعض الدخان، ولكن عندما يُدخِّن مثلُ هذا الدخان الغريب يجب ألا يُضيِّع منه شيء. وكأس صغير آخر من الروم لمزج هذين المذاقين المتناسبين تماماً. نعم، الطقس حار، وما عليه إلا أن يخلع قميصه، هكذا يا صديقي، وبلا غضب، وبلا جري نحو الباب هكذا، بحكمة، لأنه دون فعل هذا قصداً يمكن أن نضر أنفسنا، أليس كذلك، ومع جلد بهذه النعومة... من قال إن صبياً بهذا اللطف لن يفهم، وإن من الأفضل له أن يبقى هادئاً وألا يدافع عن نفسه، وألا يسعى إلى الهرب في حين أن بوسعه أن يبقى بحالٍ جيدة في هذه المقصورة، هناك على الفراشين الطريّين، بشرط ألا يقاوم وألا يسعى إلى الهرب، ودون منع اليدين من فك أزراره واحداً بعد الآخر، إلى النهاية؟

قال مدران:

ـ لا بأس، لا بأس يا كلوديا.

جلست الأم قرب ولدها على السرير. فجأةً احمرّ لونه كثيراً وراح يرتعش من الحمى. غادرت السيدة تريخو المقصورة وهي تقول إن آلام الصبي قوية جداً، ولكن هذا لا يعني شيئاً وأن خورخي

سيتحسّن جداً حتى صباح الغد. رجّت كلوديا ميزان الحرارة دون أن تجيبها بينما أغلق مدران النافذة ووجّه الأنوار بحيث ألا تسطع على وجه خورخي. ظلّ بيرسيو حائراً، يمشي في الممر جيئةً وذهاباً دون أن يجرؤ على الدخول إلى المقصورة. في تلك الأثناء وصل الطبيب. أراد مدران أن يخرج، لكن كلوديا استبقته بنظرة. كان الطبيب ضخم الجثة، يبدو تعباً، وبالكادّ يتلفّظ بضع كلمات بالفرنسية. فحص خورخي دون أن يرفع عينيه. طلب ملعقة صغيرة، قاس النبض، وجعل الصبي يطوي ساقيه، فعل هذا وهو ساهٍ. غطّى المريض ثم سأل مدران إن كان هو والده. وعندما أشار إليه بالنفي، التفت إلى كلوديا ففوجئ وكأنه يراها للمرة الأولى.

قال وهو يهزّ كتفيه:

ـ حسنٌ يا سيدتي، يجب الانتظار. لا أستطيع أن أقرّر الآن. ومع ذلك فإن وضعه غريب...

سألت كلوديا:

ـ هل هو التيفوس؟

ـ لا، لا، أبداً.

ـ ومع ذلك، لديكم حالات من التيفوس، أليس كذلك؟

ـ أي... لم نكن متأكدين أبداً، ربما كان طفحاً جلدياً سليماً. وإذا سمحا له فإنه سينسحب الآن وسيرسل إليهما الدواء مع مسؤول المطعم. في رأيه، ربما كان ذلك احتقاناً رئوياً. إذا تجاوزت حرارته 39.5 يجب إبلاغ مسؤول المطعم الذي بدوره...

غرس مدران أظافره في راحة يده. كاد أن يتبع أثر الطبيب لكي يوقفه عندما يصل إلى الممر، لكن كلوديا تنبّهت لذلك وأومأت إليه. وقف عند الباب حائراً وغاضباً.

قالت كلوديا:

ـ ابقَ قليلاً يا غابرييل، أرجوك.

ـ بالتأكيد.

فهم أن هذا ليس الوقت المناسب لتأزيم الموقف، لكن هذا يكلّفه خسارة المعركة، وأن يشعر مرةً أخرى بأنه عاجز ومحبط. جلست كلوديا على حافة السرير قرب خورخي الذي أخذ يهذي ويحاول أن يزيح اللحاف عنه. دُقّ الباب بلطف. أتى مسؤول المطعم حاملاً علبتين وأنبوباً. كان لديه كيس ثلج، وكان الطبيب قد قال إن بالإمكان استعارته إذا لزم الأمر. سيبقى في البار ساعةً أخرى ثم سيصبح تحت تصرّفهما، وسيرسل لهما قهوةً ساخنة مع رجل البار إن رغبا.

ساعد مدران كلوديا على إعطاء الدواء لخورخي الذي ينتفض بضعفٍ ولم يتعرّف إليهما. دُق الباب، أتى لوبيز، مكفهّر الوجه ومنشغل البال ليعرف الأخبار. كرّر له مدران بصوتٍ خافت ما قاله الطبيب.

قال لوبيز:

ـ اللعنة! لو أني علمتُ ذلك لأوقفته في الممر. لكني أتيتُ من البار ولم أكن أعلم أنه أتى.

قال مدران:

ـ سيعود إذا لزم الأمر، وإذا كنتَ تعتقد...

ـ كيف ذلك؟ أخبروني قبل ذلك، إذا كان بالإمكان؛ على أية حال سأبقى في الجوار، ولن أستطيع أن أنام هذه الليلة.

ثم أخفض صوته لئلا تسمعه كلوديا وأضاف:

ـ إذا كان ذلك الشخص يرى أن خورخي مصاب بمرض خطير يجب ألا ننتظر دقيقة واحدة. أنا أخشى أن يكون الطبيب ليس بأفضل من بقية أفراد العصابة. إنهم قادرون على ترك حالة الطفل تتأزّم

لئلا يعرف بأمره أحدٌ على الأرض. اسمع، أنا أرى أن من الأفضل استدعاؤه بعد ساعة، حتى إذا لم يكن ذلك ضرورياً. سننتظره في الخارج، ولن يوقفنا أحد حتى العبّارة.

ـ موافق، ولكن يجب أن نفكر بخورخي قليلاً. يجب ألا نسبّب له الأذى ونحن نريد أن نساعده. إذا ما خابت فعلتنا وبقي الطبيب من الناحية الأخرى فإن الأمور ستنقلب إلى الأسوأ.

ـ لقد أضعنا يومين. وهذا ما كسبناه من لطفنا ومن سماع تخريف المسنّين. ولكن هل تعتقد حقاً أن الصبي؟...

ـ لا ولكنها رغبة أكثر منها يقيناً. نحن أطباء الأسنان، نعرف القليل عن التيفوس. ومع ذلك فإن عنف الأزمة يقلقني كثيراً، وكذلك هذه الحمى. ربما كان الأمر بسيطاً: إفراط في تناول الشوكولا أو في التعرّض للشمس، وربما كان الاحتقان الرئوي الذي تحدّث عنه الطبيب. على أية حال، هيا لندخّن سيجارةً معاً، وسنتكلّم في الموضوع مع بريسوتي وكوستا إذا وجدناهما.

ذهب صوب كلوديا وابتسم لها، وكذلك فعل لوبيز. شعرت كلوديا بصداقتهما فشكرتهما بنظرة.

قال مدران:

ـ سأعود بعد قليل. تمدّدي يا كلوديا، حاولي أن ترتاحي قليلاً.

كل ما قاله لها بدا وكأنه قيل سابقاً. بلا جدوى ولكنه مهدّئ. الابتسامات والمشي على رؤوس أصابع القدمين والوعود بالعودة واليقين في معرفة أن الأصدقاء سيبقون قربها. نظرت إلى خورخي الذي بدأ ينام نوماً أهدأ. بدت لها المقصورة فجأةً أكبر، تحوم فيها رائحة تبغ أسود وكأن غابربيل لم يغادر تماماً. أسندت رأسها إلى يدها وأغمضت عينيها. ستسهر ليلةً أخرى قرب خورخي، وبيرسيو يذرع المقصورة المجاورة جيئةً وذهاباً كقطٍ صامت. بدا الليل لانهاية له قبل انبلاج الفجر. سفينة، شارع جان ـ بابتيست ألبيردي، العالم. خورخي هنا، مريضٌ، بين ملايين الخورخيات عبر العالم،

ولكن الآن، اختُزل العالم كله إلى طفل مريض. لو كان ليون هنا، وهو الواثق والفعّال، لاكتشف العلة فوراً ولقضى عليها دون إضاعة دقيقة واحدة. أما غابرييل المسكين، فقد انحنى على خورخي، كأولئك الذين لا يفهمون شيئاً. لكن هذا ساعدها على فهم أن غابرييل هنا، يدخّن في الممر، ينتظر معها. فُتح الباب. انحنت باولا، خلعت حذاءها وأخذت تنتظر. أومأت إليها كلوديا أن تقترب لكنها أشارت إلى خورخي بإصبعها.

قالت كلوديا:

ـ إنه لا يسمع، تعالي، واجلسي هنا.

ـ لن أبقى طويلاً، وقد أتاكِ أناس كثيرون ليزعجوكِ، بيد أنهم جميعاً يحبّون طفلك.

ـ طفلي الصغير حرارته 39.

ـ روى لي مدران ما حدث. إنهم يقيمون الحراسة في الخارج. هل أستطيع أن أبقى معك؟ لماذا لا تنامين قليلاً؟ أنا لستُ نعسانة، وأعدكِ بأن أناديكِ مباشرةً إذا استيقظ خورخي.

ـ ابقي طبعاً، ولكني، أنا الأخرى لستُ نعسانة. سنتحدّث.

ـ ثمة أشياء مثيرة تجرى على متن السفينة، وسأقصّ عليكِ آخر الأخبار.

فكّرت وهي تتكلّم: «كلبة، كلبة لعينة، أنتِ التي تتمرّغين، مسبقاً فيما ستقولينه، والتي تتذوقين ما ستطلبه إليك...». نظرت كلوديا إلى يدي باولا، فسحبتهما هذه فوراً، ثم أراحتهما ضاحكةً بصمت على مسندي المقعد. لو أن لها أماً ككلوديا، ولكنها كانت ستكرهها بكل تأكيد كأمها. لقد فات الأوان على التفكير بأم، وحتى بصديقة.

قالت كلوديا:

ـ احكي لي، لنمرّر الوقت.

ـ لا شيء أخطر من ذلك. آل تريخو يقفون على حافة الأزمة، فقد اختفى ابنهم.

ـ هذا صحيح، تذكّرتُ أنه لم يكن في البار. ولقد ذهب بريسوتي للبحث عنه.

ـ بريسوتي أولاً، ثم راؤول.

كلبة.

قالت كلوديا بلا مبالاة:

ـ لا بدّ أنه ليس بعيداً. غالباً ما يكون للمراهقين بعض هذه النزوات... ربما رغب في تمضية الليل على سطح السفينة.

ـ ربما. لحسن الحظ أني لستُ عصبيةً مثلهم، وأني أستطيع أن أعلن بهدوء أن راؤول قد اختفى هو الآخر.

نظرت إليها كلوديا. انتظرت باولا هذه النظرة وأبدت لها وجهاً أملس، خالياً من التعابير. أحدهم يذرع الممر جيئةً وذهاباً. تعالى وقع الخطوات واقترب، لكن اللينوليوم كان يخمّده. إنه مدران أو بيرسيو أو لوبيز أو بريسوتي الشجاع، يمشي قلقاً على خورخي.

خفضت كلوديا عينيها وقد تعبت فجأة. وفرحها برؤية باولا سقط فجأةً وحلّت محلَّه رغبةٌ في ألا تعرف شيئاً، وفي ألا تقبل هذا الشك الجديد الذي يمكن أن تؤكّده كلمةٌ واحدة أو حتى مجرد صمتٍ ما. أغمضت باولا عينيها وبدت غير آبهةٍ بما يمكن أن يتبع ذلك، لكن أصابعها أخذت تدقّ بصمتٍ على مسندي المقعد.

قالت وكأنها تحدّث نفسها:

ـ لا يمكن لهذا أن يكون غيرةً. إني أشفق عليهم كثيراً.

ـ اذهبي يا باولا.

قالت باولا وهي تقف فجأةً:

ـ نعم فوراً. اعذريني، فأنا لم آتِ أبداً من أجل هذا. لقد أتيت لكي أرافقك، لقد كان ذلك أنانية، لأنكِ تحسنين إلي...

ـ لا شيء يا باولا. سنتكلّم في يومٍ آخر. اذهبي الآن ولا تنسي حذاءك.

أطاعت باولا وخرجت دون أن تلتفت.

غريب كما يمكن لاحترامٍ معين للعقل المنهجي أن يجعلك تتصرّف بطريقة معينة، حتى لوً علمتَ تماماً أنك تأخذ كامل وقتك. هو يعرف أنه لن يجد فيليبي على سطح السفينة، ومع ذلك فقد فتّشه كلّه ببطء، بعد أن توقّف في البداية تحت الغطاء لكي يعوّد عينيه على الظلمة، واستكشف منطقة مداخن التهوية ولفّات الحبال والرافعات. سمع التصفيق المنبعث من البار وهو عائد إلى الممر. قرّر أن يدق باب فيليبي. لامبالاة تقترب من الاحتقار، لامبالاة شخصٍ يرى أن لديه الوقت كله، تمتزج برغبةٍ مكبوتة في أن يعجّل لقاءهما. إنه يرفض أن يصدّق أن غياب فيليبي (لكنه يشعر بذلك، وكان أقوى منه) هو علامة، علامة مغفرة أو علامة حرب. كان واثقاً من أنه ليس في مقصورته، ومع ذلك فقد دق الباب، مرتين، ثم فتحه. وجد المصابيح مضاءة وباب الحمام مفتوحاً، ولا أحد. خرج مسرعاً، وسرعان ما غزاه الغضب. بل كان كامناً لديه، متربّصاً، عندما عبر سطح السفينة وشفتاه مزمومتان، لتأخير ضربة المخلب التي ستتملّك الهارب. فيليبي يسخر منه، ويثيره؛ لقد ذهب بمفرده مرةً أخرى ليستكشف السفينة. إنه يطالب بحقوقه كمهان. لم يكن هناك من علامة، ولم يكن هناك من هدنة، بل إنها الحرب معلنةً، وربما الاحتقار. فكر: «هذه المرة، سوف أضربه. ليذهب إلى الشيطان، ولكن هذه المرة ستبقى له على الأقل هذه الذكرى المحرقة على جلده». ركض إلى الباب المخفي ثم أخذ ينزل الدرجات الضيقة أربعاً أربعاً. ولكن فيليبي كان صبياً جداً وغبياً جداً، ومن يعلم إن لم يكن ينتظر، بعد هذه الوقاحات كلها، المصالحة بشروط، وبالتأكيد، بحدود معيّنة... كان غبياً إذ اعتقد أن كل شيء قد ضاع؛ في الواقع، لقد كانت باولا على حق. ليس بالإمكان إظهار الحقيقة عارية لهؤلاء الأولاد، بل يجب المداورة والإفساد (ولكن الكلمة لا تحمل معناها المعتاد هنا)؛

وربما ذات يوم، قبل نهاية الرحلة... كانت باولا على حق، وكان يعرف هذا منذ البداية ومع ذلك فقد اقترف أخطاء فادحة في التكتيك. كيف لا يستفيد من هذا القَدر الموجود في فيليبي، عدو نفسه، والمستعد للاستسلام عندما يظن نفسه أنه يقاوم؟ لم يكن، من رأسه حتى قدميه، إلا رغبةً وطلباً. يكفي تجريده من تلك الطبقة من التربية البيتية ومن شعارات عصابته ومن قناعاته بأن بعض الأشياء جيدة وبعضها الآخر سيء، يجب تركه يجري ثم يطلق العنان لنفسه، وإعطاؤه الحق، ولكن في الوقت نفسه، يجب بذر الشك في نفسه وفتح رؤية جديدة للأمور لديه، أكثر اختلافاً وأكثر قوة. يجب الهدم والبناء لديه، فهو مادة تشكيلية رائعة، ويجب التمهّل في ذلك، يجب الانتظار، وبعد ذلك أخيراً يجب الجني ذات يوم، في اللحظة المناسبة تماماً.

لم يجد أحداً في المقصورة الأولى. نظر راؤول إلى الباب الأمامي وتردّد. إذ لم تكن لديه الجرأة على... بلى، إنها لديه بكل تأكيد. دفع الباب بهدوء، تقدّم في الممر. رأى الدرج الصاعد في نهايته. قال متعجّباً: «لقد وصل إلى سطح السفينة الخلفي. هو أول من وصل إلى هناك». أخذ قلبه يخفق كخفّاش مجنون. شم رائحة تبغ وسرعان ما تعرّف إليها. شعاعٌ من الضوء يتسرّب من تحت الباب اليساري. فتح الباب ببطء ونظر. انفجر الخفاش ألف نتفة مع دوي هائل كاد أن يعميه. ثم أخذ شخير بوب يقطع الصمت. كان النسر الأزرق القابع بين فيليبي والجدار يرفع جناحيه ويخفضهما مع كل شخرة. وكانت ساقٌ مشعرة تمر فوق ساق فيليبي وتجعله سجينها. تفوح من هذا رائحة القيء، والتبغ والعرق. وعينا فيليبي المفتوحتان على اتساعهما تنظران إلى راؤول الواقف عند الباب دون أن يراه. أخذ بوب يشخر بقوة أكثر ويتحرك وكأنه سيستيقظ. مشى راؤول خطوتين إلى الأمام ثم استند بإحدى يديه إلى الطاولة. في تلك اللحظة تعرّف فيليبي إليه. رفع يديه إلى بطنه، بغباء، وحاول أن يسحب ساقيه من تحت الساق المشعرة. برطم بوب كلمات مبهمة،

وأخذ جسمه الضخم السمين يرتعش كما لو أنه تحت تأثير كابوس. جلس فيليبي على حافة الفراشين ومد يده ليتناول ثيابه. عند ذلك دار راؤول حول الطاولة وقذفها إليه بقدمه على أرض مليئة بالقيء. أحس وكأنه سوف يتقيّأ هو الآخر، فتراجع إلى الممر. انتظر هناك مستنداً إلى الجدار. كان الدرج المؤدي إلى سطح السفينة الخلفي على بعد ثلاثة أمتار منه لكنه لم ينظر إليه مرةً واحدة. وقف ينتظر وهو عاجزٌ حتى عن البكاء.

ترك فيليبي يمشي أمامه ثم تبعه. اجتازا المقصورة الأولى ثم الممر البنفسجي. وعندما وصلا إلى الدرج، أمسك فيليبي بالدرابزين بكلتا يديه، دار على نفسه وانهار على إحدى الدرجات.

قال راؤول وهو يقف جامداً أمامه:

ـ دعني أمر.

غطى فيليبي وجهه بيديه ثم راح ينشج. بدا أصغر بكثير. بدا وكأنه نما بسرعة وأساء إلى نفسه فأخذ يشكو. أمسك راؤول بالدرابزين ومرّ من فوق فيليبي دون أن يلمسه. تذكّر بصورةٍ مبهمة النسر الأزرق فساعده ذلك على تجنّب الغثيان، وأن يصل إلى مقصورته دون أن يتقيّأ في الممر. النسر الأزرق، رمز. حتى إنه لم يتذكر درج سطح السفينة الخلفي. النسر الأزرق، ولكن بكل تأكيد، الأساطير مختزلةً في ملخّص جديد بعصرنا. نسر زيوس، بكل تأكيد، لا شيء أوضح من ذلك.

ح

مرةً أخرى، وربما كانت الأخيرة، من يعلم؟ لا شيء واضح هنا ولكن بيرسيو يستشعر أن الأمر قد تم، وأن الكواكب اتخذت مكانها الصحيح في السماء البروجية وأن الدمى المتحرّكة لبست ثوب الحقيقة. وحيداً على سطح السفينة أو في مقصورته، وعيناه

مخضلّتان، يتنفّس بعناء، يرى الدمى المتحرّكة وهي ترتسم في عمق الليل. يراها وهي تصلح من وضع شعرها المستعار وتواصل السهرة المتوقّفة. اكتمال ومقصد بُلغ، وسقطت الكلمات الأكثر غموضاً كقطرات من عينيه لترتعش لحظةً قرب شفتيه. يفكّر: خورخي، وهذه دمعة كبيرة خضراء تتقطّر ببطء من عينه على خدّه ثم تنعطف إلى شعر لحيته ثم تتبدّل أخيراً إلى ملح أجاج لا تستطيع الأبدية أن تمحوه. لم يعد يهمّه أن يرى سطح السفينة الخلفي ولا ما ينفتح خلف الحاجز على ليلةٍ أخرى، وعلى وجوه أخرى، وعلى إرادة للأبواب الحجرية. في لحظة من الغرور الفاتر ظن نفسه عالمياً، ثاقب النظر، مدعواً إلى تجليات عليا، ومغزواً بالثقة الغامضة أن هناك نقطة مركزية يمكن أن يرى منها كل عنصر متنافر كشعاع ضروري للعجلة...

بغرابة، صمت الغيتار الكبير في الأعالي، وراحت المالكولم تتقدّم على بحر كاوتشوكي تحت هواء لزج. وبما أنه لم يعد يستطيع أن يرى شيئاً من سطح السفينة الخلفي، وأن حشرجات خورخي وأن اليأس الذي يحرث نفس كلوديا يعدم إرادته، استسلم إلى حاضر أعمى تقريباً، محدود على بعد عدة أمتار بسطح السفينة والدرابزين على بحرٍ بلا نجوم. أقفاص القرود، والأسود تدور داخل أسوارها، والبامبا الممتد على ظهره، والارتفاع الشاهق لأشجار السرو ولجبال الآنديس، كلها تعود فجأةً وتتجمّد بين الدمى المتحركة التي عدلت وضع أقنعتها وشعرها المستعار لصق الدوائر وخطوط الرجل ذي الغيتار لبيكاسو الذي انتمى إلى أبولينير، كما تأتي القطارات التي تعبر البرتغال وسط ملايين الأشياء المتزامنة، وسط لانهاية مرعبة من التزامنات والتوافقات، التقاطعات والانفصالات، وإننا إذا لم نُخضع كل هذا إلى الذكاء فسينهار في موتٍ كوني، وهذا الكل، إذا لم يُخضَع للذكاء، فهو يسمى عبثاً، يسمى مفهوماً، يسمى وهماً، ويسمى النظر إلى الشجرة وليس إلى الغابة، يسمى تفحّص قطرة الماء مع إدارة الظهر إلى البحر، وتفضيل المرأة على الهروب

نحو المطلق. ولكن الدمى المتحركة مستعدة وهاهي تبدأ الرقص أمام بيرسيو. كيف لم يسعَ بيرسيو المتبحّر إلى التفكير، في الساعة التي بدا الموقف فيها يميل إلى العنف؟ في اللحظة التي سعت الأيادي إلى المسدسات؟ ولحظةَ بكى أحدهم وهو منبطح على فراش؟ كيف لم يسعَ إلى التفكير بالرجال الخشبيين؟ وبالعرق المسكين لأوائل الرجال - الدمى المتحركة؟(*) رقصها على سطح السفينة أخرق، بدت وكأنها ألعاب ميكانيكية. والخشب الخشن لهذا الخلق السيئ وغير المتقن يطقطق ويهتز عند كل وجهٍ جديد. كل شيء خشبي، الوجوه والأقنعة والسيقان والأعضاء التناسلية والقلوب الثقيلة التي لا يمكن لشيء أن يثبّت دون أن يتخثّر أو يتكتّل، والأحشاء التي تكدّس بشراهة أكثف الأطعمة، والأيادي التي تتشابك مع أيادٍ أخرى لتحافظ على توازن الجسم الثقيل، ولكي تنفّذ الدوران البطيء. شهد بيرسيو، الذي سحقه التعبُ واليأسُ وأضنتْه الصحوة التي لم تقُدْه إلا إلى سقوط جديد، رقصَ الدمى الخشبية والفصلَ الأول من القدر الأمريكي. ولكن الآلهة المستاءة سرعان ما ستهجرها، وعندها ستُرفع الكلاب والأشياء المعهودة وحتى الطواحين الحجرية إلى جانب هذه الغوليمات الخرقاء، سوف تذوب عليها وتفتّتها، وستتعقّد الرقصة برقصةٍ جنائزية وستتغطّى الأخيلة بأسنان وأظافر وبشعر. وستنهار الدمى التي تخلّت عنها الآلهة واحدة تلو الأخرى تحت نفس السماء اللامبالية، وهنا، في هذا الحاضر الذي ينتصب فيه بيرسيو وهو يفكر بطفلٍ مريض وبفجرٍ مضطرب، سوف تستمر الرقصة، ولكن الأيدي ستُطلى بطلاء الأظافر وستُكسى السيقان بسراويل، وستعرف الأحشاء طعم الكبد الدسمة والشاتونوف، وستواصل الأجساد المرنة والمعطّرة الرقصَ دون أن تعرف أنها ما تزال ترقص رقصاً خشبياً، وأنها مهدّدة بتمرد جديد، ودون أن تعرف أن العالمَ الأمريكي هو دورٌ في لعبة شعوذة، وأن من تحتها تنخر

(*) تلميح إلى أسطورة «بابول فوه»، الكتاب المقدس عند قبائل المايا، وهي تريد أن يُجرّب الآلهة أولاً في خلق أول عرقٍ من بشر من الخشب.

المناجذ والنمل والطقس برياحه الرطبة، وطيور الكوندور بقطع لحمها الفاسد، والزعماء المحليّون الذين يهلّل لهم الشعب ويرفعهم إلى السلطة، والنساء اللواتي ينسجن في الباحات الداخلية طوال حياتهن، وموظفو البنوك ولاعبو كرة القدم والمهندسون المتكبّرون والشعراء المصرّون على اعتبار أنفسهم أنهم مهمون ومأساويون والروائيون الحزينون وقصصهم الحزينة، والمدن القذرة بسبب اللامبالاة. غطى بيرسيو عينيه. دخل سطح السفينة الخلفي في عينيه كشوكة وأحسّ بالماضي مكذَّباً بلا جدوى أو نتناً يسوّر الحاضر الذي يقلّده كما قلّدت القرود الرجال الخشبيين. كل ما سيحدث فيما بعد سيكون وهماً، وغموضاً عميق الأغوار، وشكّاً عضالاً في قلب الحلول جميعاً. في عالم شبيه بكل العوالم، وشبيه بكل القطارات، وشبيه بكل عازفي الغيتارات، وبكل مقدمات السفن ومؤخراتها، ترقص الدمى الخشبية في الفجر الذي أخذ يبزغ. لماذا تبكي يا بيرسيو؟ لماذا تبكي؟ بهذه الأغصان اليابسة تُشعَل النار أحياناً، والمأساة الكبرى تغذّي الغناء أحياناً. بعد أن تعض الدمى المتحركة الغبار، عندئذ قد يولد رجل. وربما وُلد وأنتَ لا تراه.

اليوم الثالث

40

قال لوبيز:

ـ الساعة الثالثة وخمس دقائق.

كان رجل البار قد ذهب للنوم في منتصف الليل. ومسؤول المطعم، الجالس خلف الكونتوار، والمتثاءب باستمرار، وفّى بوعده. نهض مدران، وفمه مليء بالمرارة بسبب التبغ والتعب والقلق، وذهب ليرى مرةً أخرى إن كانت كلوديا بحاجة إلى شيء.

وحده في طرف البار قبع لوبيز يتساءل إن كان راؤول قد ذهب للنوم. من المستغرب أن تخلو ليلةٌ كهذه من راؤول. لقد رآه لحظةَ نُقل خورخي إلى مقصورته. كان يدخّن مستنداً إلى الحاجز وهو شاحب الوجه، متعباً، ولكن سرعان ما انضمّ بعد ذلك إلى الحديث العام الذي جرى على أثر مقدم الطبيب. وبعد أن خرجت باولا من عند كلوديا تبادلا بضع كلمات بصوتٍ خافت ثم ذهبا معاً. تبدّى هذا كله بصورة مشوّشة في ذاكرة لوبيز الذي أخذ يصف بأناةٍ صور السهرة بين جرعتين من كونياك ومن قهوة. راؤول يدخن مستنداً إلى الحاجز. وباولا تخرج من عند كلوديا بهيئة... (ولكن كيف يمكن التعرف إلى هيئات باولا؟ وكيف يمكن معرفة باولا نفسها؟)، وينظر الاثنان أحدهما إلى الآخر، مفاجأين من الالتقاء في هذه الساعة المبكرة. كانت باولا مفاجأة، وراؤول شبه سئِم. ثم ذهبا معاً إلى مقصورتهما. عند ذلك نزل لوبيز إلى سطح السفينة وبقي أكثر من ساعة وحيداً في أقصى مقدمة السفينة، يدخّن ويحلم، تائهاً في

غضب مبهم تمرّ عبره باولا وتمر، وهو، في كل مرة، يمدّ ذراعه ليضربها، وفي كل مرة يسبلها. إنه يشتهيها، واقفاً، مرتعشاً، كم يشتهيها! وهو يعلم أنه لا يستطيع العودة إلى مقصورته هذه الليلة، وأن عليه أن يسهر، وأن ينطفئ من الشرب ومن الكلام، وأن ينسى أنها رفضت من جديد أن تتبعه وأنها تنام إلى جانب راؤول أو تصغي إلى ما يرويه لها. هاهي صورة باولا عاريةً تمرّ من جديد في متناول يده. ثم باولا مرتديةً قميصها الأصفر، ثم مرتديةً البيكيني. باولا مختلفة في كل مرة. باولا في منامة لا يعرفها، باولا عارية من جديد، ممدّدة على ظهرها أمام النجوم، باولا تغني un jour tu verras، باولا تقول بطريقة محبّبة، باولا تهزّ رأسها هزّة خفيفة من اليسار إلى اليمين، لا، لا، لا. بعد ذلك، صعد لوبيز من جديد إلى البار. ها قد مرّت ساعتان من الانتظار مع مدران.

ـ كأس كونياك من فضلك.

تناول مسؤول المطعم زجاجة الكورفوازييه عن الرف.

أضاف لوبيز:

ـ خذ كأساً، أنتَ أيضاً.

إن مسؤول المطعم هذا رجل طيب. كان أقل سوءاً من الدهنيين الآخرين.

ـ وآخر لصديقي القادم.

أشار مدران بيده: لا، ثم أضاف:

ـ يجب أن نتصل بالطبيب من جديد، فحرارة الطفل بلغت الأربعين.

ذهب مسؤول المطعم إلى الهاتف وأدار الرقم.

ـ اشرب جرعةً، فالجو بارد في هذه الساعة.

ـ لا، شكراً يا صديقي.

التفت مسؤول المطعم نحوهما مغموماً وسأل:

ـ سأل إذا كان لديه تشنجات أم تقيؤات.

ـ لا، ولكن قل له أن يأتي فوراً.

تكلّم مسؤول المطعم، استمع، تكلّم من جديد، ثم أغلق الخط وهو منزعج جداً. وقال أخيراً:

ـ لن يستطيع أن يأتي إلا فيما بعد. يقول بمضاعفة جرعة الدواء الذي في الأنبوب ومعاودة قياس الحرارة بعد ساعة.

أسرع مدران إلى الهاتف، وكان يعرف الرقم: 5 ـ 6. أداره بسرعة.

قال مسؤول المطعم:

ـ أنا آسف جداً أيها السيدان، الوضع نفسه دائماً، فهم لا يحبّون أن يزعجهم أحد في مثل هذه الساعة. الهاتف يعطي مشغول، أليس كذلك؟

تبادل مدران ولوبيز نظرةً دون أن يتكلّما. خرجا معاً وذهبا إلى مقصورتيهما. نظر لوبيز إلى نفسه في المرآة وهو يشحن مسدّسه ويملأ جيوبه بالطلقات فوجد نفسه مضحكاً. ولكن كل شيء أفضل من النوم. تحسّباً لكل مصادفة، أخذ سترته الجلدية وعلبة سجائر أخرى. كان مدران ينتظره في الخارج مع شال يمنحه هيئة الرياضي. وقربه بريسوتي، منفوخ العينين من النوم، وشعره منكوش، يقدّم صورة الذهول عينِه.

قال مدران:

ـ لقد أبلغتُ صديقي لأننا كلما كنا كثراً كلما ازدادت فرصنا في الوصول إلى مقصورة الراديو. هيا اذهب ونادِ راؤول وقل له أن يصطحب الكولت.

قال القطيفة:

ـ أوه، لقد نسيتُ بندقيتي في البيت. لو كنتُ أعلم لأتيتُ بها.

قال مدران:

ـ انتظروا الآخرين هنا. سأعود حالاً.

دخل إلى مقصورة كلوديا. كان خورخي يتنفّس بصعوبة وارتسم ظلٌ أزرق حول فمه. لم يجد لديه شيئاً مهماً ليقوله. أعدّت كلوديا ومدران الدواء ونجحا في إعطائه لخورخي. كما لو أن الطفل تعرّف إلى أمه فجأةً، تعلّق بها وهو يبكي ويسعل. إنه يحسُّ بألم في صدره، وفي ساقيه، ويحسّ بشيء ما مضحك في فمه.

قال مدران وهو يجثو قرب السرير ويداعب شعر الطفل حتى قبل أن يترك ثياب أمه ويتمدّد من جديد وهو يئن ويشخر:

ـ سينتهي هذا بسرعة.

قال خورخي لمدران:

ـ إني أتألم. لماذا لا تعطيني شيئاً ما يشفيني مباشرة؟

ـ هذا بالضبط ما تناولتَه للتو، يا صغيري. والآن سترى أنكَ ستنام مباشرةً وسوف تحلم بالأخطبوط، وغداً صباحاً ستستيقظ في الساعة التاسعة وقد شُفيتَ تقريباً وسوف آتي إليكَ لكي أروي لكَ قصصاً.

أغمض خورخي عينيه وقد هدأ قليلاً. في تلك اللحظة فقط أدرك مدران أن يده اليمنى كانت تضغط بقوة على يد كلوديا. لم يتحرّك، بل تابع النظر إلى خورخي لكي يشعر بوجوده. وعندما أخذ خورخي يتنفّس تنفّساً أكثر عمقاً وانتظاماً، نهض وقاد كلوديا من يدها حتى الباب.

ـ يجب أن أغيب قليلاً. لكني سأعود وسأبقى معكِ كل الوقت اللازم.

ـ ابقَ الآن.

ـ لا أستطيع، فلوبيز ينتظرني. لا تقلقي، سأعود سريعاً.

تنهّدت كلوديا وفجأةً أسندت رأسها إليه. شعر بحرارة رأسها على كتفه. قالت:

ـ لا تتهوّر يا غابرييل. أرجوكَ ألا تتهوّر.

قال بصوتٍ خافت جداً:

ـ لا يا عزيزتي، إني أعدك.

لامس شعرها بقبلة، ورسم إصبعه شيئاً ما على وجنة كلوديا المبلّلة.

ثم قال وهو يُبعدها بلطف:

ـ سأعود فوراً.

فتح الباب وخرج. بدا له الممر مليئاً بالضباب. لم يدرِ لماذا نظر إلى ساعته. كانت الثالثة وعشرين دقيقة. لقد بدأ اليوم الثالث من الرحلة.

رأى لوبيز وراؤول يأتيان في نهاية الممر وتتبعهما باولا مرتديةً قميص نوم أحمر. مشى الرجلان بسرعة وكأنهما يريدان التخلّص منها، ولكن لم يبدُ ذلك سهلاً. سألت وهي تنظر إلى مدران:

ـ ولكن، ماذا تنوون أن تفعلوا؟

قال مدران ببعض الانزعاج:

ـ ننوي أن نأتي بالطبيب من طرف أذنه، وأن نُبرق لبوينس آيرس. لماذا لا تذهبين إلى النوم يا عزيزتي باولا؟

ـ أنام، أنام، ليس في فمكم إلا هذه الكلمة! لست نعسانة، وأريد أن أساعدكم.

ـ إذن، ابقي إلى جانب كلوديا.

لكن باولا لا تريد أن تبقى إلى جانب كلوديا. التفتت إلى راؤول

وأمعنت النظر إليه. مشى لوبيز بضع خطوات إلى الأمام وكأنه لا يريد أن يتدخّل في هذا كله. فقد كلّفه ما يكفي عندما ذهب ليدقّ باب مقصورتهما، وسمع كلمة «ادخل» من راؤول، ووجدهما في حومة نقاش حام سُفحت فيه كمية كبيرة من الخمر ومن أعقاب السجائر. سرعان ما وافق راؤول على الانضمام إلى المهمة لكن باولا غضبت: لماذا سيذهبون بمفردهم ويتركونها وحيدة مع «النساء والعجائز»؟ بل إنها سألتهم: أية حماقة جديدة سيقترفون. اكتفى لوبيز بهز كتفيه بينما كان راؤول يرتدي كنزته ويحمل مسدس الكولت. كان راؤول يتحرّك بذهول كما لو أنه ليس إلا نسخة لرجل داخل المرآة، ولكن ارتسم على وجهه من جديد التعبير الساخر لمن صمّم على أن يخاطر بكل شيء في لعبةٍ لا تهمه كثيراً في واقع الأمر.

فُتح بابٌ إحدى المقصورات بعنف وظهر منه السيد تريخو يرتدي معطفاً ظهرت من تحته منامته السماوية بشكلٍ مضحك، وقال:

ـ كنتُ نائماً، لكني سمعتُ أصواتاً فظننت أن الصبي قد ساءت حاله.

قال لوبيز:

ـ الحمى ازدادت وطأتها، وها نحن ذاهبون للبحث عن الطبيب.

ـ تبحثون عنه؟ من المستغرب ألا يأتي بنفسه.

ثم أضاف السيد تريخو بصوت خافت:

ـ آمل ألا تكون قد ظهرت أعراض جديدة منذرة بالخطر.

قال لوبيز:

ـ لا، ولكن ليس لدينا دقيقة واحدة نضيعها. هيا بنا.

قال القطيفة الذي أثار تصرّف الطبيب اشمئزازه:

ـ هيا بنا.

فتح السيد تريخو فمه ليضيف لكنهم مروا من أمامه ثم اختفوا.

لم يذهبوا بعيداً لأن باب المقصورة رقم 9 فُتح وظهر دون غالو يرتدي عباءة وخلفه يقف سائقه. نظر إليهم نظرةً سريعة ثم رفع يده مهدّداً. فعلى أصدقائه الأعزاء ألا يفقدوا اتزانهم في ساعةٍ كهذه. أبلغوه بما حصل بالهاتف فقال لهم إنه من الأفضل الآن أن يتقيّدوا بتعليمات الطبيب الذي لا بد أنه يعرف ما يقوله، وإلا كان سيعود لرؤية الصبي...

قال مدران:

- نحن نضيع وقتنا. هيا.

مشى باتجاه الممر الأوسط يتبعه راؤول. وخلفهم وقف دون غالو والسيد تريخو يتحدّثان باندفاع.

- ما رأيكَ أن ننزل من مقصورة رجل البار؟

- نعم، ربما حالفنا الحظ أكثر هذه المرة.

قال راؤول:

- أنا أعرف طريقاً أفضل وأقصر. أتذكره يا لوبيز؟ سنذهب لرؤية أورف وصديقه الموشوم.

- صحيح، هذا الطريق أقصر بكثير، ولكني لا أعرف إن كان سيوصلنا إلى سطح السفينة الخلفي، لنحاول على أية حال.

عندما وصلوا إلى الممر الأوسط رأوا لوسيو ود. ريستيللي قادمين لينضمّا إليهم تجذبهما إليهم نتف الأصوات. رفع د. ريستيللي سبابةً آمرة وأوقفهم على بعد متر واحد من الباب المؤدي إلى الأسفل. كما انضمّ إلى الجمع دون غالو والسيد تريخو وقد ثارت ثائرتهما. من المؤكد أن الوضع حرجٌ إذا، كما قال بريسوتي، رفض الطبيب أن يظهر، لكن مدران وكوستا ولوبيز يفهمون جيداً أنه ليس بوسعهم تحمّل النتائج المحتومة لاعتداء، كما يبدو أنهم يريدون أن يفعلوا. لسوء الحظ، إذا ظهرت حالة من التيفوس 224

بين الركاب، فالشيء الوحيد الذي يجدر القيام به هو إبلاغ الضباط (ويوجد الهاتف ومسؤول المطعم من أجل هذا)، ونقل المريض إلى مستوصف سطح السفينة الخلفي حيث يُعالج القائد سميث والمرضى الآخرون. وليس بالتهديدات تُسوّى الأمور، كما حدث هذا الصباح.

قال لوبيز:

ـ اسمعني يا عزيزي الدكتور! أنا آسف، ولكني سئمت إضاعة الوقت.

ـ يا صديقي العزيز!

غمغم دون غالو مدعوماً بالسيد تريخو:

ـ لا تلجؤوا إلى العنف.

وكان لوسيو يقف خلفهما شاحباً لا يتكلم.

فتح مدران الباب وبدأ النزول فتبعه راؤول ولوبيز.

قال القطيفة وهو ينظر إلى فريق السلام نظرة احتقار عارم:

ـ كفى قوقأة، أيتها الدجاجة!

نزل درجتين ثم صفق الباب في وجهيهما. «أية عصابة من المخبولين، ياأمنا العذراء! الطفل في خطر ويأتي هؤلاء العجول ليكلّمونا عن الاعتدال. أقسم أن لدي رغبة عارمة في أن أهشّم وجوههم».

قال لوبيز:

ـ أعتقد أن الفرصة ستسنح لكَ بأن تفعل ذلك. اسمع يابريسوتي، انظر من حولك، فإذا وجدتَ مفتاحاً إنكليزياً يمكن أن تستخدمه كمطرقة فخذه.

في أثناء مرورهم، ألقوا نظرة خاطفة على الغرف اليسارية. وجدوها خاوية وغارقة في الظلمة. التصقوا بالحاجز وتمكّنوا من

بلوغ الباب اليميني، ثم فتحوه بضربة واحدة. تعرّف لوبيز إلى أورف وكان جالساً على أحد المقاعد، والفنلنديان اللذان كانا يغسلان جسر المسافرين يقفان قرب الفونوغراف ويتأهّبان لوضع أسطوانة. ظن راؤول الملتصق بلوبيز ساخراً أنها ربما كانت أغنية سولفيغ. انتصب أحد الفنلنديين مفاجأً وتقدّم مفتوح الذراعين قليلاً كما ليطلب تفسيراً. لم يتحرّك أورف لكنه أخذ ينظر إليهم مصعوقاً.

فُتح الباب الأمامي بصمتٍ بدا دهرياً. كان لوبيز على مقربة من الفنلندي الذي ما يزال يفتح ذراعيه. ولكن عندما رأى الدهني في إطار الباب أبعد الفنلندي بحركةٍ من يده وتقدّم. ابتعد البحار قليلاً، وفي الوقت نفسه وجّه لكمةً إلى فكّ لوبيز وثانيةً إلى معدته وثالثةً إلى وجهه في اللحظة التي هوى فيها كخرقة. شهر راؤول مسدس الكولت وكذلك شهر مدران مسدسه في اللحظة نفسها تقريباً، ولكن لم يكونا في حاجةٍ إلى إطلاق النار، فبقفزتين اثنتين صار القطيفة قرب الدهني ودفعه بلكمة شديدة إلى داخل الغرفة وأغلق عليه الباب بالمفتاح. رفع أورف والفنلنديان أيديهم كما لو أنهم يريدون التعلّق بالسقف.

قرفص القطيفة قرب لوبيز وأخذ يدلّك رأسه بقوةٍ مقلقة. ثم خلع له حزامه وقام بعملية تنفس صناعي.

ـ ابن القحبة، لقد ضربه وسط معدته تماماً. انتظر حتى أمسك بكَ يا قذر. المسكين أغمي عليه تماماً.

انحنى مدران وتناول المسدس من جيب لوبيز الذي أخذ يرفّ بأجفانه ويتنفّس بصعوبة في تلك اللحظة، ثم قال لأتيليو:

ـ خذه الآن. كيف الحال يا صديقي؟

تلفّظ لوبيز بكلمات غير مفهومة وبحث عن منديل.

قال راؤول وهو جالس على أحد المقاعد، يتسلّى بإرغام الرجال الأربعة على رفع أيديهم وقد تملّكهم التعب:

ـ يجب أن نأخذ هؤلاء جميعاً إلى الجهة الأخرى.

رفع لوبيز رأسه قليلاً وأنفه ينزف بغزارة ثم قال لنفسه إن لدى باولا ما تفعله، وهي التي تكره أن تعمل كممرضة.

قال مدران:

ـ نعم، لا نستطيع أن نتابع وهؤلاء السادة خلفنا. ألا تريد أن تحبسهم في إحدى مقصوراتنا يا أتيليو؟

قال القطيفة شاهراً مسدسه:

ـ لا تهتمّ لذلك يا سيد، سوف أتولّى أمرهم. مرَّ أنتَ أولاً أيها القذر، ثم اتبعوه أنتم. وأول من سيتخابث سأجعل الطلقة تستقر في رأسه. أنتم تسمعونني، أليس كذلك؟

ثم أضاف وهو ينظر إلى مدران:

ـ سوف آتي معكم.

راقب مدران بقلقٍ لوبيز الذي نهض مترنّحاً. سأله إن كان يريد أن يتبع أتيليو ويرتاح قليلاً لكنه نظر إليه غاضباً، وقال وهو يمرّر يده على فمه:

ـ الأمر بسيط. سأبقى طبعاً. إني أتنفّس الآن بشكل أفضل، اللعنة، كم هذا مؤلم!

ابيضّ لونه وأغمي عليه من جديد فارتمى على القطيفة الذي مد ذراعه ليسنده. حزم مدران أمره. أخرجوا الدهني والآخرين إلى الممر، وحمل أتيليو لوبيز على كتفه فأخذ يشتم بصوتٍ خافت، وتراجعوا. ربما وجدوا رجالاً مسلّحين في طريق عودتهم، ولكن ليس لديهم من حلّ آخر.

لم يكن ظهور لوبيز وهو ينزف دماً يتبعه ضابط وثلاثة بحارة مرفوعي الأيدي منظراً يطمئن لوسيو والسيد تريخو اللذين بقيا أمام الباب. ردّت خطوات د. ريستيللي وباولا على صرخة السيد تريخو.

ظهر دون غالو وهو يشدّ شعره بطريقةٍ ظنّها راؤول مناسبة للمسرح. صار المشهد مسلّياً له أكثر فأكثر فصفّ الموقوفين قرب الجدار وأومأ إلى القطيفة بأن يأخذ لوبيز إلى مقصورته. أوقف مدران بحركةٍ من يده موجة الصراخ والشتائم والأسئلة التي تبعت قدومهم. ثم قال راؤول للموقوفين وقد تركهم يمرّون بصعوبة بين عربة دون غالو والجدار:

ـ إلى البار.

كان مدران يتأهّب للحاق بهم حين أمسك به دون غالو وقد فقد صبره كله وهزّه وهو يصرخ أنه لا يسمح بذلك. عند ذلك قرّر مدران أن يفعل الشيء الوحيد الممكن وقال:

ـ كل الناس إلى الأعلى. وإن كان هذا لا يعجبكم، لا يهم.

سّر القطيفة أيما سرور بهذا الكلام ثم دفع مقعد دون غالو بسرعة في الممر رغم أن هذا تشبّث بالعجلات أو شدّ بسعارٍ شديد مكابح العربة.

تدخّل لوسيو:

ـ اتركوا هذا السيد. هل جننتم؟

ترك القطيفة العربة، أمسك بسترة منامة لوسيو من وسطها ثم دفعه بعنفٍ إلى الجدار والمسدس متدلّ بوقاحة من يده اليمنى، ثم نهره قائلاً:

ـ هيا أيتها الرخوية، وإلا خربتُ لكَ غرّتكَ الجميلة.

فتح لوسيو فمه ثم أغلقه. تجمّد د. ريستيللي والسيد تريخو في مكانهما، ووجد القطيفة عناءً في دفعهما إلى الحركة.

كان راؤول ومدران ينتظران عند أسفل الدرج المؤدي إلى البار.

صفّوهم جميعاً أمام الكونتوار، أغلقوا بالمفتاح البابَ المفضي

إلى المكتبة، انتزع راؤول أسلاك الهاتف. كان مسؤول المطعم ممتقع الوجه، يفتل يديه بأسلوب خدمي، ثم قام بتسليمهم جميع المفاتيح دون أن يبدي أية مقاومة. بعد ذلك انطلقوا من جديد راكضين.

قال القطيفة وهو يقف فجأةً:

ـ ينقص عالم الفلك والسائق وفيليبي. هل نسجنهم، هم أيضاً؟

أجاب مدران:

ـ لا داعي لذلك. فهم ليسوا ممن يصرخ.

فتحوا باب مقصورة أورف دون أن يتخذوا أية حيطة. كانت خالية، وبدت لهم أوسع بكثير من ذي قبل. نظر مدران إلى الباب الذي في الصدر.

قال راؤول بصوت حيادي:

ـ إنها تؤدي إلى ممر. وفي نهاية الممر هناك درج يصعد إلى سطح السفينة الخلفي. ويجب أن نحترس ونحن نمر من أمام مقصورة تقع إلى الجهة اليسرى.

سأله القطيفة:

ـ هل أتيتَ إليها سابقاً؟

ـ نعم.

ـ أتيتَ إليها ولم تصعد إلى سطح السفينة الخلفي؟

ـ لا.

نظر إليه القطيفة نظرة ريبة ولكن بما أن راؤول بدا له لطيفاً قال لنفسه لا بد أن هذه الأحداث كلها قد أربكت عقله. أطفأ مدران النور دون أي تعليق، فتحوا الباب بهدوء ثم تقدّموا في الظلام وهم يصوّبون مسدساتهم إلى الأمام. سرعان ما رأوا الدرابزين النحاسي للدرج يلمع في الظلام.

قالت باولا:

ـ أيها المسكين! يا قرصاني الصغير! أمكَ ستضع لكَ قطعة قطن تحت أنفك.

ارتمى لوبيز على السرير. أحسّ بالهواء يدخل إلى رئتيه ببطءٍ شديد وبصعوبة شديدة. بلّلت باولا زاوية فوطة وأخذت تمسح وجهه بمنتهى الحذر. كان يشتم بصوتٍ خافت بينما واصلت تنظيف وجهه وهي توبّخه قائلةً:

ـ اخلع سترتكَ واستلقِ على السرير جيداً، يجب أن تستريح.

ـ لا، أنا أتحسّن، ألا ترين أني تركتُ الرفاق في اللحظة...

ولكن ما إن رفع رأسه حتى عاد كل شيء إلى الدوران. سندته باولا ثم أقنعته بالتمدّد على السرير، تماماً هذه المرة. وجدت غطاء في الخزانة ففرشته بأفضل ما تستطيع، ثم تلمّست تحته لتُخلِعه حذاءه. كان ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين. بدت له بعيدةً جداً. لم يتورّم أنفه، ولكن بدت بقعةٌ بنفسجية تحت عينه وكدمة رهيبة على فكّه.

قالت باولا وهي تجثو لتُخلعه حذاءه:

ـ أنتَ بالغ الوسامة هكذا. أنتَ الآن جاميكا جون الذي أحبّه.

قال وهو يشير إلى معدته:

ـ ضعي لي شيئاً ما هنا. لا أستطيع أن أتنفّس. اللعنة، كم أنا ضعيف. وكل هذا من لكمتين!

سألته وهي تُسيل الماء الساخن:

ـ أليس لديك كحول؟ آه، بلى، أنا أرى زجاجة. فكّ بنطالك إن استطعت... انتظر، سأساعدك على خلع سترتك التي تبدو وكأنها من الحديد. هل تستطيع أن تنهض؟ وإلا استدِرْ وسوف نخلعها شيئاً فشيئاً.

تركها لوبيز تفعل. لم يكفّ عن التفكير بأصدقائه. إذ ليس من المعقول أن يخرج من المعركة بسبب ذلك الدهني السخيف. أحسّ بيدي باولا تنزلقان على ذراعيه لتُخلعانه السترة، ثم فكّتا حزامه وفتحتا قميصه ووضعتا شيئاً حارّاً على معدته. ابتسم مرةً أو مرتين لأن شعر باولا أخذ يدغدغ وجهه. هي الآن تبدّل القطن من تحت أنفه. دون أن يعرف، ودون أن يريد، مدّ شفتيه. أحسّ بفمها على فمه، خفيفاً، قبلة ممرّضة. ضمّها بذراعيه بكل قوته، أحسّ بعسر في التنفّس ومع ذلك فقد أخذ يقبّلها وهو يعضّها حتى صرخت، ثم قالت بعد أن تحرّرت منه:

ـ آه، خائن! خبيث! أي نوع من المرضى أنت؟

ـ باولا!

ـ اسكت. لا تحاول أن تهدّئني بحجة أنكَ في ضيق. منذ نصف ساعة فقط كان السيد برّاداً من آخر طرز.

قال وهو يحاول أن يجذبها نحوه:

ـ وأنتِ، أنتِ سيئة، بل أكثر من سيئة، كيف استطعتِ...

قالت بعنف:

ـ سوف تلطّخني بالدم. كن مطيعاً يا قرصاني الأسود... أنتَ لستَ لابساً ولا عارياً، لستَ داخل السرير ولا خارجه، فأنا لا أحب المواقف الغامضة. أنتَ مريضي أليس كذلك؟ دعني أغيّر الكمّادة. هل أستطيع أن أنظر دون أن يُخدش حيائي؟ نعم أستطيع. أين تضع مفتاح مخبئك الثمين؟

غطّته حتى عنقه وذهبت لتبلّل الفوطة. بعد أن فتّش جيوب بنطاله كما اتفق عثر على مفتاح المقصورة فناولها إياه. كان يرى كل شيء من خلال ستار ومع ذلك فقد رأى باولا تضحك، ثم سمعها تقول:

ـ يا لمنظرك يا جاميكا جون! عينكَ مغمضة تماماً والأخرى تنظر إلي بطريقةٍ... ولكن هذه الكمادة ستنفعك، انتظر...

أقفلت الباب بالمفتاح ثم دنت منه وهي تعصر الفوطة. هكذا بلطفٍ أكثر، قطعة قطنٍ أخرى تحت الأنف التي تنزف قليلاً. انتشر الدم على الوسادة والغطاء والقميص الأبيض الذي أخذ لوبيز يخلعه بحركات سريعة. فكرت راضخة: «سيكون عليّ أن أغسل كل هذه الأشياء». تركته يطوّقها بذراعيه، مستسلمة لليدين التي جذبتاها، وضغطتاها على جسم جديد وداعبتاها. اتسعت عيناها وشعرت بالحمى القديمة تتصاعد بداخلها، الحمى القديمة نفسها التي تؤجّجها ثم تبرّدها الشفاه القديمة نفسها دوراً بعد دور، على مدى الساعات الطوال التي أخذت تشبه الساعات القديمة تماماً، تحت نظر الإلهات القديمة نفسها، والتي ستنضاف إلى الماضي القديم. بدا ذلك رائعاً جداً وعبثياً جداً.

41

ـ دعوني أمر أولاً، فأنا أعرف المكان.

أخذوا يتقدّمون منحنين، ملتصقين إلى الجدار اليساري في رتل هندي حتى وصلوا إلى باب المقصورة. فكر راؤول: «لا بدّ أنه ما يزال يشخر وسط القيء. إذا كان هنا، وإذا هاجمنا فهل أطلق عليه النار؟ وهل سأطلق عليه حقاً لأنه هاجمنا؟» فتح الباب ببطء ثم أخذ يتلمّس زر النور. أشعل المصباحَ ثم أطفأه بسرعة. هو وحده يعرف أي ارتياح مليء بالحقد شعر به عندما لم يرَ أحداً.

ترك مدران يصعد الدرج أمامه، كما لو أن مهمته انتهت هنا. انحنوا وتقدّموا في رتل ملتصقين يشقّون طريقهم في ظلام سطح السفينة المغطّى. لم يستطيعوا الرؤية إلى أبعد من متر واحد. ولم يكن ثمة فارق بين السماء وظلام سطح السفينة. انتظر مدران لحظة ثم قال:

ـ اللعنة! لا يمكن أن نرى شيئاً. يجب أن نكمن في مكانٍ ما بانتظار النهار. إذا ما واصلنا التقدّم هكذا فسنكون مثل الجرذان.

قال القطيفة:

ـ يوجد باب هنا. يا عذراء، كم الظلام دامس!

انزلقوا خارج فتحة السقف، وفي قفزتين صاروا قرب الباب. كان مغلقاً. لكن راؤول ربت على كتف مدران مشيراً إلى باب آخر أبعد من هذا بقليل. وصل إليه القطيفة أولاً، فتحه بضربة واحدة ثم انبطح أرضاً. انتظر الآخرون لحظة قبل أن يلحقوا به. انغلق الباب بلا ضجيج. أخذوا يصغون جامدين. لم يسمعوا أصوات أنفاس، بل شموا رائحة خشب مطلي بالشمع ذكّرتهم بالمقصورات التي مرّوا بها سابقاً. تقدّم مدران خطوةً خطوةً من النافذة وأزاح الستارة. أشعل عود ثقاب ثم سارع إلى إطفائه بعد أن اكتشف خلو المقصورة.

وجدوا المفتاح في الباب من الداخل، أداروه في القفل، ثم جلسوا أرضاً ليدخنوا وهم ينتظرون، فليس لديهم ما يفعلونه قبل بزوغ الفجر. شعر أتيليو بالقلق، فهو يريد أن يعلم ما إذا كان لمدران أو لراؤول خطة عمل. لا، ليس هناك أية خطة، بل الانتظار بكل بساطة حتى يطلع النهار، وبعد ذلك يتّجهون إلى سطح السفينة، ومن هناك يستولون على مقصورة الراديو بالرضا أو بالقوة.

قال القطيفة:

ـ عظيم!

ابتسم مدران وراؤول في الظلام. أخذا يدخّنان بصمت، وسرعان ما تعالى صوت تنفّس القطيفة.

أشعل مدران وراؤول سيجارتين جديدتين وهما متلاصقان كتفاً إلى كتف.

ـ الأمر الوحيد الذي يقلقني هو أن يخطر ببال أحد الدهنيين أن

يلقي نظرة علينا ويكتشف أن أحد رفاقه مسجون مع اثنين من البحارة.

قال مدران:

ـ أمر قليل الاحتمال، فلطالما امتنعوا عن المجيء عندما دعوناهم بإلحاح، ولا أرى ما يدعوهم إلى تغيير رأيهم فجأة. بل ما يخيفني أن يشعر لوبيز المسكين بأن من واجبه أن ينضم إلينا وليس معه سلاح.

ـ سيكون أمراً مزعجاً، ولكني لا أظن أنه سيأتي.

ـ آه!

ـ إن تكتّمكَ ساحر يا عزيزي مدران، فقولك: «آه!» بدلاً من أن تسألني عما جعلني أفكّر بشيء من هذا القبيل..

ـ أستطيع أن أفترضه.

ـ هذا أمر في منتهى السهولة، عملياً. ولكن على أية حال، كنتُ أفضّل سؤالاً. لا بد أن هذه هي الساعة التي تجعلني عاطفياً، أو هذه الظلمة التي تفوح منها رائحة المرّان، أو أيضاً احتمالُ أن نموت بعد قليل... ذلك ليس لأني عاطفي بصورة خاصة أو لأن المكاشفات تثير حماستي، ولكن لا يمنع أن أقول لكَ ما تمثّله باولا بالنسبة إلي.

ـ حسن، قله. ولكن لا ترفع صوتك.

قال راؤول بعد دقيقة من الصمت:

ـ أنا أبحث عن شاهد، كدأبي دوماً. من الممكن تماماً أن يحصل لي حادث، فإذا كان هناك من رسول يخبر باولا... ولكن ماذا يمكنه أن يقول لها... هل تعجبكَ باولا؟

ـ نعم، كثيراً، وأنا أعاني عندما أفكر أنها ليست سعيدة.

ـ إذن استمتعوا. رغم أن هذا الكلام يبدو غريباً من فمي، أنا واثق من أنها تستمتع الآن أكثر مرة في حياتها. وهذا بالضبط ما

على الرسول أن يبلغها إياه: أن يحمل إليها أمنياتي كلها، ثم أضاف وكأنه يحدّث نفسه: To Athena, going to the wars(•).

لم يُجب مدران، وبعد برهة لم يعد يُسمع إلا أصوات الآلات والفرقعات التي تتصاعد من الأسفل. تنهّد راؤول متعباً ثم قال:

- أنا مسرور لمعرفتك. لا أعتقد أن لدينا كثيراً من الأشياء المشتركة ما خلا حبنا لكونياك مالكولم. ومع ذلك ها نحن معاً دون أن ندري لماذا.

- أعتقد أنه من أجل خورخي.

- أوه، خورخي... ثمة أشياء كثيرة وراء خورخي.

- صحيح، الشخص الوحيد الذي هو هنا من أجل خورخي هو أتيليو.

- Right you are.

مد مدران ذراعه وسحب الستارة. بدأت السماء تشحب. تساءل إن كان لكل هذا معنى عند راؤول. سحق عقب سيجارته على الأرضية بعناية ثم أخذ يتأمّل الأثر الرمادي الذي تركته. يجب إيقاظ أتيليو والاستعداد للانطلاق. قال راؤول: «ثمة أشياء كثيرة وراء خورخي». أشياء كثيرة ولكنها غامضة جداً ومتشابكة جداً.

في الخارج أخذ النهار يطلع شيئاً فشيئاً، وأراد مدران أن تتصاعد رغبته وفرحه ويتناميا مع النهار، ولكن لاشيء مؤكد، ولا شيء موعود. رغب في أن يرى كلوديا من جديد، وأن يطيل النظر إلى عينيها، وأن يبحث فيهما عن جواب. ثمة شيءٌ يعرفه، شيء على الأقل هو أكيد منه، الجواب عند كلوديا، حتى لو أنها تجاهلته، وحتى لو أنها تظن نفسها محكومة بأن تَسأل. وهكذا فإن مخلوقاً

(•) إلى أثينا، ماضية إلى الحرب. م.

موسوماً بحياة غير مكتملة يمكنه أن يحمل الكمال، وأن يُري طريقاً. ولكن كلوديا ليست إلى جانبه؛ بل إن ظلمة المقصورة ورائحة التبغ هما مادة هلعه نفسها. كيف يمكن إعادة النظام إلى ما كان يظنه منتظماً قبل إبحاره؟ كيف يمكن إيجاد منظور لا يكون فيه وجه بيتينا الدامع ممكناً؟ كيف يمكن بطريقة أو بأخرى بلوغ النقطة المركزية حيث كل عنصر متنافر يصبح شعاعاً في العجلة؟ أن يرى نفسه مستغرقاً في المشي وأن يعرف أن لهذا معنى؛ أن يحب وأن يعرف أن لحبه معنى؛ أن يهرب وأن يعرف أن هروبه لن يكون خيانة جديدة. إنه لا يعرف إن كان يحب كلوديا. بكل بساطة يحب لو أنه بجانبها وبجانب خورخي، ينقذ خورخي لكي تسامحَ كلوديا ليون. نعم، لكي تسامح كلوديا ليون، أو تكفّ عن محبته، أو تحبّه أكثر. هذا سخيف، هذا صحيح. لكي تسامح كلوديا ليون قبل أن تسامحه هو، قبل أن تسامحه بيتينا، وقبل أن يتمكّن من العودة إلى كلوديا وخورخي ويمدّ إليهما يديه ويسعدا. وضع راؤول يده على كتفه. نهضا بسرعة بعد أن هزّا أتيليو. سمعوا أصوات مشي على سطح السفينة. أدار مدران المفتاح في الباب وفتحه قليلاً. رأى دهنياً ضخماً يمشي على سطح السفينة وقبعته في يده. القبعة تنوس على طول ساقه اليمنى. توقّفت فجأةً ثم أخذت ترتفع، مرت من أمام الرأس ثم لم تتوقّف إلا في أعلاه.

قال القطيفة المكلّف بتعقيله:

ـ ادخل إلى الداخل دون أن تتكلّم!

وبعد أن صار معهم داخل المقصورة، أخذ راؤول يستجوبه بسرعة باللغة الإنكليزية، وراح الدهني يجيب بمزيج من الإسبانية والإنكليزية. طلع النهار بما يكفي لتمييز الوجوه، فرأوا فم الدهني يرتعش، فمما لا شك فيه أنه لم يرَ في حياته ثلاثة مسدسات مصوبة معاً إلى بطنه. سرعان ما فهم المقصود فهزّ رأسه. تركوه ينزل يديه بعد أن تأكّدوا من أنه لا يحمل سلاحاً.

قال راؤول:

ـ حسنٌ، يجب الذهاب في الاتجاه الذي يذهب فيه، وأن نصعد الدرج الآخر، فمقصورة الراديو موجودة إلى اليسار مباشرة. هناك يقف رجل باستمرار، وهو غير مسلّح على ما يبدو.

سأل الدهني:

ـ أهذه لعبة، أم رهان أم ماذا؟

قال له القطيفة وهو يصوّب المسدس إلى أضلاعه:

ـ اخرس، وإلا أعدمتك حياتك.

قال مدران:

ـ سأذهب إلى هناك معه. إذا وصلنا إلى هناك بسرعة من المحتمل ألا يرونا. من الأفضل أن تبقيا هنا، فإذا تحول الأمر إلى صراع افعلا ما تريانه مناسباً.

قال راؤول:

ـ لنذهب نحن الثلاثة. ولماذا نبقى هنا؟

ـ أربعة أشخاص هذا كثير، وسرعان ما سيتنبّهون إلينا. أمّنوا المؤخرة، رغم أني لا أعتقد أن هؤلاء الأشخاص... ولم يتم جملته.

سألهم الدهني:

ـ هل جننتم؟

نهض القطيفة حائراً، فتح باب المقصورة وتأكد من عدم وجود أحد في الخارج. بدا وكأن نوراً رمادياً يبلّل سطح السفينة. وضع مدران مسدسه في جيبه وهو يتبع الدهني. أراد راؤول أن يضيف شيئاً ما لكنه صمت بعد أن رآهما يبتعدان ويصعدان الدرج. لم يكن أتيليو راضياً البتة، فنظر إلى راؤول نظرة كلب مطيع ينتظر.

قال راؤول:

ـ مدران على حق. ربما لن يتأخر أكثر من بضع دقائق.

ـ ومع ذلك، كان بوسعي أن أذهب معه.

ـ لننتظر. مرة أخرى لننتظر.

بدا كل هذا وكأنه مرئي مسبقاً في رواية رخيصة. كان الدهني جالساً قرب جهاز الإرسال ووجهه مبلل بالعرق وشفتاه ترتعشان. استند مدران إلى الباب وهو يشهر مسدسه بيد ويحمل سيجارة باليد الأخرى. كان عامل البرق مديراً ظهره، يعبث بالأزرار ثم بدأ يرسل البرقية. كان شاباً طويل القامة، نحيلاً، جسمه مليء بالنمش، وكان خائفاً جداً ويتصرّف بشكل سيء. فكر مدران: «أرجو ألا يكون يخدعني». تمنى أن تكفي نبرة صوته والتهديد الماثل دائماً بالمسدّس لهذا الرجل أن يعمل. سحب بمتعةٍ نفساً عميقاً من سيجارته، وهو يتنبّه لما يحدث ولكنه كان بعيداً في الوقت نفسه. لم يترك هنا إلا وجهه لإملاء الدهني الذي أخذ ينظر إليه مرعوباً. شيئاً فشيئاً بدأ النور يدخل عبر النافذة ويشق طريقه من خلال الإضاءات الصناعية للمقصورة. سُمِع صفير من بعيد، وأمرٌ بلغة لا يفهمها مدران. سمع هسيس جهاز الإرسال وصوتَ عامل البرق. صوت يقطعه نوعٌ من الفواق. تذكر الدرج الذي صعدوه أربعاً أربعاً، ومسدسه مصوب إلى إليتي الرجل الضخمتين، الرؤية السريعة لمنحنى سطح السفينة الخلفي الكبير، الفارغ، والدخول إلى المقصورة، وقفزة عامل البرق بعد أن فوجئ وهو يقرأ. صحيح، وهو يتذكر الآن، سطح السفينة الخلفي فارغ تماماً. أفق رمادي، وبحر رصاصي، ومنحنى الدرابزين، كل هذا لم يدم إلا بضعة ثوان. أخيراً حصل عامل البرق على بوينس آيرس. سمعه يُرسل البرقية كلمةً كلمة. ثم سأله الدهني بعينين ضارعتين إن كان يستطيع أن يُخرج منديله من جيبه، ثم أعاد الرسالة. سطح السفينة الخلفي

فارغ، هذا ما لا ريب فيه. ولكن ما أهمية ذلك؟ انطباع بالامتلاء المؤلم لأنه فهم فجأةً أن سطح السفينة الخلفي فارغ، بيد أن هذا ليس له أية أهمية، لأن المهم شيء آخر، شيءٌ ما عصيّ لا يكفّ عن الظهور والتخلّي في هذا الإحساس الغريب الذي تملّكه والذي أخذ يملأه زهواً أكثر فأكثر. كانت كل نفثة دخان قبولاً فاتراً، بدايةً تصالح تزيل بقايا وعكة عمرها يومان. لم يشعر بالسعادة لأن كل شيء كان ما بعد المشاعر العادية أو على هامشها. بدا ذلك أقرب إلى موسيقا مترنّمة، أو بكل بساطة كسيجارةٍ مُشعَلة جيداً ومدخَّنة جيداً. والباقي، ولكن ما أهمية الباقي الآن، بعد أن بدأ يسالم نفسه، وأن هذا الباقي لن ينتظم أبداً بحسب النظام الأناني القديم. فكّر: «ربما كانت السعادة موجودة، وهي شيء آخر». لم يعرف لماذا شعر بالأمان وهو هكذا مستند إلى الباب وسطح السفينة الخلفي فارغ أمام عينيه. كأنه نقطة انطلاق. الآن وهو بعيد عن كلوديا، يشعر بها قريبة منه جداً. بدا وكأنه يشعر بأنه صار يستحق أن يكون قريباً منها. كل ما مضى سابقاً لا يُعتدّ به، بل الشيء الوحيد الحقيقي هو ساعة الغياب هذه، تلك المحصلة التي عاشها في الظلام مع بريسوتي وراؤول، محصلة تركت روحه متصالحة لأول مرة في حياته، دون أسباب واضحة ودون استحقاقات أو عدم استحقاقات، بل لمجرد أنه تصالح مع نفسه، لأنه تخلّص من الرجل القديم، ولأنه قَبِل الوجه الحقيقي لبيتينا رغم معرفته بأن بيتينا بوينس آيرس ليس لها هذا الوجه، تلك الفتاة المسكينة، إلا إذا كانت تحلم، هي الأخرى، بغرفة في فندق، وترى وجه عشيقها القديم يدنو منها، إلا إذا رأته كما رآها، كما يمكن رؤية الأشياء الهشّة في لحظات لا تسجّلها أيةُ ساعات جدارية.

هكذا سارت الأمور، وهذا مؤلمٌ، ويغسلكَ... عندما رأى الظل على النافذة، ورأى الدهني يدوّر عينين مرعوبتين، رفع مسدسه على مضض محتفظاً بالأمل بأن لعبة الأيدي هذه لا تنتهي نهاية سيئة. أزّت الطلقة على الجدار قرب رأسه. أطلق عامل البرق صرخة

ثاقبة. وبقفزتين اختبأ مدران خلف لوحة، وهو يصرخ بالدهني ألا يتحرك. رأى وجهاً ولمعاناً أبيض على النافذة. أطلق وهو يسدّد إلى الأسفل، فاختفى الرأس، ثم سمع صوتين أو ثلاثة مختلفة. فكّر: «إذا بقيتُ هنا فسيصعد راؤول وأتيليو ليبحثا عني وسوف يصفّونهما». مرّ خلف الدهني، رفعه إلى رأس مسدّسه وجعله يتقدّم إلى الباب. كان عامل البرق منحنياً على جهازه، مرتعشاً، يبرطم بكلمات غير مفهومة وهو يبحث عن شيءٍ ما في الدرج. أعطى مدران أمراً ففُتح الباب. فكر: «ومع ذلك، لم يكن خالياً أبداً». رغم أن يدي عامل البرق كانتا ترتعشان كورقة، استطاع بسهولة أن يسدّد إلى أعلى الظهر ويطلق ثلاث طلقات متوالية قبل أن يلقي المسدس ويأخذ بالبكاء كطفلٍ كانه.

عند أول طلقة، صار راؤول والقطيفة خارج المقصورة. وصل القطيفة أولاً إلى الدرج. وعند مستوى الدرجات الأخيرة مدّ ذراعه وبدأ إطلاق النار. انبطح البحارة الثلاثة اللاطون عند جدار مقصورة الراديو أرضاً وقد أصيب أحدهم برصاصة في أذنه. رفع الدهني الضخم الموجود عن باب المقصورة يده وصرخ بكلمات رهيبة بلغةٍ غير مفهومة. هدّدهم راؤول جميعاً بمسدسه وأرغم البحارة على الوقوف بعد أن جرّدهم من أسلحتهم. الأمر المستغرب جداً هو أن القطيفة استطاع أن يُخيفهم بهذه السهولة. حتى إنهم لم يحاولوا أن يقاوموا. صرخ راؤول بالقطيفة بأن يصفّهم إلى الجدار ثم اندفع إلى داخل مقصورة الراديو قافزاً فوق جثة مدران الذي كان منبطحاً. حاول عامل الراديو أن يتناول مسدسه، لكن راؤول أبعده بركلةٍ وأخذ يصفعه مكرّراً السؤال مع كل صفعة. بعد أن سمع الرد الإيجابي صفعه مرةً أخيرة، حمل مسدسه ثم عاد إلى سطح السفينة. فهم القطيفة دون أن يحتاج إلى الكلام. رفع مدران ثم سحبه إلى الدرج. حمى راؤول تراجعهما. لم يلتقيا بأحد على سطح السفينة السفلي، لكنهما سمعا أصواتاً من بعيد. نزلا درجين ووصلا إلى

مقصورة الخرائط. دفع راؤول الطاولة إلى الباب. لم يعودا يسمعان شيئاً. ربما لن يجرؤ الدهنيون على مهاجمتهم إلا بعد أن يجمعوا التعزيزات الكافية.

مدّد أتيليو مدران على الغطاء، ثم نظر بعينين جاحظتين إلى راؤول الذي جثا وسط بقع الدم. قام بما يمكن القيام به في مثل هذه الحالات ولكنه كان يعلم منذ البداية أن لا جدوى مما يفعله.

قال أتيليو مرتبكاً:

ـ ربما كان بوسعنا أن ننقذه. يا عذراء، ما هذا النزيف القوي! يجب أن ننادي الطبيب.

قال راؤول وهو ينظر إلى وجه مدران الخالي من التعابير:

ـ في هذه الساعة المبكرة!

تفحّص الثقوب الثلاثة التي أحدثتها الطلقات في ظهره. إحداها خرجت قريبةً من العنق فأحدثت هذا النزيف. كما رأى بعض الزبد على شفتيه.

ـ احمله من جديد، فسوف نُصعده إلى مقصورته.

سأل القطيفة:

ـ هل مات حقاً؟

ـ نعم يا صديقي، لقد مات. انتظر سأساعدك.

ـ لا، لا بأس، إنه ليس ثقيلاً. ربما استيقظ في مقصورته. ربما ليس الأمر خطيراً جداً.

ـ هيا بنا.

مشى أتيليو ببطءٍ في الممر وهو يحرص على ألا يرتطم جسم مدران بالجدران. ساعده راؤول على صعود الدرج. لم يكن من أحد

في الممر اليميني، وكان مدران قد ترك مقصورته مفتوحة. مدّداه على السرير، ثم ارتمى القطيفة لاهثاً على أحد المقاعد. شيئاً فشيئاً انتقل من اللهاث إلى البكاء. بكى بحرقةٍ ورأسه بين يديه، وبين الفينة والأخرى كان يخرج منديله من جيبه ويمسح وجهه. تملّك راؤول الأملُ الذي كان عند أتيليو وغاض الآن، فأخذ ينظر إلى وجه مدران الخالي من أي تعبير وينتظر. توقّف النزيف. ذهب إلى الحمام ثم عاد حاملاً فوطةً مبلّلة ومسح بها شفتي مدران، ثم رفع ياقة الكنزة من جديد ليخفي الجرح. تذكّر أنه يجب في مثل هذه الحالات مصالبة اليدين فوق الصدر دون إبطاء. ولكن دون أن يعرف لماذا، مدّد الذراعين إلى جانبي الجسم.

قال القطيفة وهو يتمخّط:

ـ أولاد قحبة كلهم. هل أدركتَ يا سيدي؟ ماذا فعل لهم؟ قل لي أرجوك. لقد ذهبنا من أجل الطفل، وكنا نريد أن نرسل برقية فقط. وها نحن الآن.

ـ لا بدّ أن تكون البرقية قد وصلت. على الأقل لا يستطيعون أن يمنعوا عنا هذا. لديك مفتاح البار على ما أعتقد. اذهب وأطلق سراح الآخرين وأخبرهم بما حدث. انتبه إلى من في السفينة، وأنا سأقيم الحراسة في الممر.

خفض القطيفة رأسه وتمخّط مرةً جديدة ثم خرج. يبدو أمراً غير معقول ألا يلطّخه دم مدران. أشعل راؤول سيجارة وجلس قرب السرير. نظر إلى الجدار الذي يفصل هذه المقصورة عن المقصورة المجاورة. نهض وذهب ليقرع الباب بلطفٍ أولاً ثم بقوة. عاد إلى الجلوس. ثم تذكر فجأة أنهم ذهبوا إلى سطح السفينة الخلفي، سطح السفينة العتيد. وفي الواقع، ماذا يوجد على هذا سطح السفينة الخلفي؟

تساءل وهو يهز كتفيه: «وما علاقتي أنا بكل هذا؟»

سمع صوتَ باب لوبيز يُفتح.

42

كما يجب توقّع ذلك، وجد القطيفة النسوة في الممر اليميني في حالٍ من الهستيريا المتقدّمة. لقد حاولن وسعهنّ طوال نصف ساعة، وأكثر من وسعهن لفتح باب البار وإطلاق سراح المساجين الصارخين الذين سعوا إلى كسر الباب بضرباتٍ من أرجلهم ومن قبضاتهم. جلس فيليبي والسائق على الدرج الصاعد إلى سطح السفينة وأخذا يرقبان المشهد بعينٍ حزينة. عندما رأت دونيا بيبا ودونيا روزيتا أتيليو أسرعتا نحوه منكوشتي الشعر. دفعهما دون أن ينبس ببنت شفة ثم واصل طريقه. سدّت السيدة تريخو، مَعْلَم الكرامة المهانة، طريقَه وهي مكتوفة اليدين وحدجته بنظرةٍ كانت حتى الآن مخصّصةً لزوجها، ثم قالت:

ـ وحوش، قتلة! ماذا فعلتم أيها الرعاع؟ ارمِ هذا المسدس مباشرةً.

قال القطيفة:

ـ دعيني أمر أيتها السيدة الصغيرة. أتصرخين أنه يجب إطلاق سراح العصابة، وتسدين طريقي!

سرعان ما انتزعت نيللي نفسها من بين يدي أمها وانقضّت على القطيفة وهي تصرخ:

ـ سيقتلونك، سيقتلونك، لماذا فعلتم هذا؟ الآن سيأتي الضباط وسيسجنوننا جميعاً.

ـ لا تتحامقي. كل هذا لا شيء إذا ما علمتِ بما حدث... ولكن من الأفضل ألا أقول شيئاً.

ـ هناك دم على قميصك. أمي! أمي!

ـ هل ستدعيني أمر؟ هذا الدم من السيد لوبيز عندما لكموه. لاتصنعي لي مسرحية، أرجوكِ.

أبعدهما عن طريقه بذراعه الخالي ثم صعد الدرج. عندما رأته النسوة من الأسفل يصوب مسدسه قبل أن يفتح الباب عُدنَ إلى الزعيق. لكن صمتاً عميقاً تبع ذلك فجأةً وفُتح الباب على اتساعه. قال أتيليو:

ـ دقيقة. اخرج أنتَ أولاً، ولا تتذاكَ وإلا ثقبتُ لك كرشك.

نظر إليه الدهني وكأنه وجد عناء في فهم ما قاله ثم نزل الدرج بسرعة. قوبلت ظهورات السيد تريخو ود. ريستيللي ودون غالو على التوالي بصراخ وبكاء وتعليقات شديدة اللهجة. خرج لوسيو أخيراً ثم نظر إلى أتيليو نظرة تحدّ فقال القطيفة:

ـ لا تحاول أن تلعب دور القاسي. ليس لدي الآن وقت للاهتمام بك. ولكن إذا أحببت فيما بعد سأضع المسدس وأهشم وجهك.

قال لوسيو وهو ينزل الدرج:

ـ وتتكلّم!

نظرت إليه نورا دون أن تجرؤ على قول كلمةٍ واحدة. أمسك بها من ذراعيها ودفعها باتجاه مقصورتهما. ألقى القطيفة نظرةً على البار الذي خلا إلا من مسؤول المطعم الذي وقف جامداً خلف الكونتوار. نزل بدوره بعد أن وضع مسدسه في جيب بنطاله الأيمن.

قال وهو يقف على الدرجة الثانية:

ـ اسكتوا قليلاً. ألا ترون أن هناك طفلاً مريضاً؟ تتكلّمون كثيراً عن شفائه ولكن لا تفعلون شيئاً لذلك.

صرخت السيدة تريخو وهي تبتعد مع ابنها والسيد تريخو:

ـ وحش! لن يمضي الأمر هكذا. سيسجنونكم وسيضعون الأغلال في أيديكم، أيها المجرمون! أيها الثوريون.

صرخت نيللي خائفةً:

ـ أتيليو! أتيليو! ماذا حدث؟ لماذا سجنتَ هؤلاء الرجال؟

فتح القطيفة فمه ليجيب بما يخطر بباله فكانت شتيمة مقذعة. صمت ثم ضغط على مقبض مسدسه في جيبه. ربما كان ذلك لأنه هنا، واقف في أعلى الدرج. ولكن بما أنه يشعر بأنه بعيد، بعيد عن هذه الصرخات كلها، وعن هذه الأسئلة كلها، وعن هذه الكراهية كلها وعن هذه الحماقة التي انفجرت لوماً ولعنات، فقد فكر: «سيكون من الأفضل لي أن أذهب وأرى كيف حال الطفل. على الأقل يجب أن أقول لأمه أننا تمكنّا من إرسال البرقية».

مشى متصلباً وصامتاً بين عناقيد الأيادي الممدودة والأفواه المفتوحة. من بعيد بدا وكأن هذه النسوة تهلّل له وتهتف بانتصاراته.

تمكن بيرسيو من النوم على سرير كلوديا. قبيل الصباح فرشت كلوديا غطاءً على ساقي صديقها القديم ونظرت بامتنان إلى وجهه النحيل وإلى ثيابه الجديدة التي تجعّدت واتّسخت قليلاً. دنت من سرير خورخي وسمعت تنفّسه. إنه ينام بهدوء بعد الجرعة الثالثة من الدواء. يكفيها أن تلمس جبينه لكي تهدأ نفساً. أحسّت بتعب مفاجئ يغزوها كأنها أمضت بضع ليال دون أن تنام. لكنها لا تريد أن تتمدّد إلى جانب ابنها، فهي تحلم أن أحداً سيأتي ليحدّثها إما عن الاكتشافات المظفّرة أو حتى عن المتاهات السخيفة ككل مرة.

مرّر لوبيز وجهه المنتفخ من الباب الموارب. لم تفاجأ كلوديا بمنظر وجهه ولا بالصيحات التي ملأت الممر اليميني. أومأت إليه أن يدخل، ثم أضافت:

ـ خورخي يتحسّن، وهو ينام نوماً عميقاً منذ ساعتين، وأنت؟

قال وهو يلمس فكّه:

ـ أوه، لا شيء. أحسّ بالألم عندما أتكلّم، لذا سوف أتكلّم قليلاً. أنا مسرور لأن خورخي يتحسّن. على أية حال لقد تدبّر الأصدقاء أمرهم وأرسلوا برقية إلى بوينس آيرس.

ـ ولكن هذا سخيف.

ـ نعم، يبدو ذلك سخيفاً الآن.

خفضت كلوديا رأسها، ثم قال لوبيز:

ـ ما جرى جرى. ولكن القلق يأتي من إطلاق النار، يبدو أن رجال المؤخرة لم يسمحوا لهم بالمرور. ورغم أننا ما نكاد يعرف بعضنا بعضاً، ورغم أن صداقتنا، إذا كان بوسعنا أن نسمي ذلك صداقة، عمرها يومان بالضبط، ورغم كل شيء...

ـ هل جرى مكروه لغابرييل؟

بدا ذلك تأكيداً أكثر منه سؤالاً، ولم يردّ لوبيز إلا بنظرة. نهضت كلوديا وفمها مفتوح قليلاً. بدت قبيحة، ومضحكةً تقريباً. زلّت قدمها فتشبّثت بمسند أحد المقاعد.

قال لوبيز:

ـ لقد نقلوه إلى مقصورته. سأحرس خورخي، وإذا أردتِ تستطيعين أن تريه خلال هذا الوقت.

سمح راؤول الذي كان يحرس الممر لكلوديا بالدخول ثم أغلق الباب خلفها. بدأ هذا المسدس في جيبه يزعجه. فمن السخف التفكير بأن الدهنيين سوف يقومون بأعمال انتقامية. ولا بد للأمور من أن تقف هنا. وفي النهاية هم ليسوا في حرب. رغب في أن يقوم بجولة في الممر اليميني، من حيث تتصاعد شتائم دون غالو وتعنيفات د. ريستيللي على صراخ النساء. فكر راؤول: «المساكين! أية رحلة سيمضون بسببنا؟» رأى أتيليو يفتح باب كلوديا بخجل فتبعه. شعر بطعم الفجر في فمه. عانى من طرد صورة باولا التي

ماانفكّت تأتيه بعناد. أغمض عينيه مستسلماً وتركها تظهر كما رآها آخر مرة عندما وصلت إلى مقصورة مدران، خلف لوبيز، وهي ترتدي قميص نومها الأحمر وشعرها منكوش على كتفيها، كما يحب أن يراها صباحاً.

قال راؤول:

ـ أخيراً، أخيراً.

فتح الباب ودخل. كان لوبيز وأتيليو يتكلمان بصوتٍ خافت. تنفّس بيرسيو بنوعٍ من الصفير يناسبه تماماً. أتى أتيليو لملاقاته وإصبعه على فمه. همس:

ـ الصغير بخير. وأمه قالت إنه لم يعد يعاني من الحمى. ولقد نام كخشبة طوال الليل.

قال راؤول:

ـ مدهش.

قال القطيفة:

ـ أنا سأذهب لأقول بضع كلمات لخطيبتي وللعجائز. يا عذراء، إنهن في حال يرثى لها.

نظر إليه راؤول وهو يخرج، ثم جلس على أحد المقاعد بجانب لوبيز وأعطاه سيجارة. دفعا المقاعد بعيداً عن سرير خورخي ثم دخنا لبعض الوقت صامتين. قال راؤول لنفسه إن لوبيز سيكون ممتنّاً له لقدومه، وأنهما سيكون لديهما الفرصة ليسوّيا بعض الأمور.

قال لوبيز فجأةً:

ـ ثمة أمران، أولاً، أنا أشعر أني مسؤول عما حدث. أعرف جيداً أن ذلك غباء، وأنه لن يغير من الأمر شيئاً لو أني كنتُ هناك، ولكن من السوء بمكان أن أبقى هنا بينما أنتم...

خانه صوته. بلع ريقه ثم أضاف:

ـ الحقيقة أني نمتُ مع باولا.

قال ذلك وهو ينظر إلى راؤول الذي كان يدير سيجارته بين أصابعه، ثم أضاف:

ـ وهذا هو ثانياً.

قال راؤول:

ـ الأولاً ليس له أية أهمية. لأنكَ لم تكن قادراً أبداً على مرافقتنا في مهمتنا، ثم إن الرحلة لم تكن تبدو خطرةً أبداً في البداية. أما بالنسبة إلى ثانياً فأعتقد أن باولا قد قالت لكَ أنكَ لستَ في حاجةٍ إلى أية تفسيرات.

قال لوبيز منزعجاً:

ـ لا، ليس تفسيرات، ولكن على أية حال...

ـ على أية حال شكراً، هذا لطف منك.

قال خورخي:

ـ أمي! أين أمي؟

انتفض بيرسيو وانتقل من نومه إلى طرف سرير خورخي. انتظر لوبيز وراؤول دون أن يتحركا.

قال خورخي وهو ينهض:

ـ أتعرف فيما حلمتً يا بيرسيو؟ لقد تساقط الثلج على النجم. أؤكد لكَ يا بيرسيو، ندف مثل... مثل...

سأله بيرسيو وكأنه خائف من أن يقطع عليه فرحه:

ـ هل تشعر بتحسّن؟

ـ أشعر أني جيد جداً. أنا جائع، اذهب وقل لأمي أن تجلب لي الغداء. من هنا؟ آه، كيف حالكما؟ لماذا أنتما هنا؟

قال لوبيز:

ـ لا لشيء. فقط أتينا لنرافقك.

ـ ماذا حصل لأنفك، قل لي، هل سقطت؟

أجاب لوبيز وهو ينهض:

ـ لا شيء، تنخّعتُ بقوة، وهذا يحصل لي بين وقت وآخر، إلى اللقاء. سآتي لرؤيتك فيما بعد.

تبعه راؤول. حان الوقت للتخلص من هذا المسدس اللعين، فقد صار يزداد ثقلاً. لكنه فضّل أن يقوم أولاً بجولة صغيرة إلى سطح السفينة في الشمس. كان سطح السفينة خالياً. جلس على الدرجة الأولى من الدرج وأخذ ينظر إلى البحر والسماء وهو يغمز بعينيه. كان قد أمضى ساعات طويلة ساهراً يشرب ويدخن بحيث أن بريق البحر والريح أخذا يؤلمانه. صمد حتى اعتاد على ذلك. حان الوقت ليعود إلى الواقع إذا كان ذلك يمكن أن يُسمّى العودة إلى الواقع. أمر: «لاسيما أن ليس هناك تحليل، يا عزيزي. حمّام، حمّام طويل في مقصورتك التي ستكون الآن لكَ بمفردك وحتى نهاية الرحلة، أي ليس لزمن طويل، إلا إذا كنتُ مخطئاً تماماً». كان يأمل ألا يكون مخطئاً لأن مدران ثُقب جسده من أجل لاشيء. هو شخصياً، لا يهمه كثيراً أن يواصل الرحلة أو أن يرى الموقف يتأزّم أكثر. بدا لسانه لزجاً إلى درجة أنه لا يستطيع التفكير بحرية. ربما صار قادراً على ذلك بعد الحمّام، بعد كأس من الويسكي، بعد نوم نهار كامل، وربما صار قادراً، بعد أن يستيقظ، على معرفة ما يجب عليه أن يقبله أو أن يرفضه. الآن، كل شيء سيان عنده: التقيؤ على أرض مقصورة، تعافي خورخي، ثلاثة ثقوب في كنزة. تنهّد بعمق. بدا البحر بزرقةٍ أسطورية، بلون كان يراه أحياناً في الحلم عندما كان يطير في آلات غريبة شفافة. احتوى رأسه بين يديه وتساءل إن كان على قيد

الحياة. إنه على قيد الحياة بالفعل لأنه أدرك أن آلات مالكولم قد توقّفت.

كانت باولا ولوبيز قد سحبا ستارة النافذة قبل خروجهما فغرقت المقصورةُ في ضوء أصفر ينتزع كل تعبير عن وجه مدران. تجمّدت عند طرف السرير وما تزال ذراعها ممدودةً نحو الباب كما لو أنها لم تنهِ أبداً إغلاقه، نظرت كلوديا إلى غابربيل، ما تزال تُسمع في الممر وقع خطوات وأصوات مخنوقة. ولكن لا شيء يعكرُ الصمتَ المطلق الذي دخلت فيه كلوديا. هذه المادة القطنية التي شكّلها هواءُ المقصورة، وساقاها والجثة الممدَّدة على السرير والأشياء المتناثرة والفوط المكوّمة في الزاوية.

دنت ببطء وجلست على المقعد الذي كان راؤول قد أدناه من السرير ونظرت. ستتكلم بسهولة، وستجيب عن أي سؤال. لم تحسّ بحلقها منقبضاً، ولم تذرف الدموع على غابربيل. بل صار كل شيء في داخلها كثيفاً وبارداً كحوض مائي أو ككرة كريستال. لقد قُتل غابربيل. غابربيل، هذا الرجل المجهول، هذا الرجل الذي تحدّثت معه خلال رحلة بحرية قصيرة، هنا، ميت. لم يعد من شيء بعيد، ولا قريب. ما من شيء عاد قابلاً للقياس ولا للعد. تدخّل الموت قبل الحياة في هذا المشهد الذي ما كاد أن يبدأ، وخرّب كل شيء، وانتزع من هذه الساعات في أعالي البحر كل معنى يمكنها أن تحمله. أمضى هذا الرجل بداية الليل عند رأس خورخي المريض، ثم جرى شيءٌ ما (هذه المقصورة تشبه كثيراً المقصورة الأولى، ولا يملك المخرج كثيراً من الديكور تحت تصرفه)، والآن، إن كلوديا هي التي تجلس عند رأس غابربيل الميت. لم يمنعها صفاء ذهنها كله ولا حسّها السليم كله من أن تخشى موت خورخي، في هذه الساعة التي يبدو فيها الموت محتوماً تقريباً، وفكرة أن مدران كان هنا مستغرقاً في شرب القهوة في البار أو يذرع الممر جيئة وذهاباً أو يبحث في مؤخرة السفينة عن طبيب عصي على الإيجاد، هي التي

أعادت إليها سكينتها. ثم جرى شيءٌ ما، وصار خورخي من جديد حضوراً حياً، عاد من جديد ابنها ككل يوم، وكما لو أن شيئاً لم يحدث، لا شيء سوى أمراض الأطفال تلك، وأفكار منتصف الليل السوداء والتعب؛ كما لو أن شيئاً لم يحدث، كما لو أن غابرييل ذهب ليتمدّد قليلاً بعد أن تعب من السهر ليعود بعد ذلك للقائها.

رأت ياقة الكنزة مرفوعة على رقبته. بدأت تميّز اللطخ المائلة إلى السواد على الصوف، وخثرة الدم بالكاد ظهرت عند التقاء شفتيه. وكل هذا من أجل خورخي، أي من أجلها. هذا الموت من أجلها ومن أجل خورخي، وهذا الدم وهذه الكنزة التي رفع أحدهم ياقتها، وهاتان الذراعان الملتصقتان بالجسم، وهاتان الساقان المغطّاتان بغطاء سفر، وهذا الشعر المبعثر، وهذا الفك المرتفع قليلاً، وهذا الجبين المتراجع إلى الخلف والذي يبدو وكأنه يسيل على الوسادة. لم تعد تستطيع أن تبكي عليه. لا معنى للبكاء على شخص ما تكاد تعرفه، على شخص لطيف، ولبق، ربما عاشق لها بعض الشيء، لم تسمح له رجولته بتحمّل ظلم هذه الرحلة، ولكنه لا يعني شيئاً بالنسبة إليها، بضع ساعات من الثرثرة، وتقارب بالقوة، مجرّد إمكانية تقارب، يدٌ ثابتة وحنونة على يدها، وقبلة على جبين خورخي، وثقة كبيرة، وفنجان قهوة ساخن.

الحياة عملية بطيئة جداً، وأكثر سرية من أن تُسبَر أغوارها. يجب أن تحدث لهم أشياء كثيرة أو لا شيء أبداً. يجب أن توجد لقاءات وهروبات وتراجعات وسوء تفاهمات ومصالحات، على الأصعدة كافة حيث هي وغابرييل يتشابهان وكل منهما بحاجة إلى الآخر. نظرت إليه بعين ملؤها العتاب والسخط وفكرت أنه هو الآخر كان محتاجاً إليها، وأن الهروب هكذا خيانة، وجبن، وأن يستسلم هو نفسه إلى ساعة اللقاء. غضبت، انحنت فوقه بلا خوف ولا شفقة، وجرّدته من حقه في الموت قبل أن يعيش في داخلها، حتى قبل أن يبدأ العيش حقاً بداخلها. ترك لها شبحاً رقيقاً، صورة صيف، بالكاد ترك لها مظهره وبضع لحظات حاولت خلالها الحقيقةُ أن

تولد. ترك لها امرأة كانت امرأتَه، وعبارات كان يحبّ أن يردّدها، وقصصاً عن طفولته، ويداً بارزة العظام وقوية داخل يدها، وطريقةً في التبسّم بوجه مغلق، وكثيراً من التحفّظ والتكتّم. هرب وكأنه كان خائفاً، اختار أصعب الهروبات، هروبَ الجمود الذي لا براء منه، هروب الصمت الماكر. رفض أن ينتظرها وقتاً أطول، رفض أن يستحقّها، وأن يُبعد الساعات التي تفصل لقاءهما ساعةً بعد ساعة. لِمَ تقبّل هذه الجبين البارد؟ ولماذا تسرّح بيدٍ مرتعشة هذا الشعر اللزج والمبعثر؟ ولماذا تلمس بحياتها الحارّة هذا الوجهَ المتّجه بكامله إلى الداخل، هذا الوجه الذي غدا أبعد من صورة الماضي؟ إنها لا تستطيع أن تغفر له. ما دامت تتذكّره، فستلومه على أنه حرمها من زمن جديد، زمنٍ ستكون فيه الديمومة واليقين بأنها تعيش حقاً في قلب الحياة، قد ولدا في داخلها وافتدياها وأنقذاها وأحرقاها وطالباها بما لا يطالبها به زمن الأيام العادية. شعرت بأن الزمن من دونه سيسلك سبيلاً لا نهاية له. شعرت أن هذا دوران أصم في صدغيها، شبيهاً بالزمن السابق، بالزمن الذي كان من دون ليون، زمن شارع ألبيردي، الزمن الذي كان فيه خورخي ذريعة، كان الكذبة الأمومية بامتياز، حجة الغياب لتبرير التخوّض في الوحل، والروايات السهلة، والقيلولة بعد الظهر، والسينما مساءً، وأصياف ميرامار. كل هذا كان سيختفي لو أنه لم يعطها البراهين على السرقة والهجران، ولو أنه لم يعرّض نفسه للقتل بغباء لكي يتحاشى أن يعيش معها حياة حقيقية وأن يجعلها تعيش حياتها الخاصة. لا هو ولا هي ما كانا أبداً ليعرفا أن أحدهما بحاجة إلى الآخر، تماماً كعددين لا يعرفان الرقم الذي يكوّنانه. كانا سيسحبان من عدم تأكدهما المضاعف قوة قادرةً على تغيير كل شيء، وعلى ملء حياتهما بالمحيطات، وبالرحلات، وبالمغامرات غير المسبوقة، وبالاستجمامات الحلوة كالعسل، وبالحماقات وبالكوارث حتى يبلغا نهايةً أفضل استحقاقاً، وموتاً أقل وضاعة. هذا الهجر الذي أقدم عليه قبل اللقاء أكثر وضاعةً وخَرَقاً من هجره لعشيقاته

السابقات. مم تستطيع بيتينا أن تشكو مقابل شكواها هي؟ وأي لوم سيكون كبيراً لهذا الإحباط المتكرر إلى ما لانهاية؟ والذي لا يولد من فعل إرادة، ولم يكن عمله الخاص؟ لقد قُتل ككلب، لقد اختاروا له، وسلبوه حياته دون أن يتمكن من القبول أو الرفض. وهذا هو الأسوأ، هذا هو الخطأ الأجسم ـ لأنه يقبع هنا أمامهما، ميتاً ـ في أن يموت رغماً عنه، غريباً عن نفسه، مستسلماً إلى إرادات أخرى، دريئة مضحكة لأول مطلق نار. إن خيانته كجهنم، هي غياب حاضر أبداً، ونقص يملأ القلب بالإحساس فراغ لا نهاية له ستسقط فيه بثقل حياتها كله. الآن نعم، تستطيع أن تبكي، ولكن ليس عليه. ستبكي تضحيته العبثية وطيبته الساكنة والعمياء التي قادته إلى الكارثة، ما حاول أن يفعل من أجل إنقاذ خورخي، ولكن خلف هذه الدموع، وبعد أن تنتهي ككل دموع، سترى انتصابَ الرفض والهروب وصورة صديقٍ عمره يومان لم يكن لديه ما يكفي من القوة ليكون ميتها مدى الحياة. فكرت بيأس: «عفواً لأني قلتُ لك هذا الكلام، ولكنكَ كنتَ قد بدأتَ تكون لي، وصرتُ أتعرّف إلى خطوتكَ خلف الباب، والآن، أنا من سيهرب، وأنا من سيفقد القليل الذي كنتُ أعرفه عن وجهك، وصوتك وثقتك. لقد خنتَني دفعةً واحدة وإلى الأبد: أنا المسكينة التي سأسعى كل يوم إلى تحسين خيانتها، والتي سأفقدكَ كل يوم شيئاً فشيئاً حتى تغدو أقل من صورة فوتوغرافية، وحتى لا يعود خورخي يتكلّم عنك، وحتى يستولي ليون من جديد على عقلي كدوامة من الأوراق الصفراء، وأبدأ أرقص مع شبحه، ويغدو ذلك سيان عندي».

43

عند الساعة السابعة والنصف لبّى بعض الركاب نداء الجرس وصعدوا إلى البار. لم يفاجئهم توقف مالكولم كإجراء. بعد جنون الليلة الماضية، يجب أن يتوقّعوا أسوأ النتائج. هذا ما صرخ به دون

غالو بصوته الناشز وهو يدهن بعصبية سندويشاته بالزبدة، فأخذت النسوة الحاضرات يوافقنه على كلامه بتنهيدات عميقة ونظرات لوم. وبين الفينة والأخرى، صارت طاولة الملعونين هدفاً لتلميح أو نظرة احتقار تمسح وجهَ لوبيز الأزرق وشعر باولا المنكوش وابتسامةَ راؤول المعلَنة. عندما علمن بنبأ مقتل مدران أغمي على دونيا بيبا، وأصابت نوبةٌ عصبية السيدةَ تريخو، وأخذتا تسيطران على أزمتهما الآن بشرب فناجين كبيرة من القهوة بالحليب. لم يفتح لوسيو فمه غضباً وهو يفكر بالساعات التي أمضاها سجيناً في البار. كانت نورا تجلس بجانبه، ولكنها كانت من صف السلام مع دونيا روزيتا ونيللي، بيد أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى طاولة راؤول كما لو أن الأمور لم تكن واضحةً جداً بالنسبة إليها. صورة كاملة للكرامة المهانة، راح مسؤول المطعم يتنقّل من طاولة إلى أخرى ويتسلم الطلبات وينحني دون أن ينبس بكلمة واحدة، وينظر بين وقتٍ وآخر متنهّداً إلى أسلاك الهاتف المقطوعة.

لا أحد تقريباً سأل عن أخبار خورخي، فقد تغلّبت القسوة على الإحسان. تحت إمرة السيدة تريخو، عملت دونيا بيبا ونيللي ودونيا روزيتا على شغل مقصورة الميت لساعات طويلة للقيام بعمليات تناسب النساء. خمّن أتيليو، الذي كان قد تخاصم بشدة مع أسرته، النية الحسنة للسيدات فانزرع بقوة أمام باب مقصورة مدران. وعندما دعته السيدة تريخو أن يسمح لهن بالدخول لكي يؤدّين واجباتهن كمسيحيات نحو الميت، أجابهن إجابةً قاطعة: «اذهبن من هنا!» وعندما شرعت السيدة تريخو في صفعه ردّ عليها بحركة لبقة جداً جعلها تتراجع خجلةً من عملها وقد احمرّ وجهها، ثم طلبت زوجها بصرخات عالية. لكن السيد تريخو لم يلبِّ فما كان من النسوة إلا أن تراجعن، نيللي باكيةً ودونيا بيبا ودونيا روزيتا هلعتين من تصرّف صهرهما المقبل، ووقعت السيد تريخو عرضةً لنوبة عصبية حادة.

كان الغداءُ هدنةً شُهرت فيها السكاكين، وسعى كل شخص إلى مراقبة الآخرين من طرف عينه وقد تولّد لديه انطباعٌ قوي بأن الرحلة قد انقطعت وأن الله وحده عالم بما سيحدث.

بمجرد أن رأى راؤول القطيفةَ قادماً دعاه إلى طاولة الملعونين فانفرجت أساريره وسارع إلى طاولة أصدقائه الجدد في حين أن نيللي خفضت وجهها حتى كاد أن يلامس الطاولة وأن أمها ازدادت احمراراً. غمزه لوبيز بعينه السليمة وهو يمضغ قطعة من البسكويت ببطء.

قالت باولا:

ـ أعتقد أن أسرتك لا تقبل حضوركَ على طاولة المجانين هذه.

ـ أنا سآكل حيثما يطيب لي. إنهم يضجرونني كثيراً، عصابة من ال...

قالت له باولا وهي تناولة الخبز بالزبدة:

ـ كم أفهمك! ولكن هذا السيد تريخو ود. ريستيللي يدخلان بعظمة.

انطلق صوت دون غالو كسدادة زجاجة شمبانيا فقد سرّه كثيراً أن يكون صديقاه قد ناما بضع ساعات بعد تلك الليلة المنحوسة التي أمضوها. أما هو فلم يغمض له جفن رغم تناوله جرعتين من بروموارال كنول. ولكن سيكون لديهم الوقت الكافي للنوم بعد أن تُتخذ الإجراءات المناسبة بحق مشاغبي الليلة الماضية.

همست باولا:

ـ الأمور ستحتدم بعد بضع دقائق. ابقيا هادئين يا كارلوس ويا راؤول.

قال القطيفة وهو غائص في فنجان قهوته بالحليب:

ـ ma que, ma que! سيجعجعون بلا طائل.

استمتع لوبيز بالنظر ملياً إلى د. ريستيللي الذي بدا ممتنعاً عن النظر إليه. «أوزفالدو!» عظيم انبثق من طاولة النسوة، فغير السيد تريخو اتجاهه بعد أن كان يهمّ بالجلوس، واتجه نحو طاولة الملاعين. وقف في مواجهة أتيليو الذي كان يصارع لقمة كبيرة بعض الشيء، وسأل:

ـ هل لي أن أعرف، أيها الشاب، بأي حق تمنع زوجتي من الدخول إلى...

بذل القطيفة جهداً عظيماً في بلع اللقمة الكبيرة حتى كادت تفاحة آدمه أن تنفجر، ثم قال أخيراً:

ـ لا تضحكني. لم يفعلن ذلك إلا من أجل إغاظتنا.

ـ ماذا تقول، أَعِدْ!

رغم إشارات راؤول، دفع القطيفة كرسيه ونهض. ثم قال وهو يكوّر قبضته ويضعها تحت أنف السيد تريخو:

ـ ربما كان من الأفضل لكَ ألا تلحّ. ولكن هل تريدني أن أغضب حالاً؟ ألم يكفِكَ ما جرى لكَ في الليلة الماضية؟ ألم تبقوا مسجونين طويلاً، أنتَ وبقية البلهاء؟

نادته باولا ناصحة بينما أخذ راؤول يتلوّى من الضحك:

ـ أتيليو!

صرخ أتيليو بأعلى صوته:

ـ بما أنهم أتوا إليّ فعليهم أن يسمعوني. عصابة الأوغاد، هذا يتكلّم وذاك يتكلّم بينما كان الصبي معرّضاً للموت تماماً! وماذا فعلتم، آه؟ لم تحرّكوا ساكناً. هل أنتم من ذهب لمناداة الطبيب؟ لا، بل نحن، إن شئتم أن تعرفوا. نحن، هذا السيد، وذاك، نحن من أوسعونا ضرباً، ثم السيد الذي... ثم تريدون أن نترككم تدخلون إلى مقصورته؟

اختنق صوته، ولم يعد قادراً على متابعة الكلام من التأثر.

أمسك به لوبيز من ذراعه وحاول أن يُجلسه، لكنه تمنّع. عند ذلك نهض لوبيز وواجه السيد تريخو وقال:

- vox populi vox dei(*). اذهب وتناول غداءك يا سيدي. أما أنتَ يا سيد بورينيو فوفّر تعليقاتك، وأنتنّ أيضاً أيتها السيدات والآنسات.

صاح دون غالو بصوت علا فوق همهمات جوقة النسوة واستهجاناتهن:

- غير مقبول، إنكم تسيئون استخدام قوتكم.

قالت السيدة تريخو وهي تتراجع في مقعدها:

- كان من الواجب أن يقتلوهم جميعاً.

أسكتت أمنيةٌ بهذه الصراحة الآخرين الذين ظنوا أن ذلك مبالغة. واستؤنف الغداء وسط الهمسات والنظرات الغاضبة.

مرّ بيرسيو الذي وصل متأخراً بين الطاولات كشبحٍ، قرّب كرسياً من طاولة لوبيز، ثم قال:

- كل شيء لا يعدو كونه مفارقة. أصبحت الحملان ذئاباً، وأصبح فريق السلام فريق حرب.

قال راؤول:

- لقد تأخروا قليلاً، من الأفضل لهم أن يبقوا في مقصوراتهم وينتظروا لستُ أدري ماذا.

قال لوبيز متثائباً:

- منظومة سيئة. لقد حاولتُ أن أنام ولم أستطع، الخروج إلى الشمس أفضل، هل نذهب؟

قالت باولا:

- نذهب.

(*) صوت الشعب هو صوت الله. م.

انتظرت قليلاً قبل أن تنهض ثم قالت:

ـ انظروا من أتى!

وقف الدهني أشيب الشعر ينظر إليهم مفكّراً وهو قرب الباب. ملاعق عديدة وُضعت في الأطباق ودارت كراسٍ.

ـ صباح الخير أيتها السيدات، صباح الخير أيها السادة.

سُمع صوت نيللي تقول بخجل: «صباح الخير يا سيدي».

مرّر الدهني يده في شعره ثم قال:

ـ أحرص أولاً على أن أخبركم بأن الطبيب قد زار الطفل المريض وأنه قد تحسّن كثيراً.

قال القطيفة:

ـ شيك!

ـ كما سأخبركم بأن الإجراءات الأمنية المتّخذة حتى الآن ستُرفع عند الظهر.

لم يقل أحدٌ شيئاً لكن الإشارة التي ندت عن راؤول كانت أفصح من أن يتغاضى عنها الدهني فقال:

ـ يستنكر القبطان أن يؤدي سوء تفاهمٍ إلى ذلك الحادث المستنكَر، ولكنكم ستفهمون أن ماخنتنا ستار تستبعد كل مسؤولية لها من هذه الناحية ما دمتم تعلمون أن الأمر يتعلّق بمرض معدٍ بشكل رهيب.

قال لوبيز بصوت واضح:

ـ قتلة!

مرّر الدهني يده على شعره ثم قال وهو يهزّ كتفيه:

ـ في ظروفٍ مماثلة، يفسِّر الانفعال والتعب العصبي بعضَ الاتهامات السخيفة. كما إني أطلب إليكم أن تحزموا أمتعتكم.

فجأةً بدا الدِهني مسنّاً ومتعباً أمام صرخات النسوة وأسئلتهن. قال بضع كلمات لمسؤول المطعم ثم خرج وهو يمرّر يده على شعره عدة مرات.

نظرت باولا إلى راؤول وهو يشعل غليونه بأناة ثم سألته:

ـ والآن، قل لي، ماذا أفعل، وأنا التي أجّرت شقتي لشهرين؟

قال راؤول:

ـ يمكنكِ أن تأخذي شقة مدران، إلا إذا أراد لوسيو ونورا أن يأخذاها مدفوعين برغبة عارمة في إيجاد عشّ لهما.

ـ أنتَ ليس لديكَ أي احترام للموت.

ـ قولي لي: هل للموت احترام لي؟

قال لوبيز فجأة لباولا:

ـ هيا بنا نتشمّس، لقد سئمت هذا كله.

أحبَّت أن تشعر به غاضباً، ففكرت: «لا يا عزيزي، لن تخرج من هذا بحساب جيد. أيها الذكر المتكبّر. ستعلم أن وراء القبل هناك دائماً فمي الذي لا يتغير بهذه السهولة. من الأفضل لكَ أن تفهمني بدلاً من أن تستبدلني». والشيء الأول الذي ينبغي له أن يفهمه هو أن الحلف القديم لم ينفضّ، وأن راؤول هو دائماً راؤول. لا أحد يشتري حريتها، ولن يستطيع أحدٌ أن يغيِّرها ما دامت هي لم تقرّر ذلك بنفسها.

تناول بيرسيو فنجاناً ثانياً من القهوة وهو يفكر بالعودة. استعرض شوارع شاكاريتا في ذاكرته. عليه أن يسأل كلوديا إن كان من الممكن أن يمر بمكتبه رغم كونه ماراً ببوينس آيرس. فكر

بيرسيو: «تفاصيل قانونية دقيقة. إذا رآني المدير في الشارع بينما قلتُ له إني مسافر...».

ط

وماذا يمكن أن يجري لو رآه المدير في الشارع إذا كان قد قال له إنه مسافر؟

لم يستطع بيرسيو أن يغمض عينيه في تلك الليلة. لقد رأى الموتَ يغيّر رأيه على بعد عدة أمتار من سرير خورخي، ولكنه علِم أن هذا لا يعدو كونَه صورةً شعرية. علم أن رجالاً أصدقاءَ قد كسروا الحلقة ووصلوا إلى سطح السفينة الخلفي، ولكنه لم يستطع الالتقاء بالماضي ولا أن يعيد التماس مع الليل ولا أن يقوم، في الوقت نفسه، بالاكتشاف العابر مع أصدقائه. الوحيد الذي عرف شيئاً عن سطح السفينة الخلفي لا يمكن أن يتكلم عنه. هل حصل له أن رقي درجات الترسيم؟ هل رأى أقفاص الحيوانات المفترسة؟ هل سمع الأصوات الأولية؟ هل عثر على التفسير أو على الفرح؟ آه يا رعب الأجداد! آه يا ليل العرق! بئر عمياء تغلي، ما هو الكنز الغامض الذي كانت تحتفظ به التنينات للغة الشمالية؟ وأي وجه آخر كان ينتظر في الجهة الأخرى لكي يُري وجهَه الحقيقي لمِيت؟ كل ما تبقّى كذبة، أولئك الذين عادوا، وأولئك الذين لم يذهبوا ـ بعضهم لأنه لا يرى أو لا يريد أن يرى، وبعضهم الآخر ببراءة أو بخطأ فسادَ عصرنا وعاداتنا ـ فإن الآخرين جميعاً يعرفون ذلك أيضاً، كذب، حقائق المستكشفين، كذب الجبناء والحذرين، كذب التفسيرات، وكذب التكذيبات. وحده غضب أتيليو المظفّر مؤكّد وبلا جدوى، أتيليو ملاك الأيادي الثقيلة المليئة بالنمش، المعلّم إلى الأبد لأنه تحوّل في ساعة انتصاره، الذي لا يعرف ما يعرفه ولكنه ينتصب، حتى تسلّمه التعويذة الحتمية لجزيرة ماسييل إلى الجهل الراضي. ومع ذلك، كانت الأمهات هناك ـ لإعطائهن اسماً وللإيمان

بتصويرهن الغامض - اللواتي ينتصبن وسط البامبا على الأرض التي تخرّب وجه رجالهن وملاذ ظهورهم وأعناقهم، ولون عيونهم، وأصواتهم التي لا تكف عن المطالبة بإلحاحٍ بالأضلاع المشوية وبالتانغو العصري، هناك كانت النماذج البدئية والأقدام المخفية التي تجري كمجنونة عبر الروايات الرسمية، عبر الفجر الماطر ليوم الخامس والعشرين من أيار، خلف لينييه البطل والخائن بصورة غامضة بين الصفحة ثلاثون والصفحة ثلاث وثلاثون، القدم العميقة للتاريخ الذي ينتظر متعطّشاً للخلاص وللتحوّل وللولادة ولوصول أول أرجنتيني. ولكن بيرسيو يعلم أن الطقس الإباحي قد تمّ مرةً جديدة، وأن الأجداد الكئيبين قد تدخلّوا بين الأمهات وأولادهن البعيدين وأن الرعب الذي يوحونه يتأتى من قتل صورة الإله الخالق واستبدالها بتجارة أشباحٍ مناسبة، وبحصار مهدّد للمدينة وتطلّب لا يشبع من القرابين والضحايا المقرّبة. أقفاص قرود، حيوانات ضارية متروكة، دهنيون يرتدون ملابس موحدة، وأعياد وطنية أو ببساطة جسر مغسول غزاه الفجر، أي شيء يكفي لإخفاء ما ينتظر مرتعداً في الجهة الأخرى. عاد الأموات والأحياء من مهمتهم معكّري الأعين، ويرى بيرسيو مرةً أخرى صورة عازف الغيتار ترتسم على هذه اللوحة العائدة لأبولينير، ويتبيّن له مرةً أخرى أن الموسيقي ليس له وجه، ما هو إلا مستطيل غامض أسود، موسيقا بلا سيد، حدث أعمى وبلا جذور، سفينة تسبح ساعيةً إلى الجنوح، رواية تنتهي.

خاتمة

44

حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف، أخذت الشمس تحتدّ، فصعد لوسيو ليستحمّ بعد أن تعب من فرط الشرح لنورا جملةً من الأشياء لم تكن تريد اعتبارها كلاماً مُنزلاً. لقد سئم من الكلام تحت الشمس الحادة ومن لعن أولئك الذين أفسدوا عليه رحلته، وسئم مما يمكن أن يحدث ومن التساؤل عن سبب قولهم لهم بأن يحزموا أمتعتهم.

أعطي الجواب إليه عندما بلغ الدرج اليميني: طنين غير محسوس، لطخة في السماء، ثم لطخة أخرى. دارت الطائرتان المائيتان لحظة فوق مالكولم قبل أن تنزلا على بعد مئة متر منها.

صفرت صفارة مالكولم ثلاث مرات وبرق ضوء على إحدى الطائرات المائية. من كرسييهما الطويلين رأى لوبيز وباولا قارباً ينطلق وعليه دهني ضخم الجثة. بدا الوقت ممتداً إلى ما لا نهاية. ولم يبلغ القارب الطائرة.

قالت باولا:

ـ ساعدني على حزم حقائبي، فكل شيء يبدو مقلوباً رأساً على عقب.

ـ إذا أحببتِ، ولكننا بخير هنا.

قالت باولا وهي تغمض عينيها:

ـ إذن لنبقَ هنا.

بعد أن عادا إلى وعيهما، انفصل القارب عن الطائرة المائية وعلى متنه عدة أشخاص. تمطّى لوبيز، نهض، ولكن قبل أن يصعدا بقيا لحظةً يرتفقان الدرابزين، قرب فيليبي. سرعان ما عرفوا هيئةَ الرجل الذي كان يتحدث بحيوية مع الدهني الضخم وبزّتَه الزرقاء الغامقة. إنه مفتش الدوائر البلدية.

بعد نصف ساعة، طاف مسؤول المطعم ورجل البار في الممرات ليدعوا المسافرين إلى التجمّع في البار حيث ينتظرهم المفتش والدهني ذو الشعر الأشيب. وصل د. ريستيللي أولاً يفيض تفاؤلاً لا تكذّبه إلا ابتسامته المفتعلة. فقد عقد اجتماعاً خلال الفاصل مع السيد تريخو ودون غالو ولوسيو حول أنجع تصرف يمكن اتخاذه في حال بُيّتت النية على حرمانهم من الرحلة البحرية التي يرون أنها من حقهم جميعاً باستثناء المتمردين. وصلت النساء حاملات أجمل ابتساماتهن وألطف أصواتهن، بل حاولن أن يقلن: «كيف! أنتِ هنا؟ يا للمفاجأة!» ردّ عليهن المفتش بمطّ شفتيه وبرفع يده وراحته متجهة إلى الأمام، ثم قال وهو ينظر إلى مسؤول المطعم الذي هزّ رأسه:

ـ أظن أن الجميع هنا.

ران صمتٌ ثقيل. فرقع صوت عود ثقاب فأجفل الجميع. وأخيراً قال المفتش:

ـ صباح الخير أيتها السيدات والسادة. من نافل القول أن أبلغكم أن الدوائر البلدية تعلن أسفها لما حدث. لقد كانت البرقية التي أرسلها قبطان مالكولم ذات طابع ملحّ بحيث أن الإدارة لم تتردّد، كما ترون، في استخدام جميع وسائلها.

قال راؤول:

ـ البرقية، نحن الذين أرسلناها، أو بالأحرى أرسلها الرجل الذي قتلتموه.

كان المفتش ينظر إلى رأس إصبع راؤول الذي كان يشير إلى الدهني. مرّر هذا يده في شعره. أخرج المفتش صفارة من جيبه وصفر صفرتين. دخل ثلاثة رجال إلى البار يرتدون اللباس الموحد للشرطة الأرجنتيتية، فبدا زياً مستغرَباً تماماً في مثل هذا المكان.

قال المفتش بينما أخذ رجال الشرطة أمكنتهم خلف المسافرين:

ـ سأكون ممتنّاً لكم لو تسمحون لي بإتمام كلامي. من المؤسف جداً أن يكون الوباء قد أعُلن بُعيد مغادرة مالكولم لمرفأ بوينس آيرس. والحمد لله أن سلطات السفينة قد اتخذت جميع الإجراءات الضرورية بما فيها تلك التي يمكن أن تكون مزعجةً ولكن لم يكن منها بدّ.

قال دون غالو:

ـ صحيح. عظيم حتى الآن. والآن، اسمح لي يا سيدي العزيز أن...

ـ اسمح، أنت، رغم الاحتياطات، كان هناك حالتا خطر، والثانية أجبرت القبطان على أن يبرق إلى بوينس آيرس. ولم تكن الحالة الأولى لحسن الحظ إلا إنذاراً كاذباً، ولقد سارع طبيب السفينة إلى شفاء الطفل المريض. ولكن الحالة الثانية التي سبّبها عدم احتراس الضحية التي تجاوزت الحدود الصحية وخاطرت بالوصول حتى المنطقة الموبوءة، كانت قاتلة، السيد...

نظر إلى مفكرة صغيرة وسط الهمسات المتعالية، ثم أضاف:

ـ مدران، غابرييل مدران. نعم، هذا هو. هذا مؤسف جداً، تأكدوا. اسمحوا أيها السادة، سكوت! اسمحوا، نظراً للظرف الراهن، وبعد مشاورة الطبيب وقبطان مالكولم، توصّلنا إلى نتيجة مفادها أن وجودكم هنا فيه أكبر الخطر على الجميع. رغم أن الوباء في طريقه إلى الاختفاء، فمن الممكن أن يظهر من جديد في المقدمة ما دامت حالة الوفاة الوحيدة قد ظهرت في إحدى مقصورات المقدمة.

لهذا السبب فإني أهيب بكم أيتها السيدات والسادة أن تحزموا أمتعتكم وتتأهّبوا للإقلاع على متن الطائرة المائية خلال ربع ساعة. شكراً جزيلاً.

سأل دون غالو وهو يدفع كرسيه المتحرك نحو المفتش:

ـ ولماذا نقلع على الطائرة المائية؟ إذن هي صحيحة قصة الوباء تلك؟

أجابه د. ريستيللي وهو يتقدّم بسرعة:

ـ بكل تأكيد يا عزيزي. أنتَ تفاجئني يا صديقي العزيز. لم يشكّ أحدٌ أبداً بصدق كلام القبطان. ولكن ليس هذا المهم أيها المفتش، لأننا جميعاً موافقون عليه. ومع ذلك يبدو لي أن الإجراء الذي ستتخذونه قاسياً جداً. بعيداً عن فكرة الاستفادة من الميزة التي تمنحني إياها صفتي كرابح، أرجوكم أن تفكروا ملياً بنتائج هذا الإجراء المتسرّع قليلاً.

قال لوبيز وهو يخلّص ذراعه بقوة من يد باولا التي قرصته زاجرةً:

ـ كفاكَ تكلّفاً يا ريستيللي! أنتَ تعرف تماماً أن رجال السفينة هم من قتل مدران بالمسدس. ثم ما هذه القصة المختلقة عن التيفوس؟ أما أنتم، فاسمعوني قليلاً: الله يعلم كم أنا غير مبالٍ بالعودة إلى بوينس آيرس بعد ما حدث هنا، ولكني لن أسمح أبداً بأن يُكذب علينا بهذه الطريقة.

قال له أحد رجال الشرطة:

ـ اسكت أيها السيد!

ـ أنا أفضّل أن أتكلّم. لدي شهود وأدلّة على ما قلتُه. والشيء الوحيد الذي أنا آسف عليه هو أني لم أستطع أن أكون مع مدران لإسقاط نصف دستة من أولاد القحبة أولئك.

رفع المفتش يده وقال:

ـ أيها السادة، لا أريد أن أجد نفسي مضطراً إلى إبلاغكم بالعقوبات التي ستطالكم إن أنتم تعنتّم، من باب الصداقة أو لأية أسباب كانت، بالابتعاد عن الواقع أو بتزييف الوقائع. صدّقوا أني سأنزلكم آسفاً من السفينة في... لنقل في منطقة معزولة، حتى تعودوا إلى رشدكم.

قال لوبيز:

ـ يمكنك أن تُنزلني حيث تشاء، فقد قُتل مدران على يد شخصٍ من هذه الأنواع. انظر إلي، أترى أن هذا من التيفوس؟

قال المفتش موجّهاً كلامه على وجه الخصوص إلى السيد تريخو ودون غالو:

ـ أنتم من تقرّرون. أنا لا أريد أن أجد نفسي مضطراً إلى أن أسجنكم، ولكن إذا واصلتم نفي الوقائع التي أثبتها أشخاصٌ لا غبار عليهم...

قال راؤول:

ـ كفى تخريفاً. لماذا لا تأتي معي لتلقي نظرةً على الجثة.

قال المفتش:

ـ أوه، لقد رُفعت الجثة من السفينة. أنتم تعرفون أن هذا من الإجراءات الصحية الأولية. أطلب إليكم أن تفكّروا جيداً، أيها السادة. نستطيع جميعاً أن نكون في بوينس آيرس بعد أربعِ ساعات. وعندما نصبح هناك، وعند توقيع الإفادة التي سنكتبها معاً، أنا واثق من أن الدوائر البلدية سوف تعوض عليكم لأن أحداً لا ينسى أن الرحلة قد رُصد لها مبلغ، وانتهاؤها هذه النهايةَ السيئة لا يُلغي ذلك.

قالت باولا:

ـ نهاية عبارة جميلة!

سعل السيد تريخو، نظر إلى زوجته ثم قرّر أن يتكلّم:

ـ أود أن أسألك يا سيدي المفتش أنه ما دامت الجثة قد رُفعت من السفينة وأن الإصابات الأخرى بالتيفوس لا تشكّل خطورة، فلماذا لا يكون من الممكن...؟

قال دون غالو:

ـ حسنٌ، إني أتساءل، لماذا أولئك الذين هم موافقون، أقول الذين هم موافقون، لماذا لا يستأنفون الرحلة؟

أخذ الجميع يتكلّمون في وقتٍ واحد، وطغت أصوات النساء الحادة على نداءات رجال الشرطة إلى الهدوء. لاحظ راؤول أن المفتش ابتسم ابتسامة رضا وأنه أشار إلى رجال الشرطة بألا يتدخّلوا. فكر راؤول وهو مستند إلى الجدار، يدخّن دونما لذة: «فرّق تسد. الذهاب أو البقاء، مواصلة الرحلة أو العودة، الأمر سيان. ولكن لو أن مدران يستطيع أن يرانا لفرح، فقد أثارت قصتُه زوبعة». ابتسم لكلوديا التي كانت تشهد هذا المشهد من بعيد. شرح د. ريستيللي أن بعض المبالغات المؤسفة ليس لها أن تضرّ براحة معظم المسافرين المستَحَقّة تماماً، وأنه يجدر بالسيد المفتش أن... ولكن السيد المفتش رفع يده من جديد وراحته متجهة إلى الأمام، وبعد أن حصل على صمتٍ نسبي، قال:

ـ أنا أتفهّم جيداً وجهة نظر هؤلاء السادة، ومع ذلك فإن السيد القبطان والضباط يرون أنه في ظروفٍ كهذه... باختصار، أيها السادة، إما أن نعود جميعاً إلى بوينس آيرس، أو أجد نفسي مضطراً لأن أسجنكم حتى يُزال سوء التفاهم. لاحظوا أن التيفوس وحده كافٍ لتبرير هذا الإجراء القاسي.

قال دون غالو وهو يلتفت كثعبان إلى لوبيز وأتيليو:

ـ هذه هي، هذه هي نتيجة الفوضى وسوء استخدام السلطة. لقد توقّعتُ ذلك منذ البداية. اللعنة ثم اللعنة! العقلاء سيدفعون ثمن تهوّر المجانين! وهذه الطائرات المائية آمنة، على الأقل؟

صرخت السيدة تريخو مدعومة بجوقة النساء:

ـ نحن لا نريد الطائرات المائية. من المستحيل ألا نواصل الرحلة.

قال المفتش:

ـ الرحلة انتهت، يا سيدتي.

ـ هل ستتسامح في أمرٍ كهذا يا أوزفالدو؟

قال السيد تريخو:

ـ أيا ابنتي المسكينة!

قال دون غالو:

ـ موافقون، موافقون، سنستقل الطائرة المائية، والقضية انتهت بشرط ألا نتكلّم بعد عن سجن وأمورٍ مزعجة.

قال د. ريستيللي وهو ينظر بطرف عينه إلى لوبيز:

ـ طبعاً، إذا استطعنا الحصول على الإجماع الذي طلبه السيد المفتش...

وقع لوبيز فريسة التشتّت بين الاشمئزاز والشفقة، وكان تعباً إلى درجة أن الشفقة قد انتصرت، فقال لريستيللي:

ـ لا تفكر بي. أنا لا أرى مانعاً في العودة إلى بوينس آيرس، ولا بما سنشرحه هناك. بالنسبة إلي أنا لن أسكت لا في أوشويا(*) ولا في أي مكان آخر.

قال المفتش:

ـ تماماً. تريد الإدارة أن تتأكد من أنكم لن تستفيدوا من عودتكم إلى العاصمة لكي تنشروا إشاعات كاذبة.

قال لوبيز:

(*) مستعمرة عقوبات في أرض النار.م.

ـ إذن، سأشكو الإدارة.

قال المفتش:

ـ إن إصرارك أيها السيد... إذا لم أحصل على التأكيد الرسمي بأنك ستتخلى عن تزوير، أعني تزوير الحقيقة، فإني مضطر لتنفيذ ما قلته.

قال دون غالو:

ـ لا ينقص إلا هذا. ثلاثة أيام حتى يصبح دمنا حبراً، ولا أدري كم من الوقت لكي نخرى؟ لا، لا، إلى بوينس آيرس!

قال السيد تريخو:

ـ طبعاً، هذا لا يمكن التسامح به.

ردّ د. ريستيللي:

ـ لنحلّل الموقف بهدوء.

قال السيد تريخو:

ـ الموقف بسيط جداً. بما أن السيد المفتش يرى أنه ليس بالإمكان مواصلة الرحلة ـ ونظر إلى زوجته الشاحبة من الغضب وندت عنه حركة تنم عن العجز ـ فإن من المنطقي ومن الطبيعي أن ننضم من جديد إلى...

قال راؤول:

ـ لا، لن ننضم إلى...

قال المفتش:

ـ لا أرى أي مانع في ذلك، بشرط أن توقعوا على الإفادة التي سنصوغها.

قال لوبيز:

ـ إفادتي، أنا من سيكتبها، وحتى آخر حرف.

قالت باولا:

ـ ولن تكون وحيداً.

قال راؤول:

ـ طبعاً، سنكون خمسة على الأقل، وهذا الذي يمثل ربع عدد المسافرين، الأمر الذي لا يمكن إهماله في أية ديمقراطية.

قال المفتش:

ـ لا تتكلّموا بالسياسة، أرجوكم.

مسّد الدهني شعره وأتى ليكلّمه بصوت خافت. فالتفت راؤول نحو باولا.

ـ تَخَاطُر عن بعد، أيتها الصديقة العزيزة. قال له أن ماخنتا ستار تعارض سجناً جزئياً لأن الفضيحة قد تكون أكبر فيما بعد. لن يأخذونا إلى أوشويا، وسترين. من ناحية، أنا سعيد جداً لأني لم أجلب معي ثياباً شتوية، وسترين كيف سيقدّمون تنازلات.

رفع المفتش يده من جديد بتلك الحركة التي جعلته يشبه، لستُ أدري لماذا، أحد طيور البطريق. قال إنه إن لم يجد الإجماع فسيجد نفسه مضطراً لحبسهم جميعاً، وبدون استثناء. لا يمكن للطائرات المائية أن تنفصل، ثم أورد أسباباً تقنيةً أخرى لا تُدحض. سكت وانتظر نتيجة الحكمة القديمة التي كان يفكر بها راؤول قبل لحظة. لم يطل انتظاره، فقد نظر د. ريستيللي إلى دون غالو الذي نظر إلى السيدة تريخو التي نظرت إلى زوجها. مضلّع من النظرات، وكان الخطيب دون غالو بورينيو إذ قال وهو يؤرجح عربته:

ـ اسمعني يا سيدي العزيز، ومع ذلك ليس من الواجب أن يُنقَل أناسٌ حسّهم سليم، الله وحده يعلم إلى أي مكان، بسبب تعنّت هؤلاء الشبان، دون أن تفكروا أننا قد نصبح، نحن أيضاً، ضحية

الوشايات، ما أغرب هذا العالم السفلي! إن قلتَ لنا أن ال... أن الحادث قد وقع بسبب ذلك الوباء اللعين، ليس لدي أنا شخصياً أي سبب للشك في كلامكَ كموظف. وأنا أخشى أن تكون مشاجرة هذا الصباح قد أحدثت من الضجيج أكثر مما أحدثت من الضرر كما يقال. ويجب أن نعترف أن أياً منا ـ وشدّد على الكلمة الأخيرة ـ لم يتمكن من رؤية... الشاب المنحوس الذي كان يحظى بمحبتنا جميعاً رغم طيشه في الساعات الأخيرة.

أدار كرسيه ربع دورة ثم نظر إلى لوبيز وراؤول نظرة انتصار وأضاف:

ـ أكرر أن أحداً لم يتمكن من رؤية الجثة لأن هؤلاء السادة، بمساعدة الأفّاق الذي سجننا في البار، أقول هؤلاء السادة لكي أعطيهم اسماً لم يعودوا يستحقّونه، قد منعوا النساء من إتمام واجباتهن كمسيحيات، وتلك معتقدات أحترمها رغم أني لا أؤمن بها، ومنعوهم من الدخول إلى غرفة الميت. أية نتائج يمكن استخلاصها من هذا كله، يا سيدي المفتش؟

أمسك راؤول بذراع القطيفة الذي احمرّ غضباً ولم يستطع أن يمنعه من الكلام:

ـ ماذا؟ أية نتائج، أيها العجوز المتخلّف عقلياً؟ أنا من نقل الميت على ظهره، أنا، هل تسمع، مع هذا السيد، وكل الدم الذي سال على كنزته، أأنتَ رأيتَه؟

تمتم السيد تريخو:

ـ هذيان سكير!

ـ والبحّار القذر الذي أصبته بطلقة في أذنه؟ لقد كان ينزف كخنزير. ليتني استطعتُ أن أصيبه في رأسه، لكنا سنرى ما إذا كنتم ستواصلون الحديث عن التيفوس، يا كومة الـ...

قال لوبيز:

ـ لا تتعب نفسكَ يا أتيليو، فالقصة قد كُتبت.

ـ أية قصة؟ قال القطيفة.

هز راؤول كتفيه.

المفتش ينتظر، وهو يعلم أن آخرين سيكونون أفصح منه. تكلّم د. ريستيللي أولاً، نموذج الحكمة والحس السليم. والسيد تريخو المدافع الشرس عن قضية النظام والعدالة، تكلّم بعده. اكتفى دون غالو بمساندة الخطباء بتفصيلات من عقله أو مناسبة. في البداية آلى لوبيز على نفسه أن يردّ عليهم وأن يقول لهم في وجوههم بأنهم جبناء؛ وأتيليو بنوبات غضبه وراؤول بكلماته الواخزة قدّموا له المساندة القوية. ولكن عندما غمره الاشمئزاز إلى حد أنه أخذ منه كل رغبة في الكلام، أدار ظهره وذهب ليجلس في الزاوية. اجتمعت مجموعة الملعونين بصمت، يراقبها رجال الشرطة في الخفاء. أما حزب السلام فأخذ يلمّع نتائجه، يسانده تأييد النساء وابتسامة المفتش الكئيبة.

45

إذا ما نُظِر إلى المالكولم من الأعلى، فإنها تشبه علبة ثقاب موضوعة في طست. بعد أن سارع فيليبي إلى أخذ مكانٍ له قرب إحدى النوافذ، أخذ ينظر إلى المشهد بلا مبالاة. فقَدَ البحر تضاريسه كلها وحجمه كله، ولم يعد إلا سماطاً مضطرباً وظليلاً. أشعل سيجارة ثم ألقى نظرةً من حوله، مساند المقاعد منخفضة بصورة تثير الاستغراب. إلى اليسار، الطائرة المائية الأخرى تطير في جمود كامل وباءٍ وهي تحمل أمتعة المسافرين كلها وربما... بينما كان فيليبي يصعد إلى الطائرة، نظر في جميع الاتجاهات لكي يكتشف شكلاً مغلّفاً بقماش أو بمشمّع، على الأغلب بمشمّع. وبما أنه لم يره، افترض أنه يجب أن يكون في الطائرة الأخرى.

قالت بيبا وهي جالسة بين أمها وفيليبي:

ـ كان يجب توقّع ذلك. لقد توقّعت منذ اللحظة الأولى أن هذه الرحلة ستنتهي نهايةً سيئة.

قالت السيدة تريخو:

ـ كان من الممكن أن تسير الأمور جيداً لولا هذا التيفوس... التيفوس.

قالت بيبا:

ـ على أية حال، هذا مزعج. يجب عليّ أن أشرح كل ما حدث لرفيقاتي، ويبدو أنني سأروي قصصاً غريبة.

ـ حسنٌ يا ابنتي، إذا لم يصدّقنكِ، سحقاً لهن. أنتِ تعرفين جيداً ما عليكِ أن تقولي.

ـ إذا كنتِ تظنين أن ماريا لويزا وميشا ستصدّقان هذه الحكايات...

أمعنت السيدة تريخو النظر إلى ابنتها وزوجها الذي يجلس في الجهة الأخرى من الممر فأشار إشارة صغيرة لزوجته بأن تهدّئ ابنتها. في بوينس آيرس، سوف يعرفان كيف يعلّمان الأطفال شيئاً فشيئاً ضرورة عدم إعطاء كثير من التفاصيل حول هذه القصة. وإذا لزم الأمر سوف يرسلانهما شهراً إلى مزرعة العمة فلوريتا في قرطبة. الأطفال ينسون بسرعة، ثم إنهما قاصران ولا يمكن أن يكون لكلامهما أية تبعات قانونية. في الواقع ليس من داعٍ للقلق.

ظلّ فيليبي ينظر إلى مالكولم حتى اختفت تحت الطائرة. لم يعد يوجد إلا سأم مائي شاسع، أربع ساعات من الماء قبل بوينس آيرس. في النهاية، ليست سيئة جداً هذه العودة بالطائرة. هذه هي أول مرة يركب فيها الطائرة. ماذا سيقص على رفاقه! رأس أمه لحظة إقلاعهم، رعب بيبا المكتوم... النساء غير معقولات، يصيبهن

الهلع من أبسط الأمور. آه، نعم، كان هناك مشاجرة، يا صديقي، ولقد سبّبت كل تلك المشكلات، إلى درجة أنهم أعادونا بالطائرات المائية. قتلوا مسافراً و... ولكنهم لن يصدّقوه. سينظر إليه أوردونييث نظرته الاستعلائية وسيقاطعه ليقول: سيكون ذلك معروفاً يا عزيزي، وإلا ما فائدة الصحف برأيك؟ نعم، من الأفضل ألا يقول شيئاً. ولكن أوردونييث، وربما ألفييري، سيسألانه عن أخبار الرحلة. الأمر أسهل: المسبح، وصهباء ترتدي البيكيني، الحديث المختلَق، والفتاة التي تعطي المواعظ، وإذا ما عُرف ذلك؟ لا، أنا أخجل، ولكن لا، هنا لن يعرف أحدٌ شيئاً، هيا، افعلي قليلاً. في البداية لم تكن تريد، كانت خائفة، ولكن أنت تعرف، ما إن بدأتُ مداعبتها حتى أغمضت عينيها وتركتني أعرّيها...

غاص فيليبي في مقعده ثم أغمض عينيه نصف إغماضة.

فُتح باب قمرة القبطان وتقدّم المفتش نحو الركاب بهيئة راضية وشبه طفولية، وقال:

ـ طقس رائع، أيتها السيدات والسادة. بعد ثلاث ساعات ونصف سنكون في بويرتو نويفو. لقد ارتأت الإدارة أنكم فور إنجاز المعاملات الرسمية التي تكلّمنا عنها، تفضّلون أن تعودوا إلى منازلكم مباشرة. ولئلا تضيعوا وقتكم فإن سيارات أجرة ستكون بانتظاركم جميعاً لتنقلكم مع أمتعتكم فوراً.

جلس على مقعد في صدر الطائرة، قرب سائق دون غالو الذي يقرأ رواية الأحمر والأسود.

أطلقت نورا زفرةً عميقة من جوف مقعدها، وقالت:

ـ حقاً أنا لا أستطيع أن أصدّق. أمس فقط كنا في أحسن حال، والآن...

سألها لوسيو هامساً:

ـ لمن تقولين هذا؟

ـ أنا لا أفهم. أنتَ أيضاً، في البداية شغلتْكَ قصة ذلك سطح السفينة الخلفي... لماذا عذّبكم ذلك إلى هذا الحد؟ أنا لا أفهم، فقد بدوا أناساً في منتهى اللطف.

ـ عصابة من الممسوسين. لم أكن أعرف الآخرين، ولكني لن أعود إلى الحديث عن تصرّف مدران. يا للسأم! لاحظي أن قصةً كهذه يمكن أن تسبّب متاعب لنا جميعاً في بوينس آيرس. افرضي أن أحدهم روى لرؤسائي ما حدث، فقد يؤخّر ذلك ترفيعي، وربما أسوأ. في النهاية، إنها جوائز من الدولة، لا أحد فكر بذلك. لم يكن في رأسهم إلا فكرة واحدة: افتعال فضيحة.

نظرت نورا إلى لوسيو ثم خفضت عينيها وقالت:

ـ ربما. لا شك في أنكَ على حق، ولكنِ عندما مرض الطفل...

ـ لو حدث أمرٌ خطيرٌ بالفعل... ولكن لقد سُرّ هؤلاء العناتر جميعاً بلعب أدوار الأبطال. وبعد ذلك فهمتُ تماماً جلية الأمر. لقد حاولتُ تهدئتهم ولكن عبثاً... وأنا أقول لكِ، واسمعيني جيداً يا نورا: إذا عُرف الأمر في بوينس آيرس، فسندفع غالياً.

قالت بحياء:

ـ ولكنه لن يُعرَف.

ـ نأمل ذلك، فهناك أشخاص يفكرون مثلنا، ونحن أغلبية.

ـ يجب توقيع ذلك التصريح.

ـ طبعاً، سيرتّب المفتش كل شيء. ربما أنا أشغل بالي من أجل لا شيء. ولن يصدق أحدٌ تلك القصة المختلَقة.

ـ نعم، ولكن السيد لوبيز وبريسوتي غاضبان جداً.

ـ يريدان أن يحفظا ماء وجههما حتى النهاية، ولكن سترين، في بوينس آيرس لن يذكرهما أحد. لماذا تنظرين إلي هكذا؟

ـ أنا؟

ـ نعم، أنتِ؟

ـ ولكني أنظر إليكَ بكل بساطة يا لوسيو.

ـ تنظرين إليّ وكأنني أكذب.

ـ أوه، يا لوسيو!

ـ بلى، إنكِ تنظرين إليّ نظرةً غريبة، ولكن ألستُ على حق؟

قالت متحاشية نظرته:

ـ بلى.

من المؤكد أن لوسيو على حق. كان غاضباً جداً لأنه على حق. فهو الذي كان دوماً مسروراً... يجب القيام بكل شيء من أجل جعله ينسى الأيام الماضية ومن أجل إعادته إلى سروره. سيكون أمراً رهيباً أن يبقى معكّر المزاج، وإذا تعنّت في بوينس آيرس، فهي لا تعرف ماذا سيحدث، أن يكفّ عن حبها مثلاً على الرغم أنه من السخافة بمكان أن تفكر بأن لوسيو يمكن أن يهجرها الآن، وقد أعطته أكبر برهان عن الحب، والآن وبعد أن اقترفت الخطيئة معه. أمر لا يصدّق، أن يكونوا في قلب بوينس آيرس بعد ثلاث ساعات، ويجب أن تسأل لوسيو عما ينوي فعله، وهل عليها أن تعود إلى بيتها؟ من المؤكد أن أختها ستتفهم مباشرةً، أما أمها... تصوّرت نفسها داخلة إلى غرفة الطعام وأمها تنظر إليها ولونها يشحب شيئاً فشيئاً ثم تقول لها: «إلى أين ذهبتِ طوال هذه الأيام الثلاثة؟ ساقطة! أهذه هي التربية التي تلقّيتها عند الراهبات؟ ساقطة، بنت شارع، منحطة!» طبعاً ستحاول أختها أن تدافع عنها، ولكن كيف ستبرّر هذه الأيام الثلاثة؟ من المستحيل العودة إلى البيت بهذه الطريقة. ستتصل أولاً بأمها لكي تنضمّ إليهم. ولكن إذا لوسيو الغاضب جداً... وإذا كان لا يريد أن يتزوج مباشرةً؟ وإذا استأنف عمله؟ مع جميع تلك الفتيات في مكتبه، وخاصة تلك التي تُدعى بيتي... وإذا عاد إلى الخروج وحيداً مع أصدقائه؟

أخذ لوسيو ينظر إلى البحر من فوق كتف نورا. بدا وكأنه ينتظر أن تقول شيئاً ما. التفتت إليه وقبّلته على خدّه ثم أنفه ثم فمه. لم يردّ لها قبلاتها ولكنها رأته يبتسم عندما قبّلته من جديد على أنفه.

قالت بكل حميّة:

ـ أحمق! إني أحبك كثيراً. لقد جعلتني في أوج سعادتي، وأنا أشعر بالأمان. أنا أثق بك كل الثقة.

راقبت وجهه وهي تقبّله، وبما أنه واصل ابتسامه استجمعت قواها وعزمت أن تتكلّم عن بوينس آيرس.

ـ لا، لا. كفاكَ سكاكر، بالأمس أشرفتَ على الموت، واليوم قد يصيبك عسر الهضم.

قال خورخي وهو يتخذ هيئة المعذّب:

ـ ولكني لم آكل إلا قطعتين. هذه الطائرة تطير ببطءٍ شديد. هل تعتقد أن بوسعنا أن نصل إلى النجم على متن طائرة كهذه يابيرسيو؟

ـ مستحيل، إنها ستنفجر عند ملامسة الستراتوسفير.

أغمضت كلوديا عينيها وأسندت رأسها إلى مسند المقعد. إن الغضب من خورخي يثير أعصابها. «مساء أمس أشرفتَ على الموت...». حقاً إنها ليست العبارة الجديرة بأن تُقال له. صبي مسكين، ولكنها تعرف جيداً أنها لا توجّه كلامها إليه. فقد اقترف خورخي ذنباً يتجاوزه إلى أبعد حد. دثّرته بغطاء السفر، لمست جبينه ثم بحثت عن سجائرها. في الجهة الأخرى من الممر، لوبيز وباولا يتلامسان بحرارة أيديهما، وتتداخل أصابعهما. وقرب النافذة يغفو راؤول مجلّلاً بستار من الدخان. رفرفت للحظةٍ أمام عينيه صورُ حلمٍ يقظة فانتصب مجفلاً. على بعد عشرين سنتمتراً

أمامه يرى قذال د. ريستيللي ورقبة السيد تريخو الغليظة. بوسعه أن يعيد بناء حواراتهما كلمةً كلمة رغم أن هدير الطائرة يمنعه من السماع. بمجرد الوصول إلى بوينس آيرس يجب الاجتماع مباشرة والتأكد من أن هذه الرؤوس الحامية (لقد تمكّن المفتش من أن يجعلهم ينصاعون بفضل سوء تصرفهم) لن تحاول أن تثير حملةً في جرائد اليسار الهجائية التي ستسارع إلى تلطيخهم جميعاً. من حماسة ريستيللي في الكلام لا بد أنه يؤكد على مسألة أن ليس هناك أي دليل على ما يدّعونه. مَن سيصدّق أننا وجدنا أسلحةً على متن سفينةٍ كهذه وأن البحارة لم يجعلونا أشلاء بمجرّد أن أطلقنا الرصاصات الأولى؟ كيف لنا أن نثبت ما قلناه؟ مدران، طبعاً. ولكن لم يبق منه إلا ورقة نعيٍ من ثلاثة أسطر مكتوبة بعناية.

ـ قُل يا كارلوس...

قال لوبيز:

ـ لحظة. إنها تفتل ذراعي بطريقة مرعبة.

ـ اقرصها قرصةً قوية، ليس أفضل من هذه الطريقة لتجعلها تفلتك. اسمع، كنتُ أفكر بأن العجزة سيكونون على حق. هل مسدسك معك؟

قال لوبيز مفاجأً:

ـ لا بد أن يكون مع أتيليو.

ـ أمر غريب. عندما أتيتُ لأحزم حقائبي لم أجد الكولت ولا الطلقات. بما أنه لم يكن لي، وجدتُ الأمر عادياً. سأسأل أتيليو، ولكن من المؤكد أن مسدسه قد سُرق أيضاً. كذلك فكرتُ بأمرٍ آخر: لقد ذهبتَ مع مدران إلى المزيّن، أليس كذلك؟

ـ إلى المزيّن، انتظر، نعم، كان ذلك أمس. هل يمكن أن يكون ذلك أمس، يبدو وكأنه منذ زمن طويل.

ـ أتساءل لماذا لم تسألا المزيّن عن سطح السفينة الخلفي؟ أنا واثق من أنكما لم تفعلا ذلك؟

أجاب لوبيز حائراً:

ـ نعم، صحيح. لقد ثرثرنا كثيراً. وحدّثني مدران عن أمور مدهشة، لقد كان... لا، ولكن هل أدركتَ أن هؤلاء القذرين يريدون أن يجعلونا نصدّق بأنهم لم يقتلوه؟

قال راؤول:

ـ بالعودة إلى المزيّن، ألم تستغرب أنه في اللحظة التي كنا نبحث عن ممر...

نظرت باولا إليهما بالتناوب دون أن تصغي إليهما وهي تتساءل كم من الوقت سيظلان يفكران بهذه القضية. مخترعو الماضي الحقيقيون هم الرجال. أما هي فإن ما يشغلها هو المستقبل. يشغلها كثيراً. كيف سيكون جاميكا جون في الأرجنتين؟ سيكون مختلفاً عنه في السفينة، ومختلفاً عما هو الآن. المدينة تنتظرهم لكي تغيِّرهم، ولتعيد إليهم كل ما تركوه بإبحارهم، ربطة العنق ودفتر الهواتف. وفجأةً، لا يعود لوبيز إلا مدرساً، ما يُسمى عضواً في الهيئة التدريسية، شخصاً عليه أن يستيقظ كل صباح في الساعة السابعة والنصف لكي يذهب ويعلّم القواعد في الساعة التاسعة والربع أو الحادية عشرة. فكرت: «يا للرعب! والأسوأ من هذا كله هو أنه سيراني في وسطي». وما أهمية ذلك؟ إنهما متشابكا اليدين كأبلهَين ينظران أحدهما إلى الآخر يمدان لسانيهما أو يسألان راؤول إن كانا يشكلان زوجاً مثالياً.

أتيليو هو أول من رأى المداخن والأبراج وناطحات السحاب. مشى في الطائرة لكي ينشر الخبر بحماسةٍ بعد أن سئم كثيراً طوال الرحلة في مجلسه بين نيللي ودونيا روزيتا. قال:

ـ انظروا، انظروا! نحن فوق النهر! وإذا ما أمعنّا النظر نستطيع

أن نرى جسر أفيللانيدا. ومع ذلك من المستَغرَب أننا أمضينا ثلاثة أيامٍ للذهاب إلى هناك، وأننا عائدون في هذا الوقت القصير.

قالت دونيا روزيتا وهي تنظر إلى ابنها بمزيجٍ من الخوف ومن الريبة:

ـ هذا هو التقدم. بمجرّد أن نصل، عليكَ أن تتصل بوالدك لكي يلاقينا بشاحنته الصغيرة.

ـ لا يا سيدتي، لا داعي لذلك، فقد قال المفتش إنه سيكون هناك سيارات أجرة للجميع. اجلس يا أتيليو، أرجوك، إن رؤية شخص يتحرك تثير أعصابي. لدي انطباع بأن الطائرة ستميل إلى أحد جنبيها. حقاً، أرجوك.

قالت دونيا روزيتا:

ـ مثل ذلك الفيلم الذي مات فيه الجميع.

انفجر القطيفة في ضحكةٍ محتقِرة، ومع ذلك جلس. من الصعب عليه أن يبقى جالساً، فلديه انطباعٌ بوجوب القيام بشيءٍ ما. لا يعرف ما هو، ولكنه يفيض حيويةً، ولا يطلب إلا أن يضعها في خدمة راؤول ولوبيز. ولكن راؤول ولوبيز يجلسان صامتين، يدخّنان، وهو يشعر بأنه مُحبَط. سيكسب العجزةُ القضية، وهذا أمر فظيع. لو كان مدران هنا لما سارت الأمور هكذا.

قالت دونيا روزيتا:

ـ كم أنتَ عصبي! يبدو وكأن جميع جنونات أمس لم تكفِك. انظر إلى نيللي، انظر إليها. عليكَ أن تموت خجلاً لأنكَ سببتَ لها كل هذا الألم. لم أرها في حياتي تبكي هكذا. آه يا دونيا بيبا، الشبان، أي جنون! ونحن اللواتي كنا بخير في مقصوراتنا المصنوعة من الخشب المدهون، مع السيد بورينيو الذي كان مسلّياً، ماذا دهى هؤلاء المجانين حتى...

قال القطيفة وهو ينتزع قطعة جلدٍ صغيرة من جانب ظفره:

ـ غيّري هذه الأسطوانة يا أماه.

قالت نيللي:

ـ أمكَ على حق. ألا ترى أن الآخرين قد خدعوك؟ وقد قال المفتش ذلك، لقد جعلوك تصدّق كل ما كانوا يريدونه، وطبعاً، أنتَ تعنّتَّ من باب الكبرياء.

انتصب القطيفة كما لو أنه وُخز في إليته وهتف:

ـ أتريدين أن أقودكِ إلى الهيكل؟ كم مرةً يجب عليّ أن أشرح لكِ ما حدث، أيتها الجاهلة؟

أخذت نيللي تنشج محتميةً بهدير المحركات وتعب المسافرين. بعد أن امتلأ القطيفة غضباً وندماً أخذ ينظر إلى بوينس آيرس بعناد. ظهرت أبراج شركة الكهرباء التي أخذت تقترب وتختفي مرتجفةً داخل ضباب من الدخان والحرارة. قال القطيفة لنفسه: «سوف ألتهم قطعة ضخمةً من البيتزا مع هومبيرتو واليهودي الصغير». ذلك شيء مهم كان مُفتَقَداً على متن السفينة، يجب الاعتراف بذلك.

قال الشرطي:

ـ دوركِ يا سيدتي!

تناولت السيدة تريخو القلم بابتسامةٍ لطيفة ووقّعت في أسفل الورقة التي كانت تحوي نحو عشرة توقيعات أخرى.

ـ دورك يا سيدي.

قال لوبيز:

ـ أنا لا أوقّع على شيء كهذا.

وقال راؤول:

ـ ولا أنا.

ـ عظيم جداً، السادة، سيدتي؟

وقالت كلوديا:

ـ وأنا كذلك، لن أوقّع.

ثم قالت باولا وهي توجّه إلى الشرطي ابتسامةً غريبة:

ـ ولا أنا.

وكذلك قال بيرسيو دون أن يعرف كثيراً عما لن يوقّع عليه.

التفت الشرطي إلى المفتش وقال له بضع كلمات. فأراه هذا قائمة عليها أسماء المسافرين وعناوين مساكنهم ومهنهم. أخرج الشرطي قلماً أحمر ووضع خطوطاً تحت عدة أسماء.

قال وهو يطقطق بحذائه:

ـ أيتها السيدات، أيها السادة، يمكنكم أن تغادروا. سيارات الأجرة والأمتعة تنتظركم في الخارج.

ابتعدت كلوديا وبيرسيو وهما يمسكان بيدي خورخي. سبّبت حرارة النهر الكثيفة والرطبة شعوراً بالغثيان لكلوديا. مرّرت يدها على جبينها، استأذنت من باولا وراؤول ولوبيز. نعم، 700، شارع جان ـ بابتيست ألبيردي. نعم، ورقم هاتفه في الدليل: ليوباوم.

وعد لوبيز خورخي بأنه سيزوره وأنه سيقدم له كاليدوسكوب جميلاً. أقلعت سيارة الأجرة.

قال راؤول:

ـ كما رأيتم، لقد تركونا نخرج. قد يراقبوننا لبعض الوقت، وهذا كل ما في الأمر. هم يعرفون تماماً ما يفعلون، لا تخافوا من شيء، فهم يعتمدون علينا قبل كل شيء. أنا مثلاً سأكون أول من

يتساءل عما يجب علي أن أفعله ومتى. سأتساءل مراراً حتى... لنستقل السيارة نفسها، أيها العاشقان العزيزان.

قالت باولا:

ـ طبعاً. ضع حقائبكَ هنا.

وصل أتيليو راكضاً ووجهه يتصبّب عرقاً، ضغط على يد باولا، ورَبَّتَ بقوة على كتف لوبيز وهزّ يد راؤول. سترته القرميدية أعادته إلى العالم الذي ينتظره.

قال بحرارة:

ـ يجب أن نلتقي. أعطوني قلماً لأكتب لكم عنواني. ستأتون ذات أحدٍ لتأكلوا طبقاً لذيذاً من الرافيولي، أليس كذلك؟ وسيكون والدي سعيداً بالتعرف إليكم.

قال راؤول وهو يعرف أنهم لن يروه أبداً:

ـ بكل سرور.

نظر إليهم القطيفة متأثّراً وسعيداً. ربت من جديد بقوة على كتف لوبيز وكتب عنوانه ورقم هاتفه. نادته نيللي صارخةً فابتعد مغموماً كما لو أنه يفهم أو يعرف شيئاً لا يفهمه.

جلس الأصدقاء الثلاثة في السيارة يراقبون تشتّت فريق السلام، والسائق يُدخل دون غالو في سيارة كبيرة زرقاء. أخذ بعض الفضوليين يراقب المشهد، ولكن من دون رجال شرطة، بل من المدنيين.

سألت باولا وهي محشورة بين راؤول ولوبيز إلى أين يذهبون، فلم يردّ لوبيز وكذلك فعل راؤول مكتفياً بالنظر إليهما بابتسامة ساخرةٍ ماكرة.

قال لوبيز أخيراً:

ـ ربما نستطيع أن نأخذ كأساً.

قالت باولا الظمآنة:

- فكرة جيدة!

التفت السائق الشاب نحوهم مبتسماً.

قال لوبيز:

- حسنٌ، إلى مقهى لندن، جادة بيرو.



الرابحون

يُعدّ الروائي الأرجنتيني خوليو كورتاثار قنّاصَ الأدب. ولكونه حالةً استثنائية تمثّل التمرد الدائم ضد الأماكن المشتركة وسلبية العقل، فقد أعاد الحياة للكلمة إذ خلق لغته الخاصة. سخريته اللاذعة والمدمّرة، ورؤيته المأساوية للإنسان الحديث، وقلقه الأنطولوجي المرتبط بملاحظةٍ حادةٍ لليومي خلق من الحكايات العادية رواية متحرّكة وميتافيزيقية، وخيالاته تعالج مشكلات الإنسان الأمريكي الحالي، وترفعها إلى المستوى العالمي. سبق كل معاصريه من كتّاب أمريكا اللاتينية في المخاطرة بالتجديد وهرب من التسميات وقدّم، بحسب رأي أحد النقّاد الأمريكيين، «أكبر موسوعة من المشاعر والرؤى التي ظهرت عند جيل الكتّاب العالميين بعد الحرب».

ولد في بروكسل عام 1914، وعمل معلّماً للمرحلة الابتدائية ثم مدرّساً للمرحلة الثانوية في الريف الأرجنتيني. ونظراً لعدائه للبيرونية تخلّى عن كرسي جامعي، واهتّم بالغرفة الأرجنتينية للكتاب في بوينس آيرس، ثم أنهى في زمن قياسي دراساته في الترجمة واستقرّ في باريس عام 1952. عمل مع اليونيسكو وسافر إلى جميع بلدان العالم.

الرابحون تجمعهم المصادفة على متن السفينة مالكولم، ويتواجهون في فضاء هذه السفينة المغلق. فيظهر الجو الغريب منذ بداية الرواية. ولكن هذه الرحلة البحرية توازيها رحلة أخرى داخلية لكل مسافر نحو المواجهة مع نفسه بحثاً عن تحقيق ذاته. ويضاف إلى الأهمية النفسية والسوسيولوجية بُعدٌ ميتافيزيقي بفضل «المناجيات» التي يقوم بها بيرسو، والذي يعطي الواقع رؤية أكثر بنيويةً وشعرية.

يمتزج المضحك بالمبكي في هذه الرواية ذات المستوى الرفيع، والتي تقدّم في الوقت نفسه رسماً ذكياً وجديداً للواقع الأرجنتيني.